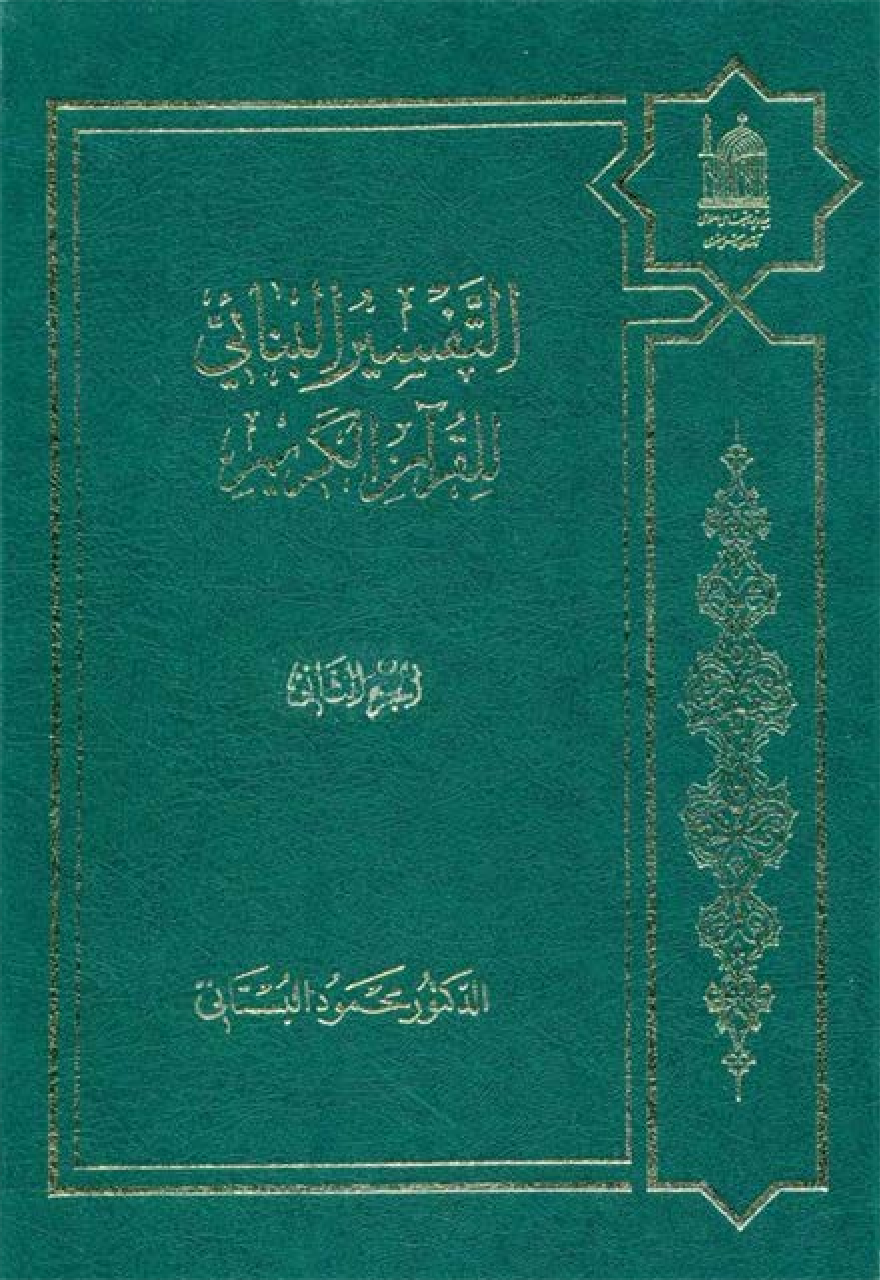
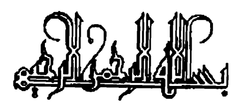

التفسير البنائي
للقرآن الكريم
الجزء الثاني
الدكتور محمود البستاني



التفسير البنائي للقرآن الكريم

الجزء الثاني



تأليف

الدكتور محمود البستاني

بستاني، محمود، ۱۳۱٦ ـ
التفسير البنائي للقرآن الكريم / محمود البستاني. ـ مشهد: مجمع البحوث الاسلاميّة، ۱٤۲۲ق. = ۱۳۸۰ ش.
٥ ج. . (دوره) ISBN 5 Vol set 964-444-359-4
فهرستنويسى بر اساس اطلاعات فيپا. (ج. ۲) ISBN 964-444-441-8
عربى
كتابنامه
۱. تفاسير شيعه ـ ـ قرن ۱٤. ۲.قرآن ـ ـ مسائل ادبى. الف. بنياد پژوهشهاى اسلامى. ب.عنوان
۷ ت ٥ ب / BP ۹۸ ۲۹۷/۱۷۲
كتابخانه ملّى ايران ۱۸۲۹۰ ـ ۷۹م



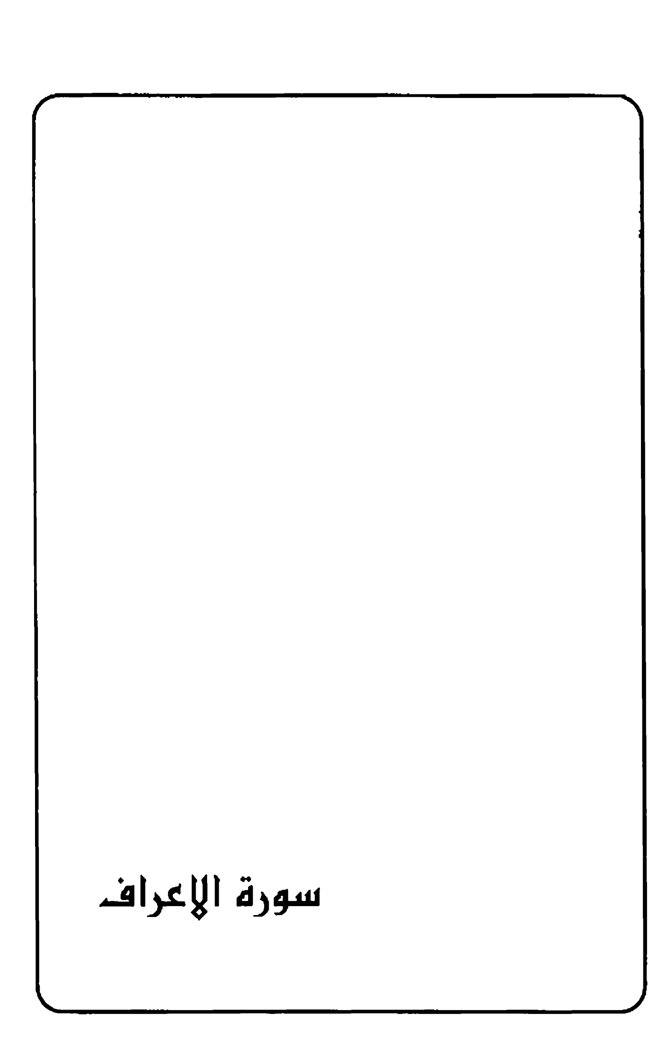
التفسير البنائيّ للقرآن الكريم

الجزء الثاني

الدكتور محمود البستانيّ

الطبعة الاولى: ۱٤۲۲ق. / ۱۳۸۰ش
۱٥۰۰ نسخة
الطباعة: مؤسّسة الطبع التابعة للآستانة الرضويّة المقدّسة
الثمن ۲۲۰۰۰ ريال

مشهد ـ ص. ب ۳٦٦ ـ ۹۱۷۳٥ الهاتف ٥ ـ ۸۲۱۰۳۳ـ E-mail: islreafn@emamreza.net
مركز التوزيع: شركة بهنشر، المكتب المركزي: مشهد، الهاتف ۷ ـ ۸٥۱۱۱۳٦، الفاكس ۹۷٥۲۰



سورة الأعراف

بدأت سورة الأعراف علىٰ هذا النحو: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿المص * كتاب أُنزل إليك فلا يكن في صدرك حرجٌ منه لِتُنذر بِهِ وذكرىٰ للمؤمنين * اتَّبِعُوا ما أُنْزِلَ إليكم من ربِّكُم ولا تتبعوا مِنْ دونِه أولياءَ قليلاً ما تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١ ـ ٣].

الأفكار المطروحة في هذه المقدمة تتمثّل في عمليتين: إحداهما تتصل بشخصية المبلّغ وهي: الالتزام بعملية التبليغ دون أي إحراج، لتقوم الحجةُ به علىٰ الآخرين، في حالة عدم التزامهم بذلك، وليكون نموذجاً للمؤمن يفيد منه في سلوكه العبادي.

أما العملية الأخرىٰ فتتصل بالأشخاص المُبلغين، حيث طالبهم النصُّ بأن يلتزموا بمبادىء الله وحذّرهم من أن يتخذوا دونه وليّاً، ثم عقّب علىٰ هذا التحذير بقوله ﴿قليلاً ما تَذَكَّرُون﴾ أي: أن القلة من الناس هم الذي يسترشدون بذلك أو أن الإفادة من ذلك: لقليلة.

إذن، من خلال هذه الأفكار المطروحة يمكننا أن نتابع السورة الكريمة لنجد كيفيّة تنامي هذه الأفكار فنيّاً من حيث انعكاساتها على موضوعات السورة.

فلنتابع: ﴿وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسُنا بيَاتاً أو هم قائلون * فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنّا كنا ظالمين﴾ [الأعراف: ٤ ـ ٥].

وهذا هو أوّل حادث يعرضه النص بالنسبة إلىٰ الجزاء الدنيوي المترتّب علىٰ عدم الالتزام بمبادىء الله، وهو الإبادة الشاملة للمنحرفين، ثم ردّ فعلهم حيال ذلك حيث يقرّون (إنا كنا ظالمين)، حيث نستخلص من هذا العرض

المُجمل للجزاء الدنيوي أن الانحراف سوف يقرّ به أصحابه، لكن بعد فوات الأوان، وهو أمرٌ يعمّق من قناعة المتلقي بأحقيّة رسالة السماء وبطلان ما سواها مما يدفعه إلىٰ ممارسة الوظيفة التي أُوكلت إليه.

بيد أن النص لا يكتفي بعرض الجزاء الدنيوي (وهو جزاء حسّي وقَعَ فعلاً) بل يردفه بعرض الجزاء الأخروي أيضاً لتتعمّق القناعةُ بحادثٍ لم يقع بعد أن مُهّدَ له بالحادثِ الحسّي المذكور، فقال: ﴿فلنسألنّ الذين أرسِل إليهم ولنسألنّ المرسلين * فلنقصّنّ عليهم بعلمٍ وما كنا غائبين * والوزنُ يومئذٍ الحقُّ فمن ثَقُلَت موازينهُ فأولئك هم المفحلون * ومن خفَّت موازينهُ فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون﴾ [الأعراف: ٦ ـ ٩]. فهنا عرض للجزاء الأخروي أيضاً بما في ذلِكَ قضيةُ المحاسَبَة لكلٍ من المبلِّغ والمبلَّغ. فبما أنَّ النَّصَ استهل السورة بضرورةِ التبليغِ وعدم الحَرَجِ منه لسببٍ وآخر، حينئذٍ جاء السؤالُ بالنّسبة إلى المبلِّغِ ﴿ولنسألن المرسلين﴾ في اليوم الآخر متجانِساً فنيّاً مع مطالبتِهِ في الحياةِ الدنيا بممارسة التبليغ. كما أنَّ السؤالَ بالنسبةِ إلىٰ المبلّغين ﴿فلنسألن الذين أرسِل إليهم﴾ يظل متجانِساً مع مطالبتِهِ ـ في مقدمةِ السورة ـ باتباع ما أُنزل إليهم.

بعد هذا التمهيد الذي طالَب المبلّغين بإيصالِ أصواتهم إلى الآخرين دون حرج وبعد التلويح للآخرين بالجزاءات الدنيوية والأخروية التي تترتّب علىٰ الالتزام بالمطالبة المذكورة أو عدمه. بعد ذلك يتقدَّمُ النصُ بطرح أفكار متنوعة تتنامىٰ من خلالِها ما سَبَقَ أن طَرَحَهُ النَّصُ في المقدمةِ، وما أجملَهُ من الجزاءات، فيتقدمُ أولاً إلىٰ عَرْضِ البيئة الدنيوية التي أتاحها الله للإنسان بخاصةٍ ما يتصلُ بالمعائش بصفتها الوسائل التي يتوكأُ عليها في ممارسة عمله العبادي.

يقول النص: ﴿ولقد مكّناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلاً ما

تشكرون﴾ [الأعراف: ١٠]. هنا ينبغي أن نتذكّر بأن النص ذَكَرَ في مقدمة السورة التي طالب فيها باتباع ما أُنزل من الله وعدم اتّباع سواه بأن الناس قليلاً ما يتذكرون. وها هو الآن في حديثه، من أنّ الله مكّن الآدميين في الأرض وجعَلَ لهم فيها معائش قد عقّب عليه بنفس الدلالة قائلاً: ﴿قليلاً ما تشكرون﴾. فكما أنّ الآدميين قليلاً ما يتذكّرون بالنسبة إلىٰ الالتزام بمبادىء الله كذلك فإنهم قليلاً ما يشكرون نعمَ الله وهي (المعائش) التي أتاحها الله للناس في الأرض.

هذا يعني أن النص ونحن نتحدث عن بنائِهِ الفنّي المُتلاحِم قد قابَلَ بين هاتين المفردتين من السلوك (قلّة التذكّر) و(قلة الشكر) في موضوعين مختلفين، إلا أنّهُما يَصُبّانِ في رافدٍ فكري موحَّدٍ، ومن ثمّ فإن هذا سوف ينعكس بدورِهِ علىٰ وقائع ومواقف لاحقة من السورة (بالنحو الذي سنتحدث عنه لاحقاً إن شاء الله..).

* * *

قال تعالى: ﴿ولقد خلقناكم ثم صوّرناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس لم يكن من الساجدين﴾ [الأعراف: ١١].

في هذا المقطع عرضٌ قصصي لنشأة الكائن البشري وتحديد وظيفته، وأهمية هذا العرض القصصي تتمثل ـ من زاوية عمارة السورة ـ في كونه يتحدث عن الكائن الآدمي من حيث كونه قد مهّد له في بداية السورة بضرورة التبليغ لرسالة الله، فقد لحظنا أن بداية السورة خاطبت النبيّ(ص) قائلة: ﴿كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتُنذر به وذكرىٰ للمؤمنين﴾ [الأعراف: ٢]. وها هي عملية التبليغ وإيصالها إلى الآخرين ثم موقف الآخرين منها حيث خاطبتهم البداية قائلة: ﴿اتبعوا ما أنزِل إليكم﴾ [الأعراف: ٣]. ها هي عملية المبلّغ والمبلَّغ تأخذ الآن صورة تفصيلية من خلال الحديث

عن نشأة الكائن الآدمي وتحديد وظيفته.

وأول ما يطالعنا في هذا الصدد هو أن المقطع أكسب العنصر الآدميّ خطورة في غاية الأهمية هي مطالبة الله للملائكة بأن يسجدوا لآدم. فعملية السجود تعبير واضحٌ عن خطورة الكائن الآدمي: مما تعني خطورة الوظيفة العبادية التي أوكلت به.

وبعد أن أوضح النصُ قيمة الكائن الآدمي ـ من حيث صلتها بعملية التبليغ التي عرضتها مقدمة السورة. يتقدم النص بعرض قصصي لإبليس من حيث كونه قد امتنع عن السجود خلافاً للملائكة، موضحاً سبب امتناعه عن ذلك من خلال الحوار الآتي:

﴿قال ما منعك ألاّ تَسْجُدَ إذْ أَمَرْتُكَ قال أنا خيرٌ منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾ [الأعراف: ١٢].

إن هذا الحوار له صلة فنية ببناء السورة التي طرحت مقدمتُها قضية التبليغ، وطرحت في الوقت نفسه قضيّة أنّ الناس (قليلاً ما يتذكرون) (قليلاً ما يشكرون)، بمعنىٰ أن عنصر(المعصية) يبدأ من شخصية(إبليس) بحيث تقع الغالبيةُ تحت تأثيره إلا القليل. هذه الدلالة سوف تتضح تماماً حينما نواصل متابعة القصة. لكننا الآن حسبنا أن نشير إلى أن امتناع إبليس من السجود ينطوي علىٰ دلالة ستنعكس أصداؤها علىٰ مجموع السورة، كما أنها ـ في هذا المقطع الجزئي ـ تنطوي علىٰ دلالة يوحي بها النص وهي: قضية (التكبّر) من خلال التمسك بالأصل، حيث امتنع إبليس عن السجود لمجرد كونه ينتسب إلى (النار) وإلى إنّ (آدم) ينتسب إلىٰ الطين.

والآن بعد أن نفهم هذه الدلالة، يتقدم النص إلىٰ النتائج المترتبة علىٰ عملية الامتناع وانعكاساتها ـ من ثم ـ علىٰ مجمل السلوك البشري الذي قالت عنه مقدمة السورة بأنه (قليلاً ما يتذكر) و(قليلاً ما يشكر).

إذاً، فلنتابع القصة: **﴿قال فاهبِطْ منها فما يكونُ لكَ أنْ تتكبَّرَ فيها فأخرج إنك من الصاغرين﴾** [الأعراف: ١٣].

إن إشارة المقطع إلى أن (الشيطان) من (الصاغرين) هو جواب فني مقابل كونه من المتكبرين. لنلاحظ ـ للمرة الجديدة ـ هذا التقابل بين(التكبر) الذي منع الشيطان من السجود وبين (الذل) الذي لحقه، أي: أن النتيجة كانت علىٰ الضد تماماً من الباعث علىٰ التكبر، فإذا كان الامتناع عن السجود ينطلق من دافع (التكبّر) فإن (الذل) وهو ضد التكبر سوف يلحق الشخصية المتكبّرة.

إذاً، كم كان المقطع مُحكماً فنياً حينما رتب أثراً مضاداً للتكبر وهو الذلّ حتى يتحسس الآدميون بأنّ (المعصية) تفضي إلى نتائج مضادة للدافع إلى (المعصية)، وهو أمرٌ له أهميته الكبيرة في ميدان السلوك وتعديلاته.

والآن، لنتابع الحوار.

﴿قال أنْظِرْني إلىٰ يوم يُبْعَثُونَ * قال إنَّكَ مِنَ المُنْظَرينَ * قال فبما أغوَيْتَني لأقْعُدَنَّ لهم صِراطَكَ المُسْتَقيمَ * ثُمَّ لآتِيَنَّهُم من بيْنِ أيدِيهِمْ ومِنْ خَلْفِهِم وعَنْ أيمانِهِمْ وعَنْ شَمائِلِهِمْ ولا تَجِدُ أكْثَرَهُمْ شاكرين * قال اخرُجْ مِنها مَذْءُوماً مدحوراً لَمَنْ تَبِعَكَ مِنهم لأمْلأنَّ جَهَنَّمَ مِنكم أجمعين﴾ [الأعراف: ١٤ ـ ١٨].

لنتذكّر ـ ونحن نتحدث عن البناء الفنّي للسورة ـ أن مقدمتها قالت عن الآدميين بأنهم (قليلاً ما يشكرون) وها هو المقطع الذي ينقل لنا محاورة إبليس من خلال قوله: **﴿ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾**. ها هو المقطع يلتقط من إبليس هذه العبارة لكي تتجانس مع مقدمة السورة، مقدمة السورة تقول: **﴿قليلاً ما تشكرون﴾**، ووسط السورة يقول: **﴿ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾**. إذاً، هناك تجانس أو تلاحُم عضوي تتواشج من خلاله موضوعات السورة بهذا النحو الذي أوضحناه.

المهم، أن المحاورة المذكورة سوف تنعكس أصداؤها علىٰ المواقف

والأحداث اللاحقة المتصلة بتجربة الإنسان، وهو ما نبدأ بتوضيحه لاحقاً.

* * *

قال تعالى: ﴿وَيا آدَمُ اسكُن أنتَ وزوجُك الجنةَ فكُلا من حيثُ شِئتما ولا تَقْرَبَا هذِهِ الشجرةَ فتكونا مِنَ الظالمينِ * فوسوس لهما الشيطانُ ليُبدِيَ لهما ما ووريَ عنهما مِنْ سَوْآتِهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذِهِ الشجرة إلاّ أَنْ تكونا مَلَكينِ أو تكونا مِنَ الخالِدِينَ * وقاسَمَهُما إنّي لكما لَمِنَ الناصحين * فدلاّهما بغرورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشجرةَ بَدَتْ لهما سَوْآتُهُما وَطفِقَا يَخصِفَان عليهما مِنْ وَرَقِ الجنة ونَادَاهُما رَبُّهما أَلَمْ أنهَكُمَا عَنْ تِلْكُما الشجرةِ وأَقُلْ لكما إنَّ الشيطانَ لكما عدوٌّ مبين﴾ [الأعراف: ١٩ ـ ٢٢].

هذا هو القسم الثاني من قصة الميلاد البشري، حيث كان القسم الأول من القصة يتحدث عن امتناع الشيطان من السجود لآدم وانعكاسات ذلك علىٰ شخصية الشيطان.

وها هو القسم الجديد من القصة يلقي إنارةً علىٰ قسمها الأول حينما يرتّب الآثار علىٰ سلوك إبليس. وها هي أولىٰ تحركاته السوداء حيث ألقىٰ الشبهة علىٰ آدم وحواء (بعد أن أبلغا بعدم الاقتراب من الشجرة) فاغترّا بيمينه ـ وهما يستبعدان أن يكذب أحد علىٰ الله تعالى ـ فذاقا الشجرة.

هذه هي ـ إذاً ـ أول معصية من الشيطان يمارسها حيال العنصر البشري تبعاً لما أَخَذَهُ على نفسه من الحجج باغواء الآخرين: في القسم الأول من القصة.

لكن، ما هي الانعكاسات المترتبة علىٰ خديعة إبليس لآدم وحواء؟.

القسم الثالث من القصة يتكفل بسرد ذلك، فلنقرأ رد الفعل من آدم

وحواء ﴿قالا ربنا ظلمنا أنفُسَنا وإنْ لم تغفِرْ لنا وتَرْحَمْنا لَنكُونَن من الخاسرين﴾ [الأعراف: ٢٣].

ترتب على ذلك، ان الله تعالى: ﴿قال اهبِطُوا بعضُكم لِبَعْضٍ عدوٌ ولكم في الأرضِ مُستَقَرّ ومَتاع إلى حين * قال فيها تَحْيَونَ وفيها تَموتُون ومِنْها تخْرجُون﴾ [الأعراف: ٢٤ ـ ٢٥].

إذاً، القسم الثالث من القصة صاغ حقيقة التجربة البشرية وموقعها من التحرّك في الأرض.

الحقيقة هي: أن (العدوان) سوف يطبع السلوك الآدمي ﴿بعضكم لبعض عدو﴾، وان الأرض أو الحياة الدنيا مرحلة خاصة تمتد إلىٰ حين من الزمان ثم يعقبها الموت، ثم الانبعاث ﴿وفيها تموتون ومنها تخرجون﴾.

هذه الحقائق المتصلة بالتجربة البشرية صاغها النصُ من خلال العنصر القصصي: بدلاً من مجرد الإخبار.

والمهمّ بعد ذلك، أن نتوقع رسماً للمبادىء التي ينبغي أن يتعامل الآدميون من خلالها بعد أن يكون الشيطان قد اختط لسلوكه: إضلال الآدميين.

يقول النص في مقطع جديد من السورة الكريمة: ﴿يا بني آدم قَدْ أنْزَلْنا عليكم لِباساً يُواري سوآتِكُمْ ورِيشاً ولِباسُ التقوىٰ ذلك خير ذٰلِكَ مِن آياتِ الله لعلهم يَذكَّرُون﴾. لا نغفل، إن مقدمة سورة الأعراف، طرحت المقولة المخاطبة للإنسان ﴿قليلاً ما تَذَكَّرُون﴾، وها هو النص الآن يربط بين هذه المقولة وبين مقولة جديدة هي ﴿لعلّهم يذكرون﴾، انه طرح علىٰ الآدميين مقوّمات البيئة التي ينبغي أن يكيّفوا أنفسهم حيالها، فهيّأ لهم ما يحتاجون إليه من لباس وأثاث ونحوهما، مضافاً إلىٰ(التقوىٰ) التي هي(خيرٌ) كما عبّر النصُّ عن ذلك.

هذا يعني أن النص القرآني الكريم قد أوضح للآدميين ما ينبغي أن يختطوه لأنفسهم حينما أشار إلىٰ البيئة التي يتحرك الإنسان من خلالها والمقوّمات التي أتاحتها السماء في هذا الميدان. إلا أن النص، عقب علىٰ ذلك بأنه﴿لعلهم يذكّرون﴾. مما يعني: أن هناك تحفّظاً حيال ما سوف يسلكه الإنسان من ممارسات، وإلى أنها ـ أي الممارسات ـ لن تأخذ الوجهة المطلوبة من السلوك، بخاصة أن مقدمة السورة أشارت إلىٰ ذلك بقولها: ﴿قليلاً ما تذكّرون﴾ وأن القصة أشارت بدورها إلى (العدوان)، فضلاً عن تبجّح إبليس القائل من خلال الحوار المنقول عنه: ﴿ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾.

كلّ هذه المواقف المتشابكة أو المتجانسة(وهي ذات سمة فنيّة من حيث عمارة السورة) توحي بأن التجربة الآدمية التي ستواجه المحيط الجديد سوف تكتسب عند غالبية الناس سمة السلب، وهو ما حذّر النص منه حينما عقّب علىٰ القصة المذكورة بقوله مخاطباً الناس: ﴿يا بني آدم لا يَفْتِنَنَّكُم الشيطانُ كما أَخْرَجَ أَبَوَيكُم مِنَ الجنةِ يَنْزِعُ عنهما لِباسَهُما لِيُرِيهُما سَوآتِهِما إِنَّهُ يُراكُم هو وقَبيلُهُ مِنْ حيثُ لا تَرونَهُم إنّا جعلنا الشياطينَ أولياءَ للذينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧]. في هذا التعقيب جملة من الدلالات. أولاً: ثمة حقائق طرحها النص مثل: كون الشيطان غير مرئي، بل يتجسّد في أفكار سوداء تغمر الشخص، مضافاً إلى كونه ذا قبيل، أي: قوىٰ أخرىٰ يستعين بها الشيطان في مهمته السوداء. ثانياً: ثمة حقيقة أخرىٰ هي: إن اغواء الشيطان سوف ينحصر في الذين لا يؤمنون، علماً بأن مقدمة السورة حذّرت أيضاً دون أن تحدّد الجهة: (ولا تتبعوا من دونه ـ أي الله ـ أولياء)، بينا أوضحتها الآن حينما حددت ذلك متمثلةً في الشيطان وقبيله.

إذاً، أمكننا الآن أن نتعرف جانباً من البناء الهندسي للسورة، كما أمكننا أن نتعرف جانباً من الحقائق المتصلة بسلوك الشيطان حيال الآدميين من حيث

كونه يتجسّد في (أفكار) وليس في وجود حسّي، ومن حيث كونه لا يمتلك فاعلية إلا في نطاق الأشخاص غير المؤمنين.

* * *

قال تعالىٰ: ﴿وإذا فعلوا فاحشةً قالوا وَجَدْنا عليها آباءَنا والله أَمَرَنا بها قل إن الله لا يأمُرُ بالفحشاءِ أتقولون علىٰ الله ما لا تعلمون * قل أمَرَ ربّي بالقسطِ وأقيمُوا وُجُوهَكم عند كلِّ مسجدٍ وادعوهُ مخلصين له الدينَ كما بَدَأكم تَعُودون * فريقاً هدىٰ وفريقاً حقَّ عليهم الضلالة إنهُمُ اتخذوا الشياطينَ أولياءَ من دونِ الله ويَحسبون أنّهم مُهتدون﴾ [الأعراف: ٢٨ ـ ٣٠].

في هذا المقطع من السورة: جملة من الدلالات الفكرية تظل مرتبطة بالهيكل الفكري العام للسورة، فالسورة منذ بدايتها تطالب باتباع ما أنزل الله وعدم اتخاذ الأولياء من دونه. وها هو المقطع يؤكد هذا الجانب من جديد لكن في سياق آخر. أنه يتحدث عن فريق من الناس ﴿اتخذوا الشياطين أولياءَ من دون الله﴾ علماً بأن المقطع الأسبق من السورة ارتكن إلىٰ قصة إبليس وإضلاله الآخرين، كما أنه حذّر منه قائلاً: ﴿إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾ [الأعراف: ٢٧].

إذاً، قضية اتخاذ المنحرفين الشيطان وليّاً لهم تظل متكررة في أكثر من مقطع، تعبيراً عن التلاحم الفنيّ بينها من حيث خضوع المقاطع لدلالات عامة يشدّد النص عليها تحقيقاً لهدف فكري خاص في هذا الميدان.

وقد طرح المقطع أيضاً، دلالة فكرية أخرىٰ عند المنحرفين وهي سلوك خاص كانوا يمارسونه في الطواف بنحوٍ غير لائق أخلاقياً، قائلين بأنهم وجدوا آباءهم يمارسون ذلك وأن الله أمرهم به. حيث ردّ النص القرآني عليهم بأن الله لا يأمر بالقبيح من الأعمال، بل أنه يأمر بالقسط.

إن التشددّ علىٰ عرض هذه المفردة من سلوك المنحرفين، إنما هو تعبيرٌ

عن خطورتها دون أدنىٰ شك، كما أن النص ـ وفقاً لأيّ شكل فنيّ ـ لا بدّ أن يطرح جملة من الأفكار ضمن الخط الفكري العام للسورة، فهو عندما يعرض لأحد مظاهر الطواف حول الكعبة إنما يمنح الكعبة أهميةً خاصة في الممارسات العبادية، كما أنه يمنح المساجد بعامة أهمية خاصة بصفتها محالاً للتوجّه إليه، لذلك عقّب علىٰ السلوك الجاهلي الذي أشرنا إليه، عقّب علىٰ ذلك: مخاطباً المؤمنين: ﴿**وأقيموا وجوهَكم عند كلِ مسجد**﴾ ثمّ عرّج علىٰ قضية طَرحَها في المقدمة من السورة، كما طرحها ضمن قصة آدم وحواء ونزولهما إلى الأرض وهي قوله: ﴿**فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون**﴾ أي: الخروج من الأجداث عند القيامة، حيث عرّج علىٰ هذا الجانب من جديد حينما أضاف قائلاً: ﴿**وادعوهُ مخلصين له الدينَ كما بدأكم تعودون**﴾.

وهذا يعني أن النص يُعنىٰ بالخط الفكري العام للسورة، يظل حائماً عليه من حين لآخر ولكن في سياقات جديدة يستهدف توصيلها إلى المتلقي.

وأياً كان الأمر، فإن المقطع الذي نتحدث عنه، طَرحَ ـ في جملة ما طرحه ـ قضية المسجد ﴿**وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد**﴾، وواصل الحديث عنه في مقطع جديد عندما قال: ﴿**خُذُوا زينتكم عند كلِ مسجد**﴾ والزينة هنا هي دلالة فكرية جديدة، وسواء أكانت تعني لبس الجيّد من الثياب في المسجد، أم ترمز إلى الستر من الألبسة، خلافاً لما قلناه من أن الجاهليين كانوا لا يتسترون في ألبستهم عند الطواف، مدّعين أنهم وجدوا آباءهم على ذلك وأن الله أمرهم به، ففي الحالين يمكننا أن نتبين الموقع الهندسي لهذه المطالبة بالزينة، فإذا كانت الزينة يُقصد بها (الستر) من الملابس فهذا إما يتجانس فنياً مع المقطع الأسبق الذي تحدث عن عدم الستر عند الجاهليّين في طوافهم، وامّا إذا قُصِد بالزينة لبس الجيّد من الثياب، فهذا يعني أن النص يستهدف طرح دلالة فكرية جديدة هي: إباحة الزينة بل ندبيّتها بالنسبة إلى

الصلاة وهو أمرٌ يتجانس فنياً مع ما يطرحه النصُ لاحقاً من قضية تتصل بالطيبات وموقعها من الإباحة.

يقول النص: ﴿**خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين**﴾ [الأعراف: ٣١]. فالنص هنا ربط بين الزينة وبين (الأكل والشرب) بصفتهما يخضعان لإمكانية الأكل والشرب بقدر الحاجة، والأكل والشرب على نحو الزائد علىٰ الحاجة، فهو أباح قضية الطعام والشراب، لكن منع من الإسراف فيهما، لاعتبارات نفسية وبدنية. أمّا البدنيّة فمن الوضوح بمكان ما دمنا نعرف أن غالبية الأمراض ترتبط بالإسراف في الأكل والشرب، وأما الاعتبارات النفسية فمن الواضح أيضاً أن العناية الزائدة بالأكل والشرب تنأى بالشخص عن الصفاء والشفافية وتدعه معنياً بذاته وبإشباعاتها فحسب، كما أن النصوص الواردة عن أهل البيت(ع) طالما أشارت إلى أن الله يبغض المعنيّين ببطونهم وأنهم أبعد ما يكونون عن الله تعالى.

والمهم، أن النص طرح في تضاعيف الخط الفكري العام للسورة، أفكاراً ثانوية جديدة منها: قضية الزينة عند الصلاة، ومنها قضية الاعتدال في الأكل والشرب، كما أنه سوف يطرح فكرة عامة عن مفهوم(الزينة) وموقف المشرّع الإسلامي منها (بالنحو الذي سنتحدث عنه لاحقاً).

* * *

قال تعالى: ﴿**قل مَن حرّمَ زينةَ الله التي أخرجَ لعبادِهِ والطيّبات من الرزقِ قل هي للذين آمنوا في الحياةِ الدنيا خالصةً يومَ القيامةِ كذلك نفصلُ الآيات لقومٍ يعلمون * قل إنّما حرّم ربي الفواحشَ ما ظَهَر منها وما بطَنَ والإثمَ والبغيَ بغيرِ الحقِ وأنْ تُشرِكُوا بالله ما لم يُنَزِّلْ به سُلطاناً وأنْ تقُولُوا علىٰ الله ما لا تعلمون**﴾ [الأعراف: ٣٢ ـ ٣٣].

هذا المقطع من السورة امتدادٌ لمقطع سابق كان يتحدث عن الزينة عند كل مسجد، وعن الأكل والشرب بغير إسراف. وها هو الآن يحدثنا عن مبدأ عام في المباحات المتصلة بالملبس والمأكل. ومن الواضح أن هناك حاجات ثانوية مثل الملبس (من حيث كونه زينةً) والمأكل (من حيث كونه طيّباً) لم يحرمها الله بقدر ما قدم توصيات حيالها تطالب بعدم الإسراف فيها أو بعدم التهافت عليها، وهو أمرٌ لا يضادّ اتخاذهما زينةً وطيّبات تحقق إشباعاً خاصاً للشخصية، فالحاسة الذوقية الجمالية إلىٰ تذوّق الطيب من الأكل وانتخاب الجميل من الثياب سمح المشرّع الإسلامي بإشباعها في الحدود التي لا يترتب ضرر عليها، كما لو أسرف من ذلك مثلاً، والمهمّ أن من معطيات الله علىٰ المؤمنين أن أباح لهم هذا الحجم من الطيبات في الدنيا، وأضاف إلى ذلك تدفّقها يوم القيامة عليهم خالصةً، بعكس الشخصية الكافرة التي تنعم بطيّبات الله في نطاق الحياة العابرة فحسب. والمهم أيضاً، أن المقطع بعد أن أوضح ظاهرة الإباحة في التنعّم بمعطيات الله من ملبس ومأكل، بدأ يوضح المحرّم من السلوك حيث سرد لنا جملة من المحظورات، تأكيداً عليها مثل: ﴿**إنما حرّم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم و البغى بغير الحق و أن تُشركوا بالله ما لم يُنزّل به سلطاناً و أن تقولُوا على الله ما لا تعلمون...**﴾ [الاعراف: ٣٣].

واضح، أن سرد هذه النماذج لا يعني (الحصر) بل يطرحها النص في تضاعيف حديثه عن بعض المباح والمحظور كما هو دأبه الفنّي في نصوص القرآن الكريم.

وأياً كان، فإن طرح هذه الظاهرة جاء في سياق التجربة الآدمية علىٰ الأرض حيث بدأ النص يتحدث عن نزول آدم وحواء إلى الأرض وموقع الشيطان من ذلك، وتحذير الآدميين منه، وتذكيرهم بما هيأته السماء للآدميين من مقوّمات البيئة التي تواجههم. وخلال حديثه عن البيئة الآدمية: يطرح

النص بين حين وآخر مجموعة من المبادىء التي ينبغي الالتزام بها في غمرة الوظيفة العبادية الموكلة إلىٰ الآدميين، كما يطرح مجموعة من الحقائق المتصلة بالكون، والمصائر البشرية، وغيرها. لذلك، ما أن انتهىٰ النص من حديثه عن الطيّبات في الرزق وغيره، حتىٰ بدأ يطرح واحدة من الظواهر الاجتماعية وهي قوله تعالى: ﴿ولكلّ أمّةٍ أجلٌ فإذا جاء أجَلُهُم لا يَستأخِرون ساعةً ولا يستقدمون﴾ [الأعراف: ٣٤]. هنا يتحدث النص عن مبدأ اجتماعي وليس عن مبدأ فردي، المبدأ الاجتماعي هو: أن كل مجتمع من المجتمعات البشرية محدود بأجل معيّن لا يستأخر عنه ولا يستقدم. وأهميّة هذا الأجل هو استثماره للممارسة العبادية دون أدنىٰ شك. لذلك عقّب النص علىٰ المبدأ المذكور بقوله متحدثاً عن صلة ذلك برُسُل الله الذين أرسلتهم السماء لممارسة وظيفتهم الإصلاحية:

﴿يا بني آدَم إمّا يأتينكُمْ رُسُلٌ منكم يَقصّون عليكم آياتي فمن اتقّى وأصلَحَ فلا خوفٌ عليهم ولا هُم يحزنون * والذين كذّبوا بآياتِنا واستكبرُوا عنها أولئك أصحابُ النارِ هم فيها خالدون﴾ [الأعراف: ٣٥ ـ ٣٦]. إذاً، نستخلص من هذا أنّ المقطع استهدف من ذكر الأجل الاجتماعي لكلّ أمّة من أنه محدود بمساحة زمنية معينة، استهدف استثمار ذلك من خلال الإفادة من تعليمات الرُسل الذين أرسلهم الله لهذا الهدف العبادي، مبشراً المؤمنين بأنه لا خوف عليهم و لا هم يحزنون في اليوم الآخر، بعكس المكذّبين الذين سيلحقهم الجزاء السلبي.

وقد عقّب النص علىٰ المكذبين، بهذا النحو الذي نستكشف من خلاله أنهم كانوا يتخذون غير الله أولياء لهم: ﴿حتى إذا جاءَتهُمْ رُسُلُنا يَتوَفَّوْنَهُمْ قالُوا أينَ ما كُنتُم تدعُون من دُونِ الله قالُوا ضَلّوا عنا وشَهِدُوا علىٰ أنفسهم أنهم كانوا كافرين﴾ [الأعراف: ٣٧]. إن هذا المقطع يتضمن عدة دلالات فنية، منها: ما

يتصل بالجانب الهندسي من السورة، حيث لحظنا أن مقدمة السورة ووسطها قد شدّد على قضية التوحيد وحذّر من اتخاذ ما دون الله أولياء **﴿ولا تتبعوا من دونه أولياء﴾** [الأعراف: ٣] **﴿إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾** [الأعراف: ٢٧]. وها هو الآن: يقصّ علينا أحد مواقف الموت أو اليوم الآخر حيث يخاطب الملائكة أولئك المكذّبين: **﴿قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله﴾** فيجيب المكذّبون: **﴿قالوا ضلّوا عنا﴾** أي لا أثر لهم أمامنا الآن. وهذا يعني - من الزاوية الفنية - من خلال إيحاءٍ غير مباشرٍ، بأنّ اتخاذ ما دون الله وليّاً سوف لن يعود بأية فائدة للمنحرفين عند مواجهتهم اللحظة الحاسمة، كما أنه يشكّل تفصيلاً لما أجملته المقدمة والوسط حينما طالبتا بعدم اتخاذ ما دون الله وليّاً حيث جاء الجواب بأنّ اتخاذ ذلك سوف ينعكس علىٰ المصائر الأخروية بالنحو الذي أشرنا إليه.

* * *

قال تعالى: **﴿قال ادخلوا في أممٍ قد خَلَتْ من قَبلِكُمْ من الجِنِّ والإنسِ في النارِ كُلّما دَخَلَتْ أمةٌ لعنت أُختَها حتىٰ إذا ادّاركوا فيها جميعاً قالت أُخراهم لأُولاهُم ربَّنا هؤلاء أضلّونا فآتِهِم عذاباً ضعفاً من النار قال لكلٍّ ضعفٌ ولكن لا تعلمون * وقالت أُولاهُم لأُخراهُم فما كان لكُمْ علينا من فضلٍ فذُوقوا العذاب بما كنتم تكسبون﴾** [الأعراف: ٣٨ - ٣٩].

هذا المقطع امتداد لمقطع سابق كان يتحدث عن مبدأ اجتماعي هو: أنّ لكل أمّة أجلاً وانّ الرسل جاءتهم بالبيّنات. هنا، ينقل النصُّ لنا بيئة خاصة من اليوم الآخر فيقصّ لنا حكاية أو أقصوصة عن البيئة المذكورة مما تتصل بموقف المكذّبين للرسل. إن هذا القص يتميّز بكونه مُدهشاً من الزاوية الفنية، فهو يقتطع شريحة من الزمن ويفصلها عن تسلسلها الموضوعي الذي كان يتحدث فيه عن أجلِ كل أمّة، وينقلها إلى زمانٍ لاحق (لم يحدث بعد) موضحاً ذلك

من خلال الحوار القصصي الآتي:

﴿قال: ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار...﴾، المتحدّث هنا هو (الله تعالى)، فيقول لهذا المجتمع المكذّب برسالة الإسلام: ادخل أيها المجتمع المنحرف في النار مع أمم سالفة من الجن والإنس. فهنا نواجه منحىً فنياً في غاية الأهمية، المنحىٰ الفني هو أن الله يعرض خلال محاورته مع المكذبين، يعرض حقائق كونية أخرىٰ هي: أن مجتمعات من (الجن) أيضاً سوف تواجه نفس المصير الكسيح الذي يواجهه مكذّبو الإنس.

بعد ذلك، ينقل لنا المقطع حقائق عن هذه المجتمعات (من الجن والإنس)، فهذه المجتمعات ـ يقول عنها النص **﴿كلما دخلت أمةٌ لعنت أختها﴾** أي: أن كل مجتمع منحرف عندما يدخل النار، يلعن المجتمع الذي سبقه إلى النار بصفته مجتمعاً يشاركه في الانحراف، وسبب اللعن هو أن المنحرف ينتبه في ذلك الموقف علىٰ خطاياه فيمتلكه الأسىٰ والندم والتمزّق، ويجد نفسه تلقائياً مشحوناً بعواطف الكراهية حيال أي مجتمع يشاركه في الانحراف، نظراً للهول الذي يواجهه آنئذٍ.

المهم، إن هذا المرأى أو المشهد الذي نقله النص من أنّ كل أمة تلعن أختها عند دخولها النار، قد تابع عرضهُ قائلاً: **﴿حتى إذا اداركوا فيها جميعاً﴾** أي: عندما تجتمع كل الأمم المنحرفة في النار، حينئذٍ سوف تتكون لديهم ـ من خلال الإيحاء الجمعي ـ انطباعاتٌ جماعية يستوحونها من التجمّع المنحرف المذكور. هذه الانطباعات أو الاستجابات أو ردود الفعل تتمثل في الحوار الآتي بينهم: **﴿قالت أُخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار﴾** وهذا ما يقوله الاتباع الذين انقادوا لرؤسائهم فيجيبهم الله **﴿لكلٍّ ضعفٌ ولكن لا تعلمون﴾**. فالاتباع من شدة انفعالاتهم بالموقف المدمر

الذي واجهوه، يخاطبون الله قائلين: إن هؤلاء الرؤساء الذين اتبعناهم قد أضّلونا، فضاعف اللهم عليهم العذاب!! فيجيبهم الله: لكلٍ ضعفٌ، أي: لكم ولهم عذابٌ مضاعف.

لنلاحظ، كيف أن النص رسم الموقف في أشد الحالات تمزقاً للنفس المنحرفة، فالمنحرفون نظراً لشدة تمزقهم يطالبون الله بأن يضاعف العذاب علىٰ رؤسائهم حتىٰ يخففوا عن أنفسهم حدة الأزمة التي يعانون منها، إلا أنّ الله يأبىٰ أن يخفف عنهم الأزمة بل يضاعفها عليهم حينما يقول لهم: إن العذاب سوف يضاعف عليهم بالفعل، ولكن سوف يضاعف عليكم أنتم ـ أيها الاتباع ـ أيضاً، وليس علىٰ الرؤساء فحسب.

للمرة الجديدة، ينبغي للمتلقي أن يتأمل بدقة هذا النمط من التعبير الفني المُدهش الذي يجعل المنحرف في أشد حالاته تمزقاً، جزاء لانحرافه.

والآن بعد أن لحظنا كيف أن الاتباع من المنحرفين يواجههم الله بإجابة تزيد من تمزقهم بدلاً من التخفيف عنها، نتجه إلى الرؤساء من المنحرفين فنجدهم يخاطبون الاتباع قائلين:

﴿فما كان لكم علينا من فضلٍ فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون﴾ من خلال هذا الحوار الفني المدهش نستكشف حقيقة فنية أخرىٰ ، مضافاً لما تقدم، وهي: إن النص بدلاً من أن يقول لنا انه لا فرق بين الرؤساء والاتباع من حيث كونهم جميعاً يصدرون عن الانحراف، جعل المنحرفين أنفسهم يكشفون عن هذه الحقيقة ليكون الحوار أشدّ غنىً و حيويةً و متعةً.

فالاتباع خيّل إليهم أنهم أقل جريمة من رؤسائهم حينما خاطبوا الله مطالبين بأن يضاعف علىٰ رؤسائهم العذاب.

وأما الرؤساء فقد أجابوهم بعبارة زادتهم تمزقاً أيضاً، بعد أن أجابهم الله بعبارة مزقتهم كل ممزق وهو قوله تعالى: **﴿لكلٍ ضعف﴾** أي: لكم ـ أيها

الاتباع ـ ولهم (الرؤساء)، ولكن لماذا؟ جاء الجواب الفنيّ علىٰ لسان الرؤساء أنفسهم حينما قالوا للاتباع ﴿فما كان لكم علينا من فضلٍ فذُوقوا العذابَ بما كنتم تكسبون﴾، أي: أنتم ـ أيها الأتباع الذين طالبتم بأن يضاعف العذاب علينا ـ نحن الرؤساء، لا تفترقون عنا في درجة الانحراف والكفر، حتىٰ تطالبوا المضاعفة من العذاب علينا، بل نحن وأنتم في صعيد واحد من الانحراف، فذوقوا العذاب نتيجةً لانحرافكم أيضاً.

إن المتلقي الذي يمتلك خبرة فنيّة في تذوّق النصوص، يدرك أهمية هذا النمط الفني من الحوار الذي رسمه النصُ القرآني الكريم في هذا المقطع الذي يرسم مواقف المنحرفين في أشد حالاتهم تمزقاً وأسفاً وندماً وتوتّراً وانسجاماً وألماً. بالنحو الذي تقدم الحديث عنه.

* * *

قال تعالى: ﴿إنَّ الذين كَذّبُوا بآياتنا واستكبروا عنها لاَ تُفَتَّحُ لهُمْ أبوابُ السماءِ ولا يَدخُلون الجنةَ حتى يلِجَ الجملُ في سَمِّ الخياطِ وكذلك نجزي المجرمين * لَهُمْ مِن جهنَّمَ مِهادٌ ومن فوقِهِمْ غَوَاشٍ وكذلك نَجْزي الظالمين﴾ [الأعراف: ٤٠ ـ ٤١].

هذا المقطع يتحدث عن بيئة يوم القيامة بالنسبة إلى المنحرفين. وكان المقطع الأسبق يتحدث عن نفس هذه البيئة، إلا أنه نَقَل لنا المحاورات التي جرت بين المنحرفين (اتباعاً ورؤساء) وهم في جهنم. أما الآن فيتحدث المقطع عن نفس جهنم بعد أن انتهىٰ من عرض مواقفهم أثناء دخولهم فيها. فماذا قال؟ قال النصُ عنهم بأنه لا أمل البتة في إنقاذهم من النار التي دخلوها، وقدّم صورة فنيّة للتعبير عن الحقيقة المتقدمة وهي أنهم لا يدخلون الجنة حتى يلج الجَمل في سمّ الخياط، أي: لا يدخل المنحرفون الجنّة حتى يدخل البعير في ثقب الإبرة مثلاً. أهمية هذا التشبيه تتمثل في كونه مستقىً من واقع البيئة

التي خبرها المعاصرون لرسالة الإسلام، فالجمل هو أكبر الحيوانات المألوفة في خبرات الناس آنئذٍ، كما أن الإبرة أصغر الظواهر سعة، فكما أنه من الممتنع تماماً أن يدخل البعير في ثقب الإبرة، فإنه من المستحيل أن يُسمح للكافر ذات يوم أن يدخل الجنة، وهذا ـ كما نعرف ـ منتهىٰ ما يمكن أن يُعبّر عنه في رسم اليأس والقنوط.

وهنا يجب أن نتذكر بأن هذا المقطع المتضمن للتشبيه المذكور إنما جاء في سياق الحديث عن المنحرفين وكيف أنهم ينشطرون إلى رؤساء واتباع، وإن كلاً من الرؤساء والاتباع قد طالب الله تعالى بأن يضاعف العذاب علىٰ صاحبه، الاتباع طالبوا بذلك لأنهم وجدوا أن الرؤساء هم السبب في انحرافهم، والرؤساء طالبوا بذلك لأنهم وجدوا أن الاتباع لا يفترقون عنهم في درجة الانحراف، وهذا ما يزيدهم تمزقاً كما أشرنا سابقاً.

والآن، يضيف النص إلىٰ تمزقاتهم مثيراً جديداً هو أشدّ من سابقه إثارةً، فإذا كان المنحرفون قد تيقنوا سابقاً بأن لهم عذاباً ضعفاً (رؤساء واتباعاً)، فإنهم الآن قد وصلوا إلىٰ يقين ثابت هو: أنهم لا أمل لهم البتة في الإنقاذ، أي: ليس أنهم سوف يضاعف عليهم العذاب فحسب، بل أن العذاب سوف يستمر إلى الدرجة التي لا أمل في التخلص منه.

إذاً، كم كان النص مدهشاً ـ من الزاوية الفنية حينما أحكم البناء العماري أو الهندسي، فجعلَ مقاطعه تتنامىٰ من درجة لأخرىٰ وفق تدرّج فني في رسم المنحنيات النفسية للمنحرفين، حيث وصفهم أولاً بأنهم ممزّقون فحسب حينما لعنت كل أمّةٍ أختها في الإنحراف عند دخولهم النار أول مرة، ثم وصفهم بحالة من التمزق أشد من سابقتها حينما أوضح بأن لهم عذاباً ضعفاً، ثم نقلهم إلىٰ درجة اليأس حينما أوضح لهم بأنهم سوف لن يدخلوا الجنة أبداً إلا إذا دخل البعيرُ ثقب الإبرة.

للمرة الجديدة ينبغي ألاّ نغفل عن هذا البناء الهندسي المُحكم الذي صاغه النص وفقاً للمنحنيات النفسية التي سوف يواجهها المنحرفون عن مبادىء الله.

والآن، ينتقل النص إلىٰ رسم مصائر المؤمنين مقابل المنحرفين فيقول: ﴿والذين آمنوا وعَمِلُوا الصالحاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إلاّ وُسْعَها أولئك أصحابُ الجنةِ هم فيها خالدون * ونَزَعْنَا ما في صُدُورِهِم مِنْ غلٍّ تَجرِي مِن تحتِهِمُ الأنهارُ وقالُوا الحمدُ لله الذي هدانا لهذا وما كُنَّا لِنهتدي لولا أنْ هدانا الله لقد جاءت رسلُ ربِّنا بالحقِ ونُودُوا أنْ تلكُمُ الجنةُ أورثتمُوها بما كنتم تعملون﴾ [الأعراف: ٤٢ ـ ٤٣].

إننا ما دمنا نعنىٰ بالبناء الهندسي للسورة، ينبغي أن نتذكر بأن المقطع هنا يتحدث عن أصحاب الجنة ويقول انه قد نُزع من صدورهم الحقد، هذا التعبير لم يجىء لمجرد ذكر الحقيقة النفسية التي تطبع أصحاب الجنة فحسب، بل جاء في سياق هندسي يقابل أصحاب النار الذين تقدم الحديث عنهم، حيث وصفهم النص بأنهم في أشد حالات الحقد.

لقد لحظنا كيف أن الاتباع طالبوا الله تعالى بأن يضاعف العذاب علىٰ رؤسائهم المنحرفين، ولحظنا كيف أن الرؤساء طالبوا بنفس الشيء بالنسبة إلى اتباعهم، أي أن النص رسمهم في قمة (الحقد) الذي يكنه بعضهم للآخر، وهذا على العكس تماماً من أصحاب الجنة حيث رسمهم في قمة (الحب) قائلاً عنهم: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غلّ﴾).

إذاً، جاء الرّسم المتصل بكون أصحاب الجنة بلا حقد، جاء مقابلاً فنياً لأصحاب النار الذين يملؤهم الحقد كما رأينا. وهذا ما يشكل قمة الامتاع الفني من حيث عمارة النص.

ولو تابعنا سائر ما ورد في المقطع من أفكار، لوجدنا أن هذه الدلالات

سوف تكون لها منعكساتها في مقطع لاحق من السورة يتحدث عن أصحاب الجنة وأصحاب النار من خلال ظاهرة (الاعراف) كما سنتحدث عن ذلك.

والمهم هو، أن النص رسم أولاً ظاهر التكليف بما في وسع الإنسان وليس تحميله أكثر من طاقته ﴿والذين آمنوا و عمِلوا الصالحات لا نُكَلِّفُ نفساً إلاّ وُسْعَها أولئكَ أَصْحابُ الجنة﴾ أي أن أصحاب الجنة إنما دخلوها فلأنهم التزموا بمبادىء الله وهي مبادىء لا تتجاوز طاقتهم بمعنىٰ أنهم لم يكلّفوا أنفسهم جهداً يدخلون الجنة من أجله هو فوق طاقتهم، بعكس المنحرفين الذين أضاعوا أمثلة هذا السلوك الذي لم يكلفهم جهداً فوق طاقتهم فاستحقوا بذلك العقاب المذكور.

هذه الحقيقة طرحها النص في سياق المقارنة بين أصحاب الجنة والنار، من خلال منحىً فني غير مباشر، بغية توصيلها إلى المتلقي والإفادة منها في تعديل سلوكه. وبعد أن طرح هذه الحقيقة (عدم تكليف الإنسان أكثر من طاقته) اتجه النص إلىٰ مواصلة رسمه لمواقف يوم القيامة التي بدأها برسم الداخلين إلى النار، ثم رسم بيئة النار، وما واكبها من المحاورات القائمة بين المنحرفين، ثم رسم بيئة الجنة، ثم رسم بيئة جديدة يواجهها المنحرفون والمؤمنون حيث سنواجه رسماً جديداً فيها مصحوباً بحقائق جديدة، بالنحو الذي سنقف عنده.

* * *

قال تعالى: ﴿ونادىٰ أصحابُ الجنةِ أصحابَ النارِ أنْ قَدْ وجدْنا ما وَعَدَنا ربُّنا حَقّاً فَهَلْ وَجَدتُم ما وَعَدَ ربُّكم حَقًّا قالوا نَعم فأذن مؤذِّنٌ بَيْنَهُم أنْ لَعْنةُ الله علىٰ الظالمين * الذي يَصُدُّونَ عَنْ سَبيلِ الله ويَبْغُونَها عِوَجاً وَهُم بالآخِرَةِ كافرون﴾ [الأعراف: ٤٤ ـ ٤٥].

هذا المقطع امتداد لمقاطع سابقة بدأت بالحديث عن أولىٰ مراحل اليوم

الآخر (الموت) ثم الموقف وما واكبه من مناقشات بين أصحاب النار(رؤساء وتابعين) ثم (الجحيم) وكيفية دخولهم فيها.

أما الآن فيتحدث النص عن مرحلة رابعة من مراحل اليوم الآخر وهي مرحلة الجحيم مقابلاً للجنة من حيث المواقف التي يصدر عنها كل من أصحاب الجنة وأصحاب النار عبْر المحاورات التي تجري بين الفريقين، وأهمية هذه المحاورات تتمثل في كونها وسيلة قصصية تنقل لنا حقائق جديدة عن الإيمان، والحياة، والمبادىء، يستهدف النص توصيلها إلىٰ المتلقي للإفادة منها في تعديل سلوكه.

إذاً، لنتقدم إلىٰ هذا المرأىٰ أو ما يُسمّىٰ في اللغة القصصية بالمشهد أو الموقف، فماذا نجد؟.

أولاً: ينقل لنا النص مرأىً مسرحياً هو: بيئة الجنة وبيئة النار متقابلين، يطلّ أصحاب الجنة علىٰ أصحاب النار فيقولون لهم: ﴿قَدْ وَجَدْنا مَا وَعَدَنا ربُّنا حَقّاً فَهل وجدتُم ما وَعَد ربُّكُم حقّاً﴾ فيجيبهم أَصْحابُ النار بكلمة (نَعَمْ)، وهنا يتدخّل عنصر ثالث ﴿فأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بيْنَهُم﴾ فيُعَقِّبُ علىٰ قولِ أَهْلِ النار قائلاً: ﴿أَنْ لعنةُ الله على الظالمين * الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة كافرون﴾. إذاً، وظيفة العنصر الثالث هي (من الزاوية الفنية) تقرير الحقيقة المتصلة بشرح أسباب دخول المنحرفين النار، حيث وصفهم بأنهم ﴿يصدون عن سبيل الله﴾ ﴿ويبغونها عوجاً﴾ و﴿هم بالآخرة كافرون﴾.

ثم يتقدم النص بعرض المرأى أو المشهد المذكور، متابعاً سائر الجوانب المتصلة به، فيقول: ﴿وبينهما حجابٌ وعلى الأعرافِ رجالٌ يَعرِفُون كلاً بسيماهُم﴾ [الأعراف: ٤٦].

هنا نواجه عرضاً جديداً ينقل لنا إحدىٰ حقائق الموقف الأخروي، وهو أنّ بين الجنة والنار (سوراً)، ويقف علىٰ هذا السور رجالٌ يعرفون كلاً من

الناس بسيماهم، وهؤلاء الرجال ـ حَسَب النصوص المفسّرة ـ هم المصطفون من البشر (أنبياء وأئمة) يعرفون أفراد مجتمعاتهم (مؤمنين ومنحرفين). حيث ينادون أصحابَ الجنة بعبارة (سلام عليكم) تهنئةً لهم بالفوز ﴿ونادَوْا أصحاب الجنةِ أنْ سَلامٌ عليكم﴾.

وهذا بالنسبة لأصحاب الجنة وموقف الرجال المصطفين منهم، وأمّا بالنسبة لموقفهم من أصحاب النار، فهو كما تنقله القصة:

﴿وإذا صُرِفَتْ أبصارُهُمْ تلقاءَ أصحابِ النارِ قالوا ربَّنَا لا تَجْعَلْنا مع القومِ الظالمين﴾ [الأعراف: ٤٧]. بمعنىٰ أنهم مشفقون من المصائر الكسيحة التي انتهىٰ المنحرفون إليها. وهنا نواجه جانباً جديداً من الموقف، تشرحه القصةُ على هذا النحو.

﴿ونادىٰ أصحابُ الأعراف رجالاً يَعرِفُونهم بسيماهُمْ قالوا ما أغنىٰ عنكُم جمعُكُمْ وما كُنتُمْ تستكبِرون * أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالُهُمُ الله برحمةٍ ادخُلوا الجنةَ لا خوفٌ عليكم ولا أنتُمْ تَحزَنُون﴾ [الأعراف: ٤٨ ـ ٤٩]، فمن هذا الحوار الحيّ نستخلص حقيقة اجتماعية هي أن المنحرفين كانوا معتقدين جازمين بأن المؤمنين برسالة الله لا تنالهم الرحمة، لذلك يخاطبهم أصحابِ الأعراف متسائلين: ﴿أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة﴾ ثم إمعاناً في ردّ مقولتهم السابقة يخاطبون المؤمنين: ﴿ادخلوا الجنة﴾. ولا يخفىٰ على المتلقي مدىٰ أهمية هذا النمط من السلوك حيال المنحرفين من حيث الإيلام النفسي الذي يترتب علىٰ المنحرفين.

وقد سبق أن لحظنا في المقاطع السابقة من هذه القصة كيف أن النص شدّد علىٰ الأسلوب النفسي في التعامل مع الكافرين في اليوم الآخر، بحيث يدعهم متمزقين في أشد حالات الإيلام، فهو يردّ علىٰ الضعفاء الذين انقادوا إلى رؤسائهم حينما طالبوا بمضاعفة العذاب عليهم، يردّ على ذلك بأن

مضاعفة العذاب سوف تشملكم وتشمل رؤساءكم أيضاً، كما يؤيسهم من دخول الجنة جميعاً حينما يؤكد بأن استحالة دخولهم مثل استحالة دخول البعير من ثقب الإبرة، كما يجعلهم ـ وهم طوائف اجتماعية متنوعة ـ بأن تلعن كلّ طائفةٍ أختَها من الإنحراف، وها هو الآن يتابع نفس الأسلوب النفسي في الإيلام حينما يجعل أصحاب الأعراف يردّدون عليهم بهذا النمط من الرّد حيث يسخر أصحابُ الأعراف منهم حينما يقولون لهم: أصحيح أن هؤلاء المؤمنين الذين أقسمتم بأنهم لن تنالهم الرحمة، أصحيح أنهم كذلك؟ ثم يقولون للمؤمنين ادخلوا الجنة رغماً علىٰ هؤلاء المنحرفين.

إذاً، أمكننا الآن أن نقدّر هذا النمط من التجانس الفني بين مقاطع السورة بالنسبة لواحد من عناصر القص، وهو أمرٌ سوف نلحظه أيضاً بالنسبة للجزء الأخير من القصة.

* * *

قال تعالى: ﴿ونادىٰ أصحابُ النارِ أصحابَ الجنةِ أنْ أفيضُوا علينا من الماءِ أو مما رزقكُم الله قالوا إنَّ الله حَرَّمَهُمَا علىٰ الكافرين * الذين اتخذوا دينَهُمْ لَهْواً ولَعِباً وغَرَّتْهُمُ الحياةُ الدنيا فاليَومَ نَنْساهُمْ كما نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهم هٰذا وما كانوا بآياتِنا يَجْحَدُون * ولقد جِئناهُم بِكِتابٍ فصّلناهُ علىٰ علمٍ هُدًى ورحمةً لِقَومٍ يُؤمِنُون * هَل يَنظُرُون إلاّ تأويلَهُ يومَ يأتي تأويلُهُ يَقُولُ الذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جاءَتْ رسُلُ ربِّنا بالحَقِّ فهل لَنا من شُفَعَاءَ فيشفعُوا لنا أوْ نُرَدُ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الذِي كُنّا نَعْمَلُ قد خَسِرُوا أنفسَهُمْ وضلَّ عَنهُم ما كانوا يَفْتَرُون﴾ [الأعراف: ٥٠ ـ ٥٣].

هذا هو القسم الأخير من قصة(الأعراف) حيث يتحدث عن جانبٍ جديدٍ من الحقائق المتصلة بالعلاقة بين أصحاب الجنة وأصحاب النار.

إن أصحاب النار يطالبون أهل الجنة بأن يفيضوا عليهم شيئاً من الشرب

والأكل، إلا أن أهل الجنة يردّون عليهم بالقول بأن الله حرمهما علىٰ الكافرين. هذا هو الحوار القائم بين الفريقين: الفريق المنحرف المُطالب بشيء من الشرب والأكل، والفريق المؤمن الذي يجيبه بأن ذلك محرّم علىٰ الكافرين.

وأهمية هذا الحوار تتمثل في كونه يكشف أولاً: عن أن الحواجز بين الفريقين تُرفَع ولو في نطاق محدد، وثانياً: أن شخصيات المنحرفين بالرغم من كونها تحيا أشدّ آلام العذاب إلا أنها تمنح فرصة التعبير عن جزائها الذي لحقها، أو لنقل: تتحسّس ذلك دون أن يحتجزها العذاب من التعبير عنه لفظياً أو حركياً. والأهم من ذلك أن المؤمنين عندما يخاطبون أهل النار بأن الله حرّم الأكل والشرب على الكافرين، حينئذٍ لا يتقدّمون بأيّ تعقيب آخر علىٰ هذا الحكم بل يتركون ذلك لله تعالى حيث يعقّب على ذلك بأنهم ﴿اتخذوا دينهم لهواً ولعباً﴾ وهذا يعني أن المنحرفين لا ينحصرون في الجاحد بالله تعالى فحسب، بل حتىٰ أولئك الذين يتخذون من الدين وسيلة لهو ولعب مثل تحريفهم لكلام الله مثلاً أو عدم التزامهم بمبادئه... الخ. كما أن النص يضيف إلى ذلك ظاهرة عامة هي ﴿وغرَّتْهُم الحَيَاةُ الدنيا﴾ حيث يشمل غرور الحياة كل أنواع الانحراف كفراً كان أم فسقاً (أي عدم الالتزام بمبادىء الله). أخيراً، عقّب النص علىٰ ذلك جميعاً بقوله: ﴿فَالْيَومَ نَنْسَاهُمْ كما نَسُوا لِقاءَ يَومِهِمْ هذا﴾. إن هذه المعادلة بين نسيان المنحرفين ليوم الحساب في غمرة اهتمامهم بشؤون الحياة الدنيا، وبين نسيان الله إيّاهم في اليوم الآخر، تُعدّ في قمة الحقائق التي ينبغي أن يقف المتلقّي عندها للإفادة منها في تعديل السلوك، فعملية النسيان المتبادل قائمة علىٰ مسوغاتٍ لا سبيل إلىٰ الترديد فيها، ما دام أحد الأطراف هو الذي اختار ملء إرادته نسيان الله حيث يظل الطرف المذكور هو الخاسر دون أدنىٰ شك.

ودليل الخسران، يتقدم النصُ بتوضيحه من خلال منحىً فنيّ غير مباشر

حينما يواصل النص تعقيبه علىٰ سلوك المنحرفين المذكور قائلاً ﴿ولَقَدْ جِئْناهُم بكتابٍ فَصَّلْناهُ علىٰ عِلمٍ هُدَىً ورَحْمةً لِقومٍ يُؤمنون * هل يَنْظُرُون إلاّ تأويلَه يومَ يَأتِي تأويلُهُ يَقُولُ الذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعاء﴾.

إذاً، يتساءل المنحرفون بمرارة: ﴿هل لنا من شفعاء﴾. لنتأمل من جديد هذه العبارة التي رسَمَ بها النصُ ظاهرة نسيان المنحرفين لكتاب الله ﴿يقول الذين نَسُوهُ مِنْ قَبْل﴾. ماذا يقول هؤلاء؟ ﴿فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا؟﴾ ويقولون أيضاً: ﴿أو نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الذِي كُنَّا نَعْمَل﴾.

إذاً، من خلال تمنيهم بأن يكون لهم شفعاء، ومن خلال تمنّيهم بأن يردّوا من جديد إلى الأرض فيغيروا سلوكهم. من خلال ذلك نفهم بوضوح أن طرف المعادلة (وهو المنحرف عن الله ومبادئه) هو الخاسر في عملية النسيان الذي ذكرها النص من أن المنحرفين بما أنهم نسوا مبادىء الله (في الحياة الدنيا) حينئذ أهملهم الله تعالى في الحياة الآخرة.

وأياً كان، فإن هذه القصة (قصة الأعراف) بما تضمنتها من عنصر الحوار الحيّ الذي لحظناه مفصلاً في هذا القسم وفي الأقسام السابقة من السورة، وُظفت فنياً لإنارة أكثر من جانبٍ يتصل بعمارة السورة، حيث لحظنا أن قصة سابقة هي قصة الميلاد البشري ثم قصة إبليس المتداخلة في القصة المذكورة قد طرحت مفهومات عن الطاعة والمعصية وانعكاسهما علىٰ الحياة الأخرىٰ: فيما جاءت القصة الثالثة (قصة الأعراف) بمثابة إنارة للانعكاس المذكور، مع تطعيمها بحقائق جديدة يستهدفها النص، ما دمنا نعرف بأن هدف القصة ـ أو أي نص فنيّ آخر ـ لا ينحصر في فكرة عامة فحسب بل في أفكار ثانوية أيضاً، وهو ما لحظناه في القصة المذكورة التي طرحت حقائق من الجنة والنار وما يواكب ذلك من العلاقات بين المؤمنين والمنحرفين عبر مواقف خاصة، وموقع

(الأنبياء والمعصومين) من ذلك ﴿وعلىٰ الأعراف رجال يعرفون كلاً بسيماهم﴾. كل أولئك تشكّل حقائق جديرة بالوقوف عندها، وهي حقائق تمّ تقديمها من خلال عنصر (القص) بدلاً من مجرد السرد، بغية إحداثها التأثير علىٰ المتلقي بنحو أشدّ، وهو هدف النصوص الفنية كما هو واضح.

* * *

قال تعالى: ﴿إنَّ ربكُمُ الله الذِي خلق السماواتِ والأرضَ في ستةِ أيّامٍ ثُمَّ اسْتَوىٰ علىٰ العَرْشِ يُغْشِي الليلَ النهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً والشَّمسَ والقمرَ والنجومَ مُسخَّراتٍ بأمْرِهِ ألا لَهُ الخَلْقُ والأمْرُ تَبَارَكَ الله رَبُّ العالَمِين * ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وخُفْيَةً إنَّهُ لا يُحِبُّ المُعتَدِينَ * ولاَ تُفسِدُوا في الأرضِ بعد إصلاحِها وادعُوه خوفاً وطمعاً إنَّ رحمةَ الله قَرِيبٌ مِنَ المُحْسِنين * وهُوَ الَّذي يُرْسلُ الرِّياحَ بُشْرا بيْنَ يَدَي رَحْمَتِهِ حتىٰ إذا أقَلَّتْ سَحَاباً ثِقالاً سُقْناهُ لِبَلَدٍ ميِّتٍ فأنْزَلْنَا بِهِ الماءَ فأخْرَجْنا بِهِ مِنْ كُلِّ الثمراتِ كذلك نُخْرجُ المَوْتىٰ لَعَلَّكُم تَذَكَّرُون * والبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخرُجُ نَبَاتُهُ بإذنِ ربِهِ والَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إلاَّ نكداً كذلك نُصَرِّفُ الآياتِ لِقومٍ يَشْكُرُون﴾ [الأعراف: ٥٤ ـ ٥٨].

هذا المقطع من سورة الأعراف جاء وسط عنصرٍ قصصي بَدَأ بقصة المولد البشري، فقصة الأعراف ثم قصص الأقوام البائدة التي سنقف عليها فيما بعد.

وعندما يأتي مقطعٌ خاص يخترق سلسلة الموضوعات القصصية، فهذا يعني أهميته أولاً، وكونه ذا ارتباط بخيوط العنصر القصصي، وهو أمرٌ ينبغي أن نتبيّنه ما دمنا نُعنى أساساً بالحديث عن عمارة السورة القرآنية.

أما كون هذا المقطع متسماً بأهمية دلالته أولاً، فأمرٌ يمكننا معرفته إذا أخذنا بنظر الاعتبار أن قضية الإبداع الكوني تظل في مقدمة الدلائل والحجج التي تستاق الشخصية إلى الإيمان أو تعميقه. من هنا قطَعَ النصُّ السلسلة

القصصيّة من السورة، وضمنها المقطع الذي نتحدث عنه، أنه يذكر الظواهر الإبداعية في خلق السماء والأرض، واستوائه علىٰ العرش، وتعاقب الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر والنجوم بأمره. وهي ظواهر إبداعية ألفت النصُ نظرنا إليها معقّباً على ذلك بقوله تعالى: ﴿له الخلق والأمر﴾ مؤكداً بهذا التعقيب بأن فاعلية الوجود عائدة إلى الله فحسب. ثم طالب النصُ بالدعاء تضرعاً وخفية، وطالب بعدم الإفساد في الأرض، وطالب بأن يكون الدعاء خوفاً وطمعاً. إن هذه النماذج من المطالبة تشكل أنماطاً مختلفة من السلوك، بعضها يتصل بالتعامل الوجداني مع الله وتحديد مستوياته من حيث كونه ينشطر إلى ما هو علني وما هو خفي، ثم إلى دعاء مقرون بالخوف من العقاب ومقترنٍ بالطمع بالثواب.

كما أن بعضها يتصل بالسلوك الخارجي وهو عدم الإفساد في الأرض بعد أن أصلحها الله بمبادئه التي طالبنا بالالتزام بها.

بعد ذلك يتقدم النص إلىٰ عرض ظاهرة إبداعية خاصة هي ظاهرة المطر من حيث إحياؤه الأرض وإخراجُها الثمرات. وهنا ينبغي ألاّ نغفل بأن النصّ في مقدمة السورة قد طرح موضوع الأرض وإلى أن الله قد جعلها(معايش) للناس ﴿ولقد مَكَّنّاكُم في الأرضِ وجَعَلْنا لكُمْ فيها مَعَايِشَ﴾، وهذا يعني ـ من زاوية عمارة النص وارتباط المقطع بسابقه ـ أن تخصيص الأرض بهذا الحديث من حيث إخراجها للثمرات ﴿فأنْزَلْنَا بِهِ الماءَ فأخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرات﴾ حيث تعدّ الثمرات هي المادة الرئيسة للعيش، إنما جاء هذا التخصيص مرتبطاً بمقدمة السورة، وإلى أن هذا التفصيل إنما هو إنماءٌ لمقدمتها.

وهذا من حيث ارتباط المقطع بسابقه.

أمّا من حيث ارتباطه بالقصص اللاحقة فأمر سنوضّحه في حينه.

أخيراً، أنهىٰ النصُ حديثه عن الظواهر الإبداعية المذكورة بهذه الآية:

﴿والبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بإِذْنِ رَبِّهِ والذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إلاَّ نَكِداً كَذلِكَ نُصرّف الآيات لقوم يَشْكُرون﴾. هنا يجب أن نتذكر من جديد بأنّ مقدمة السورة التي أشارت إلى أن الله جعل في الأرض (معايش) للناس: عقّب علىٰ ذلك بقوله: ﴿قليلاً ما تشكرون﴾ وها هو الآن يطالب بالشكر حينما يعقّب علىٰ الأرض الطيّبة بقوله: ﴿كذلك نُصرّفُ الآيات لِقومٍ يَشْكُرون﴾.

إذاً، من حيث تلاحم موضوعات السورة ثمة إحكام عماري لحظناه بنحوه المتقدم، لكن ينبغي أن نتبيّن أيضاً مدىٰ علاقة هذه الآية المتحدثة عن الأرض الطيبة وأنها تخرج نباتها بإذن الله وإن الأرض الخبيثة لا تخرج إلا نكداً، ينبغي أن نتبيّن علاقتها بفكرة النص. في تصورنا الفنّي، إن الآية ما دامت تتحدث عن الشُكر وعدمه مقابل نِعَم الله حيث أوضحت الآية بأن تصريف ذلك إنما هو لقوم يشكرون، حينئذٍ فإن المقارنة بين أرض صالحة للزراعة وأرض سبخة تظل عنصراً(رمزياً) يستوحي المتلقي منه أن البشر مطبوعٌ بنفس السمة والمنشطر إلى طيّب وخبيث، حيث نجد الطّيب (شاكرا) لله تعالى: ﴿كذلك نصرّف الآيات لقوم يشكرون﴾ بعكس الخبيث، أو لنقل: أن الطيّب سوف يلتزم بمبادىء الله وأنّ الخبيث ينحرف عنها.

ومن الممكن أيضاً أن نفسّر الآية بظاهرها وهو كون الأرض الطيبة التي يخرج نباتها بإذن الله (من خلال المطر الذي أنزله الله) مقابل الأرض السبخة، إنما يستدعي التأمل بحيث يستاق الشخصية إلىٰ تقدير هذا العطاء أو كما قال النص: ﴿كذلك نصرّف الآيات لقوم يشكرون﴾ ـ نعم الله ـ بالنحو الذي تقدم الحديث عنه.

* * *

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أرسلنا نُوحَاً إلىٰ قومِهِ فقال يا قوم اعْبُدوا الله ما لَكُم مِنْ إلهٍ غَيْرُهُ إنّي أخَافُ عليكم عذابَ يومٍ عظيم * قالَ الملأُ مِن قومِهِ إنّا لَنَراكَ

فِي ضلالٍ مُبين * قال يا قَوْمِ لَيْسَ بي ضلالةٌ ولكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ العَالَمين * أُبَلِّغُكُم رِسالاتِ رَبِّي وأَنْصَحُ لكُم وأَعْلَمُ مِنَ الله ما لا تَعْلَمُون * أوَ عَجِبْتُمْ أنْ جَاءَكُم ذِكرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلىٰ رَجُلٍ مِنكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا ولَعلَّكُمْ تُرْحَمُون * فكذَّبُوهُ فأَنْجَيْناهُ وَالذِينَ مَعَهُ في الفُلْكِ وأَغْرَقْنَا الذِين كَذَّبُوا بآياتِنا إنَّهم كانوا قوماً عَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٩ ـ ٦٤].

هذا المقطع من سورة الأعراف وما يليه يشكّل عنصراً قصصياً في السورة. وقد سبق أن لحظنا قصّتين في السورة أيضاً هما قصة المولد البشري ثم قصة الأعراف في اليوم الآخر. أما الآن فنواجه نمطاً قصصياً ثالثاً هو قصة المجتمعات البائدة التي انحرفت عن الله فرتب عليهم جزاءً دنيوياً هو إبادتهم. طبيعياً، أن قصص المجتمعات البائدة تتكرر في سور متنوعة، غير أن لكل سورةٍ سياقها الخاص بحيث ينتقي النصُ من أحداث القصة ومواقفها ما يتناسب وأفكار السورة.

هنا نواجه في قصة نوح شريحة خاصة من الأحداث والمواقف، هذه الشريحة تتناسب مع مقدمة السورة التي طرحت مفهوم (التبليغ) و(الإنذار). وها هي القصة تؤكد على لسان نوح هذه الدلالة ﴿أبلغكم رسالات ربّي وأنصح لكم﴾ ﴿أو عجبتم ان جاءكم ذكر من ربكم علىٰ رجلٍ منكم لينذركم﴾... الخ.

إذاً، التبليغ والإنذار هما العصب الفكري الذي امتدّ في هيكل القصة متجانساً مع مقدمة السورة. خلال ذلك يطرح النص ـ بطبيعة الحال ـ أفكاراً جديدة تتصل بنمط التبليغ وردود الفعل حياله والجزاء المترتّب على ذلك. أما نمط التبليغ فيتمثّل في لغةٍ مُسالمة مُشفقة علىٰ القوم ﴿إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾ ﴿وأنصح لكم واعلم من الله ما لا تعلمون﴾ ﴿ولتتقوا ولعلكم تُرحمون﴾.

لكن، ردود الفعل حيال ذلك جاءت مضادة تماماً للغة نوح فقد أجابوه بقولهم: ﴿إنا لنراك في ضلال مبين﴾ وهو جواب يضادّ تماماً لغة النصيحة التي صدرت عن نوح(ع). وأمّا الجزاء المترتب علىٰ ذلك، فلا بدّ أن يتّسم بكونه مجانساً للغة تكذيبهم وهو إغراقهم في حادثة الطوفان، كما أن الجزاء المترتب علىٰ نوح ومن آمن برسالته لا بد أن يكون مضاداً لجزاء المنحرفين وهو النجاة ﴿فكذبوه فأنْجَيْناهُ والذين مَعَهُ في الفُلْكِ وأغْرَقْنا الذِين كذّبوا بآياتنا. . . الخ﴾.

* * *

بعد قصة نوح، نواجه قصّة جديدة هي قصة هود(ع). فماذا نجد فيها؟.

نجد فيها أولاً تجانساً في الهيكل القصصي كما نجد ثانياً طرحاً جديداً، وهما (أي التجانس والطرح الجديد) المادة الفنية لأي شكلٍ أدبي يتناول موضوعات مختلفة من تجارب الحياة. أمّا التجانس فيتمثل في توافق اللغة المبلّغة لرسالة الله، فكما أن نوحاً قال لقومه:﴿اعبُدُوا الله ما لكم مِنْ إلٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]، كذلك قال هود لقومه: ﴿يا قوم اعبُدوا الله ما لكم من إلٰهٍ غيرُه﴾ [الأعراف: ٦٥].

وكما أن جواب قوم نوح كان متمثلاً في قولهم: إنا لنراك في ضلال مبين﴾ [الأعراف: ٦٠] كذلك كان جواب قوم هود إلا أنهم وسموه بالسفاهة بدلاً من الضلال ﴿إنَّا لنرَاكَ في سَفَاهةٍ وإنَّا لنظنُّكَ مِنَ الكاذِبين﴾ [الأعراف: ٦٦]. وكما ردّ عليهم نوح بأنه ليس في ضلال كذلك قال هود لقومه: ﴿يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين﴾ [الأعراف: ٦٧]، وكما أن نوحاً قال لقومه بأنه ناصح لهم ومبلّغ رسالة الله، كذلك قال هود لقومه: ﴿أبَلِّغُكُمْ رسالاتِ ربّي وأنا لكم ناصِحٌ أمِين﴾ [الأعراف: ٦٨]، وكما قال نوح لقومه في تساؤل مرير ﴿أوَعَجِبْتُمْ أنْ جَاءَكُم ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ علىٰ رجلٍ مِنكم لِيُنْذِرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٣] كذلك جاء تساؤل هود(ع) بنفس العبارة ﴿أوعجبتم

أن جاءكم ذِكر مِن ربّكم علىٰ رجلٍ منكم ليُنْذِرَكُم﴾ [الأعراف: ٦٩]. وكما أن الجزاء الذي رتّبه الله علىٰ نوح والمؤمنين معه(وهو النجاة) مقابل الإبادة التي رتبها الله علىٰ المنحرفين، فكذلك جاء الجزاء بنمطيه مرتّباً في قصة هود ﴿فأنْجيناهُ والذين معه برحمةٍ منا وقطعنا دابِرَ الذِين كَذَّبُوا بآياتِنا﴾ [الأعراف: ٧٢].

إذاً، لحظنا مدىٰ هذا التجانس الضخم المتسم بجمالية فائقة بين الأحداث والمواقف التي رسمتها القصتان عن مجتمعي نوح وهود حيث صيغتا أيضاً بنفس اللغة أو العبارة القصصية،وهو مما يزيدهما جمالاً فنيّاً دون أدنىٰ شك.

وهذا كله فيما يتصل بالعنصر الفنّي الأول وهو(التجانس) بين القصتين.

وأمّا ما يتصل بالطرح الجديد في قصة هود (وهذا هو العنصر الفني الآخر) فيتمثل في جملة من المواقف والأحداث التي تخص قوماً دون آخرين، فمثلاً: ما دام قوم نوح هم أول مجتمع يتعرض للإبادة الجماعية حينئذٍ نتوقع (من الزاوية الفنية) أن يتحدث النص عند رسمه لقصة هود عن حادثة الإبادة المتقدمة والتذكير بها، لذلك عندما تساءل هود(ع) عن إمكانية أن يتعجب قومه من أن يجيئهم ذكرٌ من ربهم علىٰ رجل منهم لينذرهم، عقّب على ذلك قائلاً ﴿واذكروا إذْ جَعَلَكم خلفاءَ مِنْ بعدِ قومِ نُوحٍ وزادَكُم في الخلق بَسْطة﴾ [الأعراف: ٦٩].

إذاً، الطرح الجديد هنا فرض ذاته من خلال طبيعة البيئة الزمنية التي اكتنفت قوم هود(ع). ويلاحظ أن الطرح الجديد لم ينحصر في البعد الزمني فحسب، بل في أبعاد مختلفة منها: البُعد الجسمي الذي أشارت القصة إليه بقولها: ﴿وزادكم في الخلق بسطة﴾ وهي حقيقة جديدة تتصل بمعرفتنا لتراكيبهم الجسمية التي اتّسمت بالطول مثلاً بما يستتبعه هذا من فوائد تعود

عليهم حيث أشارت القصة إليها بعامة عندما قالت ﴿فاذْكُروا آلاء الله لعلّكم تُفْلِحُون﴾ [الأعراف: ٦٩].

ولا نغفل أن مقدمة السورة قد طرحت موضوع (التذكّر) ﴿قليلاً ما تذكّرون﴾ [الأعراف: ٣]، وها هي القصة تشير إلىٰ هذا الجانب أيضاً، لتتجانس مع أفكار السورة أيضاً.

إذن أمكننا أن نقف علىٰ جملة من الأسرار الفنية في هذه القصة من حيث تجانسها مع سابقتها(قصة نوح) وتجانسها مع مقدمة السورة (الهيكل العام للنص)، ثم ما طرحته من أفكار جديدة يستهدف النص توصيلها إلىٰ المتلقي بالنحو الذي تقدم الحديث عنه.

* * *

قال تعالى: ﴿وإلىٰ ثَمُودَ أَخَاهُم صَالِحاً قَالَ يا قوم اْعبدُوا الله ما لكم مِنْ إلٰهٍ غَيْرُه قَدْ جَاءَتْكُمْ بيّنَةٌ مِنْ ربكم هٰذِهِ ناقةُ الله لَكُمْ آيةً فذروها تأكُلْ في أرْضِ الله ولاَ تَمسُّوها بِسُوءٍ فَيأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيم * وآذْكرُوا إذْ جَعَلَكُم خُلفاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وبَوّأَكُمْ في الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِها قُصوراً وَتنحتُونَ الجِبَالِ بيُوتاً فَاْذْكرُوا آلاءَ اللهِ وَلا تَعْثَوا في الأَرْضِ مُفْسِدِينَ * قَالَ الملأُ الذِينَ اَسْتَكْبرُوا مِنْ قَومِهِ لِلَّذِينَ اَسْتُضْعِفُوا لِمَن آمَنَ مِنْهُمْ أتَعْلَمونَ أَنَّ صَالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ ربِّهِ قَالوا إنَّا بما أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ * قالَ الَّذِينَ اَسْتَكْبرُوا إنَّا بِالذِي آمَنْتُمْ بِهِ كافِرون * فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وقالُوا يا صالح ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنا إن كُنتَ مِنَ المُرْسَلينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفةُ فأَصْبَحُوا في دَارِهِم جاثِمِينَ * فتَولّىٰ عَنْهُم وقالَ يا قوم لَقَدْ أبْلَغْتُكُمْ رِسالة رَبِّي ونَصَحْتُ لكم ولكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحين﴾ [الأعراف: ٧٣ ـ ٧٩].

هذه هي القصة الثالثة من قصص المجتمعات البائدة التي وردت في سورة الأعراف: قصة نوح، هود، صالح. إنها (من حيث العمارة الفنية)

تتجانس مع سابقتها في كونها تتحدث بنفس اللغة المبلّغة التي صدرت عن نوح وهود ﴿يا قومِ اعبدُوا الله ما لكُمْ مِنْ إلٰهٍ غيرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩، ٦٥] وبنفس اللغة الناصحة ﴿لقد أبْلَغْتُكمْ رسالةَ ربِّي ونصحتُ لكم﴾، كما أنها تفترق عنهما في طبيعة الأحداث والمواقف التي واكبت صالح(ع). بيد أن هذا الافتراق يتم من خلال ما يسمى ـ في اللغة الفنية ـ بـ(التضاد من خلال التماثل)، كما أن التماثل بينها وبين سابقتها يتمّ عن طريق (التماثل من خلال التضاد).

تفصيل ذلك، إن هذه القصة تخاطب مجتمع صالح(ع) وهو المجتمع الذي جاء من بعد هود ﴿واذْكُروا إذْ جَعَلَكُم خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾، وهذه المخاطبة نفسها تمّت في قصة سابقة (قصة هود) حيث ذكّرت مجتمعه بمصائر السابقين، قوم نوح ﴿واذكرُوا إذْ جعلَكُم خُلفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نوحٍ﴾ فهنا عملية تذكير قوم هودٍ بقوم نوحٍ، وقوم صالح بقوم هود. وهذا العنصر الزمني من حيث التسلسل الموضوعي للزمن له قيمته الكبيرة في هيكل القصة وصلتها بأجزاء النص الأخرىٰ، حيث يتم الإحكام الهندسي للنص من خلال العنصر الزمني المذكور، والمهم هو أن هذه العبارة تقوم علىٰ كلّ من (التضاد من خلال التماثل) و(التماثل من خلال التضاد) فالقصتان: قصة هود وصالح تتماثلان في لغة التبليغ، والنصيحة، والجزاء المترتب علىٰ تكذيب قومي هود وصالح لهما، ولكنهما تتضادان في الأحداثِ والمواقف بعامة من خلال تماثل خاص، فعملية التذكير مثلاً بنعم الله وردت في القصتين ﴿فاذْكرُوا آلاءَ الله﴾ وهو (تماثل) لكنه من خلال بيئتين مختلفتين، فقوم هود ذكرهم الله تعالى بالبسطة في أجسامهم، أما قوم صالح فذكرهم عن الأرض ﴿تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء الله﴾.

إذاً، هناك عملية (تذكير) متماثلة. لكن من خلال بيئتين مختلفتين: البيئة الجسمية والبيئة السكنية. . . كما أن هناك حادث (أصنام) لدىٰ مجتمع هود

﴿أتجادلونني في أسماء سميتموها﴾ [الأعراف: ٧١]، مقابل حادثة أخرىٰ لدىٰ مجتمع صالح (حادثة عقر الناقة) وهما حادثتان أو موقفان مختلفان لكنهما متماثلان من حيث البواعث.

والأمر كذلك، حينما نقارن هاتين القصتين بما سبقتهما من قصة نوح(ع)، حيث تظل القصص الثلاث متجانسةً لغةً ودلالة.

لكننا حين نتجه إلى القصة الرابعة وهي قصة لوط سنجد أنها متميزة عن القصص الثلاث، لا تشاركها في اللغة والدلالة إلاّ في جانبٍ محدّد، وهي علىٰ العكس من قصة خامسة هي قصة(شعيب) حيث سنجدها متجانسةً مع القصص الثلاث، فما هو السرّ الفني وراء ذلك؟

لنقرأ أولاً قصة لوط(ع):

﴿ولُوطاً إذْ قالَ لِقَومِهِ أتَأتُونَ الفاحِشَةَ ما سَبقَكُمْ بِها مِنْ أحَدٍ مِنَ العالمِينَ * إنّكُمْ لَتَأتُونَ الرّجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النّساءِ بَلْ أنتُمْ قَومٌ مُسْرِفُونَ * وما كان جَوَابَ قومِهِ إلاّ أنْ قالُوا أخرِجُوهمْ مِنْ قَريَتِكُم إنّهُمْ أُناسٌ يَتَطهَّرُون * فأنْجَيْناهُ وأهْلَهُ إلاّ امْرَأتَهُ كانَتْ مِنَ الغَابِرِيْنَ * وأمْطَرْنَا عَليهِمْ مَطَراً فانْظُرْ كيفَ كانَ عاقِبَةُ المُجْرِمين﴾ [الأعراف: ٨٠ ـ ٨٤].

لعل لتفرّد السلوك الذي عرضه النص عن المجتمع المذكور، صلة باستقلال هذه القصة نسبياً عن سائر القصص، بدليل أن النص نفسه أشار إلى شذوذ السلوك بقوله: ﴿ماسبقكم بها من أحدٍ من العالمين﴾ بينا كان الشذوذ الفكري لدىٰ كل المجتمعات التي عرضتها القصص متماثلاً وهو التكذيب برسالات السماء.

إذاً، من المحتمل فنياً أن نفسّر تفرّد القصة المذكور عن سائر القصص، بتفرد السلوك الذي عرضه النص عن مجتمع لوط من حيث إشارة النص إلىٰ تفرّد المجتمع بسلوكه الشاذ.

لكن مع ذلك، ثمة تجانس فنيّ بين هذه القصة وما سبقها من حيث الاستجابة السلبية التي صدرت عن المجتمع المنحرف المذكور، ومن حيث الجزاء الذي رتّبه الله علىٰ ذلك وهو نجاة لوط وأهله، وإبادة الآخرين، وهما (أي: الاستجابة السلبية والجزاء الإيجابي للمؤمنين والسلبي للمنحرفين) طبعا القصص السابقة جميعاً.

إذاً، في هذه القصة ـ كما هو طابع سائر القصص ـ عنصر تجانس مع القصص السابقة عليها، مضافاً إلى عنصر (التفرّد) الذي يطبعها، وهما سمة الفن القصصي بعامة حيث تلحظ في التفرد طرحاً جديداً من الأفكار، كما نلحظ في التجانس تنظيماً للأفكار المذكورة، بالنحو الذي تقدم الحديث عنه.

* * *

قال تعالى: ﴿وإلىٰ مدينَ أخَاهُم شُعيباً قالَ يا قوم أعْبُدُوا الله ما لكُم مِنْ إلٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتكم بيّنةٌ من ربكُم...﴾ [الأعراف: ٨٥].

هذه هي القصة الخامسة من قصص سورة الأعراف، وقد سبقتها قصص نوح وهود وصالح ولوط، حيث لحظنا أن كل قصة تتقدّمها الفكرة أو العبارة القائلة: ﴿اعبُدُوا الله ما لَكُمْ من إلٰه غيرُه﴾ مما يعني أن جميع القصص تشدّد علىٰ مفهوم التوحيد في المقام الأول، ثم تعرض لأفكار ثانوية أخرىٰ، ليتكامل من خلالها بناء هندسي خاص تشترك القصص في خطوطه العامة، وتفترق كل واحدة عن الأخرىٰ في خطوط خاصة تفرضها طبيعة البيئة التي تتحرك أحداثُ القصة ومواقفها من خلال ذلك.

والآن، بعد أن لحظنا العمارة العامة للقصص، ينبغي أن نقف عند الخطوط الخاصة لهذه القصة: قصة شعيب فماذا نجد؟.

لنقرأ من جديد: ﴿وإلىٰ مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم

من إله غيره قد جاءتكم بيّنة من ربكم فأوفوا الكيلَ والمِيزانَ ولا تَبخَسُوا الناسَ أشياءَهُمْ ولا تُفْسِدُوا في الأرْضِ بَعْدَ إصْلاحِها ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إنْ كُنتُمْ مُؤمنين﴾ [الأعراف: ٨٥].

يجب أن نتذكر هنا، أن الفقرة الأخيرة القائلة: ﴿ولا تُفْسِدُوا في الأرْضِ بَعد إصلاحِها﴾ هذه الفقرة وردت ضمن مقطع خاص في سورة الأعراف سبقت العنصر القصصي، وهذا يعني (من زاوية البناء الهندسي للسورة) أن المقطع المذكور يحتل موقعاً هندسياً بالنسبة لأجزاء السورة بحيث تتسرب أفكاره في تضاعيف الأجزاء الأخرى من السورة ومنها قصة شعيب، كما وردت في قصة صالح أيضاً في سياق خاص تقدم الحديث عنه.

والآن خارجاً عن المبنىٰ الهندسي المذكور يعنينا أن نعرض للأفكار الواردة في هذه القصة حيث تتمثل أولاً في ظاهرة خاصة هي: (إيفاء الكيل والميزان وعدم بخس الناس أشياءهم).

لا شك أن قضية بخس الناس أشياءهم أي إنقاص حقوقهم من خلال عدم إيفاء الكيل والميزان تظل قضية ذات أهمية خاصة في السلوك من حيث كونها تعاملاً اقتصادياً قائماً علىٰ جذور نفسية هي (العدوان) علىٰ الآخرين من خلال عدم إعطائهم الحقّ العائد لهم، لذلك طرحها النص في سياق حديثه عن التوحيد نظراً لأهميتها المذكورة.

بعد ذلك اتجه النص إلى طرح ظاهرة أخرىٰ من السلوك السلبي الذي طبع مجتمع شعيب، وهو قوله: ﴿ولا تَقْعُدُوا بِكلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وتَصُدُّونَ عن سبيل الله مَنْ آمَنَ بِهِ وتَبْغُونَها عِوَجاً واذْكرُوا إذْ كُنتُم قليلاً فَكَثَّرَكُم وانْظُرُوا كيفَ كانَ عاقبةُ المُفْسِدِين﴾ [الأعراف: ٨٦].

إن هذه الشريحة من القصة امتدادٌ لشريحة سابقة هي السلوك العدواني، فإذا كان التعامل الاقتصادي الذي لحظناه قبل قليل قائماً علىٰ العدوان المالي،

فإن الشريحة الجديدة تقدّم نمطاً آخر من العدوان هو: جلوس القوم على الطريق مهدّدين المؤمنين بقتل شعيب.

إذاً، هناك تجانسٌ فنيّ في مفردات السلوك التي سردها النص في قصة شعيب وهي: السلوك العدواني، إلا أن النص في الآن ذاته جانس أيضاً بين السلوك الخاص لمجتمع شعيب وبين الأفكار الواردة في القصص جميعاً وهي عملية تذكير القوم بآلاء الله... ففى قصة هود ذكّرهم النص بآلاء الله من خلال إكسابهم بسطةً في الجسم، وفي قصة صالح ذكّرهم النص بآلاء الله من خلال تنعمهم بالقصور والبيوت، وها هو الآن في قصة شعيب يذكّرهم الله بِآلائِه مِنْ خِلالِ تكْثيرِهم ﴿واذْكُرُوا إذْ كُنتُم قَليلاً فَكَثَّرَكُمْ﴾.

إذاً، ثمة تجانس فني آخر يضاف إلى الخطوط الهندسية المتجانسة في النص بالنحو الذي لحظناه سابقاً.

والآن لنتابع سائر الأفكار الواردة في القصة.

يقول النص: ﴿وإنْ كانَ طائفةٌ مِنكُم آمَنُوا بالذي أُرْسِلْتُ بِهِ وطائفَةٌ لم يُؤمِنُوا فاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ الله بيْنَنَا وهُوَ خَيْرُ الحاكمين﴾ [الأعراف: ٨٧].

هذا الكلام يوجهه شعيباً لمجتمعه، وهو كلام نستخلص منه أن طائفة منهم قد آمنت (علماً بأن النص قد مهد بذلك فنيّاً حينما ذكر بأن القوم كانوا يقعدون بكل طريق يصدّون عن سبيل الله مَن آمن به)، ومع هذا التلميح، نستخلص فكرة أخرى هي: ظاهرة (الصبر) سواء أكانت متصلة بالمؤمنين أم بالمنحرفين، فالمؤمنون لا بدّ لهم من الصبر مؤقتاً حتى يحكم الله بعد ذلك، والمنحرفون سوف يدفعون ثمن انحرافهم عندما يصبرون لحين مواجهتهم عاقبة الانحراف.

بيد أن هذا التذكير بالحقيقة المذكورة لم يصرف المنحرفين عن المكابرة حيث أجابوه بقولهم: ﴿... لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُعَيْبُ والذينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ

قَرْيَتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨]، وأجابوا المؤمنين بخاصة: ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٠]. ونتيجة لهذا الموقف نتوقع فنياً أن يعاقبهم الله علىٰ هذه المكابرة، وبالفعل جاءت الفقرة التالية تحدّثنا عن الجزاء الذي لحقهم: ﴿فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾ [الأعراف: ٩١] وهو نفس المصير أو الجزاء الذي لحق مجتمعات نوح وهود وصالح ولوط، حيث نلحظ تجانس المصائر مفصحة عن تجانس الخطوط الفنية التي تحكم النص.

* * *

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالبَأْسَاءِ والضَّرّاءِ لَعَلَّهُم يَضَّرَّعُونَ * ثُمَّ بَدَّلْنا مكانَ السَّيِّئَةِ الحَسَنةَ حتّىٰ عَفَوا وقَالُوا قَدْ مَسَّ آباءَنَا الضَّرَّاءُ والسرّاءُ فأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وهم لا يشعرون﴾ [الأعراف: ٩٤ ـ ٩٥].

هذا المقطع من سورة الأعراف جاء بعد مجموعة قصصية تتحدث عن أقوامِ نوحٍ وهودٍ وصالحٍ ولوطٍ وشعيب، كما أن قصة أخرىٰ مفصلة سوف تعقب هذا المقطع هي قصةُ موسىٰ مع مجتمع فرعون.

والسؤال هو: لماذا قطع النصُّ السلسلةَ القصصيةَ بهذا المقطع؟.

قبل أن نجيب فنياً عن هذا السؤال، نَعْرِض للأفكار التي طُرِحت فيه، لقد ذكر النص أنَّ الشدائدَ التي لحقت المجتمعاتِ البائدةَ كانت بمثابةِ تنبيه لعلّهم يَضّرَّعون، كما ذَكَرَ بأنَّ الله أَعْقَبَ الشدائدَ المذكورةَ برَخاءٍ، لكنَّ المجتمعاتِ المذكورة لم تتعظْ بهذِه الشدةِ والرَّخاءِ، وفَسَّرُوا نُزُولَ الشدائدِ بأنّها سُنَّة قد مَسَّتْ آباءَهُمْ مِنْ قَبْلُ أيْضاً. ونتيجةً لِهذا التفسيرِ أَخَذَهُم، ثم لحقها الجزاءُ المُترتِّبُ علىٰ الانحرافِ وهو الإبادةُ الجماعية لهم، وبهذا قد ربط النص بين المجتمعات البائدة وبينَ المجتمع المعاصِر أو المُمْتَدّ لِرِسَالةِ الإسلام حيث ينبغي ألاّ تأمن هذه المجتمعات من مصائر مماثلة لمصائر

السابقين فَيَأْتِيَهُمُ العذابُ ليلاً أو نهاراً، ومع أنّ نصوصاً إسلامية خاصة لوحت بأن الأمة الإسلامية ـ إكراماً لمحمّد(ص) ـ سوف يرفع عنها الجزاءُ الدنيوي، إلاّ أنَّ النصَّ بتهديدِهِ الأمّة بأنه ينبغي ألاّ يأمن مكر الله أحدٌ من الناس أو المجتمعات، إنما يستهدف تذكيرهم بأن مسألة الجزاء أمرٌ لا مناص منه حيث ينبغي الاتعاظ به من خلال المصائر التي لحقت البائدين، لذلك عقّب علىٰ التهديد المذكور بقوله:

﴿أولم يَهْدِ للَّذِين يَرِثُونَ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِها أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِم ونَطْبَعُ علىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُون﴾ [الأعراف: ١٠٠]، وهذا يعني أن رفع العَذَاب لم يكن تكريماً للمجتمعات المنحرفة بقدر ما كان للسبب الذي ذكرناه، وأن قضية العذاب خاضعة للإمكان (وهو ما حدث فعلاً في بعض البيئات المعاصرة لرسالة الإسلام فيما تحدثت عنها نصوص قرآنية أخرى).
المهم أنّ النص ذكر هذه الحقيقة وهي أن الله تعالى لو يشاء لأصاب هذه المجتمعات بنفس العذاب ﴿لو نشاء أصبناهم بذنوبهم﴾ وأنه لو يشاء لطبع علىٰ قلوبهم كما طبع علىٰ قلوب البائدين ﴿ونطبع علىٰ قلوبهم فهم لا يسمعون﴾.

إذاً، مسألة العذاب أو الجزاء الدنيوي تظل خاضعة لإمكان الوقوع بغض النظر عن الأسباب الخاصة التي استتلت عدم وقوعه، فيما لا تعني استثناءً خاصاً لهذا المجتمع أو ذاك بقدر ما تعني إن رفع العذاب المؤقّت لا يجرّ للمنحرفين أي نفع، بل على العكس من الممكن أنْ يعوض عنه بعذاب أشد في الحياة الآخرة. وأياً كان الأمر، فإن التذكير بمصائر الماضين أعاده النص من جديد حينما خاطب محمداً(ص) ﴿تِلْكَ القُرَىٰ نَقُصُّ عليكَ مِنْ أَنْبائها ولَقَدْ جَاءَتهم رُسُلُهُم بِالبيِّنَاتِ فما كانوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللّهُ علىٰ قُلُوبِ الكافِرينَ﴾ [الأعراف: ١٠١]. فهذا التذكير يفسّر ما سبق أن أكّده

النص حينما استهدف منه حَمْلَ المجتمعات المعاصرة لرسالة الإسلام علىٰ الاتعاظ بالمصائر البائدة وتَرْكَ المجال لهم بتعديل السلوك، دون أن يعني ذلك: بأنّ رفْعَ العذاب الموقّت هو نمط من التعبير عن مشروعية ما يمارسه المنحرفون مثلاً.

إذاً، أمكننا الآن أن ندرك جانباً من السرّ الفنيّ الكامن وراء هذا المقطع الذي يجسّد عملية تذكير بمصائر البائدين، بعد أن عرض النص مفصلاً جملة من القصص المتصلة بهذا الجانب.

* * *

قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَىٰ بِآيَاتِنا إلىٰ فِرْعَونَ ومَلائه فَظَلَمُوا بِها فانْظُرْ كيفَ كانَ عاقِبةُ المُفْسِدِينَ * وقَالَ مُوسىٰ يا فِرْعَونَ إنِّي رسولٌ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لا أَقُولَ علىٰ الله إلاّ الحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فأَرْسِلْ مَعِي بَنِي إِسْرَائيل...﴾ [الأعراف: ١٠٣ ـ ١٠٥].

نواجه هنا قِصَّةً جديدةً في سياقِ قصصِ البائدين هي قصةُ موسىٰ مَعَ مجتمعِ فرعون. وهذه القصةُ أخذتْ موقعاً مستقلاً من النص فلم تجيء في السلسلةِ القصصيةِ البادئةِ بقصةِ نوح والمنتهية بقصةِ شعيب بل فُصِلَ بينها بجملةٍ مِنَ الأفكار.

ولعل التفسيرَ الفنيّ لهذا الاستقلال القصصي عائد إلى أنّ هذه القصة تتضمّن أحداثاً ومواقفَ متنوعة لها أهميتها الخاصة التي يستهدف النصُ توصيلها إلىٰ المتلقّي بحيث تتجانس مع مجموعة الأفكار العامة التي ينتظمها النثر غير القصصي في السورة.

ولكي نتبيّن ذلك تفصيلاً يحسن بنا أن نتابع هذه القصة في أقسامها جميعاً بنحوٍ يتضح من خلاله الموقع الهندسي لها بالنسبة إلىٰ هيكل السورة.

لقد بدأت القصة بالحديث عن إرسال موسىٰ إلى فرعون ومجتمعه حاملاً معه بيّنةً من الله علىٰ كونه رسولاً، مطالباً (فرعون) بتحرير الناس الذين استعبدهم.

إلى هنا فإن الدلالة المنتشرة في القصة تتجسّد في قضية اجتماعية خطيرة هي: عدم استعباد الناس. ونحن لا نحتاج إلى التعقيب علىٰ خطورة هذه القضية، إذا أخذنا بنظر الاعتبار أن رسالات السماء تُعنىٰ بالإنسان وإكسابه القيمة الخاصة بكيانه، وما دام هدف العرض القصصي هو تنبيه المتلقّي علىٰ الدلالات الخاصة التي يعتزم توصيلها إليه: بخاصة أن العنصر القصصي موظّف لإنارة رسالة الإسلام، حينئذٍ نتوقّع ـ فنيّاً ـ أن يستخلص المتلقّي إنسانية الرسالة من خلال طرح القصة قضية تحرير الإنسان من عبوديّة الآخرين.

المهم، أن القصة عندما طرحت هذه القضية علىٰ لسان موسىٰ في محاورته مع فرعون، مهّدت لها بمقدمة تتضمن الدليل المسوّغ للمطالبة المذكورة وهو كون موسىٰ قد جاء ببيّنةٍ من الله أي بحجّةٍ أو بدليلٍ يدعم به صحة اضطلاعه برسالة من الله. ولذلك طالبه فرعون بتقديم الدليل: ﴿قالَ إِنْ كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنتَ مِنَ الصادقين﴾ [الأعراف: ١٠٦].

هنا، يتقدّم موسىٰ ـ بطبيعة الحال ـ بعرض البيّنة: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٧ ـ ١٠٨].

لا نريد أن نفصّل الحديث عن المنحىٰ الفنّي لهذه القصة بقدر ما نعتزم توضيح موقعها الهندسي من السورة، إلا أنّ ذلك لا يمنعنا من الإشارة ـ ولو عابراً ـ إلىٰ بعض السمات الفنية في هذا الصدد، وفي مقدمتها: طريقة العرض القصصي من خلال عنصري «الحوار» و«السرد»، فالحوار قام بمهمّة عرض الدليل اللفظي وهو قول موسىٰ: ﴿قد جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُم﴾ وجواب فرعون:

﴿فأتِ بِها إنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِين﴾، في حين تكفل (السرد) بعرض الدليل العملي ﴿فألقىٰ عصاه﴾ ﴿ونزع يده﴾.

فالمُلاحَظ أن(السرد) قد اختزل الحَدَث (العصا واليد) فلم يُشر إليهما في بدء المقابلة بين موسىٰ وفرعون بل استخدم عنصري (التشويق) و(المباغتة) في تقديم الحَدَث. (التشويق) يتمثل في تلويح موسىٰ بأنه قد جاء بـ(بيّنة) حيث نتطلع إلى معرفة ذلك، و(المباغتة) تتمثل في كون موسىٰ قد ألقىٰ عصاه ونزع يده مباشرةً فإذا بالثعبان وبالنور يلفّان الموقف.

المهم، إن(فرعون) وحاشيته عندما بوغتوا بهذين الحادثين، كان ردّ فعلهم بهذا النحو: ﴿. . . إنَّ هذا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُم فماذا تأمُرُون﴾ [الأعراف: ١٠٩ ـ ١١٠] نَفْهَمُ (الاختزال الفنّي) لِلحوار السابِقِ أن حاشية فرعون وَجَّهَتِ الخِطَابَ لِفرْعَونَ بِدليل الجَواب الآتي:

ثم كان الجواب: ﴿. . . أرْجِهِ وَأَخَاهُ وأرْسَل في المَدَائِنِ حاشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيم﴾ [الأعراف: ١١١ ـ ١١٢]. كما نفهم (من خلال نفس السمة الفنية التي أشرنا إليها قبل قليل) أن (هارون) أخا موسىٰ كان الشخص الآخر مع أخيه في اضطلاعهما بمهمة الرسالة، فعبارة ﴿أرجه وأخاه﴾ تكشف من خلال الاختزال القصصي عن بطل آخر في القصة لم يكشف النصُ النقاب عنه إلاّ في الفقرة الأخيرة من الحوار، وهو نمط مثيرٌ للدهشة الفنية دون أدنىٰ شك، حيث قام(الحوار) في هذا القسم من القصة، و(السرد) في القسم السابق لها بمهمة متجانسة من حيث الكشف (المباغت) للأحداث والابطال، أي حادثتي (العصا واليد) والبطل (هارون).

وأياً كان، فإن القسم اللاحق من السورة تحدث عن السحرة وانهزامهم، ثم إيمانهم في نهاية المطاف، ويعنينا من هذه الحادثة هو: كونها مفصحة عن مستويات الإدراك العقلي للمنحرفين (فرعون وبطانته والسحرة) ثم إمكانية

تعديل السلوك (إيمان السحرة) ثم مستويات التعامل العدواني للطغاة، ثم صلاته بالموقف الذي صدر عنه التائبون.

إذاً، فلنتجه إلىٰ ملاحظة هذا المقطع بمستوياته المشار إليها بغية تحديد موقعها الفني من عمارة النص عنه.

* * *

قال تعالى: ﴿وجاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَونَ قالُوا إنَّ لَنَا لأجْراً إنْ كُنَّا نَحْنُ الغَالِبِينَ * قالَ نَعَمْ وإنَّكُمْ لَمِنَ المُقَرَّبِين * قَالُوا يا مُوسىٰ إمَّا أنْ تُلْقِيَ وإمَّا أنْ نَكُونَ نَحْنُ المُلْقِينَ * قالَ ألْقُوا فلمَّا ألْقَوا سَحَرُوا أعْيُنَ الناسِ وٱسْتَرْهَبُوهُم وجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيم * وَأوْحَيْنَا إلىٰ مُوسىٰ أنْ ألْقِ عَصَاكَ فإذَا هِيَ تَلْقَفُ ما يأفِكُونَ * فَوَقَعَ الحَقُّ وبَطَلَ ما كانُوا يَعْمَلُون * فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وانقَلَبُوا صَاغِرِينَ * وأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ العَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وهارون﴾ [الأعراف: ١١٣ ـ ١٢٢].

هذا المقطع يتحدث عن قصة موسىٰ وهارون مع فرعون وحاشيته، حيث لحظنا سابقاً أن فرعون وحاشيته اقترحوا تجمع السحرة ليردّوا بذلك علىٰ الإعجاز الذي قدّمه موسىٰ متمثلاً في العصا واليد البيضاء.

وجاء السحرة فعلاً، وطالبوا فرعون بالأجر علىٰ ذلك في حالة الغلبة، ووافقهم علىٰ طلبهم. ولما ألقوا السحر، سحروا أعين الناس فعلاً واسترهبوهم، لكن ما أن ألقىٰ موسىٰ العصا حتىٰ ابتلعت ما موهوه علىٰ الناس.

والمهم في هذه الحادثة جملة من الحقائق التي يستهدف النص توصيلها إلىٰ المتلقي، منها أن السحر لا قيمة له البتة، ومنها أن رسالة السماء هي القيمة الحقة حيث أبطلت السحر، ومنها (وهذا هو الأهم) أن السحرة أنفسهم (آمنوا) بالله حينما وجدوا أن عملهم باطلٌ وان الله هو الحق.

إن أهمية هذا الموقف للسحرة لا تنحصر في كونها موقفاً عَرَضياً بقدر ما يكشف عن حقيقة عبادية عامة هي: أن الأشخاص المخلصين في تفكيرهم (أي: الأشخاص الذين لا ينطلقون في مواقفهم من مصلحة ذاتية أو شذوذ نفسي أو عقلي) سوف ينصاعون لرسالة السماء، ولا أدلّ علىٰ ذلك من شخوص (السحرة) الذين كانوا في غفلة من سلوكهم، وما أن واجههم منبهٌ جديد(وهو عصا موسىٰ) حتىٰ انتبهوا من غفلتهم وأذعنوا للحق. حيث يكشف هذا الموقف عن أن مطلق المنحرفين (ومنهم: هؤلاء الذين يخاطبهم القرآن في زمن رسالة الإسلام) عندما لا يذعنون لهذه الرسالة إنما ينطلقون في ذلك من موقف غير محايد، أي: امّا أن (الذات) تسيطر عليهم، فلا يسمحون للحقيقة بأن تلج أعماقهم، وامّا أن يلفّهم شذوذ نفسي (كما لو كان هناك مرض عميق يحتجزهم من الانفتاح علىٰ معرفة الحق) أو يغلّفهم شذوذ عقلي (كما لو كانوا قاصرين مثلاً).

إذاً، قضية السحرة الذين آمنوا بالله: تمثّل تجسيداً لحقيقة عبادية ضخمة في ميدان السلوك الآدمي العام، كما أنها (من حيث البناء الهندسي للسورة) تحتل موقعاً فنيّاً من النص يلقي إنارته علىٰ الأفكار المنتشرة في السورة.

على أن الأمر لا يقف عند هذا الحد، بل يتجاوزه إلى الموقف الصلب الذي اتخذه السحرةُ حيال فرعون، فمع أنهم (قبل مرحلة الإيمان) كانوا مشدودين إلىٰ متاع الحياة فحسب بحيث طالبوا بالأجر على عملية السحر، مع ذلك عندما أدركوا حقيقة الموقف، انقلبت معاييرهم إلى النمط الرفيع الذي ينبغي أن تختطه الشخصيةُ العباديةُ لها، وهو: الاتجاه إلى الله حتىٰ لو كلفها ذلك التضحية بالنفس، ولنقرأ:

﴿قال فرعون آمنتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هذا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ في المدينةِ لِتُخْرِجُوا مِنْها أَهْلَها فَسَوفَ تَعْلَمُونَ * لأُقَطِّعَنَّ أيدِيَكُمْ وأرْجُلَكُم مِنْ خِلافٍ ثُمَّ

لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِين * قالُوا إِنَّا إِلىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُون * وما تَنْقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بآياتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وتَوَفَّنا مُسْلِمِين﴾ [الأعراف: ١٢٣ ـ ١٢٦].

إن هذا الموقف لا يكشف عن قضية (الإيمان) فحسب وإلى أنه يتطلب تضحية بالنفس فحسب، بل يكشف عن الموقف المقابل لفرعون، ففرعون بالرغم من كونه واجَه نفس المنبّه الجديد(وهو عصا موسىٰ التي أبطلت السحر) إلاّ أنّه بدلاً من أن يؤمن بالله كما آمن السحرة إذا به يستكبر أي: ينطلق ـ كما أشرنا قبل قليل ـ من شذوذ نفسي هو: نظرته المريضة عن (ذاته) حيث لحظ نفسه مسيطراً علىٰ بقعة جغرافية ضخمة، مسيطراً علىٰ مجموعة بشرية ضخمة، حينئذٍ لا تسمح له نفسه بالتنازل عن كبريائه بل يمعن في الاستكبار إلىٰ الدرجة التي لا يقف عندها في نطاق السكوت مثلاً، بل هدّدهم بقطع أيديهم وأرجلهم.

إن هذا الموقف العدواني من فرعون يفسّر لنا جميع أنماط السلوك الذي يصدر عنه طغاة الأرض قديماً وحديثاً، وهو أنهم ينزعون إلى العدوان في أحط مستوياته بغية الاحتفاظ بعروشهم الدنيوية.

وأياً كان الأمر، فإن قضية السحرة (من حيث الإيمان) وموقفهم من فرعون، ثم موقف الأخير منهم، تكشف لنا عن جملة من الحقائق العبادية والاجتماعية والنفسية التي أشرنا إليها.

والمهم بعد ذلك، إن حاشية فرعون ،وهم الأذلاء الذين يعوّضون الإحساس بالنقص لديهم (من حيث كونهم خاضعين لفرعون) يعوضونه بإيذاء مَن هم دونهم، حيث يقترحون علىٰ فرعون بأن يعاقب موسىٰ ومَن آمن معه:

﴿وقال المَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرعَون أَتَذَرُ مُوسىٰ وقومَهُ لِيُفْسِدُوا في الأَرْضِ ويَذَرَكَ وآلِهَتَكَ قالَ سَنُقَتِّلُ أَبْناءَهُمْ ونَسْتَحْيي نِساءَهُمْ وإِنَّا فَوقَهُمْ قَاهِرُون﴾

[الأعراف: ١٢٧]. إن هذا الموقف لحاشية فرعون يكشف عن أن المنحرفين متماثلون في صدورهم عن الانحراف: في المواقف الشاذة، فهم من جانبٍ يعوّضون ـ كما أشرنا ـ عن ذلّتهم لفرعون يعوضون النقص بتحريضه علىٰ إلحاق الأذىٰ بالمؤمنين، كما أنهم من جانبٍ آخر يصدرون عن نفس الشذوذ الذي غلّف رئيسهم فرعون من حيث كونهم يؤثرون متاع الحياة الدنيا (من حيث احتلالهم موقعاً سياسياً ضخماً) حيث يحتجزهم الشذوذ (ومعهم فرعون) من الانصياع لرسالة الحق، علىٰ العكس من السحرة الذين نفضوا عنهم كل آثار الانحراف الذي طبعهم جهلاً، ثم أدركوا الحقيقة وعدّلوا من سلوكهم، دون أن يحتجزهم عائق نفسي أو ذهني من الإيمان برسالة الله تعالى.

* * *

قال تعالى: ﴿قالَ مُوسىٰ لقومِهِ ٱسْتَعِينُوا بِالله وٱصْبِرُوا إنَّ الأرضَ لله يُوْرِثُها مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبادِهِ والعَاقِبَة للمتقين * قالُوا أُوذِيْنا مِن قبلِ أنْ تَأْتِينَا وَمِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنَا قالَ عَسَىٰ ربُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُم وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأرض فيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُون﴾ [الأعراف: ١٢٨ ـ ١٢٩].

في هذا المقطع من قصة موسىٰ(ع)، ظاهرة جديدة من السلوك المتصل بمجتمعي مُوسىٰ وفِرْعون. (ففي مَقْطَعٍ أَسْبق) قَرَّرَ فِرعونُ وحاشيتُه إلحاقَ الأذىٰ بموسىٰ وقومِهِ بعد فشلِهم في عمليةِ السحر.

وها هو المقطع الجديد من القصةِ، يُشير إلىٰ أن الأذىٰ قد لحق قومَ موسىٰ فعلاً، أنّهُمْ قَدْ أُوذوا مِن قبل (أي: عِندما كانَ فِرعونُ يَسْتعبدهم) وهم الآن عرضةٌ للأذىٰ أيضاً بصفتهم آمنوا بموسىٰ ﴿قالوا أُوذينا من قبلِ أن تأتينا ومِن بعدِ أنْ جِئتنا﴾.

بيد أنّ ما ينبغي لفت النظر إليه هو: جملة من الحقائق الفنيّة المتصلة بعمارةِ القصةِ ودلالاتِها.

فمِن حيثُ الدّلالاتُ الفكريةُ التي يَسْتَهْدِفُ النّصُّ توصيلَها إلى المتلقي أُمورٌ مِنْها (الاستعانةُ بالله) و(الصبر) و(وِراثةُ الأرض لله) و(هَلاكُ العَدُوّ).

أما الاستعانة والصبر فنمطان من السلوك العام الذي ينبغي أن يطبع السلوك البشري في كل منحنياته الفردية والاجتماعية.

وأمّا هلاك العدو ووراثةُ الأرضِ فيُجَسِّدَانِ سُلُوكاً اجتماعيّاً أو سِياسياً يَرْسُمَهُ النَّصُّ هُنَا (لَيسَ بصفتِهِ خاصّاً بِمُجتمعٍ مُحَدَّد هُو مجتمعُ مُوسىٰ) بل يتجاوَزُهُ إلى مطلقِ المجتمعاتِ بخاصةٍ مجتمَعَنا الإسلامي الذي تتَّجهُ القِصَّةُ إليه. فالأرض يرثها عباد الله الصالحون في نهاية المطاف، وأعداء الله مصيرُهم إلىٰ الزوال لا محالة، بدليل المبدأ الاجتماعيّ المذكورِ الذي رَسَمَهُ الله تعالىٰ.

بيد أنَّ ما يَلْفِتُ النظر حقاً في هذا المقطع من القصة هو ما يتصل بعمارة النص أي: هيكل الأحداث التي ستجيء فيما بعد حيث أرهص بها النصُّ فنيّاً حينما قال أولاً ـ على لسان موسىٰ مخاطباً قومه الذين قالوا له: ﴿أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد أن جئتنا﴾ حيث قال لهم موسىٰ: ﴿عَسَىٰ ربُّكم أن يُهْلِكَ عدُوَّكُمْ ويَسْتَخْلِفَكُم في الأرْضِ فَيَنْظُرَ كيفَ تعملون﴾. إن قول موسىٰ: عسىٰ ربُّكم أن يُهْلِكَ عدوَّكم ويَسْتخلِفَكُم في الأرض هو تنبؤ فنيٌّ مِنْ حَيْثُ الفَنُّ القَصَصيُّ القائم علىٰ فسْحِ المَجالِ للمتلقي بأن يتنبأ بالأحداثِ مِنْ خِلالِ رموزِ القصة، فقولُه عسىٰ ربُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُم يعني: أن فرعون وحاشيته سوف يهلكون (وهذا ما يحدث فعلاً عندما نُواصِلُ الأجزاء اللاحقةَ مِنَ القِصة)، إلا أن الأهَمّ من من هذا كلّه أَنَّ مُوسىٰ قال لهم أيضاً: (فيَنْظر كيفَ تعملون) أي قال لِقَومِهِ إنَّ الله بعد أن يهلك فرعون ويستخلفكم في الأرض، سوف ينظر إليكم كيف تعملون، كيف تسلكون.

عندما نتابعُ الأجزاءَ اللاحقة مِنَ القصةِ نَجِدُ قومَ موسىٰ سوفَ يُفْسِدُون في الأرضِ كما أَفْسَدَ فِرعونَ من قبلِهم، وهذا يعني ـ من زاوية البناءِ الهندسي

للقصة ـ أن قَولَ موسىٰ المذكور، يَحْتَلُّ موقعاً هندسياً من القصة، هو أن قومَهُ سوفَ يعملون شيئاً وَيَنْظُرُ اللّهُ إليه، ولكِنَّهُ عملٌ فاسِدٌ كما سنرىٰ، وهذا يكشفُ لنا عن بعدٍ فنيّ آخَرَ مِنْ عُنْصُرِ (التَنبُؤ) فِي القِصة، فإذا كانَ عُنْصُرُ (التنبؤ) الأول، وهو هلاك فرعون سيتحقق بشكل واضح لأن النص قال بصراحة: ﴿عسىٰ ربكم أن يهلك عدوّكم﴾ أي: أن النص أوحىٰ للمتلقي بأن الهلاك سوف يتحقق، بينما جاء عنصر(التنبؤ) الآخر ملفعاً بالغموض، لا يستطيع المتلقي أن يتنبأ به، فقوله تعالى: ﴿فينظر كيف تعملون﴾ من الممكن أن يكشف عن أن العمل الذي سيقوم به مجتمع موسىٰ صالحاً، ومن الممكن أن يكشف ذلك عن أن العمل سوف يكون مفسداً (وهذا نحوٌ آخر من عنصر التنبؤ) الفني في الشكل الأدبي للقصة، لكن، عندما نتابع القصة، نجد أن (التنبؤ) سوف يكون مائلاً إلى جهته السلبية، بدليل أن قوله (فينظر ماذا تعملون) لو كان ناظراً إلى الجهة الإيجابية من السلوك لما احتاج إلى مثل هذا التعقيب وإبرازه في عبارة خاصة، وهذا بعكس ما إذا كان ناظراً إلى الزاوية السلبية من السلوك، لذلك يتوقع القارىء (إذا كان ممتلكاً لشيء من الحاسة التذوقية في الأدب القصصي)، يتوقع أن يجد انعكاس هذا القول (فينظر ماذا تعملون) على الأجزاء اللاحقة في القصة بحيث تتحدث فصولها عن قوم موسىٰ بصفتهم لم يتمثلوا مبادىء السماء التي أوصلها موسىٰ(ع) إليهم، بل تمردوا عليها وفقاً للتفصيلات التي سنتفق عندها في حينه. . .

وأياً كان، فهنا(تنبؤان) فنيّان، نستخلصهما من عبارة موسىٰ لقومه (عسىٰ ربكم أن يهلك عدوكم) وعبارته (فينظر ـ أي الله ـ ماذا تعملون). . . أما العبارة الأولىٰ فستنعكس أصداؤها علىٰ القسم الآتي مباشرة من القصة: حيث سيتناول النص قضية الهلاك الذي سيلحقهم، وأما العبارة الأخرىٰ: فستنعكس أيضاً أصداؤها علىٰ القصة حيث ستتناول تفصيلاً غالبية السلوك السلبي الذي صدر عنه مجتمع موسىٰ(ع)، (بالنحو الذي سنقف عليه).

قال تعالى: ﴿ولقد أخذنا آلَ فِرعونَ بِالسِّنِينَ ونَقْصٍ مِنَ الثمراتِ لعلَّهم يَذَّكَّرُون * فإذا جاءَتْهُمُ الحَسَنةُ قالوا لَنَا هذِه وَإِنْ تُصِبهُم سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بمُوسىٰ ومَنْ مَعه ألا إنَّما طائرُهُم عِندَ الله ولَكِنَّ أكثرَهُمْ لا يَعْلَمُون *وقالوا مهما تأتِنَا بِهِ مِنْ آيةٍ لِتَسْحَرَنَا بِها فما نَحْنُ لكَ بِمُؤْمِنين * فأرْسَلْنَا عليهِمُ الطُوفانَ والجَرَادَ والقُمَّلَ والضَّفادِعَ والدَّم آيَاتٍ مُفَصَّلاتٍ فاْستكبرُوا وكانوا قَوْماً مُجرمين * ولما وَقَعَ عليهِمُ الرِّجزُ قالوا يا مُوسىٰ أدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِندَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ معَكَ بَنِي إسْرائيل * فلمّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلىٰ أَجَلٍ هُمْ بالِغُوهُ إذا هُمْ يَنكُثُونَ * فأنتَقَمْنا مِنْهُمْ فأغْرَقْنَاهُمْ فِي اليَمِ بأنَّهُمْ كَذَّبُوا بآياتِنا وكانُوا عَنْها غافلين﴾.

هذا القسم من قصة موسىٰ: يمثل شريحة قصصية تتصل بسلوك مجتمع فرعون حيال موسىٰ ومَن آمن به... فبعد أن آمن السحرة برسالة موسىٰ هدد فرعونُ وقومُه: المؤمنين (وآذَوْهُمْ فِعلاً) بِحَسَبِ المقولةِ التي نَقَلَتْها القِصة عنهم بِقَوْلِهِم لموسىٰ ﴿أوذينا من قَبْلِ أنْ تَأْتِينا ومِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنَا﴾، إذْ أجابَهُمْ موسىٰ قائلاً ﴿عسىٰ ربُّكُم أنْ يُهلِكَ عدوَّكُم ويَستخلِفكُم فِي الأرض فينظُرَ كيفَ تعملون﴾ وها هو النص الآن يُحَدِّثُنا عَنْ هلاكِ الفراعنةِ إذ عاقَبَهُم الله أولاً بِالقَحطِ والجَدب (لعلّهم يَذَّكَّرون) ومقدمة سورةِ الأعرافِ طَرَحَتْ هذا المفهومَ وهو (التذكّر) وها هي الآن تُرَدِّدُ هذِهِ المقولة في قِصَّةِ مُوسىٰ عند حديثها عن مجتمع فرعون: ليتلاحم النصُّ هندسياً وتتواشج أقسامه: بعضاً بالآخر...

المهم، أن هلاك الفراعنة بدأ مع ظاهرة الجدب، وجاء هذا الجدب بمثابة إنذار لتتمّ الحجة عليهم فلعلهم يتذكرون،... إلا أن هؤلاء لم تنفعهم التجربة حيث كانوا يفسرون قضية الجدب بأنها سوء الطالع بالنسبة لموسىٰ وقومه، وعندما يغمرهم الخصب ينسبونه لأنفسهم... كما أنهم أصروا علىٰ

موقفهم المستكبر من الإيمان بالله،حيث فسّروا الإعجاز الذي لحظوه عند موسىٰ(ع) بأنه سحر، فبالرغم من أن العصا أبطلت السحر الذي هيأوه وخابوا، نجدهم يقولون: ﴿مهما تَأْتِنَا مِنْ آيةٍ لِتَسْحَرَنا بِها فما نَحنُ لكَ بِمُؤْمِنِين﴾...

إن هذا الإصرار يفصح عن أن القوم لم يمارسوا أية فاعلية عقلية أو موضوعية لمدارسة الموقف بل انصاعوا لذواتهم بحيث أصروا علىٰ أن الإعجاز هو سحرٌ وأنهم لن يؤمنوا برسالة السماء...

نتيجة لذلك: نتوقع أن تعاقبهم السماء بجزاء أشد من السابق وهو: الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم: وعندما شاهدوا هذه الآيات طلبوا من موسىٰ أن ينقذهم من ذلك بدعائه إلى الله، ففعل، واستجيب له... لكنهم عادوا إلى نفس الموقف المنحرف... وعندها غمرهم الجزاء الماحق وهو: الغرق في البحر بالنحو الذي نعرفه جميعاً...

إن هذه الأقصوصة التي رسمت مصير آل فرعون، تظل جواباً فنياً لمقولة موسىٰ(ع) في مقطع أسبق: حيث قال لهم ﴿عسىٰ ربُّكم أنْ يُهْلِك عَدُوَّكُمْ ويَسْتَخْلِفَكُمْ في الأرض﴾ وها هو الهلاك يتحقق فعلاً...

وأمّا استخلاف قوم موسىٰ، فقد أوضحه النص في قسم لاحق من القصة حيث قال: ﴿وأَوْرَثْنَا القومَ الذِين كانُوا يُسْتَضعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرضِ ومغارِبهَا الخ﴾...

لكنَّ عملية الاستخلاف تظل مشروطةً بإفادةِ القوم مِنْ تجاربِ الماضِي وبالتِزام مَبَادىء الله، فهل التزم قومُ موسىٰ بذلك أو لا؟.

إن المقطع الأسبق من القصة أو من المقولة التي لحظناها قبل قليل وهي قول موسىٰ لقومه (عسىٰ ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فَيَنْظُر كَيْفَ تعملون) قد لوحت بعبارة (فينظُرَ كيفَ تعملون) إلى أن قوم موسىٰ سوف يتعرّضون لتجربة عبادية في السلوك، بحيث يمكن أن نتبين منها أنهم

ناجحون أو مخفقون في تجاوز التجربة المذكورة. . .

ونحن حين نتابع الأجزاء اللاحقة من القصة، سنجد أن قوم موسىٰ لم يلتزموا بمبادىء الله وأنهم مارسوا ألواناً من الفساد بالنحو الذي سنقف عليه لاحقاً. . . غير أنّ ما يعنينا أن نؤكده الآن ونكرّر ما سبق أن أوضحناه قبلاً هو: إن البناء الهندسي للقصة قد أُحكم بنحوٍ بالغ الدهشة حينما نمعن النظر في تلك المقولة التي كررنا ذكرها ونعني بها قول موسىٰ لقومه: ﴿**عسىٰ ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون**﴾.

فهذه، المقولة تتضمن ثلاثة أمور:الأول: هلاك العدو، وقد شرح النص هلاكهم مفصلاً، الثاني: استخلاف قوم موسىٰ وقد أشار فعلاً إلى ذلك بقوله ﴿**وأَوْرَثْنَا القوم الذي كانوا يستضعفون الخ**﴾، الثالث: النظر إلىٰ كيفية السلوك الذي سيختطّه قوم موسىٰ، وهو ما سوف تشرحه القصة في مقاطع لاحقة، حيث قلنا:ان عملهم سوف يتجسّد في عمليات الإفساد في الأرض بدلاً من الإصلاح، والمهم (من زاوية البناء الهندسي) هو أن المقولة السابقة لموسىٰ ينبغي أن نضعها في الاعتبار من حيث أهمية الموقع الفني الذي احتلته من القصة نظراً لانعكاساتها علىٰ الأجزاء اللاحقة من القصة بالنحو الذي تم الحديث عنه.

* * *

قال تعالى: ﴿**وجاوزنا بِبَنِي إسرائيلَ البَحْرَ فأَتَوا علىٰ قوم يَعْكُفُونَ علىٰ أَصْنَامٍ لهم قالوا يا مُوسى اَجْعَلْ لَنَا إلٰهاً كما لَهُمْ آلِهَةٌ قالَ إِنَّكُمْ قَومٌ تَجْهَلُونَ * إنَّ هؤلاءِ مُتبَّرٌ ما هُمْ فِيْهِ وباطِلٌ ما كانوا يَعْمَلُونَ * قالَ أَغَيْرَ الله أَبْغِيكُمْ إلٰهاً وهو فَضَّلكم عَلىٰ العَالَمِين * وإذْ أَنْجَيناكُمْ مِنْ آلِ فِرعونَ يَسُومونكم سُوءَ العَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبناءَكم ويَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُم وفي ذَلِكُم بلاءٌ مِنْ رَبِّكُم عَظيم**﴾ [الأعراف: ١٣٨ ـ ١٤١].

هذا المقطع من قصة موسىٰ، يمثل قسماً جديداً من أقسام القصة التي يتناول كل جزءٍ منها جانباً من الحوادث والمواقف. والجديدُ هنا هو: عَرْضٌ لسلوكِ الإسرائيليين الذين أنقذهم الله مِنْ فِرعون كما قالَ لَهُمْ موسىٰ: ﴿عسىٰ ربكم أن يُهلك عدوَّكم ويستخلِفَكُم فِي الأَرْضِ فينظرَ كيف تَعْمَلُون﴾ [الأعراف: ١٢٩]، وقد أُهلِكَ العدُو بالفعل، واستُخلف الإسرائيليون، وجاءت المرحلة الثالثة وهي قوله ﴿فينظُرَ كيفَ تَعْمَلُون﴾، وجاءَت الشريحةُ الجديدةُ من القصة معبّرة عن انعكاسات الفقرة المذكورةِ، أي: مبيّنةً كيف أن الإسرائيليين سوف يُمارسون السلوكَ الذي تنبأ بِهِ مُوسىٰ، السلوك الملتوي الذي أوضحته القصة بأنّ الإسرائيليين عندما عبروا البحر وغرق فرعون وقومه واجهوا في طريقهم قوماً يعبدون الأصنام، فطلبوا حينئذٍ من موسىٰ أن يجعل لهم أصناماً أيضاً. إذن: هذه الأحداث الثلاثة تشكّل (نمواً عضوياً) للفقرات الثلاث التي نطق بها موسى عن توقعه أن يهلك عددهم، ويستخلفون في الأرض، وينظر الله فيما يفعلون، حيث جاء الفعل سلبياً كما لحظنا.

إن هذه التجربة هي أول سلوك شاذ يصدر الإسرائيليون عنه، فالمفروض أن يتّعظ الإسرائيليون بمصير فرعون وقومه، وأن يُقدّروا عطاء الله الذي أنقذهم من فرعون، ويسر لهم طريق البحر بنحو إعجازي، لكن بدلاً من أن تتصاعد هذه الفئة بسلوكها نحو الأفضل، إذا بها تنحدر مباشرة إلى أحط أنماط السلوك وهو عبادة الأصنام.

لا شك، أن المتلقي سوف يستخلص سريعاً بأن الإسرائيليين يجسّدون أحطّ المستويات البشرية تفكيراً، وإلاّ فمن غير المعقول أن يستفتحوا حياتهم الجديدة مع موسىٰ باقتراح لعبادة الأصنام بينا كان المفروض أن يطالبوه بالمبادىء الجديدة المتصلة بالتعامل مع الله.

وأياً كان، فإن موسىٰ عبّر صدمته بهذا الموقف الهزيل من الإسرائيليين،

خاطبهم بقوله: ﴿انكم قوم تجهلون﴾، كما ألفت نظرهم إلى بطلان مقولتهم ودعاهم إلى توحيد الله، وذكّرهم بنعمه تعالى عليهم، وإنقاذهم من آل فرعون الذين كانوا يقتلون أبناءهم ويستحيون نساءهم.

المهم، أن هذا الموقف الإسرائيلي يظل إرهاصاً بمواقف مشينة لاحقة تحدثنا القصة عنها، بعد أن ترسم البيئة العبادية التي واكبت المواقف المنحرفة للإسرائيليين. ولنقرأ: ﴿وواعدنا موسىٰ ثلاثين ليلة وأتممناها بِعَشْر فتمّ مِيقاتُ ربِّهِ أربعِينَ ليلةً وقالَ موسىٰ لأخِيهِ هارون ٱخْلُفْنِي في قومِي وأَصْلِحْ ولا تَتَّبِعْ سَبِيلَ المُفْسِدِين﴾ [الأعراف: ١٤٢].

ففي هذا المقطع الذي يقدّم لنا بطريقة فنية البيئة العبادية التي تنتظر مكالمة موسىٰ مع السماء من حيث المبادىء التي سيبشّر بها موسىٰ قومه. في هذا المقطع إرهاص آخر بما سوف يصدر عن الإسرائيليين من سلوك منحرف، حيث أن توصية موسىٰ لهارون بأن يخلفه في قومه، وبأن يُصلح، وبأن لا يتّبع سبيل المفسدين، هذه التوصية تتنبأ لنا بنحو فنيّ أن هناك عملية (إفساد) من الإسرائيليين حين طالبه بعدم اتباع سبيلهم. لكن، سوف نلاحظ أن المواقف المنحرفة اللاحقة التي ستصدر عن الإسرائيليين، قد سبقتها مواقف خاصة بموسىٰ(ع) تتصل بتكليمه مع الله تعالى، وبنزول الألواح عليه، ومطالبته بتوصيلها إلى الآخرين.

تقول القصة: ﴿ولما جاءَ مُوسىٰ لِمِيقاتِنا وكَلَّمَهُ رَبُّهُ قالَ رَبِّ أَرِني أَنْظُرْ إِلَيْكَ قال: لَنْ تَرَانِي ولكِنِ انْظُرْ إلىٰ الجَبَلِ فإنِ ٱسْتَقَرَّ مَكانَهُ فَسَوفَ تَرَانِي فَلمّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخرَّ مُوسَىٰ صَعِقاً فَلمّا أَفَاقَ قالَ سُبْحانك تُبْتُ إِلَيْكَ وأَنَا أَوّلُ المُؤمنين﴾ [الأعراف: ١٤٣].

هذه الحادثة الخاصة بموسىٰ تظل ذات صلة بالإسرائيليين أيضاً، حيث تذكر النصوص المفسرة بأنهم طلبوا من موسىٰ ذلك من أجل أن يؤمنوا.

والمهم هو أن القصة تستهدف تقرير الحقيقة الذاهبة إلىٰ أن الله تعالى ليس جسماً حتىٰ تتحقق الرؤية المقترحة علىٰ موسىٰ، كما تستهدف تقرير الحقائق الأخرىٰ التي أوضحت بأن الجبل قد دُكَّ، وأن موسىٰ قد خرّ صعقاً، تأكيداً علىٰ امتناع الرؤية المشار إليها، ولذلك ما أن أفاق موسىٰ من صعقته حتىٰ طلب من الله المغفرة قائلاً: ﴿سبحانك تبتُ إليك وأنا أوّل المؤمنين﴾.

لا شك، أن هذه الشريحة من الموقف المتصل بالتوبة لا تنحصر في شخصية موسىٰ فحسب، بل ان دلالتها تنسحب علىٰ مجمل الموقف المتصل بالإسرائيليين أنفسهم، حيث أن إشارته بأنه (أوّل المؤمنين) إنما تنسحب علىٰ الآخرين الذين يستهدف النصُ توصيل الدلالات الفكرية إليهم بالنحو السليم، وإلغاء الأفكار المنحرفة التي صدر الإسرائيليون عنها في تعاملهم مع موسىٰ، مع تقديم المبادىء العامة التي ينبغي أن يتمّ الالتزام بها، ثم التهديد بالجزاء الذي سوف يلحق المنحرفين في حالة عدم الالتزام بذلك.

* * *

قال تعالى: ﴿قالَ يا مُوسىٰ إنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلىٰ الناسِ بِرِسالاتِي وبِكلامي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ * وكَتَبْنَا لَهُ في الألواحِ مِنْ كُلِّ شيْءٍ مَوعِظَةً وتفصيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وأمُرْ قَوْمَكَ يَأخُذُوا بِأحْسَنِها سَأُورِيكُم دَارَ الفَاسِقِين * سَأصْرِف عَنْ آياتِيَ الذِينَ يتكبَّرُونَ في الأرْضِ بِغَيْرِ الحقِ وإنْ يَرَوا كُلَّ آيةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها وإنْ يَرَوا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخذُوهُ سَبِيلاً وإنْ يَرَوا سَبيلَ الغَي يتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذلك بِأنَّهُمْ كَذَّبُوا بآياتِنا وكانوا عنها غافِلِين * والذين كذبوا بآياتنا ولِقاءِ الآخِرَة حَبِطَتْ أعْمالُهُمْ هَلْ يُجْزَونَ إلاّ ما كانُوا يعملون﴾ [الأعراف: ١٤٤ ـ ١٤٧].

هذه الآيات امتدادٌ لمقطع سابق من قصة موسىٰ(ع)، إذْ ذَهَبَ لمِيقاتِ ربِّه لِتَسَلُّم رسالةِ النُور فَخَاطَبَهُ الله سبحانَهُ بِأنَّهُ قد اصطفاه ويَأمرهُ أنْ يَحْمِلَ

الرسالةَ التفصيلية وأنْ يُوصِلَها بقوةٍ وحزمٍ إلىٰ الآخرين.

ولا نغفل (ونحن نتحدث عن عمارة السورة القرآنية) ان مقدمة السورةِ طَرَحَتْ مبدأ علىٰ المبلّغ هُوَ: ﴿كِتابٌ أُنْزِلَ إلَيْكَ فَلا يكُنْ في صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وذِكْرىٰ لِلْمُؤْمنينَ﴾ [الأعراف: ٢]. هذا المبدأ الإسلامي في التبليغ، يَطْرَحُهُ النصُ الآنَ، مُحقّقاً بذلك عنصر (التلاحم الهندسي) بين أجزاء السورة حيث يربط (المتلقي بين هذه القصة الآمرة ـ في حينه ـ موسىٰ، بأن يأخذ الرسالة بقوة ويأمر بها قومه وبين الأمر الذي وجهه الله تعالى إلىٰ محمد(ص) في مقدمة السورة بأن يأخذ رسالة الإسلام وينذر بها ويذكّر بها دون أن يكون حرج من ذلك، أي: دون تردّدٍ في ذلك. كما أن التلويح بالجزاء الأخروي للمنحرفين يأخذ نفس الطابع هنا من حيث الموازنة بين حديث النص عن المعاصرين لرسالة موسىٰ والمعاصرين لرسالة محمد(ص).

والمهم، أن القصة وهي تتحدث عن موسىٰ، وتوحي فنيّاً بعملية الربط بين البيئة التي يتحرك مجتمعه من خلالها، والبيئة الإسلامية، . . . هذه القصة تواصل رسمها لمجتمع موسىٰ، أو لنقل: لسلوك الإسرائيليين الذين لحظنا أنهم ما أن هلك فرعون حتىٰ انحرفوا من جديد عن مبادىء الله، حيث طالبوا موسىٰ بعد عبور البحر باتخاذ الأصنام آلهة لهم، كما أن موسىٰ وهو يتقدم إلىٰ ميقات ربّه لتسلّم رسالة السماء، ويخلّف أخاه هارون علىٰ القوم ويحذره من اتّباع سبيل المفسدين، إذا به يواجه الحادثة الانحرافية الكبيرة التالية:

﴿واتَّخَذَ قومُ مُوسىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُليِّهِمْ عِجلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ. . .﴾ [الأعراف: ١٤٨]. هذه هي الحادثة الثانية التي رسمها النص بالنسبة إلىٰ سلوك الإسرائيليين، ويبدو ـ من الوجهة الفنيّة ـ ان هذه الحادثة صدًى لموقف سابق هو: مطالبة قوم موسىٰ (بعد أن رأوا في طريقهم من البحر عبادة بعض الأقوام للأوثان) بأن يتخذ لهم أوثاناً مماثلة، بمعنىٰ أنّ رؤية الأوثان سحبتهم

إلىٰ ممارسة عملية هي حادثة العجل الذي تقدّمت الإشارة إليه.

بيد أن القصة وهي تختزل بطريقة فنية تفصيلات الحادث المذكور تُحسّس المتلقي بأن موسىٰ قد رجع إلىٰ القوم، وأنه عندما وجدهم في الحالة المنحرفة السابقة ووبخهم علىٰ ذلك، وأنهم قد اكتشفوا ضلالتهم في الموقف المذكور.

نفهم ذلك كله من خلال الآية الآتية: ﴿ولما سُقِطَ فِي أَيدِيهِمْ وَرَأَوا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنا رَبُّنا ويَغْفِرْ لَنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِين﴾ [الأعراف: ١٤٩].

لكن ينبغي أن نضع في الاعتبار أن قضية اكتشاف القوم لانحرافهم، ثم ندمهم علىٰ ذلك سوف ينعكس علىٰ الأجزاء اللاحقة من القصة بحيث يستخلص المتلقي بأن ممارسة الانحراف المذكور قد اقترنت حينئذٍ باكتشافه عند الإسرائيليين أنفسهم، وهو أمرٌ يشكّل إدانةً لأي سلوك لاحقٍ يصدر الإسرائيليون عنه. لذلك سوف نرىٰ أن النص يهدد أولئك الذين اتخذوا العجل ﴿إنَّ الذينَ اتَّخَذُوا العِجْلَ سَيَنَالُهُم غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وذِلَّةٌ فِي الحياةِ الدُّنْيا وكذلِكَ نَجْزِي المُفْتَرين﴾ [الأعراف: ١٥٢]. إلا أنه يُلاحَظ أن هذا التهديد سبقه مقطع يتحدث عن رجوع موسىٰ غضبان أسفاً حيث أخذ برأس أخيه هارون يجرّه إليه، كما لحقه مقطع يتحدث عن أن موسىٰ عندما سكت غضبُه ﴿أخذ الألواح وفي نسختها هدىً ورحمة﴾.

والسؤال هو: لماذا قطعت القصةُ سلسلةَ الحَدث (قضية العجل) وخلّلته موقفَ الغضب عند موسىٰ، وإلقائه الألواح، وجرّه لرأس أخيه هارون؟.

في تصوّرنا الفنيّ، أن الاستجابة أو ردّ الفعل حيال عمل منحرفٍ غير متوقّع مثل عبادة العجل: بخاصة أن موسىٰ قد خلّف أخاه للسيطرة على أي موقف محتمل، وأنه قد اتّجه بحماسة بالغة الشدة إلى الله متعجلاً تسلّم

الرسالة. أقول: في سياق مثل هذه الحماسة عندما يواجه البطل موقفاً غير متوقّع من مجتمعه حينئذٍ لا بدّ أن يصدر عن البطل ردّ فعلٍ حادٌ شديد يتناسب مع حجم حماسته من جانب ومع خطورة المثير الذي واجهه من جانب آخر.

من هنا عندما يقطع النصُ سلسلة الحدث لينبّه المتلقّي علىٰ استجابة موسىٰ، إنما يحسّسنا بحيويّة وواقعيّة الموقف من حيث ملازمته لأمثلة هذا الردّ من الفعل، لأنّ عدم المبالاة مطلقاً قد لا يتوافق مع الرغبة أو الحرص علىٰ تطبيق مبادىء الله، بخاصة في مرحلة انتقالية تخللتها بعض المواقف المنحرفة، بالنحو الذي تقدم الحديث عنه.

* * *

قال تعالىٰ: ﴿واختار موسىٰ قومَه سبعين رجلاً لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منّا إن هي إلاّ فتنتك تضلّ بها من تشاء و تهدي من تشاء أنت وليّنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين * واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنّا هُدنا إليك قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كلَّ شيء فسأكتبها للذين يتقّون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون * الذين يتّبعون الرسول النبي الأمّي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحلّ لهم الطيّبات ويحرّم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والإغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾ [الأعراف: ١٥٥ ـ ١٥٧].

هذا المقطع امتدادٌ لقصة موسىٰ(ع)، والملاحَظ ان قضية اختيار موسىٰ من قومه سبعين رجلاً للذهاب إلى الميقات ومشاهدتهم لتكليم الله موسىٰ ونزول الألواح عليه ليكونوا شهداء له عند القوم، هذه الحادثة إذا أخضعناها للتسلسل الزمني، حينئذٍ كان الموقع الذي ينبغي أن تحتله هو المقطع الأسبق

الذي تحدث عن موسىٰ وطلبه أن ينظر إلى الله ثم الصعقة التي أصابته نتيجة لذلك. فلماذا قطع النص سلسلة العرض المذكور واعترضها بالحديث عن الصعقة قبل الحديث عن الرجفة التي أصابت السبعين رجلاً؟.

من الممكن أن تكون حادثة الرجفة قضية جديدة غير مواكبة لقضية الصعقة، ومن الممكن أن تكون مواكبة لها، إلاّ أنه في الحالة الأولىٰ يكون التسلسل الموضوعي للزمن متحكماً في هذا الموقف، كما أنه في الحالة الثانية يمكن تفسير ذلك فنياً بأن القصة استهدفت أولاً موسىٰ(ع) بصفته بطل الحادثة ثم قومه بصفتهم أبطالاً ثانويين. وفي الحالتين ثمة أهمية فكرية لصياغة هذه الحادثة حيث استثمرها النص لتقديم أفكار جديدة تربط بين قوم موسىٰ وبين رسالة الإسلام التي ندبَ النصُ القَوم المذكورين إليها، وهذا ما نلحظه بوضوح في جواب الله تعالى لموسىٰ عندما سأله الرحمة حيث أجابه الله بقوله: ﴿ورَحْمَتِي وسِعَتْ كُلَّ شيء فسأكْتُبُها للذينَ يتَّقونَ ويُؤْتُونَ الزكاةَ والذِين هم بآياتِنا يُؤْمنون * الذِين يَتَّبِعُون الرَّسولَ النبيَّ الأُمِّي الذي يَجِدُونَه مكتوباً عِنْدَهُم في التوراةِ والإنجيل﴾.

إذاً (ونحن نتحدث عن عمارة النص) نلحظ أن القصة التي كان بطلها موسىٰ لم تُسرد لمجرّد المعرفة التأريخية بل وُظِّفت فنياً من أجل رسالة الإسلام حيث لحظنا كيف أن النص انتقل من الحديث عن الرحمة لمطلق الناس إلىٰ خاصتهم المعنيّين بالخطاب،وهم الكتابيون الذين يجدون في كتبهم التبشير برسالة الإسلام بصفتهم قوم موسىٰ الذين حامت القصةُ عليهم. كما أن النص انتقل مباشرة من الحديث عن القوم المذكورين، إلى الحديث عن المجتمع الإسلامي بخاصة، تأكيداً لرسالة الإسلام التي قلنا أن القصة موظفة من أجل لفت الانتباه إلىٰ الرسالة المذكورة، يقول النص: ﴿قُلْ يا أيُّها النَّاسُ إنِّي رَسُولُ الله إليكُم جمِيعاً الذِي لَه مُلْكُ السَّماواتِ والأرْضِ لا إلَهَ إلاَّ هُوَ يُحيي ويُميتُ

فآمِنُوا بِالله ورَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمّي الذِي يُؤْمِنُ بالله وكَلِماتِهِ واتَّبِعُوهُ لعلّكُم تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

إذاً، لحظنا كيف أن قصة موسىٰ قد خُطِطَ لها بحيث أفضت ـ في نهاية المطاف ـ إلىٰ الإيمان برسالة الإسلام.

غير أن القصة لم تنته في الواقع بقدر ما تمَّ رسمُ جملةٍ من الحوادث والمواقف التي واكبت سلوك الإسرائيليين، حيث وجدناهم يصدرون عن أكثر من مفارقة في السلوك، بخاصة مطالبتهم موسىٰ بأن يُهيّئ لهم أصناماً عندما عبروا النهر بعد حادثة غرق فرعون، ثم عبادتهم العجل.

وها هو النص يتابع الحديث عن مواقف أخرىٰ للإسرائيليين سنقف عندها لاحقاً، إلا أننا نعتزم هنا أن نشير إلىٰ عمارة النص هندسياً، حيث يمكن القول بأن قصة موسىٰ قد استهدفت أقسامُها الأولىٰ عَرْضَ السلوك الإسرائيلي في المراحل الانتقالية الأولىٰ وهي مراحل إنقاذهم من فرعون، وعبورهم النهر، ومعايشتهم لموسىٰ(ع) عبر الميقات الأول الذي انتُظِر من خلاله نزول المبادىء وتعرّفها، حيث جاءت الاستجابات الإسرائيلية معاكسةً تماماً لما ينبغي أن يكونوا عليه، إذ كانت حادثة الأصنام، والعجل، وغيرهما استجاباتٍ شاذّة كل الشذوذ عبر تلكم المرحلة الانتقالية الخطيرة.

وأياً كان، فإن النص بعد أن ربط بين هذه الحوادث وبين إفضائها إلىٰ الإيمان ـ في نهاية المطاف ـ برسالة الإسلام، كما أشرنا، حينئذٍ تابع النصُ المراحل المتنوعة التي واكبت سلوك الإسرائيليين بنحوها السلبي الذي سنقف عليه في الأجزاء اللاحقة من القصة.

* * *

﴿ومِنْ قَوم مُوسىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالحقِ وبِهِ يَعْدِلُونَ * وقطَّعْناهُم اثْنَتَي عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً وأَوْحَيْنَا إلىٰ مُوسىٰ إِذِ ٱسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ ٱضْرِبْ بِعَصَاكَ الحَجَرَ

فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وظَلَّلْنا عَليهِمُ الغَمامَ وأَنْزَلْنا عليهِمُ المَنَّ والسَّلوىٰ كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْنَاكُمْ وما ظَلمُونَا ولكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩ ـ ١٦٠].

في هذا المقطع تَتَحدَّثُ قِصَّةُ موسىٰ عن مجتمعه الذي كشفت عَنِ التواءاته المُبكِّرةِ المطالبةِ بِجَعْلِ الأصنام، وعبادةِ العِجْلِ وغيرهما. تتَناول القصةُ هُنا التواءاتِ المجتمعِ الإسرائيلي الممتدةِ طَوالَ فَتْرَة مُوسىٰ(ع)، فَأشارَتْ في البَدْء إلى أنّ الفئة الخَيِّرةِ مِنَ المجتمع المذكور أو بتعبير القصة: ﴿ومن قَومِ مُوسىٰ أُمّةٌ يَهْدُون بالحقِ وبِهِ يَعْدِلُون﴾ وهذه الفئةُ انعزلَتْ عَنْ مجتمع الإسرائيليين ـ كما تقول النصوص المفسِّرة ـ نظراً لمشاهدتها هَولَ الجرائمِ التي صدر الإسرائيليونَ عنها، وأما سائرُ الفِئاتِ التي ينتظمُها مجتمعُ الإسرائيليينَ تَظَلُّ مطبوعةً بِسِماتِ السلوكِ المنحرفِ حيث خَتَمَ المقطعُ حديثَهُ عن ذلِك بقولِه: ﴿وما ظلمونَا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ أي أنَّ هناك فئةً مؤمِنة مِنْ قوم موسى والمجتمع الإسرائيليّ هو مجتمع ظالم، وأنَّهُ بانحرافهِ وظلمِه لم يَضُرَّ إلاّ نَفْسَه. ثم بدأتِ القِصَّةُ بِسَرْدِ جانب جديد من الانحراف الذي طَبَعَ الإسرائيليينَ: ﴿وإذْ قِيلَ لهم اسْكُنُوا هذِهِ القريةَ وكُلُوا مِنْها حَيْثُ شِئْتُم وقُولوا حِطّةٌ وادْخُلوا البابَ سُجَّداً نَغْفِرْ لكُم خطيئاتِكُم سنَزيدُ المحسنين * فَبَدَّلَ الذين ظلموا مِنْهُم قولاً غيرَ الذِي قِيلَ لهم فأَرْسلنا عليهم رِجْزاً مِنَ السماءِ بِما كانُوا يَظْلِمُون﴾ [الأعراف: ١٦١ ـ ١٦٢].

ففي هذا الاختبار الذي يكشف عَنْ مدىٰ إيمان أو انحرافِ الإسرائيليين أوضحتِ القصةُ أنهم تمرَّدوا على ما أُمِرُوا بِهِ مِنْ دُخُولٍ إلى بيت المقدسِ ساجدين ومستغفرين حيث بَدَّلُوا ذَلِك بِمُمارَسَات تَنْتَسِبُ إلىٰ الاسْتِهزاءِ والسخرية وهو ما اسْتَتْبَعَ نُزولَ الرِّجزِ عليهِم مِنَ السَّماء جَزَاءً بِما كانُوا يَظْلِمُون.

ثمَّ قَدَّمت القِصَّةُ حادثةً جديدةً أُخرىٰ مِنْ مَوَاقِفِ الإسرائيليينَ المُنْحرِفة: ﴿واسألْهُم عَنِ القَرْيَةِ التي كانَتْ حاضِرَةَ البَحْرِ إذ يَعْدُونَ في السَّبتِ إذ تَأْتِيهم حِيتَانُهُم يوم سَبْتِهِم شُرَّعاً ويومَ لا يَسْبِتُونَ لا تأْتِيهِمْ كذلِكَ نَبلوهم بما كانوا يفسقون﴾ [الأعراف: ١٦٣].

فهذه الحادثة تَجربةٌ اختباريةٌ جديدةٌ أُمِروا فيها بعدمِ الصيدِ في السبت فخالَفُوا ذلك الأمر وترتَّب علىٰ تلكم المخالفةِ جزاءٌ آخَرُ تُوضِحُهُ القصةُ علىٰ هذا النحو: ﴿فَلَمّا عَتَوا عَنْ ما نُهُوا عَنهُ قُلْنا لَهُم كونوا قِرَدَةً خاسِئين﴾.

إذاً، مسخ الإسرائيلين قردةً، جزاءً لانحرافهم، وهو جزاء رهيب يكشف عن خطورة الانحراف الذي طبع الإسرائيليين.

مضافاً إلى الجزاء المذكور، ترتب جزاء استمراريٌ آخر هو، كما يقول النص: ﴿وإذ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عليهم إلىٰ يومِ القِيامةِ مَن يَسُومُهُم سُوءَ العَذاب. . .﴾ [الأعراف: ١٦٧].

وهذا الجزاء لعلّه أشدّ الجزاءات إيلاماً للشخصية الإسرائيلية حيث جعلها الله عرضةً لأشدّ العذاب في حياتها الدنيوية،أي طيلة التأريخ الإسرائيلي وهو ما لحظناه فعلاً في مختلف أدوار التأريخ.

ثم جاء جزاءٌ من نمط آخر هو تفرقهم إلىٰ أُمم أو مجتمعات مختلفة، منها: ما هو صالح وما هو دون ذلك: ﴿وَقَطَّعْنَاهُم في الأرْضِ أُمَماً مِنْهُم الصالحونَ ومِنهُم دونَ ذلِك وبَلَوْناهم بالحَسَنَاتِ والسَيِّئاتِ لَعلَّهم يَرْجِعُون﴾ [الأعراف: ١٦٨]، وهذا الجزاء ـ كما قالت القصة ـ بمثابة فتح صفحة جديدة أو تجربة جديدة ﴿وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون﴾ حيث نستخلص منها أن فتحَ هذه الصفحة الجديدة هي إفساح المجال لعمليات التعديل في السلوك، لكن ـ كما يقول النص ـ: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِم خَلْفٌ ورِثُوا الكِتابَ يأخُذُونَ عَرَضَ هذا الأدنىٰ. . . الخ﴾ [الأعراف: ١٦٩]، حيث

تشير هذه الآية إلىٰ أن الإسرائيليين تشبثوا بمتاع الحياة الدنيا، وهي إشارة إلىٰ نمطٍ ثقافيٍ خاصٍ منهم هم: الحكام أو القضاة ـ وفقاً للنصوص المفسرة ـ فيما تذكر بأنهم كانوا يرتشون ويحكمون بالجور.

وهنا لا نحتاج إلى التعقيب علىٰ ظاهرة الانحراف حتىٰ في الشخوص الفوقية التي ورثت الكتاب، حيث جَرَفها متاع الحياة الدنيا أيضاً، مع أنه، كما يقول النص: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيهم ميثاق الكتابِ أن لا يَقُولوا علىٰ الله إلاّ الحق﴾.

إذاً، ينبغي أن نقف عند مدىٰ الانحراف الذي شدّدت القصة علىٰ رسمه لدىٰ الإسرائيليين ـ عاديين وخاصة ـ بالرغم من إفساح المجال لهم بتعديل السلوك، وبالرغم من أخذ المواثيق عليهم بألاّ يعملوا إلاّ بموجب المبادىء المرسومة لهم في كتابهم، وبالرغم من إضفاء النِعَم عليهم، بالرغم من كل ذلك، تظل الشخصية الإسرائيلية ذات تاريخ ملحوظ من الانحراف، سردت القصة جانباً منه، كما أنها لا تزال تعرض جوانب أخرىٰ منه.

* * *

قال تعالى: ﴿وإذْ نَتَقْنا الجَبَلَ فَوقَهُم كأَنَّهُ ظُلَّةٌ وظَنُّوا أَنَّهُ واقِعٌ بِهم خُذُوا ما آتَيْناكُم بِقُوَّةٍ واذْكُروا ما فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون﴾ [الأعراف: ١٧١].

في هذا المقطع حادثة جديدة عن الإسرائيليين الذين مرّ علينا جانب من قصصهم المتصلة بنعم الله عليهم وانحرافهم عن الله، ومِنْها قضيةُ رفعِ الجبل فوقهم ومطالَبَتُهُم بِالالتزامِ بمبادىء الله التي أُنزِلت إليهم.

هنا يستثمر النص هذه الحادثة من حيث صِلَتُها بالعهودِ والمواثيق التي أُخذت مِنهم بالعمل بموجبها حَيْث أنْتَقل النص من حادثةٍ خاصَّةٍ (المواثيقِ والعهودِ المتصلةِ بالإسرائيليين) إلىٰ مطلقِ العهودِ والمواثيقِ المتصلة بالآدميين جميعاً حيث يقول النص: ﴿وإذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهورِهِم ذُرِّيَّتَهُمْ وأَشْهَدَهُم عَلىٰ أَنْفُسِهِم أَلَسْتُ بِرَبِّكم قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تقولوا يومَ القِيامةِ إنَّا

كُنَّا عَنْ هذا غَافِلِين﴾ [الأعراف: ١٧٢].

هذه الحقيقةُ العباديةُ العامَّةُ لها خُطورتُها في ميدانِ السلوكِ البَشَرِيّ،وهي حقيقةُ كونِ الآدَميّين قد فَطَرَهُم الله علىٰ التوحيد. ومِنَ المَعْلوم أنَّ النُّصوصَ الفنيةَ تَتَسم بكونها ذاتَ طابعٍ عامٍّ حتَّىٰ لو كانَ منطلقُها قضيةً خاصةً كما هو شأنُ هذا المقطع، والمهم هو أن القضية الخاصة ذاتَها مِثل قضيةِ أخْذِ المواثيق مِن الإسرائيليينَ إنَّما (تُوظَّفُ) في الواقعِ من أجلِ الإفادةِ منها وتجاوُزِها إلى إدراكِ الحقائقِ العامةِ المُتَّصِلةِ بالآدميينَ جميعاً.

إذاً، من حيث البناء الهندسي للنص، أمكننا أن نُدرك أهميةَ هذا المقطعِ الذي وَصَلَ بين قضيةٍ خاصةٍ وقضيةٍ عامة. لذلك ما إنِ انتهىٰ المقطعُ مِن تقريرِ هذِهِ الحقيقةِ حتَّىٰ عادَ إلىٰ الحديثِ عَنِ الإسرائيليينَ مِنْ جديد، فقدَّمَ لَنَا شَريحةً جَديدةً مِنْ سُلوكِهم، يقول النص: ﴿واتْلُ عليهم نَبَأَ الذِي آتَيْنَاهُ آياتِنا فانْسَلَخَ مِنْها فأتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فكانَ مِنَ الغَاوِين * ولو شِئْنَا لَرَفَعْناهُ بِها ولكِنَّهُ أخْلدَ إلىٰ الأرْضِ واتَّبَعَ هَواهُ فَمَثَلُهُ كمثَلِ الكَلْبِ إنْ تَحْمِلْ عَليهِ يَلْهَثْ أوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ القَوْمِ الذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ القَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُون﴾ [الاعراف: ١٧٥ ـ ١٧٦].

بهذه الشريحة القصصية ينتهي العُنْصُر القَصَصِيُ الذي تحدَّث عَنْ سلوكِ الإسرائيليين. تَتَحَدَّثُ هذِهِ الأُقصوصةُ عنِ أحَدِ الأشْخاصِ الذِين آمَنُوا ثم ارْتَدُّوا إيثاراً لمتاعِ الحياةِ الدنيا، وسواء أكانت هذه الشخصية التي اختلف المفسرون في تحديد زمانها ومكانها من حيث كونها إسرائيلية أو غيرها، ومن حيث كونها من البائدين أو المعاصرين لرسالة الإسلام، ففي الحالات جميعاً يعنينا منها ونحن نتحدث عن عمارة النص أنها وُظِّفت من أجل هدف فكري خطير هو: إن متاع الحياة الدنيا هو السبب في جعل الأشخاص الذين خبروا حقيقة مبادىء الله، أن ينسلخوا عنها لمجرد إيثار المتعة العابرة. وقد قدّم

النص تشبيهاً لافتاً للنظر لتقرير هذه الحقيقة حينما ربط بين أمثلة هذه الشخصية وبين أمثلة الكلاب الذين يلهثون في الحالات جميعاً سواء تُركوا أو طردوا، حيث ان أمثلة هؤلاء الأشخاص الذين خبروا الحقائق ثم لم يعملوا بها يبقون علىٰ ضلالهم في حالة إيثارهم متاعَ الحياةِ الدُّنيا فَهُم ضالون، سواء وُعِظُوا أم لَمْ يُوْعَظُوا، ففي الحالتين هم مشدودون إلىٰ ذَوَاتِهم ومحاولةِ إشباعها بأيِّ ثمنٍ كان.

ومهما يكن، فإنَّ الأُقصوصةَ أو الحكايةَ المذكورة، خُتِمَ بِها العُنْصُرُ القَصَصيُّ الذِي تحدَّثَ عَنْ سلوكِ الإسرائيليين، كما يُمكنُ القولُ بِأَنَّ هذه الحكايةَ عُنصُرٌ مُسْتَقِلٌ قَدَّمَهُ النَّصُّ بعدَ انْتِهَائِه مِنَ الحَدِيثِ عَنِ الإسرائيليينَ وانْتقالِهِ إلىٰ دِلالةٍ فكريةٍ جديدةٍ في السُّورة بحيث تكون قضية العهودِ والمواثيقِ التي أخذها الله على الإسرائيليين هي خاتمة العُنْصُر القصصي والانتقالُ إلىٰ المواثيقِ التي أَخَذَهَا الله علىٰ مُطْلَقِ الآدميين هو العُنْصُرَ الفكريَّ الجديدَ الذي تتجه السورة إليه.

والمهم هو، أن سورة الأعراف تبدأ الآن بالحديث عن ظواهر السلوكِ العبادي بعامة، وسَتُخْتَمُ بهذِهِ الظواهِرِ علىٰ نَسَقِ البِدَايةِ التي افتُتحت السورةُ بها، حيث كان الحديث عن الإسرائيليين، مجرد عنصر قصصي (موظّف) لإنارة هذه الظواهر العبادية، وسنرىٰ أن هذه الظواهر تظل حائمةً علىٰ الإيمان بالله وما يضاده من السلوك المنحرف، حيث يتخلّلها طرحٌ جديدٌ لمجموعة من الدلالات الفكرية التي يستهدفها النص وهي دلالاتٌ تتجانس مع مقدمة السورة التي بدأت بطرح مفهوم التبليغ الإسلامي وضرورة تحمل مسؤوليته مهما كلّف ذلك من ثمن. ثم المطالبة بالالتزام بمبادىء الله وعدم اتخاذ مَن هو دون الله وليّاً، ثم التذكير بمعطيات الله، ثم التلويح بالجزاء المترتب على السلوك دنيوياً وأخروياً. كل أولئك سنجد انعكاساتها علىٰ خاتمة السورة، مما يكشف عن

المزيد من التلاحم الفني بين أجزاء السورة الكريمة.

* * *

قال تعالى: ﴿ساءَ مَثَلاً القومُ الذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وأَنْفُسَهُمْ كانُوا يَظْلِمُونَ * مَنْ يَهْدِ الله فَهُوَ المُهْتَدِي ومَنْ يُضْلِلْ فأُولَئكَ هُمُ الخاسِرُون * ولَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كثيراً مِنَ الجِنِّ والإنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُون بِهَا ولهم أَعْيُنٌ لا يُبْصِرونَ بِها ولَهُمْ آذان لا يَسمعونَ بِها أُولئكَ كالأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الغَافِلُون * ولله الأَسْمَاءُ الحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِها وذَرُوا الذِينَ يُلْحِدُونَ في أَسمائِهِ سَيُجْزَونَ مَا كانُوا يَعْمَلُون * ومِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالحَقِّ وبِهِ يَعْدِلُون﴾ [الأعراف: ١٧٧ ـ ١٨١].

في هذا المقطع جملة من الحقائق العبادية المرتبطة بالهيكل العام للسورة إلاّ أنها تصبّ في رافدٍ فكري خاص هو: انشطار الآدميين إلىٰ مؤمنين ومنحرفين، فالآية الأخيرة مثلاً: ﴿ومِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بالحقِ﴾ مؤشرٌ واضح إلى أنّ مِن الآدميين مَن يبلغ رسالة الله، وهي نفس المقدمة التي افتُتحت بها سورة الأعراف عندما طالبت بعملية التبليغ لرسالة الله، يقابل ذلك، اممٌ أخرىٰ يسمها طابع الانحراف، وهذه الأمم أو الأفراد لم يتركهم النصُ دون أن يُدلّل علىٰ تخلفهم النفسي والفكري حتى يُسقطهم تماماً عن الحساب فلا تبقىٰ لهم أية قيمة اجتماعية في نظر المتلقّي، لقد وصفهم النص بثلاث سمات هي كونهم ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها﴾ ﴿لهم أعين لا يبصرون بها﴾ ﴿لهم آذان لا يسمعون بها﴾. وإذا افتقد الشخصُ كلاً من القلب والبصر والسمع حينئذٍ لا يبقىٰ من شخصيته غير الهيكل الحيواني، وهو ما أكّده النص بوضوح حينما ربط بين أمثلة هذا الشخص وبين الحيوانات (الأنعام)، حتى أنه جعل أمثلة هذا الشخص أشد تفاهة من الأنعام ﴿أولئك كالأنعام بل هم أضلّ﴾.

بعد ذلك تقدّم النصُ بطرح دلالات أخرىٰ تحوم علىٰ نفس الفكرة

المذكورة عبْر ربطها بالمجتمع المعاصر لرسالة الإسلام وهو الهدف الرئيسي بطبيعة الحال: يقول النص: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِهِم مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِين * أَوَلَمْ يَنْظُرُوا في مَلَكُوتِ السَّماوَاتِ والأَرْضِ... الخ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

لقد انتقل النص من الحديث عن المنحرفين بعامة إلىٰ المنحرفين في زمن رسالة الإسلام حيث ذكّرهم بسوية شخصية محمد(ص)، وبظواهر الإبداع الكوني. طبيعياً، إن الربط بين شخصية صاحب الرسالة والإبداع الكوني يظل من الإحكام الفني بمكان، إذا أخذنا بنظر الاعتبار (وحدة) الفاعلية الكونية: حيث أن الذهن يتداعىٰ من مشاهدته لظواهر حسيّة، إلىٰ الظواهر الفكرية مثل: الإيمان برسالة الإسلام.

ثم، يُواصل النصُ القرآني الكريمُ الحديث عن هؤلاء المنحرفين المشككين برسالة الإسلام منتقلاً من تشكيكهم بما هو(حاضر) ـ وهي الرسالة ـ إلىٰ ما هو (غيبيّ): ﴿يسألونك عن الساعة أيان مُرساها قل إنما علمها عند ربّي لا يجلّيها لوقتها إلّا هو﴾.

واضحٌ أن النص في نفس الوقت الذي ينقل من خلاله سلوكَ المنحرفين، من خلال سؤالهم المتقدم عن الساعة، يتجه إلى عرض الحقيقة الكونية العامة عن قيام الساعة، فيحدد دلالتها للآدميين جميعاً، مبيّناً أنها تنتسب إلى الغيب، وفقاً لحكمة الله تعالى. لذلك، ما أن انتهىٰ النص من تقرير هذه الحقيقة الكونية المتصلة بالغيب حتىٰ وَصَلَ بينها وبين حقيقة غيبية أخرىٰ، إلا أنها لا تتصل بما هو كوني بل بما هو فردي:

﴿قل لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضرّاً إلاَّ ما شَاءَ اللّهُ ولو كُنْتُ أَعْلَمُ الغَيْبَ لاسْتَكْثَرْت مِنَ الخَيرِ...﴾ [الأعراف: ١٨٨].

هذه الحقيقة الفردية تقول: إن الآدميين يجهلون أسرار الغيب وإلاّ لو

كانوا علىٰ معرفة كاملة بذلك، لاختطوا من السلوك ما يجتذب إليهم الخير أيّاً كان، وهذا يعني(من خلال الإيحاء غير المباشر) ان الشخصية الإسلامية ينبغي أن تلتزم بمبادئ الله تعالى، دون أن تدرك بالضرورة منابع الحكمة الكامنة وراء هذه الظاهرة أو تلك.

بعد ذلك انتقل النص إلى قضية المولد البشري، وهي القضية التي طرحتها السورة في مقدمتها، كما لحظنا، إلا أنه الآن ربط بين هذه القضية وبين حصيلتها التي واكبها الانحراف.

﴿هُوَ الذِي خَلَقَكُم مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وجَعَلَ مِنْها زَوْجَها لِيَسْكُنَ إليها فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا الله ربَّهُمَا لَئِنْ آتَيتَنا صَالحاً لَنَكونَنَّ مِنَ الشاكرين * فَلمَّا آتاهُما صالحاً جَعَلاً لَهُ شُرَكاء فيما آتاهما فَتَعَالَىٰ الله عَمَّا يُشْرِكُون﴾ [الأعراف: ١٨٩ ـ ١٩٠]. لا نغفل، ان مقدمة السورة التي تحدثت عن المولد البشري، اشارت إلى أن الناس قليلاً ما يشكرون، كما أشارت إلى أن الشيطان الذي زيّن الخطيئة للآدميين لوّح أيضاً ـ من خلال محاورته مع الله تعالى ـ بأنه لا تجد أكثرهم شاكرين. وهذا يعني أن هذا المقطع يشكل إنماءً عضوياً لدلالة فكرية سابقة طُرِحت في مقدمة السورة.

وأياً كان، فإن هذا الربط بين مقدمة السورة وخاتمتها، يظل مواكباً لنماذج أخرىٰ من الربط وقفنا عليها، كما سنقف علىٰ نماذج أخرىٰ في خاتمة السورة الكريمة..

* * *

قال تعالى: ﴿إنَّ الذينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ الله عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إنْ كُنتُم صادِقين * أَلَهُمْ أرْجُلٌ يَمْشُونَ بِها أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِها أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرونَ بِها أَمْ لَهُمْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بها قُلِ ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ ثُمَّ

كِيدُون فلا تنْظرون * إنَّ وَلِيِّيَ الله الذِي نَزَّلَ الكِتَابَ وهو يَتَوَلَّى الصَّالحين﴾ [الأعراف: ١٩٤ ـ ١٩٦].

هذا المقطع وما بعده يمثل خاتمة سورة الأعراف، وهو يتحدّث عنِ المُنْحَرِفين الذين يَدْعُون مَنْ دُونَ الله. علماً بأنَّ مقدمة السُّورةِ طالَبَتْ بِعَدَمِ اتِّخاذِ مَنْ دُونَ الله أولياء، وها هو المقطع يتحدث عن نفس الفكرة ولكن بعد إنمائها بهذه الصورة الاستدلالية ﴿إن الذين تدعون من دون الله عبادٌ أمثالكم﴾ وهذا يعني أنهم لن يستطيعوا ممارسة أية فاعلية. والدليل على ذلك هو: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِها أم لَهُمْ أيدٍ يَبْطِشُونَ بِها... الخ﴾.

مقدمةُ السورةِ قالت: ﴿لا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أولياء﴾ [الأعراف: ٣] وهذه مطالَبَةٌ مُجْمَلة، فَصَّلَتْها خاتِمةُ السورةِ بالنحو الذي لحظناه حيثُ استدلّتْ علىٰ عدمِ فائدةِ مَن يَتَّخِذُ دُونَ الله وَلِيّاً فليسَ لهم أرجلٌ أو أيد أو أعينٌ أوآذانٌ ترشح الفاعليةُ من خلالها.

وقد يَسْأل المُتَلقِّي: لماذا يتمُّ الاستدلالُ بهذا النحو المفصّلِ الذي يتَحدَّثُ عن الأرجلِ والأيدي والأبصارِ والأسماع؟ الحق: إنَّ النَص عندما تَحدَّثَ في مقطعٍ سابقٍ عَنْ أنَّ المنحرفينَ ليسَ لهم قلوبٌ يَفْقَهُونَ بِها ولا أعينٌ يُبْصِرون بها ولا آذان يَسْمَعُون بِها، حِينئذ لا بُدَّ أنْ يُقَدِّمَ النَّصُ في الاستدلالِ علىٰ موضوعٍ ما يتجانَسُ مَعَ التَّفْصِيلِ المتقدمِ عن سماتِ المنحرفينَ... والمهمّ، عندما يُطالِبُ النَّصُ بعدمِ اتخاذِ مَنْ دونَ الله ولياً ويُنكِرُ علىٰ المنحرفينَ سُلوكَهُمْ المضادّ، حينئذٍ يتقدم إلى المؤمنين الذِين اتَّخَذُوا الله ولِياً ـ علىٰ سَبِيلِ التقابل ـ مُوضِّحاً ذَلِك مِنْ خِلالِ الفقرةِ الآتية:

﴿إنَّ وَلِيِّيَ الله الذِي نَزَّلَ الكِتَابَ وَهُوَ يَتَولَّى الصَّالِحِين﴾... وحين يتخذُ المؤمنونَ اللَه ولِيّاً لَهُمْ، وَهُوَ يَتَولاَّهُمْ حِينئذٍ لا سبيلَ لأحَدٍ عليهم مهما كانت فاعلياته، وهذا ما يستتبع سلوكاً ينبغي أن يتسم بالتَّسامُحِ حِيالَ المُنْحَرِفين

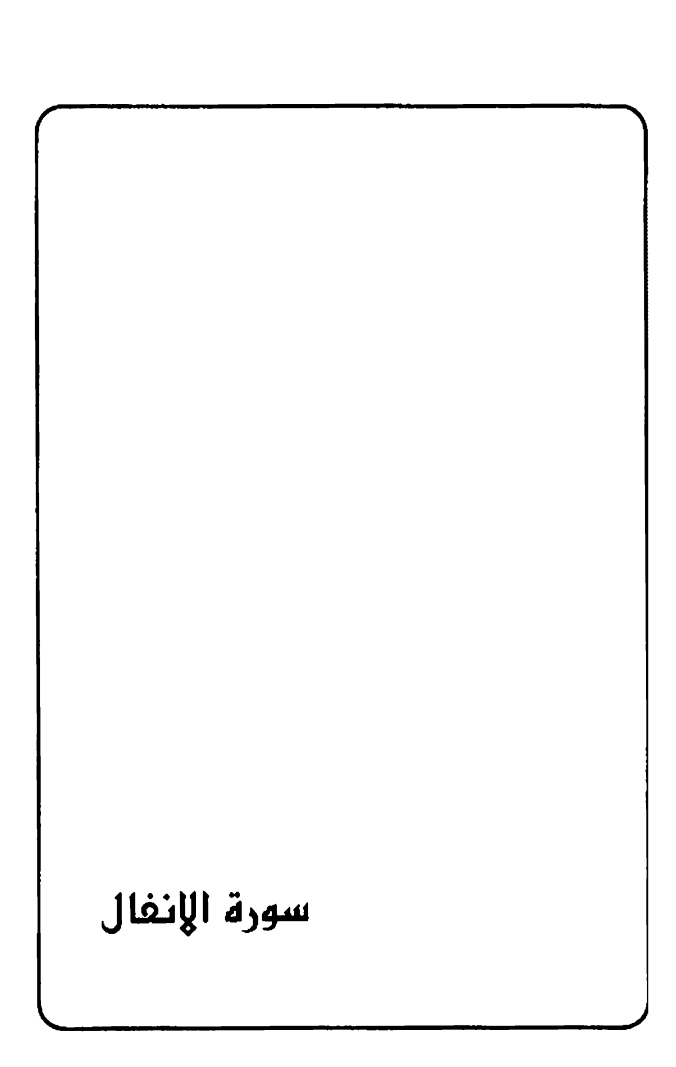
الذين اتَّخَذُوا مَنْ دونَ الله أولياء لهم حيث طالَبَ اللهُ النبيَّ (ص) بالسمة الأخلاقية الآتية: ﴿خُذِ العَفْوَ وأْمُر بِالعُرْفِ وأَعْرِضْ عَنِ الجاهلين﴾ [الأعراف: ١٩٩] لكن، ولأنَّ المؤمنَ قَدْ تنتابُه لحظاتٌ مِنَ الضعفِ، رَسَمَ النَصُّ لَهُ مبادىء كفيلة بِمَسْحِ لحظاتِ الضعفِ المذكورة قائلاً له: ﴿وإمّا يَنْزَغنَّكَ مِنَ الشيطانِ نَزْغٌ فاَسْتَعِذْ بالله إنَّهُ سَمِيعٌ عليم * إنَّ الذينَ اتَّقوا إذَا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشيطانِ تَذَكَّرُوا فإذا هم مُبْصِرون﴾ [الأعراف: ٢٠٠ ـ ٢٠١]. لا نغْفلُ عمَّا طرحَتْهُ مقدمة سورةِ الأعرافِ من سمة للمنحرفين وهي أن الذين يتبعون من دون الله أولياء، هؤلاء خاطبتهم مقدمة السورة بأنكم (قليلاً ما تَذَكَّرُون) وهذا يعني (مِنْ زاويةِ البِنَاء الهندسي) أن المؤمنين ينبغي أن تطبعهم سمة مضادة لتلكم السمة، حيث أنهم (يتذكرون) إذا مسهم طائف من الشيطان ﴿إذَا مَسَّهُم طائفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّروا فإذَا هُمْ مُبْصِرون﴾.

إذاً، ينبغي ألاّ نغفل عن هذا التقابل الفنيّ بين مقدمة السورة وخاتمتها: مضافاً إلى أنماط التقابل الأخرىٰ بينهما. . .

أخيراً، طَالَب النصُ المؤمنين بالتعامل مع الله بنحو أشد تصاعداً من خلال ثلاثة أنماط من السلوك، هي(١) الانصات للقرآن أو المبادىء بعامة ﴿وإذا قُرِىءَ القُرآنُ فاَسْتَمِعُوا لَهُ وأَنْصِتُوا لَعلَّكم تُرْحَمُون﴾ [الأعراف: ٢٠٤]. (٢) ذِكر الله ﴿واُذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وخِيفَةً ودون الجَهْرِ مِنَ القول. . .﴾ [الأعراف: ٢٠٥]. (٣) ممارسة التقويم أو المعرفة أو التثمين المطلوب للمبدع ﴿إنَّ الذينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتكْبِرُون عَنْ عِبادَتِهِ ويُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُون﴾ [الأعراف: ٢٠٦]. وبهذه الآية تُختم سورة الأعراف التي بدأت مقدمتُها بالمطالبة بتبليغ رسالة الله دون توقف، فاتباع مبادىء الله، وعدم اتخاذ مَن دونه أولياء، ﴿المص كِتابٌ أُنْزِلَ إلَيْكَ فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرىٰ للمؤمنين * اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه

أولياء...﴾ [الأعراف: ١ ـ ٣] وهذه الأفكار المطروحة في المقدمة اجمالاً أنمتها خاتمةُ السورة بهذا التفصيل الذي وقفنا عليه، كما أن وسط السورة التي تضمنت بخاصة عنصراً قصصياً هو قصص موسىٰ والإسرائيليين في أوسع الحَيواتِ الطولية لهما، هذا الوسط كما لحظناه قد (وُظّف) لإنارة الأفكار التي طرحتها مقدمة السورة وخاتمتها، مما يقتادنا إلى إعادة التذكير بالأهمية الفنية لسور القرآن الكريم ومنها(سورة الأعراف) حيث لحظنا كيفية تلاحم مقدمة السورة ووسطها وخاتمتها، وهو تلاحمٌ لا تنحصر جماليته في البناء الهندسي للسورة فحسب بل بما يتركه التجانس بين الأفكار من أثر نفسي في عملية التلقّي من حيث تعميق الدلالات التي يستهدفها النص، ومن ثم محاولة تعديل السلوك من خلال الفن، بالنحو الذي وقفنا عليه متصلاً.

* * *


سورة الأنفال

تتناول سورة الأنفال موضوعاتٍ مختلفةً مثل غالبية سور القرآن الكريم، إلا أن العصب الفكري الذي ينتظم السورة يحوم علىٰ مفهوم (الجهاد)، بخاصة الجانب العسكري منه، ولعل بداية السورة ونهايتها ـ حيث تبدأ السورة بطرح ظاهرة (الأنفال) وتختتم بسمات المجاهدين، وينتظم وسطها رسمٌ للمعارك وحثٌ علىٰ الجهاد وصياغة لبعض مبادئه ـ أقول: لعل بداية السورة ووسطها ونهايتها بالنحو الذي أشرنا إليه تدلّنا اجمالاً علىٰ(فكرتها) المتصلة بظاهرة الجهاد، وأمّا سائر الموضوعات فتصاغ بنحو فني حيث تبرز في سياقات خاصة من خلال التداعيات التي نصدر عنها عند تمثلاتنا لمفهومات الجهاد المطروحة في النص، وهو أمر نبدأ الآن بتوضيحه وفق الشكل الذي ينتظم السورة، حيث بدأت السورة بالمقطع الآتي، هكذا:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين﴾ [الأنفال: ١].

هذه البداية تكشف لنا عن عمارة السورة هندسياً، وإلى أنها سوف تتحدث أو لنقل: سوف تركّز علىٰ واحدٍ من الموضوعات ذات الصلة بالجهاد وهو(الأنفال).

وبالرغم من أنّ (الأنفال) تشمل الأرض المأخوذة بغير قتال، و الأرض التي انجلىٰ عنها أهلها، والأرض الموات، وقطائع الملوك وسواها مما يرتبط بالجانب الاقتصادي والسياسي، إلا أن ارتباطها بالجانب العسكري من الوضوح بمكان بخاصة فيما يتصل بالفتح ومستلزماته المختلفة.

لذلك سوف نجد أن الجانب العسكري سوف يحتل مساحة كبيرة من سورة الأنفال، تبعاً لهذه المقدمة التي بدأتها السورة وهو أمرٌ نتوقعه(من الزاوية الفنية) حتى لو قدّر لنا ألاّ نتابع تفصيلات السورة ما دمنا علىٰ يقين بأن كل سورة لا بد أن ينتظمها هيكل فنيّ تتلاحم موضوعاتهُ وتتنامىٰ وفق بناءات هندسية بالغة الإحكام.

المهم ان نفس هذه البداية تدعنا نتوقع تركيزاً علىٰ الجانب العسكري من الجهاد، وإلى أن الجانب الاقتصادي والسياسي سوف يطرحان خلال ذلك: ما دامت (الأنفال) تشمل بمصطلحها الفقهي جميع الجوانب المُشار إليها.

* * *

والآن، لو اتجهنا إلى ملاحظة هذه البداية **﴿الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين﴾**.

هذه المفردات التي طرحتها الآية التي استُهلت بها سورة الأنفال لا بدّ أن تتردد أصداؤها في تضاعيف النص بمعنىٰ أن هذه البداية تشكل (تمهيداً) فنياً يبدأ بطرح الموضوعات إجمالاً، ثم تبدأ تفصيلاتها تدريجاً في الأجزاء اللاحقة من السورة، تبعاً لما نعرفه من أن طبيعة النص الفنّي تستتبع مثل هذا البناء الهندسي.

إننا لو انسقنا مع هذه البداية قبل أن نتجه إلىٰ ملاحظة النصوص المفسّرة، ومنها: معرفة المناخ الذي نزلت فيه السورة، لأمكننا أن نستخلص إجمالاً بأن(الأنفال) التي صاغها النصُّ ملكيةً عامة للدولة الإسلامية، إنما ارتبطت بوقائع خاصة. طالَبَ النص من خلالها بتقوىٰ الله، وبإصلاح ذات البين، وبإطاعة الله ورسوله. وكما قلنا، فإن هذه المفردات الفكرية المطروحة في (البداية) سوف تأخذ تفصيلاتها في الأقسام اللاحقة من النص. لكن ينبغي

أن نقف ولو عابراً علىٰ النصوص المفسرة لها: بالرغم من أن ظاهر النص يفصح بنفسه عن مضمونه من زاوية التذوق الفني الخالص، أي: حتى بدون الرجوع إلىٰ النصوص المفسرة: يمكن للملاحظ الفني(وليس المفسّر لها) أن يستخلص الخطوط العامة التي تنتظم النص، لأن خطورة النص الفنيّة تكمن في أن أي نصٍ فنيّ يظل مرشحاً بإمكان مختلف الاستيحاءات منه، كل ما في الأمر أن هذه الاستيحاءات تظل ذات طابع مُجمَل، يتعيّن بعد ذلك (بغية الوقوف علىٰ حقائق النص)، معرفة تفصيلاته من النصوص المفسرة الواردة عن أهل البيت عليهم السلام.

وأياً كان الأمر، فقد أوضح أهل البيت عليهم السلام أن (الأنفال) تشمل الموارد التي أشرنا إليها، كما أوضحوا أنّ الآية المتقدمة نزلت في معركة(بدر) عند اختلاف المقاتلين في قضية الغنائم. لكن ـ كما قلنا ـ أن النص يفرض لغته الفنيّة علينا. وما دام الأمر يتصل بدراسة الهيكل العماري للسورة وليس بدراسة الجانب الفقهيّ منه، حينئذٍ يحسن بنا أن نتجه إلى دراسة الجانب الجمالي المذكور، فنقول: بدأت السورة بطرح ظاهرة (الأنفال) وإلى أنها مِلك للدولة الإسلامية ﴿**الأنفال لله و الرسول**﴾، كما طالبت بتقوىٰ الله و بإصلاح ذات البين وإطاعة الله والرسول(ص)، ثم ختمت ذلك بقولها: ﴿**إن كنتم مؤمنين**﴾ أي: إن كنتم مؤمنين، حينئذٍ فأطيعوا الله ورسوله، فضلاً عن إصلاح ذات بينكم.

لذلك نجد(من الزاوية العمارية) ـ أي من زاوية الخطوط الهندسية للسورة ـ أنَّ النص يبدأ بعد ذلك بعرض سمات(المؤمنين) حيث ان مطالبته بإطاعة الله ورسوله، اتبعت بقوله تعالى: ﴿**إن كنتم مؤمنين**﴾ وهو يتطلب(من حيث البناء الفني) عرضاً لسمات(المؤمنين) الذين طالَبَ النصُ الالتزام منهم بالإطاعة لله تعالى وللرسول(ص). من هنا، جاء المقطع الأول من السورة (بعد التمهيد بالآية المتقدمة) خاصاً بعرض مجموعة من الصفات التي تمثل

(المؤمنين)، أي جاء هذا الموضوع مستقلاً فكرياً وإن كان مرتبطاً بقضية عسكرية، طالما نعرف ـ كما كررنا ـ بأن الفنّ العظيم هو الذي يطرح موضوعات مختلفة من خلال (فكرة عامة) تتفرع عليها تلكم الموضوعات علىٰ نحو ما نبدأ بتفصيل الحديث عنه.

* * *

قال تعالى: **﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذُكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلىٰ ربهم يتوكلون * الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون﴾** [الأنفال: ٢ ـ ٣].

هذا هو المقطع الأول من سورة «الأنفال» التي استهلت بقوله تعالى **﴿يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين﴾** [الأنفال: ١]. وها هو المقطع الجديد، يشرح لنا معنىٰ قوله: **﴿إن كنتم مؤمنين﴾** فمن هم المؤمنون؟ لقد رسمهم النص وفقاً للسمات التالية: ١ ـ الخوف من الله إذا ذُكِرَ عندهم ٢ ـ تعاظم إيمانهم به عندما تتلىٰ عليهم آياته ٣ ـ التوكل علىٰ الله ٤ ـ إقامة الصلاة ٥ ـ الإنفاق في سبيل الله.

هذه السمات تشكّل ـ بطبيعة الحال ـ جانباً من سلوك المؤمنين وليس جميع السلوك . لكن، بما أن النصّ القرآني الكريم في صدد الحديث عن(الأنفال) وفي صدد الحديث عن قضايا الجهاد والأنفال، فضلاً عن كون بعضها ذات طابع عام يشمل كل المواقف مثل: (الصلاة) التي تمثل المظهر البارز للشخصية الإسلامية، أما السمات الأخرىٰ فبالرغم من أنها تشكل أيضاً مظاهر متميزة للشخصية الإسلامية إلا أنها تتجانس (فنياً) مع سياق الموضوع الذي تتحدث السورة عنه وهو (الأنفال) وما واكبه من طلب التقوىٰ وإصلاح ذات البين وإطاعة الله ورسوله(كما تضمنت ذلك: الآية الأولىٰ من السورة)

حينئذٍ يمكننا أن نلاحظ بأن عملية التجانس الفنيّ تتمثل في أنّ السمات التي ذكرها النص قد فرضها الموقف المذكور. لقد أوضح بأن المؤمنين: إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وأنهم يزدادون إيماناً حينما تتلىٰ عليهم آيات الله، وأنهم يتوكلون عليه، وأنهم ينفقون أموالهم. وكل هذه السمات ذات صلة بقضية (الأنفال) وبقضية معركة (بدر) التي نزلت الأنفال فيها واستتبعت اختلاف الآراء حيث جاءت المطالبة بالخوف من الله، وبزيادة الإيمان، وبالتوكل، وبالإنفاق متجانسة مع هذا الموقف الذي بدأ النص القرآني الكريم في المقطع الثاني من السورة بتوضيحه قائلاً: **﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون * يجادلونك في الحق بعدما تبين كأنما يُساقون إلى الموت وهم ينظرون﴾** [الأنفال: ٥ ـ ٦] فالملاحظ هنا أن هذا المقطع الجديد من السورة يتصل بما قبله، كما أن ما قبله يتصل بمقدمة السورة التي استُهلت بالحديث عن الأنفال.

لقد قدم النص دليلاً ـ بطريقة فنيّة ـ على أن إخراج محمد(ص) من المدينة إلى معركة بدر علىٰ كراهية فريق من المؤمنين، إنما هو خيرٌ للإسلاميين، وكأنه يريد أن يقول: إن سمات المؤمنين المتمثلة في التوكل علىٰ الله، والخوف منه، وتعاظم الإيمان، والإنفاق، إنما يتطلبها الموقف المماثل لإخراج محمد(ص) يجسّد خيراً للإسلاميين (وكان الإسلاميون قد خرجوا إلى معركة بدر كما هو واضح وجاء الاختلاف غبّ توزيع الغنائم)، كذلك، فإن جَعْلَ (الأنفال) لله والرسول دون المقاتلين، خيرٌ للإسلاميين، إذ ينبغي ألا تصدر أية كراهية حيال ذلك لأن سمات المؤمن هي: أنه يخاف الله وأنه يزداد إيماناً إذا تُليت عليه آياته، وها هي آيات الله تُتلى عليه مقررة بأن الأنفال لله والرسول، فيتعين الإيمان بذلك.

إذن، لننظر كيف أن النص القرآني الكريم سلك طرقاً فنيّة بالغة الإحكام

حينما جانس بين مقدمة السورة في (الأنفال)، ومقطعها الأول في سمات المؤمنين، ومقطعها الثاني في الاستدلال بمعركة بدر وكراهية جماعة لذلك، مع أن النصر كان من نصيب الإسلاميين، أي: أن النص وضع قضية النصر في معركة بدر ـ بطريقة فنية ـ أمام هؤلاء الذين اختلفوا فيما بينهم موضحاً لهم بطريقة غير مباشرة أنّ كل ما يقرره الله والرسول ينبغي أن يقترن بالقبول.

بعد هذا النمط من الصياغة الفنية للموقف، انتقل النص إلى معركة بدر نفسها ليتحدث عن المواقف التي واكبت المعركة المذكورة، وهي مواقف تتصل من جانبٍ بنفس السياق الخاص بالأنفال وتفريعاته، وتتصل من جانب آخر بطرح موضوعات جديدة تتصل بظاهرة (الجهاد في سبيل الله) حيث قلنا بأن السورة الكريمة(سورة الأنفال) تحوم فكرتها العامة علىٰ الظاهرة المذكورة.

وأول ما طرحه النص في هذا الصدد هو: أن فريقاً من الناس كانوا يجادلون النبي(ص) في هذا الجانب بعد أن ظهر لهم الحق. وسواء أكان هذا الحق الذي ظهر يتمثل في نتائج معركة (بدر) أم كان يتمثل في مقدمات المعركة ففي الحالين، نستخلص بأن قضية الجدال ينبغي أن تحذف من سلوك الإسلاميين (إذا كانوا مؤمنين حقاً) كما أشارت الآية إلى ذلك.

هنا طرح النص تمثيلاً فنياً لبلورة السلوك المتقدم حيث قال عن هذا الفريق ﴿**كأنما يُساقون إلى الموت وهم ينظرون**﴾. والواقع أن هذه الصورة الفنية (السوق إلى الموت وهم ينظرون) تمثّل حصيلة السلوك المتردد الذي أفضىٰ إلى المواقف المذكورة عند فريق من المؤمنين، فهؤلاء ـ كما تذكر بعض النصوص المفسرة ـ كانوا يجادلون النبيّ(ص) في وقت الخروج إلى معركة بدر، أو يجادلونه في نتائج ما انتهت المعركة إليها معاتبين إياه في عدم إخبارهم بذلك سلفاً، أو يجادلونه بعد المعركة في قضية الغنائم... الخ. وفي الحالات جميعاً يجسّد هذا الجدال مظهراً من مظاهر السلوك المتردد غير

المفعم بالإيمان الكامل، ولعل أوضح مصاديقه يتمثل في تلك الصورة التي شبّهت خروجهم إلى القتال وكأنه سوق حتميّ إلى الموت حيث توحي هذه الصورة بأن(الخوف من الموت) هو خوف من أية مصائر لا تفضي إلى إشباع حاجاتهم، سواء أكانت هذه الحاجات مجرد غنائم أم حاجة إلى الحياة بعامة من خلال التخوف من الموت.

وأيّاً كان، بعد أن يرسم النص القرآني الكريم قضية الأنفال وصلتها بالإيمان ثم إردافها بمعركة بدر من حيث الربط بين ضرورة الإيمان بما يقرره الله ورسوله والاطمئنان إلى كونه خيراً وبين نتائج معركة بدر التي انتهت إلى نصر الإسلاميين بصفته خيراً أيضاً.

بعد ذلك كله، يتجه النص القرآني الكريم إلى طرح المواقف والأحداث التي رافقت هذه المعركة.

* * *

قال تعالى: ﴿وإذ يعدكم الله إحدىٰ الطائفتين أنها لكم وتودّون أنّ غير ذات الشوكة تكون لكم ويُريد الله أن يحق الحق بكلماته وَيَقْطَعَ دابر الكافرين * ليُحِقّ الحق ويُبْطِلَ الباطِلَ ولو كره المجرمون * إذ تستغيثون ربكم فٱستجاب لكم أنّي مُمِدُّكم بألفٍ من الملائكة مُرْدِفين * وما جعله الله إلا بشرىٰ ولتطمئنّ به قلوبكم وما النصر إلاّ من عندِ الله إنَّ الله عزيز حكيم * إذ يُغَشّيكُم النُعاسَ أَمَنَةً منه ويُنَزِّلُ عليكم من السماءِ ماءً لِيُطهّركم به ويُذْهِبَ عنكم رِجْزَ الشيطان ولِيَرْبِطَ علىٰ قلوبكم ويُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدامُ * إذ يوحي ربُكَ إلىٰ الملائكة أنّي معكم فَثَبِّتُوا الذين آمنوا سَأُلقى في قلوب الذين كفروا الرُعبَ فاضربوا فوقَ الأَعْناقِ واضربوا منهم كلّ بنان...﴾ [الأنفال: ٧ ـ ١٢].

في هذا المقطع من سورة الأنفال يتحدث النص عن معركة بدر مذكّراً المؤمنين بأن فريقاً منهم كانوا يودّون أن يغنموا قافلة أبي سفيان بينا كان الله

يريد النصر على المشركين من خلال المعركة.

وهنا ينبغي ألاّ نغفل عن أهمية الصورة الفنيّة المتمثّلة في قوله: **﴿وتودّون أن غير ذات الشوكة لكم﴾** حيث ترمز(الشوكة) إلى (الشدة) التي لا تميل إليها تركيبة الآدميين غالباً، نظراً لإيثارهم الراحة، وحيث أشار النص إلى أنهم يودّون أن يغنموا بأموال القافلة دون خوض المعركة المسلحة، وهذه الإشارة ذات صلة (من الزاوية الفنية) ببناء السورة الكريمة حيث كان المقطع السابق من السورة يتحدث عن فريق من المؤمنين يجادلون الرسول(ص) في قراراته ومواقفه العسكرية وغيرها فيما كانوا كارهين لكل ما يقترن بانتخاب الموقف من شدّة نفسية أو بدنية أو ماليّة، فجاءت الصورة الفنية **﴿تودون أنّ غير ذات الشوكة تكون لكم﴾** تأكيداً للحقيقة المتقدمة.

ثم يبدأ النص بعد الصورة الفنية المتقدمة بتذكير الإسلاميين لمساعدة السماء للمقاتلين في المعركة(معركة بدر)، حيث أمدّ الله المقاتلين بجنود من الملائكة لكي يطمئنوا بالنصر، كما ذكّرهم بغلبة النعاس أماناً لهم من الخوف الذي يحتجز المقاتل من النوم عادةً، وذكّرهم بإنزال المطر عليهم بغية التطهير والارواء، وذكّرهم بعملية التثبيت لقلوب الإسلاميين من خلال الملائكة الذين أمرهم الله بذلك، وبضرب المشركين، رؤوسهم وأطرافهم وأيديهم، فضلاً عن إلقاء الرعب في نفوسهم.

إن عملية (التذكير) بهذه المعطيات لها إسهامها الموضوعي والفني في هذا المقطع من السورة من حيث بناؤها الهندسي وصلة أجزائها البعض بالآخر. فمن حيث مفردات التذكير بالنعم نلاحظ أنها تنطوي علىٰ جميع متطلبات الإمداد العسكري سواء أكان ذلك متصلاً بالطرف الإسلامي حيث يتطلب أمداداً خاصاً أم كان متصلاً بالطرف المشرك حيث يتطلب الموقف خذلاناً خاصاً أيضاً، فمن حيث الموقف: إسلامياً، نجد أن الإمداد قد تمّ

بجميع أشكاله: المادّي وهم جنود الملائكة، ثم، طريقة الضرب وهو قطع الرؤوس والأرجل والأيدي **﴿فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان﴾**، ثم النفسي، وهو تثبيت القلوب **﴿إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا﴾**، ثم: إذهاب رجز الشيطان عنهم **﴿وليربط علىٰ قلوبكم﴾** حيث كان الماء مفقوداً في المعسكر الإسلامي فاحتجزهم عن التطهير من الحدث والجنابة بعكس المشركين الذين نزلوا علىٰ موقع من الماء، مما جعل ضعاف النفس يصدرون عن تشكيك بمساعدة السماء، لذلك أنزل الله المطر عليهم، تثبيتاً لقلوبهم. ثم إلقاء النعاس عليهم،وهو إمداد جسمي ونفسي، حيث يتطلب الأمر إشباع الحاجة إلى النوم من جانب كما يتطلب الموقف إشاعة جوّ من الأمن بغية تحقيق الإشباع المذكور من جانبٍ آخر، لذلك أمدّهم بالنعاس تحقيقاً للأمن **﴿إذ يغشيكم النعاس أمنة منه﴾**.

إذن، كل أشكال الإمداد الغيبي قد تمّ بواسطة السماء: المادي والنفسي والجسمي.

وهذا كله فيما يتصل بالمعسكر الإسلامي.

أما ما يتصل بمعسكر المنحرفين، فيكفي أنهم جوبهوا بجنود لم يتوقعوهم إطلاقاً حيث يذكر المؤرخون سماع البعض ومشاهدتهم لهياكل بيضاء ساهمت في المعركة، مضافاً إلى أهمّ خذلان وهو الرعب في قلوبهم **(سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾**، حيث ندرك جميعاً بأن الإنهيار المعنوي يظل أشد الأشكال تعبيراً عن الهزيمة.

إذن، جاءت عملية التذكير بنعم الله علىٰ الإسلاميين، مقرونة بأهم ما يمكن تصوره في قضايا الإمداد الغيبي لهم، وقضية التذكير المتقدمة ليست مرتبطة بما تقدم من المواقف التي رسمها النص في قضية صياغة (الانفال) وأنها لله ورسوله وارتباط ذلك بضرورة إطاعة الله ورسوله فحسب، بل أنها

تنسحب على المواقف اللاحقة التي سنقف عليها في السورة المباركة، وهو أمرٌ ينبغي ملاحظته بدقة ما دمنا نستهدف أساساً أن نتناول الجانب العماري من سور القرآن الكريم، من حيث تلاحم الموضوعات فيما بينها وانصبابها في رافد فكري يوحّد بين الموضوعات المختلفة. لذلك نجد أن المقطع اللاحق من السورة الكريمة، يتجه إلىٰ طرح موضوع جديد من موضوعات الجهاد المسلّح وهو قضية الفرار من المعركة، مطالباً بعدم الزحف مرتباً علىٰ ذلك آثاراً خطيرة من حيث الجزاء الأخروي، يقول النص: **﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولّوهم الأدبار * ومَن يولّهم يومئذٍ دُبَرَه إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضبٍ من الله ومأواه جهنم وبئس المصير﴾** [الأنفال: ١٥ ـ ١٦].

وقبل أن نتحدث عن محتويات هذا المقطع، ينبغي أن ندرك بأنّ الموقع الهندسي له من السورة يتمثل في كونه قد رُسِمَ مترتّباً علىٰ الأفكار التي طرحت في مقطع سابق وهي: إمداد الله للإسلاميين، فمع ملاحظة الإمداد العسكري المتمثل في جنود الملائكة، حينئذٍ لا معنًى لأية عملية فرار من الزحف حتى لو كان العدو متفوقاً علىٰ الإسلاميين عسكرياً.

إذن، جاء هذا المقطع الذي سنتحدث عنه مفصلاً، يحتل موقعاً هندسياً مهمّاً من عمارة السورة، أنه لم يقل لنا مباشرة: عليكم بعدم الفرار من المعركة، بل قال ذلك بنحو فنّي غير مباشر هو: كون هذا المقطع جاء بعد الحديث عن الإمداد الغيبي للإسلاميين، وهذه هي سمة الفن التي تتحدث بلغة غير مباشرة في تقرير الحقائق علىٰ النحو الذي تحدثنا عنه.

* * *

قال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولّوهم الأدبار * ومن يولّهم يومئذ دُبره إلاّ متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلىٰ فئة فقد باء**

بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير * فَلَمْ تَقتلُوهم ولكن الله قَتَلهم وما رميتَ إذا رميتَ ولكنّ الله رمىٰ وَلِيُبْلِيَ المؤمنين منه بلاءً حسناً إن الله سميع عليم * ذلكم وان الله موهنُ كيدِ الكافرين﴾ [الأنفال: ١٥ ـ ١٨].

هذا المقطع يتحدث عن جانب من مبادىء الجهاد العسكري من الإسلام. أنه يتحدث عن عدم الفرار من المعركة نتيجة للجبن أو التفوق العسكري للعدد إلاّ لمتطلبات عسكرية مثل تبديل المواقع أو الانتقال إلىٰ مجموعة أخرىٰ من المقاتلين ﴿إلاّ متحرفاً لقتال أو متحيّزاً إلى فئة﴾.

وقد عقب النص علىٰ هذه الظاهرة بقوله تعالى: ﴿فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمىٰ. . .﴾.

هذا التعقيب يحتل موقعاً هندسياً مهمّاً من عمارة السورة الكريمة. فقد سبق أن لحظنا في مقطع سابق أن النص يتحدث عن معطيات الله للمقاتلين الإسلاميين في معركة بدر حيث أمدّهم بجنود من الملائكة وحيث أمدهم بأشكال متنوعة من التفوق العسكري، ولحظنا أيضاً أن المقطع الجديد الذي يطالب بعدم الزحف إنما جاء متحدثاً بلغة فنية غير مباشرة ليقول لنا: لا يجوز الفرار من المعركة ما دام الله هو الذي يمدّكم بالنصر. وها هو المقطع الجديد نفسه يقدّم لنا بعد المطالبة بعدم الفرار، تفسيراً فنياً للمطالبة المذكورة، موضحاً بأن عملية القتل التي صدرت من الإسلاميين حيال المشركين إنما تمّت من قِبَل الله تعالى، وإلى أن الرمي قد تمّ من قِبَل الله تعالى وليس من قِبَل المقاتلين الإسلاميين فحينئذٍ كيف يسمح المقاتل لنفسه بأن يزحف مع علمه بأن النصر من الله وليس من المقاتل نفسه؟.

هذا النمط من الصياغة الفكرية للمقطع لم يجىء مباشرةً، بل صيغ ـ كما قلنا ـ بطريقة فنية توحي للمتلقي بأن النص القرآني الكريم كأنه يريد أن يقول لنا (لا تفروا من المعركة) ما دام القتل والرمي لم يصدرا عنكم(أي: المقاتلين).

والسؤال هو: لقد ذكر النص أولاً معطيات السماء في معركة بدر، ثم قطع سلسلة الحديث عن معركة بدر ليتحدث عن قضية الفرار من المعركة، ثم عاد إلى قضية معركة بدر من جديد فحدثنا عنها من خلال الإشارة إلى أن القتل والرمي تمّ من قِبلَ الله تعالى، فما هو السّر الفنيّ في ذلك؟؟

واضح، أن النصوص الفنيّة سواء أكانت ذات طابع قصصي أم طابع عام، عندما تستهدف إبراز ظاهرة فكرية محددة إنما تستثمر موقعاً من مواقع النص لتمرير الظاهرة المذكورة بحيث يتجانس مع ذلك، لذلك عندما تُقطَع سلسلةُ العرض القصصي أو العرض النثري العام بعرض طارىء إنما تُستخلص من ذلك أهمية هذا العرض الطارىء، وهذا ما نلحظه في المقطع الذي نتحدث عنه حيث قَطعَ النصُ سلسلة العرض القصصي المتصل بواقعة بدر بعرض طارىء هو الزحف من ساحة المعركة ثم واصل النصُ حديثه عن معطيات معركة بدر، لكن جاءت مواصلة العرض متجانسة تماماً مع ظاهرة الزحف، حيث ذكر النص أن القتل والرمي قد تمّا من قِبَل الله بينا ذكر قبل هذه الظاهرة أشكال الإمداد الغيبي دون تخصيصها بعملية القتل والرمي. سرّ ذلك أن القتل والرمي يرتبطان بالفرار وعدمه أشدّ من غيره، أي أن النص لم يذكر لنا قضية النعاس مثلاً حينما ألقته السماء علىٰ المقاتلين في معركة بدر، كما لم يذكر لنا قضية إنزال المطر للتطهير من الحدث والجنابة... الخ، بل شدد علىٰ القتل والرمي بصفتهما يستدعيان الفرار وعدمه من ساحة المعركة.

وهذا جانب واحد من سمات التجانس الفنيّ بين مقاطع السورة الكريمة والتنامي العضوي بينها.

أما الجانب الآخر من البناء الفني للمقاطع المتقدمة فيتمثل في التجانس بين بداية السورة الكريمة التي قالت: ﴿... وإنّ فريقاً من المؤمنينَ

لكارِهون * يجادلونك في الحقِ بعد ما تبيّنَ كأنما يُساقون إلى الموت وهم ينظرون﴾ [الأنفال: ٥ ـ ٦].

إن هذه الصورة الفنية للسوق إلى الموت (حيث تحدثنا مفصلاً عن موقعها الهندسي من السورة) تعود الآن لتُبيّن لنا موقعاً جديداً لها في هذا المقطع من النص، أي ينبغي ملاحظة التجانس بين فريق من الناس كارهين للخروج إلىٰ المعركة، كأنما يساقون إلى الموت وبين فريق يحاول الفرار من ساحة المعركة بعد دخوله فيها. ففي الحالتين عملية فرار منها سواء قبل دخول المعركة أم خلالها.

والآن، خارجاً عن التجانسين المذكورين، ينبغي أيضاً ألا نغفل عن جانب ثالث من سمات التجانس والتلاحم الفني في هذا المقطع من السورة، فقد لوحظ أن النص ذكر عمليتي (القتل) (والرمي)، أما القتل فواضح حيث تضمّن مقطع أسبق، ظاهرة تدخل الملائكة في المعركة واستتباعه قطع الرؤوس والأرجل والأيدي،الخ، فضلاً عن القتل الذي سبّبه(الرمي) الذي نعتزم الإشارة إليه، إن عملية (الرمي) تتمثل ـ كما يذكر المفسرون ـ في تناول النبيّ(ص) قبضة من التراب ورميها أمام العدو وتسبيبها قتلهم وأسْرَهم. لذلك، ينبغي ملاحظة السرّ الفني وراء ذكر هذين النمطين من الهزيمة التي لحقت المشركين وتذكير الإسلاميين بها في سياق النهي، عن عدم الفرار من ساحة المعركة، بمعنىٰ أن النص القرآني الكريم شدد علىٰ كلّ ما له صلة بتسبيب الهزيمة للمشركين في معركة بدر تأكيداً أو تحقيقاً لتعميق عنصر (القناعة) الفنية لدىٰ المتلقّي ومن ثم لتعميق القناعة الوجدانية لدىٰ مَن يحاول الفرار من ساحة المعركة، فما دام القتل مسبّباً من قِبَل الله تعالى، وما دام الرمي (وهو ظاهرة إعجازية أخرىٰ صدرت عن النبيّ(ص) حيث أعمىٰ التراب أبصار المشركين وأزال توازنهم حينما دخل التراب أنوفهم وعيونهم أيضاً). أقول: ما دام القتل

والرمي بنحوهما المذكور قد تمّ من قِبَل الله تعالى وليس من قِبَل المقاتلين، حينئذٍ فإن عملية الفرار من ساحة المعركة، تشكّل سلوكاً لا مسوّغ له البتة، كما هو واضح.

* * *

قال تعالى: **﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وإن تنتهوا فهو خيرٌ لكم وإن تعودوا نعد ولن تُغنيَ عنكم فئتكُم شيئاً ولو كثُرت وأنَّ الله معَ المؤمنين﴾**.

هذا المقطع من سورة (الأنفال) يتردّد المفسرون في كونه خطاباً إلى المشركين أم الإسلاميين، وبما أن دراستنا للنص القرآني تنصبّ علىٰ الجانب الهندسي من السورة من حيث صلة أجزائها بعضاً بالآخر، حينئذٍ يعنينا أن نتعرف بناءَ هذه الآية وكونها متجهةً إلىٰ مخاطبة المشركين أم الإسلاميين.

من حيث السياق الفكري، لا نستبعد أن يكون الخطاب موجهاً إلى الإسلاميين لأن السورة منذ بدايتها قد استهلت الحديث عن الإسلاميين وموقفهم من (الأنفال) المتنازع عليها في معركة بدر، ثم مطالبتهم بإطاعة الله ورسوله وتذكيرهم بمعطيات النصر العسكري في المعركة المذكورة، لذلك عندما نواجه الآن خطاباً موجهاً إلى الناس لا نستبعد ـ من الزاوية الفنية ـ أن يكون استمراراً لمخاطبة الإسلاميين، فيتحدد دلالته حينئذٍ وفقاً لما يلي: (أيها الإسلاميون، ان تستفتحوا علىٰ أعدائكم فقد جاءكم الفتح من الله، وان تنتهوا عن النزاع في قضية الغنائم فهو خيرٌ لكم، وان تعودوا لنزاعكم نعد عليكم بالخذلان... الخ).

مثل هذه الدلالة مقبولةٌ دون أدنىٰ شك إذا أخذنا بنظر الاعتبار ـ مضافاً للسياق الفكري ـ إن النص القرآني الكريم في معرض التنديد بفريق من الإسلاميين الذين كرهوا القتال في بادىء الأمر، وفي معرض تنازعهم، وفي معرض المطالبة بعدم الفرار من الزحف، وهنا أيضاً يظل النصُ في معرض

التنديد بهم في حالة عودتهم إلى السلوك السلبي. وأهمية هذه الدلالة ـ فكرياً ـ من الوضوح بمكان، طالما ندرك تماماً بأن قضية النصر وعدمه مرتبطة بأداء الوظيفة العبادية في الأرض، وقيام ذلك علىٰ عملية (اختبار) يفرز من خلالها أيّ الناس أحسن عملاً، لذلك جاء النص المتقدم يعرض لجانب من الاختبار المذكور من خلال التنديد حيناً والتذكير بالمعطيات حيناً آخر.

وأياً كان الأمر، ومن الممكن أيضاً أن يكون التنديد المذكور، متجهاً إلى المشركين بدلاً من المؤمنين بخاصة إذا أخذنا بنظر الاعتبار أن بعض المفسرين ذهب إلى أن الآية الكريمة (من حيث النزول) ترتبط باستفتاح أحد قادة المشركين في معركة بدر وطلبه نصْرَ الحق بطرفي المعركة، إلا أن ذلك ـ كما احتملنا ـ يظل بعيداً عن السياق الفني (أي المبنىٰ الهندسي) للسورة للأسباب الفنية التي تقدم ذكرها مضافاً إلى أن المقاطع اللاحقة من السورة تظل امتداداً فكرياً للدلالة التي احتملناها، أيضاً، بحيث يمكن ملاحظة جانبٍ هندسي آخر يقوم عليه بناء السورة جميعاً وهو صياغة الخطاب للمؤمنين في كل مقاطع السورة.

ولنتابع ـ إذن ـ المقطع اللاحق من النص. يقول تعالى ـ متابعاً مخاطبته للإسلاميين ـ: **﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون * ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون * إن شرّ الدواب عند الله الصّمُّ البُكْمُ الذين لا يعقلون * ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لَتَولَّوا وهم مُعرضون﴾** [الأنفال: ٢٠ ـ ٢٣].

هذا المقطع مثل المقاطع السابقة، يتجه بالخطاب إلى الإسلاميين، إلا أنّه يعرض للمنحرفين ضمناً بحيث تأخذ السورة الكريمة شكلاً خارجياً هو محاورة المؤمنين وتخليلها رسماً للسمات المنحرفة ثم الرسم للمنحرفين أيضاً.

والجديد في هذا المقطع هو إعادة المطالبة بإطاعة الله ورسوله حيث تشكل هذه المطالبة واحداً من أبنية الشكل الفني للسورة، ومن ثم ترتيب الآثار عليها في حالة عدم الالتزام بها. لذلك حذّر المقطع من نتائج ذلك قائلاً: ﴿ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون﴾ وأهمية هذا التحذير هو(التشبيه) أو (الصورة الفنية) التي وصلت بين الإسلاميين الذين لم يلتزموا بالمبادىء وبين المشركين الذين يصرّون علىٰ مكابرتهم حيث وصمهم بعد ذلك بأنهم (صمّ بكم) لا يعقلون.

أي: أنّ الآثار المنعكسة من عدم الالتزام الإسلامي بالمبادىء سوف تفضي إلى نتائج مماثلة لسلوك الكافرين، وهي نتائج تمثّل غاية الخطورة ما دام العنصر المشترك بين السلوكين: (الإسلامي المنحرف، والمشرك) هو الامتحان في ركوب (الذات) واللهاث وراء إشباع حاجاتها غير المشروعة.

هنا يتقدم النص إلى تقرير إحدىٰ الحقائق النفسية المتصلة بتكييف السلوك وفقاً لمعرفة السماء سلفاً بالممارسات التي سوف يصدر المنحرفون عنها. لقد أكّد النص هذه الحقيقة حينما قال عن المنحرفين: ﴿ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولّوا وهم معرضون﴾. هذا يعني أن الله تعالى سلفاً قد أغلق أسماعَ الكافرين منْ تقبل الخير، أي طبع على أفئدتهم ومنعها من تمثل الخير، لكن ليس علىٰ نحو السلوك (الجبري) بل بسبب أنهم لو أسمعهم الله الخير لكانوا هم يغلقون أسماعهم من تقبّله، لذلك قال عنهم: ﴿ولو أسمعهم لَتولّوا وهم معرضون﴾ وبكلمة جديدة: يريد أن يقول النصُّ لنا: لو أن الله تعالى أسمع الكافرين الخير، لتولوا وهم معرضون، ولذلك، لو عَلمَ فيهم خيراً لأسمعهم فعلاً، وبما أنهم كذلك، كيّف سلوكهم سلفاً بحيث يحجزهم مثلُ هذا التكييف عن تقبّل الخير، فهناك فرقٌ بين أن نقول:إن الله تعالى كيّف سلوك الكافرين سلفاً بحيث لا يوفقون إلى استماع الخير وتقبّله

مطلقاً، وبين أن نقول ان التكييف المذكور جاء نظراً لأنهم لو قُدّر لهم أن يسمعوا لاختاروا الكفر.

هذه الحقيقة ينبغي أن ندركها بوضوح ما دامت متصلة بأهم حقائق التركيب النفسي للآدميين، حيث نجد أن البعض من القاصرين فكرياً يخلطون بين الظاهرة الفلسفية (الجبر) فيما يعني عدم توفّر (الإرادة) أو (الاختيار) في السلوك، وبين الظاهرة النفسية التي تكيّف سلوك الإنسان وفقاً لما سيختاره بملء إرادته من سلوك الخير أو الشرّ، فتوفّق سلفاً، أو يطبع عليها سلفاً تبعاً لعملية (الاختيار) الذي تصدر عنه.

المهمّ، أن النص القرآني الكريم صاغ الحقيقة النفسية المتقدمة في ضوء عَرْضِه لسلوك الإسلاميين الذين يصدرون حيناً عن ضعفٍ في السلوك محذّراً من نتائج الضعف المذكور في حالة استمراريتهم علىٰ ذلك.

* * *

قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون * واتّقوا فتنةً لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب * واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطّفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون﴾ [الأنفال: ٢٤ ـ ٢٦].

هذا المقطع من السورة امتدادٌ لما سبقته من الآيات الكريمة التي انتظمها بناءٌ هندسيٌ خاص هو ١ ـ مخاطبة المؤمنين، ٢ ـ تحذيرهم من السمات السلبية في السلوك ٣ ـ التذكير بنعم الله عليهم.

هذه المفردات التي تظل عصباً فنيّاً لهيكل السورة من خلال طرح ظاهرة(الجهاد في سبيل الله) تواجهنا في كلّ مقطع بطرح جديد، والجديد في المقطع الذي نتحدث عنه هو ـ فضلاً عن المطالبة بطاعة الله ورسوله وهي

مطالبة تتكرر أيضاً في غالبية مقاطع السورة تجانساً مع المفردات الثلاث التي أشرنا إليها، إلا أنها تأخذ صياغة خاصة في كل مقطع ـ طرح جملة من ظواهر السلوك العبادي، منها قوله تعالى: ﴿أنَّ الله يحول بين المرء وقلبه﴾ ومنها (قضية الفتنة أو الامتحان الذي يصيب المؤمنين دون الكافر).

لقد طالب النص أولاً بالاستجابة إلى الله ورسوله بالنسبة إلىٰ (الجهاد في سبيل الله) وهو المحور الفكري الذي قلنا:ان موضوعات السورة جميعاً تحوم عليه، حيث رَمَزَ إلىٰ(الجهاد) بأنه عملية(إحياء) للشخصية الإسلامية. ثم أوضح بأن (الله يحول بين المرء وقلبه) أي: يحجز القلب من أن يرىٰ الباطل حقاً والحق باطلاً، وعملية الحجز المذكورة تشكل ـ في ميدان السلوك العبادي ـ واحدةً من أهم عمليات الاختبار أو الامتحان للسلوك، فما دام الشخص يفرز بوضوح حدود كلٍ من الخير والشر أو الحق والباطل، حينئذٍ تتمّ الحجّةُ عليه ويتحمّل مسؤولية سلوكه في نهاية المطاف، عندما يُحشر إلى الله تعالى: ﴿واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون﴾.

* * *

الطرح الآخر لهذا المقطع هو قوله تعالى: ﴿واتقوا فتنةً لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾.

الفتنة ـ كما نعرف ذلك بوضوح ـ هي: المظهر أو المنبّه الخارجي للسلوك، وعندما يتمّ التحذير منها، حينئذٍ فإنَّ إحالة الله بين المرء وقلبه ـ وهي الآية السابقة التي قررت بأن الله يحجز الشخص من رؤية الباطل حقاً أو العكس ـ تدلّنا علىٰ أن قضية الاختبار وتحمّلَ مسؤولية السلوك حيالها تظل أمراً لا مناص منه وإلىٰ أن التحذير من سلبية السلوك يستكمل بها الله الحجة علىٰ الشخص حيث طَالَب تعالى بالاتقاء من الفتنة، بعد أن مَهّد لذلك بأنه تعالى يحول بين الشخص وقلبه، كما أشرنا.

بعد ذلك، يتجه النص إلى عملية (التذكير) بنعم الله تجانساً مع سائر المقاطع التي تقرن بين عمليتي (التحذير) و(التذكير)، (التحذير) من السلوك السلبي، و(التذكير) بنعم الله. التذكير هنا يجيء في سياق الظواهر المتصلة بالمعارك الإسلامية ما دام هدف السورة فكرياً هو (الجهاد) كما كرّرنا الإشارة إلى ذلك، وكما لحظنا ذلك في مقاطع سابقة أيضاً. المهم، أن (التذكير) بمعطيات الله هنا يتمثل في قوله تعالى: ﴿**واذكروا إذ أنتم قليلٌ مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس**﴾.

إنّ الإشارة إلى الاستضعاف والخوف تتداعىٰ بالذهن إلى (مكة) من حيث بيئتها السياسية التي وُلِدَت في نطاقها رسالة الإسلام، وإلى أن النصر بدأ في بيئة (المدينة)، كما نعرف ذلك بوضوح. ومما لا شك فيه، أن عملية(الإيواء) و(النصر) ﴿**فآواكم وأيّدكم بنصره**﴾ ونقل الإسلاميين من صعيد الاستضعاف والخوف إلى النصر بشرياً وسياسياً وعسكرياً لم يكن مجرّد حادثة تأريخية بقدر ما يشكّل نقلة اجتماعية تناولت البناءَ الاجتماعي أساساً. لذلك، فإن التذكير بمثل هذه النعمة لا بدّ أن يتناسب (فنياً) مع ضخامة (التحذير) من السلوك السلبي أيضاً، أي: أن النص عندما طالبَ الإسلاميين بالاستجابة لله ورسوله في ممارسة(الجهاد)، وعندما حذرهم من (الفتنة)، إنما يعني ذلك أهمية وخطورة مثل هذا التحذير من حيث انعكاساتها على السلوك العبادي.

وأياً كان، فإن النص تقدّم بعد عمليتي (التحذير) و(التذكير) بعرض واحدة من ظواهر السلوك السلبي المتصل بممارسة (الجهاد) قائلاً: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون * واعلموا إنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم**﴾ [الأنفال: ٢٧ ـ ٢٨].

هذا العرض لقضية(الخيانة)، والإشارة إلى (فتنة) الأموال والأولاد، ينطوي علىٰ سرٍّ فني يتصل ببناء السورة هندسياً، حيث يُمثل التحذير من

الخيانة لله والرسول تقابلاً فنياً بين المطالبة بإطاعة الله ورسوله في بداية المقطع، والتحذير من مقابلها وهي: خيانة الله ورسوله في نهاية المقطع. كما أن الإشارة إلى ظاهرة (الخيانة) تمثّل ـ حسب أقوال المفسرين ـ موقفاً للبعض من معارك أخرىٰ، أو مطلق المواقف التي صدرت من بعضهم خلالها بعضُ التصرّفات التي تتعاطف مع المشركين والمنحرفين. كذلك، فإن الإشارة إلى(فتنة) الأموال والأولا، تمثل، تجسيداً عملياً للتحذير الذي طالب بالاتقاء من الوقوع في الفتنة.

إذن، (من زاوية البناء الفني للنص) لحظنا: أن هذا المقطع من السورة طَرحَ جملةً من المفهومات الجديدة من حيث(الأفكار)، مرتكناً (من حيث الصياغة) إلىٰ خطوط متجانسة مع المقاطع السابقة(أي خطوط التحذير، والتذكير، ومخاطبة المؤمنين)، مضافاً إلى تجانس وتلاحم وتنامي الموضوعات المطروحة المتصلة بقضايا (الفتنة) و(الخيانة) وسواهما من الظواهر التي تحدثنا عنها.

* * *

قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعلْ لكم فرقاناً ويكفرْ عنكم سيئاتكم ويغفِرْ لكم والله ذو الفضلِ العظيم﴾ [الأنفال: ٢٩].

هذه الآية تحتل موقعاً هندسياً من السورة هو: وصلُها بين مقطع سابق يطالب المؤمنين بطاعة الله ورسوله وبترك السلوك السلبي وبين مقطع لاحق يتحدث عن المعطيات المختلفة التي تترتب علىٰ الدلالة التي تفرزها هذه الآية التي تتحدث عنها.

لقد أوضحت الآية بأن الإسلاميين حينما يَتَّقُونَ الله، فسوف يجعلُ لهم فرقاناً أي قابليةً فكريةً يَسْتَطيعُونَ من خلالها أن يميزوا بين الباطل والحق. ويجب أن نتذكر أن القسم السابق من السورة قد استهله النص بالإشارة إلى أن

الله يحول بين المرء وقلبه أي يحول بين المرء وبين أن يرىٰ الحق باطلاً والباطل حقاً. وها هو الآن في المقطع الذي نتحدث عنه يقدّم لنا جواباً ـ بطريقة فنية غير مباشرة ـ بأن المرء حينما يتقي الله حق تقاته حينئذٍ فإن الوقوع في الفتنة وغيرها من أنماط السلوك الذي حذّر النصُ المؤمنين منه في مقطع سابق، سوف لن يغلب على المرء ما دام قد اتقىٰ الله بالفعل، حيث يجعل له قابلية نفسية علىٰ اختيار الحق دون الوقوع في شَرَك الباطل، مضافاً إلى أنه تعالى سوف يكفّر عنه سيئاته الماضية.

هنا، بعد أن يقرّر النصُ هذه الحقيقة، يتقدم إلىٰ طرح موضوعات جدية ينتقل خلالها من الحديث عن المؤمنين الذين اتجه الخطابُ إليهم في المقاطع السابقة، إلى الحديث عن الكافرين، إلا أن هذا يتمّ وفق نقلة فنيّة تبدأ من نفس الفكرة التي طبعت المقاطع المذكورة وهي عملية(التذكير) بنعم الله علىٰ الإسلاميين، بادئاً ـ في ذلك ـ بالحديث عن محمد(ص): **﴿وإذ يَمْكُرُ بِكَ الذين كفَروا لِيُثْبِتُوكَ أو يَقتلوكَ أو يخرجوك ويمكرون ويمكرُ الله والله خيرُ الماكرين﴾** [الأنفال: ٣٠].

هذه الآية ذات طابع فنيّ ثنائي، أحَدها هو التذكير بنعم الله، والآخر التعريض بسلوك الكافرين الذين سوف يتكفل قسمٌ من السورة بالحديث عنهم حيث مهد لذلك بالحديث عن مكرهم إلى أنه لا قيمة له بالقياس إلىٰ تدخّل السماء في ذلك.

وها هو النص يعرض لنا جانباً من سلوكهم بعد التمهيد المتقدم: **﴿وإذَا تُتْلَىٰ عليهم آياتُنَا قالُوا قد سَمِعْنَا لو نَشَاءُ لَقُلنا مثلَ هذا إن هَذا إلاّ أساطيرُ الأوّلِينَ * وإذ قالُوا اللّهُمّ إنْ كانَ هذا هو الحقَّ مِنْ عِندِكَ فأمْطِرْ علينا حِجارةً مِنَ السماءِ أو آئتِنا بِعَذَابٍ أليم * وما كانَ الله لِيُعَذِّبَهُمْ وأنتَ فيهم وما كانَ الله مُعَذِّبَهُم وهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وما لهم ألاّ يُعَذِّبَهُم الله وهم يَصُدُّونَ عن المَسجِدِ**

الحرام وما كانوا أولياءَهُ إنْ أولياؤُهُ إلاّ المُتَّقون ولكنَّ أكثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ * وما كانَ صَلاتُهُم عِنْدَ البيتِ إلاّ مُكاءً وتصديةً فَذوقُوا العذابَ بِما كُنْتُم تكْفُرُونَ * إنَّ الذينَ كفروا يُنْفِقُونَ أمْوالَهُم لِيَصُدُّوا عن سبيلِ الله فَسَيُنْفِقُونَها ثم تكونُ عليهمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ والذينَ كفَرُوا إلىٰ جَهَنَّمَ يُحْشرُونَ * لِيميزَ الله الخبيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ويَجْعَلَ الخبيثَ بَعْضَهُ علىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَميعاً فَيَجْعَلَهُ في جَهَنَّمَ أولئِكَ هُم الخاسِرُون * قُلْ لِلَّذِينَ كفَرُوا إنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ ما قَدْ سَلَفَ وإنْ يَعُودوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأوَّلِينَ * وقاتِلُوهم حتى لا تكونَ فِتنةٌ ويكونَ الدِّينُ كُلُّه لله فإنِ انتَهوا فإنَّ الله بِما يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وإنْ تَوَلَّوا فاعْلَمُوا أنَّ الله مولاكم نِعْمَ المَوْلىٰ ونِعْمَ النَّصِير﴾ [الأنفال: ٣١ ـ ٤٠].

هذه الآيات تتحدث جميعاً عن(الكافرين)، وقد خصص النصُ هذا القسم من السورة للحديث عن الفئة المشار إليها، موضحاً جملة من أنماط سلوكهم مثل قولهم عن القرآن الكريم انه من الأساطير، وطلبهم إنزال العذاب من السماء، وصدّهم المؤمنين عن المسجد الحرام، وشغبهم فيه مثل التصفير والتصفيق (مكاء وتصدية)، وإنفاقهم المال للصدّ عن سبيل الله.

ويلاحَظ أن النص طرح خلال حديثه عن الكافرين جملة من الظواهر التي تعني شؤون الإسلاميين وموقعهم من ذلك، فضلاً عن ظواهر عبادية تتصل بالجهاد الذي يشكّل العصبَ الفكريّ للسورة.

من ذلك مثلاً قوله تعالى: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾. فهذه الظاهرة تحدد خطورة القيمة التي خلعها الله علىٰ النبي(ص) وعلىٰ الإسلاميين بعامة، فهو لا يعذب الكافرين بإنزال الحجارة عليهم مثلاً كما كان شأن الأمم السالفة، نظراً لمكانة محمد(ص)، كما لا يعذبهم لمكانة الإسلاميين الذين يستغفرون الله حيث تذكر النصوص المفسّرة أن هؤلاء البقية التي لم تهاجر إلى المدينة لتعذّر ذلك عليهم، تسبّب

وجودهم عدم إنزال العذاب لحرمتهم، مما يعني مدىٰ الخطورة التي يخلعها الله علىٰ عباده المؤمنين.

المهمّ، أن الموقع الهندسي أو الفني لهذا القسم من السورة يتمثل ليس من خلال مجرد طرح بعض الموضوعات المتصلة بالشخصية الإسلامية ومكانتها عند الله فحسب، بل انها تتجاوز ذلك للحديث عن مشروعية قتال الكافرين (في حالة استمرارية سلوكهم) حيث طالب النص ـ كما لحظنا ـ بمقاتلتهم حتى لا تكون فتنةٌ ويكون الدين كله لله. وحيث نعرف بأن السورة أساساً تحوم فكرتها علىٰ الجهاد (في سبيل الله)، بصفة أن مقاتلتهم (بعد أن بيّن النص مشروعية ذلك) تجسد المظهر العسكري لمفهوم(الجهاد) كما هو واضح.

لذلك، ما أن ينتهي النص من هذا القسم حتى يعود ـ بطريقة فنية ـ إلىٰ الحديث عن الإسلاميين بنفس اللغة التي طبعت المقاطع السابقة من السورة، مع طرح موضوعات جديدة تتصل بهذا الجانب.

* * *

قال تعالى: ﴿واعلموا أنّما غَنِمْتُم من شيء فأنَّ لله خُمُسَهُ ولِلرسولِ ولِذِي القربىٰ واليتامىٰ والمساكينِ وابنِ السبيلِ إن كنتم آمَنْتُمْ بالله وما أنْزَلْنا علىٰ عبدِنا يومَ الفُرْقانِ يَومَ التقىٰ الجَمعانِ والله علىٰ كلِ شيءٍ قدير * إذْ أنْتُم بالعُدْوَةِ الدُّنيا وهم بالعُدْوَةِ القُصوىٰ والرَّكْبُ أسْفَلَ مِنكم ولو تَوَاعدْتُم لاختَلَفْتُم في المِيعادِ ولكِنْ لِيَقْضِي الله أمراً كان مفعولاً لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عن بيّنَةٍ ويَحْيَىٰ مَنْ حيَّ عن بيّنَةٍ وإنَّ الله لَسَميعٌ عليم * إذْ يُريكَهُمُ الله في مَنامِكَ قليلاً ولو أراكَهُم كثيراً لَفَشِلْتُم وَلَتنازَعْتُم في الأمر ولكنَّ الله سَلَّم إنَّهُ عليمٌ بذاتِ الصدور * وإذ يُريكُمُوهُم إذِ التَقَيْتُم في أعيُنِكُم قليلاً ويُقَلِّلُكُمْ في أعيُنِهِم لِيَقْضِي الله أمراً كانَ مفعولاً وإلىٰ الله تُرْجَعُ الأمورُ﴾ [الأنفال: ٤١ ـ ٤٤].

هذا المقطع من السورة امتدادٌ للمقاطع السابقة التي تتحدث عن المؤمنين وتطالبهم بالطاعة وترك المعصية وتذكّرهم بنعم الله تعالى.

الجديد في هذا المقطع هو: طرح ظاهرة اقتصادية تتصل بالخُمس من حيث صلته بالغنيمة. وما دام الأمر(من الزاوية الفنيّة) يتصل بالجهاد العسكري وما يواكبه من مبادىء متنوعة، حينئذٍ فإن طرح ظاهرة الخمس تظل متجانسةً مع موضوعات السورة كما هو واضح، مضافاً إلى تجانسها مع بداية السورة التي استهلت موضوعاتها عن (الأنفال) وصلة ذلك بنفس الدلالة المشار إليها.

بعد ذلك، تقدمت السورة بقضية تذكير الإسلاميين بنعم الله عليهم تجانساً مع قضايا التذكير السابقة، مذكرةً اياهم بمعركة بدر، مركزة على وضع تسمية خاصة لها في هذا المقطع هي تسميتها (بيوم الفرقان)، حيث تظل هذه التسمية ذات صلة فنية بمقطع أسبق قال فيه النص: ﴿**ان تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً**﴾ أي قابلية علىٰ فرز الحق من الباطل وفصل أحده عن الآخر. وها هو النص ـ يُجانس فكرياً بين مطالبته بالتقوىٰ واستتباعها فرقاناً بين الحق والباطل وبين تذكيرهم بمعركةٍ استتبعت فرقاناً بين الحق (انتصار المسلمين) والباطل (هزيمة المشركين).

إذن، إطلاق تسميته(يوم الفرقان) في هذا المقطع من السورة، علىٰ معركة بدر يجسّد سمةً فنيّة تتصل بالهيكل الهندسي للسورة.

وإذا تجاوزنا ظاهرة التسمية المذكورة إلى معركة بدر ذاتها، لحظنا أن النص يذكّر الإسلاميين بجانبين عسكريين من المعركة المذكورة، أحدهما يتصل بطبيعة الساحة العسكرية التي تمّ القتال فيها، والآخر يتصل بعدد المقاتلين، حيث ذكّر النصُ الإسلاميين بأنهم كانوا بالعدوة الدنيا، وكان العدو بالعدوة القصوىٰ، والركب (وهو القافلة التجارية التي أشعلت المعركة) أسفل منهم، بحيث يتعذر إحراز النصر لولا تدخل السماء في هذا الميدان.

وأما من حيث العدد فقد ذكر النص ظاهرة كون المشركين قد قلّلهم الله في أعين الإسلاميين بحيث ليتعذر أيضاً إحراز النصر لو لم يقلّلهم الله في أعينهم ولاستتبع الفشل والتنازع، كما صرّحت الآية الكريمة بذلك. كما أنه تعالى قد قلّل عدد الإسلاميين أمام المشركين لكي لا يكترثوا بهم فيقلّ ـ تبعاً لذلك ـ استعدادهم العسكري في مواجهة الإسلاميين فيما يترتب على ذلك إحراز النصر.

هنا ينبغي أن نقف أيضاً عند التفسير الفنّي لهذه المفردات من التذكير بنعم الله تعالى وملاحظة موقعها العماري من السورة. فالملاحظ أن النص ذكّر الإسلاميين في مقاطع سابقة من السورة بمعركة بدر أيضاً، وكان التذكير يتمثّل في إنزال الملائكة، والمطر، والنعاس... الخ، بينا يتمثّل التذكير في المقطع الذي نتحدث عنه في ظاهرة العدد وطبيعة الساحة العسكرية.

ترىٰ، هل نستخلص من هذا أن عمليات (التذكير) ذات وظيفة فنية هي طرحها تدريجاً في مقاطع متنوعة بغض النظر عن تمييز مفرداتها واحدةً عن الآخر، أم أن طرح قسم منها في مقطع دون الآخرىٰ إنما ينطوي علىٰ دلالة فنية أيضاً؟؟.

لا شك أن الاستخلاص الأخير هو الذي يسم النص القرآني بصفته قائماً علىٰ إحكام هندسي بالغ الدلالة.

ويمكننا ملاحظة ذلك إذا تابعنا المقطع اللاحق من السورة فيما يتحدث عن ظاهرة الفشل والتنازع وهو نفس الظاهرة التي ذكّر النصُ الإسلاميين من خلالها بمعركة بدر حيث أوضح من حيث العدد قائلاً: ﴿ولو أراكَهُمْ كثيراً لفشلتم ولتَنَازَعْتُم في الأمر﴾ كما أوضح من حيث المكان قائلاً: ﴿ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد﴾ لأنه في حالة رؤية الإسلاميين كثرة عدد المشركين يضطرون حينئذٍ للتأخر عن المكان المذكور، فيختلف الميعاد المشار إليه.

إذن، يظل انتخاب مفردات معينة من الممارسات العسكرية من حيث التذكير بها، ذا صلة فنيّة بطبيعة الموضوعات المطروحة في السورة وليست مجرد عرضٍ لها، وإن كان العرض نفسه يجسّد أداءً فنياً حتى لو كان مجرداً من الموقع العماري من السورة ما دام الهدف هو إيصال مجموعة من الأفكار إلى الآخرين،وهذا يتم إدراجُها في مقاطع متتابعة دون الحاجة إلىٰ ملاحظة المزيد من التجانس بينها وبين الموضوعات.

المهم، يحسن بنا الآن أن نتابع المقطع اللاحق من السورة بعد أن أشرنا إلى صلته بهذا الجانب.

* * *

قال تعالى: ﴿**يا أيّها الذين آمنوا إذا لقيتم فئةً فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفحلون * وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين * ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط**﴾ [الأنفال: ٤٥ ـ ٤٧].

هذا المقطع من السورة يظل امتداداً للمقاطع السابقة من حيث صلته بهيكل السورة وفكرتها العامة. لقد طالب النصُ أولاً بالثبات في ساحة المعركة وعدم الفرار منها، وهذه المطالبة سبق ذِكْرها في مقطع متقدم ﴿**إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار**﴾ [الأنفال: ١٥] إلا أنّ ذِكرها سابقاً تمَّ في سياقٍ خاص جديد هو المواقف التي يجوز للمقاتل أن يترك موقعه إلى موقع آخر، كأن يلتحق بجماعة أو موقع عسكري يتيح له مجالاً أفضل ﴿**إلا متحرفاً لقتالٍ أو متحيزاً إلى فئة**﴾. أمّا في المقطع الذي نتحدث عنه فإن المطالبة بالثبات في المعركة فتتم في سياقٍ جديد هو ذِكرُ الله أثناء القتال، والصبر، وعدم المنازعة ﴿**واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون * وأطيعوا الله ورسوله ولا**

تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا﴾.

هنا ينبغي أن نتذكّر أن سورة الأنفال بدأت بالمطالبة بإطاعة الله ورسوله. وها هو المقطع الذي نتحدث عنه يطالب بإطاعة الله ورسوله، كما بدأت بالمطالبة بعدم المنازعة في الغنائم، وها هو المقطع الذي نتحدث عنه يطالب أيضاً بعدم المنازعة لكن بنحوٍ عام وهذا هو الجديد في المقطع، كما يطالب بممارسات جديدة هي ذكر الله في أثناء القتال ثم الصبر عليه.

ولا نجدنا بحاجة إلى التذكير بأهمية مثل هذه الممارسات التي طالب النص بها ما دمنا نعرف بأن (الجهاد في سبيل الله) هو الفكرة التي تحوم عليها سورة الأنفال، وإلىٰ أن عنصر (المنازعة) التي استُهلت السورة به هو المفردات التي ستحوم عليها مقاطع السورة فيما يطالب النصُ المؤمنين بعدم المنازعة ويذكّرهم بنتائجها السلبية، كما يذكرهم بنعم الله عليهم، مقرونةً بالحديث عن الكافرين الذين يجسّدون الطرف السلبي الذي يحذر النصُ المؤمنين من مفردات سلوكه.

لذلك، ما أن ينتهي النص من حديثه عن المطالبة بإطاعة الله ورسوله، والثبات في المعركة، وبذكر الله، وعدم المنازعة، حتىٰ يتجه النص إلى الحديث عن الكافرين من خلال عنصر(المقارنة) فيقول: **﴿ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله﴾**.

إن التشديد علىٰ مفردات ثلاث من السلوك هي: الخروج بطراً، والرياء الاجتماعي، والصدّ عن سبيل الله، هذه المفردات التي تشكل سلوك الكافرين الذين صاغهم النص في سياق المقارنة، إنما تعني إمكانية أن يصدر بعضُ الإسلاميين عن أمثلة هذا السلوك. فالمنحرفون (وهم قريش حسب النصوص المفسرة) خرجوا من ديارهم(مكة) إلى (بدر) ليقيموا ثلاثاً فيها، حيث خرجوا معهم بالمعازف والقيان والخمور ليتباهوا أمام الآخرين وليعرضوا قواهم أمام

الإسلاميين. هذا الخروج بصفته مقروناً بالخمور والمعازف، يمثّل(بطراً) وليس عملاً جديّاً، كما أنه بصفته عرضاً اجتماعياً يمثل (رياءً)، وبصفته نشاطاً ضدّ القوىٰ الإسلامية يمثّل (صدّاً عن سبيل الله).

إذن، عندما يعرض لنا النصُّ مفرداتٍ من سلوك المنحرفين إنما يستهدف (من الزاوية الفنية) كما نحتمل ـ من خلال المقارنة بينها وبين المؤمنين الذين يحذّرهم النص من ذلك ـ إمكان أن يصدر بعض الإسلاميين عن أمثلة هذا السلوك، فالبَطَر (وهو الخروج بالمعازف والقيان) تعبير عن مظهر عدم الجديّة في السلوك وهو أمرٌ من الممكن تقع الشخصية فيه إذا لم يُتح لها وعيٌ حاد بمبادىء الله، يستوي في ذلك أن يكون السلوك المذكور مفردات محددّة كما ذكرها النص التفسيري عن قريش أو مطلق السلوك غير الهادف، كما أن (الرياء الاجتماعي) يظل في مقدمة ظواهر السلوك التي قد يصدر عنها بعض الإسلاميين الذين لا يمتلكون الوعي الجاد بمبادىء الله، كذلك الصدّ عن سبيل الله من الممكن أن يتخذ واجهاتٍ متنوعة عند الضعاف نفسياً. . . ففي الحالات جميعاً من الممكن أن يفضي السلوك المنهيّ عنه في هذا المقطع من السورة إلى الوقوع في سلوكٍ مماثل لسلوك الكافرين، حيث أوضح النص بنحو لا لبْسَ فيه: أن عدم الثبات في المعركة، وعدم إطاعة الله ورسوله، والمنازعة، وعدم الصبر سوف تفضي إلى الوقوع في ممارسات تُشير إلى ممارسات الكافرين **﴿ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله. . .﴾** فهذا التشبيه أو التمثيل ليس مجرد عنصر فني صُوري بقدر ما يمثّل (واقعاً) بشرياً حذّر النصُّ الإسلاميين منه، طالما نعرف أن النص القرآني الكريم حينما يعتمد (صورة فنية) فإنه يختلف تماماً عن الاستخدام البشري لها، فالاستخدام البشري لعنصر(الصورة الفنية) يظل خاضعاً لعمليات التخيّل والذاتية والمبالغة والتجريد، بينا يظل الاستخدام القرآني للصورة محكوماً بسمة(الواقع)،أي: حتميّة أن يفضي السلوك المنهيّ عنه عند

الإسلاميين إلىٰ سلوك مماثل لسلوك الكافرين الذين تحدث النص عنهم عبر الاستشهاد بثلاث مفردات من سلوكهم بالنحو الذي تقدم الحديث عنه مفصلاً.

* * *

قال تعالى: ﴿وإذْ زَيّنَ لهُمُ الشَيطانُ أَعْمالَهُم وقال لا غالبَ لكُم اليوم من الناس وإنِّي جارٌ لكم فلما تراءَتِ الفئتانِ نكَصَ على عَقِبيه وقال إنِّي برِيءٌ مِنكم إني أرىٰ ما لا تَرَوْنَ إني أخافُ الله واللهُ شديدُ العقاب﴾ [الأنفال: ٤٨].

هذا المقطع أو الآية من سورة الأنفال يرتبط بالحديث عن الكافرين الذين حذّر الله المؤمنين من الوقوع في سلوكهم حينما خاطبهم قائلاً في مقطع سابق ﴿ولا تكونُوا كالذين خَرَجُوا من ديارِهم بَطَراً ورِئاءَ الناس ويَصُدُّونَ عن سَبيلِ الله﴾ [الأنفال: ٤٧].

إن هؤلاء الكافرين الذينَ يخرجون بطراً ورياءً وصدّاً عن سبيل الله يقدّمهم النص الآن عبر سلوك عمليّ هو تزيين الشيطان لأعمالهم، متمثلاً في قوله لهم: ﴿لا غالبَ لكم اليوم من النّاس و إنّي جارٌ لكم﴾ [الأنفال: ٤٨].

إننا ما دمنا نتحدث عن العبارة الفنية في القرآن الكريم من خلال الهيكل الهندسي للنص، يعنينا أن نتعرف سمات الفنّ في هذه الآية أو المقطع. فالملاحظ (من زاوية عمارة النص) ان هذه الآية تجسيدٌ لسلوك سبق أن أومأ إليه النص. فبالرغم من أن النصوص المفسرة ذكرت بأن هذا السلوك يرتبط بنشاط المشركين الذين خرجوا إلى(بدر) في قافلتهم، إلا أنّ أهمية الفن العظيم هي تجاوز الخاص إلى العام أي ترشّح النص بإيحاءات عامة يستخلصها المتلقّي حتى لو كان بمنأىٰ عن نصوص التفسير، لذلك نجد أن النص لكي يدلّل فنيّاً على كون هؤلاء المشركين يخرجون بطراً ورئاءً وصدّاً عن سبيل الله، يقدم لنا نموذجاً من سلوكهم هو: تزيينُ الشيطان لأعمالِهم، حيث ينطبق هذا التزيين علىٰ سُلوكِهم الذي ذكَرَهُ المفسّرون، كما ينطبق علىٰ السلوك الذي

سرده النص حينما ذكر جانباً من التزيين متمثلاً في قول الشيطان لهم ـ عبر معركة (بدر) نفسها ـ (لا غالبَ لكُم اليومَ) و(إنّي جارٌ لكم) حيث تعبّر هاتان الجملتان الحواريتان عن عملية الصدّ عن سبيل الله بما يستتبع هذا التزيين من سلوك عملي هو إقدام المشركين علىٰ قتال الإسلاميين. وبالفعل تقدم المشركون إلىٰ المعركة، والتحم الطرفان. لكن بما أن النصر كان لصالح الإسلاميين حينئذٍ جاء رد الفعل للتزيين الشيطاني المذكور علىٰ هذا النحو ﴿فلما تراءت الفئتان نكَصَ ـ أي الشيطان ـ على عَقِبيه﴾ قائلاً لهم ﴿إنّي بَريء منكم إنّي أرىٰ ما لاترون اني أخاف الله﴾.

هذه العباراتُ الثلاث الصادرة عن الشيطان تمثّل نكُوصاً وارتداداً واضحاً عن تزيينه، فبَعْد أن أكد لهم بأنه (لا غالب لَكُم اليوم) وبعد أن قال لهم (إنّي جارٌ لكم)، إذا به يرتّد عن قوله السابق فيقول لهم (إني بريء منكم) (إني أرىٰ ما لا تَرَون) (إني أخافُ الله).

والآن إذا دققنا النظر في هذا الموقف الارتدادي من الشيطان نجدُ أنّنا أمامَ نمطٍ له خطورتُه وإمتاعُه في حَقْلِ التَعْبير عن الموقفِ المذكور، فأوّلاً نستخلصُ بأنَّ عملية(التزييف) تشكّلُ مجرّد سلوكٍ لفظيٍ لا واقع له في ميدان العمل بدليل أن الشيطان قد نكص علىٰ عقبيه وتخلّى عن نصرته المزعومة للمشركين. أكثر من ذلك، إنه لم يتخلّ عن نصرتهم فحسب بل تبرّأ منهم، ولم يقف الأمر عند مجرد البراءة منهم بل قدَّم لهم ما يزيدُ الموقف اشتعالاً في أعماقهم عندما قال لهم بأنّه يرىٰ ما لا يَرون وإلى أنه يخافُ الله. وهنا ندرك قيمةَ هذا النمط من العبارةِ القرآنية الكريمة في رسمها لسلوكِ المشركين وتعميقِ القَناعةِ بتفاهة سلوكهم وقيامه علىٰ (الوهم) وليس (الواقع). فليس أشدّ إيلاماً في النفس من أن يزيّن الشيطان أعمال الناس ثم يصدُر عنه سلوكٌ مخالفٌ كلَّ المخالفةِ لعملية التزيين. أنه يزيّن لهم عدم الخوف من الله عندما يدفعهم إلى

المعركة ويقول لهم لا تخافوا من الإسلاميينَ وأنه ناصرٌ لهم، بينا يرتدّ عن هذا الموقف مع أول المعركة فيقول لهم بأنه يخاف الله، وأنه يرىٰ ما لا يرون.

إذن، جاء هذا النمط من الرسم القرآني الكريم لسلوك المشركين منطوياً علىٰ دلالات فنية بالغة القيمة من حيث الإثارة والإمتاع.

وهذا كلُّه من حيثُ الدلالةُ الفكريةُ أو النفسية للموقف. أما من حيث اللغة التي تمّت من خلالِها هذه العملية، فتتمثلُ في عنصرِ (الحوار) الفنيّ الذي رسمَه النصُّ القرآني الكريم، فالملاحظ أنَّ النّص قد اعتمد (الحوار) القائم بينَ(الشيطان) و(المشركين) دون أن يعتمد مجردَ السردِ أو الوصفِ لسلوك المشركين. وسواء أكان (الشيطان) (إنسياً) أو (جنّياً) وسواء أكان الشيطان (رمزاً) للأفكار الفاسدة أو تجسيداً فعلاً في هيكل بشري (كما تذكُر نصوصُ التفسير) ففي الحالين نجدُ أن عملية (الحوار) بشكلها المذكور تمثّل أشدّ المواقف إثارةً دون أدنىٰ شك. فإذا افترضنا أن (بشراً) جسّد الموقفَ الشيطاني أي تجسّد الأخيرُ في صورةِ شخص، أو إذا افترضنا أن الأفكار الفاسدةَ أوْحَتْ إلى المشركين بأنَّهُ لا غالبَ لهم اليوم من الناس وإلى أنّهم منتصرون، حينئذٍ ـ في الحالين ـ عندما يلتحم الطرفان فعلاً في معركة (بدر) أو مطلقِ المعارك ويواجهُ المشركونَ هزيمة منكرة، لا بدّ في الحالة المذكورة من أن يُصدَم المشركونَ حيالَ هذه الهزيمة وأن يُصابُوا بخيبةِ أملٍ مَريرة، عندما يجدونَ أنّ حساباتِهم أو تصوراتهم لا أساسَ لها من الواقع سواءً أكانت هذه التصورات تزييناً ذاتياً أم تزييناً من الشيطانِ المتجسّد في صورةِ شخصٍ (كما تؤكدُ النصوص المعتبرةُ ذلك). والمهم هو أن عنصرُ (الحوار) القائم علىٰ القول بأنه ﴿لا غالبَ لكم﴾ ﴿وانّي جارٌ لكم﴾ ثم الارتداد عن هذا الموقفِ إلى القول ﴿إني برِيءٌ منكُم﴾ ﴿إني أرىٰ ما لا ترون﴾ ﴿إني أخافُ الله﴾، هذا النمط من الحوارِ المباشر أو الخطابِ الموجّه إلى المشركين يَنْطوي علىٰ فاعليةٍ ملحوظةٍ

في تعميق القناعةِ بتفاهة سلوكِ المشركين وقيامِهِ أساساً علىٰ تصوراتٍ لا واقع لها بالنَحْو الذي فَصَّلْنا الحديث عنه.

* * *

قال تعالى: **﴿إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غرّ هؤلاء دينُهم ومن يتوكّل على الله فإن الله عزيز حكيم﴾** [الأنفال: ٤٩].

هذه الآية أو المقطع تحتل من هيكل السورة الكريمة موقعاً هندسياً له قيمته الفكرية، فالسورة التي تكفلت بمخاطبة الإسلاميين وتحذير الضعاف نفسياً منهم، اتجهت إلى عنصر المقارنة مع الكافرين بنحو ما لحظناه سابقاً. هنا تتجه السورة إلىٰ عرض فئة أخرىٰ من الكافرين هي: الفئة المنافقة، إلا أنها تَلمّ عابراً بهم لتتحدث عنهم بنحوٍ مستقل في سورة كاملة هي (التوبة).

المهم، أن الإلمام العابر بالمنافقين والاكتفاء بعرض موقفٍ واحد من مواقفهم المنحرفة، ينطوي علىٰ قيمة عضوية في بناء النص، كما قلنا، والمهم أيضاً هو معرفة هذا الموقف أو السمة وصلته بالأفكار المطروحة في النص.

لقد عرض النص للمنافقين دون أن يسمهم بسمة نفسية خاصة إلا أنه أردف ذلك بقوله: **﴿والذين في قلوبهم مرض﴾**، أي: أنه عطف علىٰ المنافقين فئة أخرىٰ وسَمَها بأنها ذات(مرض) في القلب، ومن البين ـ في حقل الصحة النفسية ومقابلها: المرض ـ إن المرض في القلب يعني عدم استواء الشخصية بغض النظر عن موقفها الفكري، مما يعني أن النص يدلنا أن المنحرفين الذين لا يؤمنون بالله إنما هم حفنة من المرضىٰ قبل أن يكونوا أصحّاء نفسياً، كما يدلنا ـ بطريقة فنية ـ أن المنافقين هم في مقدمة هؤلاء المرضىٰ، أنه لم يسمهم بأنهم مرضىٰ مباشرةً بل عندما عطف عليهم فئة المرضىٰ، حينئذ يستنتج المتلقي بأنهم مرضىٰ أيضاً، لنستمع من جديد: **﴿وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض﴾** أي: هناك سمة مشتركة بين الفئتين:

المنافقة وسائر الذين في قلوبهم مرض، السمة هي مرض النفس أو القلب كما وسمهم النص.

والآن، خارجاً عن هذا المنحىٰ الفنيّ في صياغة المواقف أو تشخيص المنحرفين عبادياً، نتجه إلى الدلالة الفكرية التي عرضها النص عن المنافقين وسائر المرضىٰ، فماذا نجد؟ قال المرضىٰ عن الإسلاميين ﴿غرّ هؤلاء دينهم﴾، هذه العبارة هي: الموقف الذي صدر عن المنافقين وسائر المرضىٰ، والمهم هو تحليل العبارة المذكورة وصلتها بالمَرَض من جانب وبالسياق الفكري الذي وردت فيه، من جانب آخر.

لنتذكر أن النص كان في صدد تزيين الشيطان لأعمال المنحرفين، ومن قبلُ كان في صدد المقارنة بين الإسلاميين الذين حذّرهم النص من السلوك السلبي وبين المنحرفين الذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس وصدّاً عن سبيل الله. وها هو النص يقدم لنا نموذجاً من المواقف المتماثلة في انتسابها إلىٰ مظهر اجتماعي هو: النظر إلىٰ المجتمعات من خلال (الكم)، فالمنحرفون ـ كما لحظنا ذلك في مقاطع سابقة ـ قد احتشدوا في (بدر) بصفته واحداً من مواسم العرب لعرض قواهم، كما أن الشيطان الذي زيّن لهم أعمالهم، قال لهم: ﴿لا غالب لكم اليوم من الناس﴾، مما يعني أن معيار (الكم) يحتل من نفوس المنحرفين موقعاً ذا قيمة، ولكن من البيّن أن تقويم الحقائق من خلال (الكم) وليس من خلال(الكيف) يظل إفصاحاً عن السذاجة من جانب والاضطراب النفسي من جانب آخر، لذلك حينما اتّهم المنافقون الإسلاميين بأنهم مغرورون في دينهم، إنما عبّروا في الواقع عن سذاجتهم واضطرابهم في هذه التهمة. لقد خُيّل إليهم أن الإسلاميين غرّهم دينُهم وهم قلة قبالة المشركين الذين يمثلون عدداً كبيراً في معاركهم المسلحة، دون أن يدركوا أو دون أن يسمحوا لأنفسهم بأن يقروا بأنّ ثقة الإسلاميين بالنصر العسكري في

معركة بدر أو غيرها إنما تنبع من ثقتهم بالله تعالى وليس من كثرة أو قلة عددهم. لذلك جاء تعقيب النص علىٰ قولهم المذكور بما يلي: **﴿ومن يتوكّل علىٰ الله فإن الله عزيز حكيم﴾**، مبيّناً بأن المعيار هو التوكل علىٰ الله وليس كثرة أو قلة العدد.

إن طابع الاضطراب أو المرض ـ كما وصمهم النص بذلك ـ يتمثل في نمط التهمة التي ألصقها المنافقون بالإسلاميين ونعني بها (الغرور) وهي تهمة تمثّل ـ في الواقع ـ عملية (إسقاطية)، أي: أن المنافقين والذين في قلوبهم مرض، يحيون عادةً أو يصدرون في جانب من سلوكهم عن (الاغترار) بالذات الاجتماعية، بدليل المواقف السابقة التي شرحها النص، مثل الخروج إلى المواسم، والخروج إلى المعركة القائلة: لا غالب لكم... الخ، لذلك(يسقطون) نفس هذه (الذات الاجتماعية) التي تطبعهم، (يسقطونها) علىٰ الإسلاميين معبّرين بذلك عن سمة يحيونها هم وليس سواهم، بصفة أن (الغرور) هو مظهرٌ ملتوٍ معبّرٌ عن تشابك العُقَدِ داخل النفس.

وأيّاً كان، فإن النص القرآني الكريم بعد أن يعرض لهذه الفئة (المنافقة وسائر المرضىٰ) يعود إلى الحديث عن مطلق الكافرين الذين رسمهم في سياق المقارنة مع بعض الضعاف نفسياً ممّن اتّجهت السورةُ الكريمة إلىٰ تحذيرهم وتذكيرهم، بغية عدم الوقوع في نفس المصائر التي ينتهي الكافرون إليها دنيوياً وأخروياً. أما أخروياً فقد عقب النص علىٰ مصائرهم قائلاً: **﴿ولو ترىٰ إذ يتوفىٰ الذين كفروا الملائكةُ يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق﴾** [الأنفال: ٥٠]. وأما دنيوياً، فيذكّرهم النص بمصائر آل فرعون **﴿كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم إن الله قوي شديد العقاب * ذلك بأن الله لم يك مغيّراً نعمةً أنعمها على قومٍ حتىٰ يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم * كدأب آل فرعون والذين من قبلهم**

كذّبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون، وكلٌّ كانوا ظالمين﴾ [الأنفال: ٥٢ ـ ٥٤].

* * *

قال تعالى: **﴿إن شرّ الدّواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون * الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرّة وهم لا يتقون * فَإمّا تَثْقَفنّهم في الحرب فشرّد بهم مَن خَلْفَهُم لعلهم يذَّكرون﴾** [الأنفال: ٥٥ ـ ٥٧].

هذا المقطع من السورة يشكل موضوعاً جديداً يطرحه النص في سياق الهيكل الفكري لها، فالهيكل الفكري للسورة هو: (الجهاد في سبيل الله) كما هو معلوم، كما أنّ رسم بعض أنماط السلوك السلبي الذي واكب المجاهدين قد شكّل جانباً كبيراً من الهيكل المذكور، مضافاً إلى أن إدخال عنصر (الكفار) من خلال التحذير والتذكير شكّل جانباً آخر من عمارة هذا الهيكل الفكري. أما الآن فيتحدث النص عن الكفار أنفسهم وطريقة التعامل العسكري مع بعض فئاتهم، فبعد أن لمحّ النص بمطلق الكافرين، ثم بفئة المنافقين، اتجه الآن إلى فئة ثالثة يبدو أنهم (اليهود) كما تذكر نصوص التفسير، وحتىٰ خارجاً عن هذه النصوص فإن ما يعنينا هو: رسم نمط التعامل العسكري مع فئة تطبعها سمة (النقض) للعهود والمواثيق العسكرية. لقد رسمهم النص (أي: اليهود) بأنهم شرّ الدواب علىٰ وجه الأرض، وكون اليهود شر الدواب أمرٌ لا يحتاج إلىٰ تعقيب طالما خبرتهم المجتمعاتُ قديماً وحديثاً بما طبع ممارساتهم من غدر وحقد وجبن وسائر السمات التي تطبع أشد الناس اضطراباً وتمزّقاً.

المهمّ لقد رسمهم النص هنا من خلال سمة واضحة من سلوكهم هو (الغدر) قائلاً عنهم: **﴿الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون﴾**، هذه الفئة الناقضة للعهد، طالب النصُ النبيَّ(ص) والإسلاميين بأن يُنكِّل بهم حتىٰ يعتبر من بعدهم **﴿فشرّد بهم مَن خلفهم لعلهم يذكّرون﴾** بصفة

أن هذا النمط من التعامل العسكري مع اليهود ـ وهم يتميّزون بطابع الخوف من جانب وكون تشريدهم يشكل ضرورة ملحة بغية عدم إفسادهم في الأرض من جانب آخر ـ يتناسب مع تركيبتهم التي أشرنا إليها.

بعد ذلك يتجه النص إلىٰ مبدأ عسكري آخر (في ميدان الجهاد حيال ناقضي العهود) موضحاً ذلك بقوله: **﴿وامّا تخافنّ من قوم خيانةً فانبذ إليهم علىٰ سواء، انّ الله لا يحب الخائنين﴾** [الأنفال: ٥٨]، فطالما تظل سمة (نقض العهد) طابعاً للسلوك المنحرف، حينئذٍ فإن اتخاذ الموقف المحتاط يفرض ضرورته علىٰ الإسلاميين، لذلك طالبهم النص بأن يلقي الإسلاميون ما بينهم وبين ناقضي العهود من مواثيق، قبل أن يباغتوهم بالنقض، إلا أنّ هذا المبدأ حَرَصَ المشرّعُ الإسلاميُّ علىٰ صياغته وفق دلالة إنسانية هي قوله تعالى: **﴿فانبذ إليهم علىٰ سواء إن الله لا يحب الخائنين﴾** أي: يجب إعلام العدوّ بهذا الأمر حتى يكون هذا الطرف وذاك علىٰ علم بعدم الالتزام، بغية عدم بدأهم بالقتال قبل إعلامهم بالموقف... ولا أدلّ على البعد الإنساني لهذا النمط من التعامل العسكري من قوله تعالى: **﴿إن الله لا يحب الخائنين﴾** أي: أن المبدأ الإسلامي لا يسمح لنفسه بأن يخون الإسلاميون أعداءهم من خلال مقاتلتهم قبل إعلامهم بذلك.

* * *

والآن، بعد أن عرض النص لمختلف فئات الكافرين ونمط التعامل العسكري مع هذه الفئة أو تلك، تقدّم إلىٰ مبدأ عسكري آخر هو: الاعداد العسكري **﴿وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة ومن رباط الخيل تُرهبون به عدوّ الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم...﴾** [الأنفال: ٦٠].

هذه المطالبة بإعداد القوىٰ العسكرية أمرٌ لا يحتاج إلى التعقيب طالما نُدرك بوضوح أن المهمة العبادية تتطلب عملاً يتناسب مع الموقف الذي

يواجهه الإسلاميون، فما دام (الجهاد) يتطلب قوىً تقف حيال العدو المرتكن نفسه إلىٰ قوىً يعتمدها، كذلك، فإن الإسلاميين يتعيّن عليهم إعداد أنفسهم عسكرياً بنحو يتناسب مع متطلبات المعركة.

بعد ذلك، يتجه النص إلى مبدأ آخر هو: **﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل علىٰ الله إنه هو السميع العليم * وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين﴾** [الأنفال: ٦١ ـ ٦٢] وهذا المبدأ يتمثّل في سياقات خاصة، يطلب العدوّ فيها الكفّ عن المقاتلة، لكن ينبغي ملاحظة ذلك بالقياس إلى نمط العدوّ حيث ذكر المفسرون أن المبدأ العسكري القائل: **﴿اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾** مقابل المبدأ القائل: **﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها﴾**، يجسّد الفارق بين عدو مشرك وعدوّ كتابيّ، بمعنىٰ أن طبيعة الموقف السياسي هو الذي يحدد هذا المبدأ أو ذاك.

* * *

قال تعالى: **﴿وألّف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألّفت بين قلوبهم ولكن الله ألّف بينهم انه عزيز حكم﴾** [الأنفال: ٦٣].

هذه الآية تشكل مقطعاً فكرياً يصل بين مقطع سابق ومقطع لاحق في السورة، المقطع السابق يتحدث عن العدو وخديعته للإسلاميين **﴿وان يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله﴾** [الأنفال: ٦٢]. لذلك جاء المقطع الجديد ليدلّل ـ بطريقة فنية ـ بأن خديعة العدو لا قيمة لها، فالمهم الالتزام بمبادىء الله في عملية الجهاد المسلّح، وإذا كان للمعيار أو العنصر البشري قيمة ما ـ وهو كذلك ـ فإن هذا العنصر لم يتحرك من خلال إمكاناته بل من خلال الله تعالى، وتبعاً لذلك فإن عملية التأليف بين القلوب وتوحيد الكلمة فيما تشكل ـ في المعيار العسكري ـ قوة لها خطورتها، فإن هذا التأليف بين القلوب، قد تمّ من قبل الله تعالى، بحيث لو أُنفِق ما في الأرض جميعاً ما أُلّف بين قلوبهم إلا إذا

أراد الله ذلك، وهو ما تمّ بالفعل.

من هنا اتجه النص إلىٰ تقرير حقيقة عسكرية هي: **﴿يا أيها النبيّ حسبك الله ومَن اتّبعك من المؤمنين﴾** [الأنفال: ٦٤] هذه الحقيقة ترتّبت ـ كما هو واضح ـ علىٰ المقطع السابق الذي مهّد بالقول بأن الله هو الجامع لكلمة الإسلاميين، وإذا كان الأمر كذلك، فيكفي إن الله تعالى وتلك الجماعة التي تم التأليف بين قلوبها، يكفي أن يشكل ذلك قوة حيال العدو.

بعد ذلك يتقدم النص إلىٰ المطالبة بالجهاد المسلّح، فيما تظل فكرةُ (الجهاد) كما كرّرنا هي الهيكل العام الذي تصبّ فيه موضوعات السورة.

يقول النص مخاطباً النبيّ(ص): **﴿يا أيها النبيّ حرّض المؤمنين علىٰ القتال، إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون﴾** [الأنفال: ٦٥].

المطالبة بالقتال تجيء ـ من الزاوية الفنية ـ نتيجة للتمهيد السابق الذي قرّر بأن النبيّ(ص): حسبه الله ومَن اتبعه من المؤمنين. بيد أن الملاحظ أن النص تقدم بعرض ظاهرة(الكم) مقرّراً بأنه إذا كان الإسلاميون عشرين مقاتلاً فسوف يغلبون مائتين من جند العدو، إذا كانوا مائة فسوف يغلبون ألفاً منهم.

طبيعياً، إن عرض الظاهرة العددية بهذا النحو يظل من الوضوح بمكان كبير من حيث البناء الهندسي للنص، فقد سبق أن ذكر النص بأنه يكفي لتحقيق النصر مَن اتبع النبيّ(ص) من المؤمنين، وجاء التمثيل بالعشرين مقابل المائتين، والمائة مقابل الألف، تجسيداً إيضاحياً للفكرة السابقة، وهي نسبة تحدد الواحد قبالة العشرة، بيد أن السؤال هو: لماذا تكرّر في النص: التمثيل بالعشرين والمائة قبالة المائتين والألف،مع أن الاقتصار علىٰ واحدٍ من التمثيليين كافٍ في تقرير الحقيقة؟ كان من الممكن أن يكتفي النص بقوله: **﴿إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين﴾** دون أن يتبع ذلك بقوله أيضاً:

﴿وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً﴾، ترىٰ ما هو السرّ الفنيّ وراء هذا التكرار بمثالين؟.

قد يقول قائل: بأن عملية التكرار تنطوي علىٰ فائدة نفسية لتعميق الحقائق وبلورة عنصر(الاقناع) عند المتلقّي أو المقاتل، وهذا صائب دون أدنى شك، إلا أنّ استكناه سرٍّ آخر وراء ذلك لا بد أن يكون مشروعاً لدىٰ المتذوق الفني إذا أدرك بوضوح بأن النص القرآني الكريم لا ينطوي علىٰ عنصر(التكرار) إلاّ إذا واكب ذلك سرٌّ فنّي آخر مضافاً إلىٰ ما ذُكِر، ترىٰ، ما هو هذا السرّ؟.

يمكن القول بأن التمثيل الأول وهو: ﴿إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين﴾ مجرّد تجسيدٍ لأقلّ عدد من المقاتلين، وإلىٰ أن التمثيل الآخر جاء إفصاحاً عن حقيقة أخرىٰ هي أنه لو كثر العدد أيضاً، فإن النتيجة واحدة هي أن المقاتل الإسلامي الواحد يظل مقابلاً لعشرة مقاتلين من الأعداء.

خارجاً عن ذلك، يتقدم النص بتقرير حقيقة أخرىٰ حينما يواجهنا بالآية الآتية: ﴿الآن خفّف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين﴾ [الأنفال: ٦٦].

من هذه الآية نستكشف ـ مستعينين في ذلك بنصوص التفسير ـ ان ظاهرة العدد ليست مجرد التمثيل فحسب، بل تتضمن مضافاً لما تقدم، حكماً ـ في ميدان الفقه العسكري ـ هو: وقوف الواحد قبالة الاثنين وعدم جواز التخاذل عن ذلك. والمهم أن هذه الآيات أو المقاطع جاءت في سياق الفكرة العامة للسورة وهي ـ الجهاد في سبيل الله ـ لتقرر جملة من المبادىء المتصلة بهذا الجانب، إلا أن هذا كله يتم من خلال رسم هو: تنبيه الإسلاميين علىٰ بعض معالم السلوك الذي يواكبه الضعف النفسي في هذا الموقف أو ذاك، حيث لحظنا أن السورة الكريمة قد استهلت موضوعاتها بالحديث عن الغنائم المتنازع

عليها في معركة(بدر) كما أنها ألمحت إلى موقف آخر من السلوك المماثل، محذرةً الإسلاميين من نتائج ذلك مذكّرة إيّاهم بمساندة السماء معهم في معاركهم مع العدو، وهو أمرٌ يمكننا ملاحظته في الآيات أو المقاطع الختامية لسورة الأنفال، حيث تُختتم السورة الكريمة بطرح ظواهر مطبوعة بنفس السمات التي وقفنا عليها.

* * *

قال تعالى: ﴿ما كان لنبيٍّ أنْ يكونَ له أسرىٰ حتى يُثْخِنَ في الأرضِ تُريدون عرضَ الدُّنيا والله يُريدُ الآخرةَ والله عزيزٌ حكيم * لولا كتابٌ منَ الله سبقَ لمَسَّكُمْ فيما أخذتُمْ عذابٌ عظيم * فكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حلالاً طيّباً واتّقوا الله إنَّ الله غفورٌ رحيمٌ * يا أيها النبيُّ قُلْ لِمَنْ في أيديكُمْ مِنَ الأسرىٰ إنْ يَعلَمِ الله في قلوبِكُمْ خيراً يُؤْتِكُمْ خيراً مِمّا أُخِذَ مِنكُمْ ويَغْفِرْ لكُمْ والله غفورٌ رحيم﴾ [الأنفال: ٦٧ ـ ٧٠].

هذه الآيات تشكّل المقطع ما قبل الأخير من سورة الأنفال، وإذا كانت هذه السورة قد بدأت بالحديث عن غنائم الحرب، فإن الحديث عن الغنائم يظل خاتمة السورة أيضاً، إحكاماً لعمارة السورة التي تلاحمت موضوعاتها عضوياً بنحو ما تقدم تفصيل الحديث عنه. وقد لحظنا أن هذه السورة تشدّد علىٰ نمطٍ من السلوك العسكري الذي مارسه الإسلاميون في عملية (الجهاد في سبيل الله) حيث شدّدت علىٰ جوانب من السلوك السلبي الذي رافق ممارساتهم محذّرة الإسلاميين منه، بغية تعديل سلوكهم وجعله متساوياً مع مبادىء السماء. ولعل البحث عن الغنائم في غمرة الانتصار وجعْلها موضع الاهتمام يظل في مقدمة ما لحظناه في موضوعات هذه السورة التي حذّرت من ذلك.

من هنا جاء الحديث عن الغنائم في خاتمة السورة امتداداً لبدايتها ولكن من خلال طرح جديد لها هو: قضية (الأسرىٰ). لقد حذّر النص من الرغبة في

أسر العدّو وأخذ الفدية قبل أن يبالغ الإسلاميون في مقاتلة العدو مستهدفين بذلك عَرَض الدنيا والله يريد منهم أن يستهدفوا الآخرة.

مقابل ذلك، اتجه النص إلىٰ مخاطبة الأسرىٰ من خلال(الفدية) التي أخذت منهم، مبيّناً لهم أنهم في حالة كونهم قد ندموا علىٰ سلوكهم المنحرف وتابوا إلى الله واخلصوا في إسلامهم، عندها، فإن الله تعالى سوف يعوضهم عن الفدية ويعطيهم خيراً مما أخذ منهم.

المُلاحظ هنا، أن كلاً من الإسلاميين والأسرىٰ قد توجه الخطابُ إليهم بلغة التحذير، فالإباحة، نظراً لتوفّر الإخلاص ـ من جانبٍ ـ لدىٰ الطرفين، ولإمكانية صدورهم عن لحظات الضعف من جانب آخر. أما الإخلاص فيتمثل عند الإسلاميين في كونهم قد مارسوا عملية (الجهاد) مع صدور بعضهم عن رغبة تتخلل سلوكهم نحو الغنيمة الدنيوية حيث أباح النص ذلك فيما بعد حينما قال لهم: **﴿فكُلُوا مما غَنِمتُم حلالاً طيباً واتّقُوا الله إنّ الله غفورٌ رحيم﴾** [الأنفال: ٦٩] بمعنى أن النص حرص علىٰ أن يصدروا في سلوكهم عن أرفع درجات الإيمان بألاّ يتخلل ذلك أيّ عَرَض من متاع الحياة، وأما (الأسرىٰ) فقد (ثمّن) النصُ (الفدية) التي يقدمّونها عن إخلاصٍ في الموقف وندم ما سلف منهم، واتجاهٍ إلى الإيمان برسالة الإسلام، حيث وَعَد بإعطائهم خيراً منها.

وحيث حذّر ـ في الوقت نفسه ـ بأن(الفدية) إذا كانت لهدف آخر غير الإيمان بالله كأن يعودوا إلى نفس السلوك السابق، عندها سوف يمكّن الله الإسلاميين منهم في معركة أخرىٰ **﴿وإن يُريدُوا خيانَتَكَ فقد خانُوا الله من قبلُ فأمكَنَ منهم﴾**.

إذن، ثمة(تحذير) من جانب، يقابله تثمينٌ للسلوك الإيجابي بعامة، سواء أكان ذلك متصلاً بالإسلاميين أساساً أو بالأسرىٰ الذين رغبوا في

الإسلام، وهو هدفٌ فكري عام طَبَع غالبية موضوعات السورة كما لحظنا.

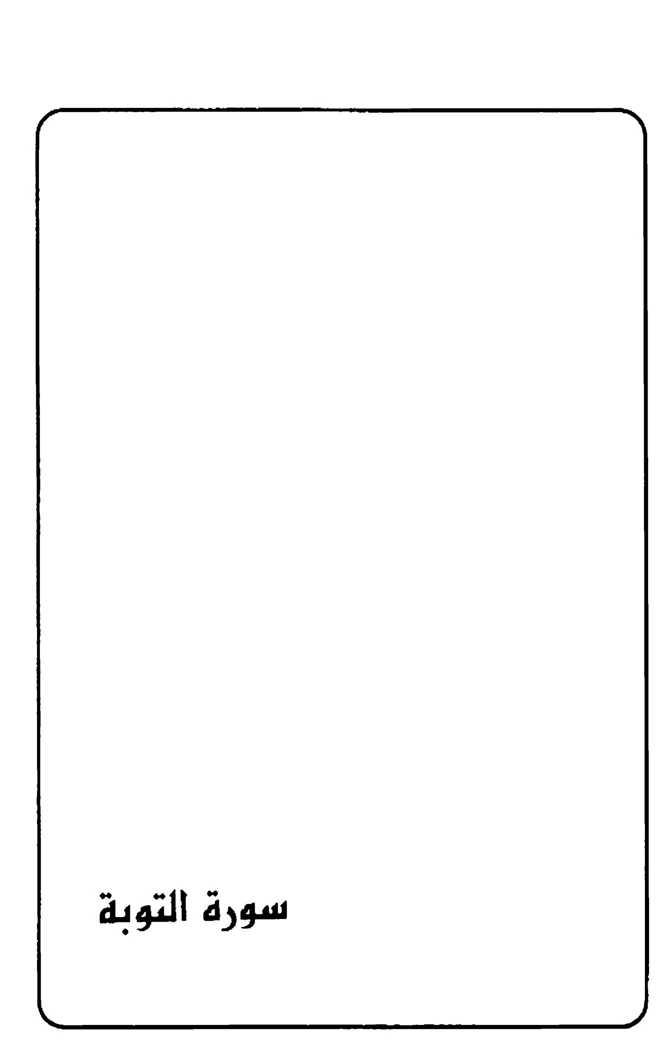
* * *

والآن بعد أن ينتهي النص الكريم من صياغة الموضوعات المتصلة بالجهاد في سبيل الله بما واكبها من مواقف حذّر النصُ الإسلاميين منها، يتجه إلىٰ ختام ذلك بعرض الآيات الآتية: **﴿إن الذين آمنُوا وهاجَرُوا وجَاهدُوا بأموالِهم وأنفسهِم في سبيلِ الله والذين آوَوْا ونصرُوا أولئِكَ بَعضُهُمْ أولياءُ بعض والذين آمنُوا ولم يُهاجرُوا ما لَكُمْ مِنْ ولايتهِمْ من شَيءٍ حتى يُهاجرُوا وإنْ استنصرُوكم في الدّين فعليكُمُ النَّصرُ إلاّ علىٰ قومٍ بينكم وبينهم ميثاقٌ والله بما تعملون بصير * والذين كفروا بعضُهُمْ أولياءُ بعضٍ إلاّ تفعلُوه تكُنْ فتنةٌ في الأرض و فسادٌ كبيرٌ * والذين آمنُوا وهاجَرُوا وجاهدوا في سبيلِ الله والذين آوَوْا ونصرُوا أولئك هُمُ المؤمنون حقّاً لهم مغفرةٌ و رزقٌ كريم * والذين آمنُوا من بَعْدُ وهاجَرُوا وجاهدُوا معكم فأولئك منكُم وأوْلُوا الأرحامِ بعضُهُم أوْلىٰ ببعضٍ في كتابِ الله إنَّ الله بكلِ شيءٍ عليم﴾** [الأنفال: ٧٢ ـ ٧٥].

بالرغم من أن هذه الآيات تتحدث عن زمان ومكان خاصين، تتصل بالمهاجرين، والأنصار، والأعراب، والكفار، عصرئذٍ، إلا أنها تشدّد علىٰ جملة من المفهومات العامة التي استبطنتها السورةُ الكريمة في طياتها مثل: ولاية الإسلاميين بعضهم لبعض والكفار بعضهم لبعض، والنصرة من أجل الدين حتىٰ لو لم يتكافأ الطرف غير المهاجر إلاّ في حالة وجود مواثيق عسكرية تمنع من النصرة المذكورة... الخ.

ويُلاحَظ أن عنصر(الإرث)، تخلل هذا المقطع الذي خُتمت به السورةُ الكريمة، وسواء أكان هذا العنصر يتصل بالبعد الاقتصادي للموضوعات، أي ظاهرة (التوارث المالي) أم كان متصلاً بدلالات أخرىٰ ذكرها بعضُ المفسرين، إلا أنّ عمارة النص (ونحن نتحدث عن الهيكل الهندسي للسورة)

تتساوق مع الاتجاه الأول ما دام البُعد الاقتصادي المذكور جاء في سياق (الجهاد في سبيل الله) وهو الفكرة العامة التي تطبع السورة الكريمة كما كررنا فيما تتخلّلها ـ بطريقة فنية ـ موضوعات تتصل بالغنائم (وهو بُعد اقتصادي كما هو واضح) من خلال ممارسة (الجهاد) وكذلك(التوارث) من حيث الهجرة وعدمها نحو ساحة الجهاد، حيث يطرح المقطع واحداً من جوانب (ظاهرة الميراث) وهو أمرٌ لا يدخل في نطاق الدراسة الفنية لهيكل السورة بقدر ما يتصل بظاهرة (الأحكام فقهياً)، إلا أننا استهدفنا الإشارة إلىٰ مجرد التناسق الفكري بين موضوعات السورة والطريقة الفنية التي سلكها النص في صياغة ذلك، بالنحو الذي تقدم الحديث عنه.



سورة التوبة

سورة التوبة تُعدّ واحدةً من السور الطوال في القرآن الكريم. وإذا كانت السور الطوال تتضمن ـ عادةً ـ موضوعاتٍ مختلفةً يجمعها هدف فكريٌ واحدٌ فإن هذه السورة (أي: التوبة) تتميّز بكونها ذات موضوع واحد يطبع غالبيتها هو: (مفهوم الجهاد) بما يُواكبه من ظواهِرَ متصلةٍ بهذا المفهوم. وهناك بعض الموضوعات التي تبدو وكأنها بمنأىً عن ظاهرة (الجهاد المسلّح)، إلا أنّها تظلّ بنحوٍ أو بآخر ـ كما سنوضح ذلك مفصلاً ـ علىٰ صلةٍ أو تجانس مع عملية الجهاد.

طبيعياً، أنّ كلّ نص فنيّ سواء أكان ذا موضوعات مختلفة يجمعها هدفٌ فكريٌ واحد، أم كان ذا موضوعٍ واحدٍ متشعّبِ الظواهِرِ مثل موضوع (الجهاد المسلّح)، لا بد أن يتوزّع في مجموعة من (مقاطع) يتضمّن كلٌ منها: جانباً من الهدف الفكري الذي تحوم السورةُ عليه، وتبعاً لذلك، يمكننا ـ في سورة التوبة ـ الحديثُ عنها فنياً عبر مقاطع متنوعة يتناول كلُّ مقطع أو قسمٍ منها جانباً من موضوعات الجهاد في سبيل الله مثل الجهاد من خلال التعامل مع العهود والمواثيق بين الإسلاميين والعدو، ومثل العلاقة الاجتماعية القائمة بين الطرفين وتحديد ما ينبغي أن يُسلَك في هذا الميدان... إلخ.

مضافاً لما تقدم هناك عنصر فكري يتضخّم بشكل ملحوظ في السورة، متمثلاً في إلقاء الضوء علىٰ سلوك أحد الأنماط الاجتماعية التي برزت في ذلك العصر، ونعني به(المنافقين) الذين لعبوا دوراً انحرافياً فيما تكفلت السورة بإلقاء الإنارة عليهم، وفضحت أعماقهم، وهو أمر حمل المعنيّين بشؤون التفسير علىٰ أن يطلقوا علىٰ هذه السورة اسم(الفاضحة) وغيرها من الأسماء التي تتصل بهذا الجانب، وتبعاً لذلك يمكن القول بأن هناك عمارة هندسية

ثانوية داخل العمارة العامة في السورة تتداخلان من حيث رسم الهيكل الفكري لها، فضلاً عن عمارات أخرىٰ تتآزر جميعاً في طرح المفهومات المتنوعة وفق عمليات التنامي والتجانس الفنيّين بينها، علىٰ النحو الذي نبدأ الحديث عنه الآن.

* * *

تبدأ سورة التوبة بالبراءة من المشركين، وفق لغةٍ يتطلّبها الموقفُ السياسي والعسكري في ذلك الحين، وهي لغة فيها صرامة وشدة حيال العدو الذي أمعن في ضلالاته.

بيد أن هذه اللغة لم تشأ أن تقف أمام أية فرصة للعدو من الممكن أن يستثمرها ويعود إلىٰ صوابه، لذلك تركت مدةً زمنية محددة هي أربعة أشهر يُسمَح فيها للعدو بحرية التحرك بحيث إذا لم يُسلم: فحينئذٍ سوف تتحدث لغةُ السلاح...

هنا ينبغي أن نقف عند الدلالة الإنسانية في الموقف الإسلامي المذكور، فبالرغم من تمادي العدوّ سنين متعددة في مواقفه العدائية، إلا أن إفساح المجال له أربعة أشهر: يعني أنّ هدف اللغة التي أعلنت البراءة من العدو ليس هو استخدام السلاح مجرداً عن الدلالة الإنسانية بل لغرض إشاعة الخير، ولذلك كانت الأربعة أشهر فرصة كبيرة أمام العدو يستطيع من خلالها أن يعيد حساباته مع نفسه ويتجه للإيمان برسالة الله. يقول النص مخاطباً: ﴿**فسيحُوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله**﴾ ثم أعاد ذلك قائلاً: ﴿**فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله**﴾.

ينبغي أن نقف عبر هذين النصين على الأداء الفنيّ الذي سلكته السورة الكريمة من حيث عمارتها الهندسية، فالسورة استهلت النص بالبراءة من العدو تاركة له أربعة أشهر لدراسة موقفه من الرسالة قائلة له ﴿**واعلموا أنكم غير**

معجزي الله﴾ ثم أعادت الكلام ثانية: عندما رتبت النتائج علىٰ الفرصة المذكورة فقالت ﴿فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله﴾. لقد كرر النص التنبيه علىٰ أن العدو غير مُعجز الله، مرتين، الأولىٰ: عند الحديث عن الفرصة، والثانية: عند الحديث عن نتائج الفرصة وهي التوبة أو عدمها، كما كرّر النصُ البراءة من العدو مرتين، مرة: قالته بنحو مجمل ﴿براءة من الله ورسوله إلىٰ الذين عاهدتم من المشركين﴾ وأخرىٰ: قالته مفصلاً ﴿و أذان من الله و رسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر ان الله بريء من المشركين ورسوله﴾. واضحٌ، أن جمالية هذا البناء الهندسي القائم علىٰ الموازنة والتوازي بين البراءتين من جانب وكون المشركين غير معجزي الله من جانبٍ آخر. أقول، إنّ جمالية البناء المذكور تقوم ـ في الواقع ـ علىٰ طبيعة الدلالة الفكرية لهذا الموقف، صلته بالدلالة الإنسانية التي أشرنا إليها حيث أشار النص أولاً بأن المشركين غير معجزي الله بشكل عام، ثم أشار إلى أنهم غير معجزي الله أيضاً إذا لم ينتهزوا فرصة الأربعة الأشهر للتوبة. إذن: التكرار المتقدم للبراءة من المشركين وعدم كونهم معجزي الله تعالى في الحالتين: التوبة وعدمها، إنما صيغ بنحوٍ فنيّ تتناسب عمارته الهندسية مع طبيعة الدلالة الفكرية التي تضمنها النص.

* * *

(لحظنا أن البراءة من المشركين، والإذن بمقاتلتهم تمّ من خلال دلالة إنسانية هي إفساح المجال لهم أربعة أشهر لتعديل مواقفهم العدائية).

ولو تابعنا الآن هذه الدلالة، للحظنا أن جانباً جديداً منها يبرز في الموقف العسكري وهو قوله تعالى: ﴿إلاّ الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلىٰ مدّتهم إن الله يحب المتقين﴾.

(إن الله يحب المتّقين) هذه العبارة هي المعيار أو القيمة التي تفسّر معنى الدلالة الإنسانية المشار إليها، فالتقوىٰ وليس مجرد القتال هي البطانة التي تغلّف سلوك الإسلاميين وتفرزهم عن السلوك المنعزل عن السماء.

ومن البين، إن الالتزام بالمواثيق العسكرية يَفْقِدُ دلالته: في حالة نقضِ الطرف الآخر له، كما أنه في حالة الإخلال ببعضها أو في حالة إعانة الطرف المذكور لعدوٍ آخر أو ممارسة مطلق السلوك العدائي. في أمثلة هذه الحالات لا بدّ للطرف الإسلامي من عدم الوقوف صامتاً حيال الحالات المذكورة، بل لا مناص له من مقاتلة العدو: تحقيقاً لإشاعة مبادىء الخير... ولذلك عندما استثنت الآية الكريمة بعض الفصائل المعادية التي كانت بينها وبين الإسلاميين هدنة أو عهد: إنما ربطت ذلك بمعيارين هما: عدم إنقاصهم شيئاً من شروط العهد وعدم التعاون مع العدوّ الإسلامي.

سرّ ذلك، إن الإخلال بالشروط أو التعاون مع العدوّ سوف يخلّفان آثارهما علىٰ الإسلاميين: من حيث السماح لقوىٰ الشرّ بالتحرّك، وهو أمرٌ يتنافىٰ أساساً مع الدلالة الإنسانية التي كرّرنا أنّ الإسلاميين يصدرون عنها في تعاملهم العسكري مع العدوّ.

* * *

والآن حين نتابع النص القرآني الكريم، نجد أن الدلالة المذكورة: تبرز في نمط جديد من السلوك، ولنقرأ: **﴿فإذا انسلخ الأشهر الحُرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كلّ مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلّوا سبيلهم إن الله غفور رحيم﴾**.

من زاوية البناء الهندسي للنص، ينبغي التذكير بأنّ السورة الكريمة بدأت بالإعلان عن براءة الله ورسوله من المشركين والإذن بمقاتلتهم بصرامة وشدة يتطلّبهما الموقف.

وها هي الصرامة والشدة تأخذ صفتها بمزيدٍ من الوضوح حينما يبدأ النص بتفصيل الحديث عن طرائق التعامل العسكري مع العدو. فبعد أن كانت اللغة العسكرية تُجمل الكلام عن كيفية البراءة من المشركين، إذا بها: تفصّل ذلك من خلال هذه الفقرات المتتابعة (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) و(خذوهم) و(احصروهم) و(اقعدوا لهم كل مرصد). هذه الفقرات الأربع المتتابعة تكشف لنا جمالية النص من حيث توافقها مع الدلالة العسكرية، فالتتابع اللفظي السريع (فاقتلوهم وخذوهم واحصروهم، واقعدوا لهم): يتساوق مع صرامة الموقف الذي ينبغي أن يسلِكه الإسلاميون مع العدو... كما أنه يمثّل (من زاوية البناء العماري للنص) نمواً عضوياً لمقدمة السورة التي أجملت ـ كما أشرنا ـ مفهوم «البراءة» من العدو، ثم فصّلت ذلك من خلال توضيحها لطرائق القتال.

ولو اتجهنا إلىٰ مبنىً آخر من عمارة النص المذكور، لوجدنا أن المطالبة بقتل العدو، وأخذِه، وحصرِه، ورصدِه: حيثما كان، قد وازنه النص بطرح مفهوم (التوبة) من جديد، حيث قال **﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم﴾**.

لنتذكر: أن النص عندما فسح للعدو في مقدمة السورة مجالاً هو: الأربعة أشهر إنّما قَرَن ذلك بمفهوم (التوبة) (فإن تبتم فهو خير لكم) وها هو الآن في القسم الجديد من السورة: يتحدث من جديد عن (التوبة) أيضاً، كما أنه بدأ بتفصيل ما أجمله من مفهومها في مقدمة السورة، حيث أضاف إليها إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم).

إذن، مضافاً لما لحظناه من دلالات جمالية تتصل بالبناء الهندسي للسورة، نلحظ أن (الدلالة الإنسانية) في الموقف العسكري: تبرز من جديد:

حيث يُسمح للعدو بتعديل موقفه من خلال «التوبة».

أكثر من ذلك أن الدلالة الإنسانية تتصاعد لُغتها في الموقف الإسلامي حينما نواجه بُعداً جديداً منها: عبر متابعة النص حديثه عن التوبة: بهذه الآية الكريمة: **﴿وإن أحدٌ من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه﴾**.

إن تحقيق (التوبة) من الممكن أن لا يتحدد من خلال القناعة بمشروعية المبادىء المُعلن عنها بقدر ما يَفرضه الخوف مثلاً، وهو أمرٌ حرصَ المشرع الإسلامي علىٰ أخذه بنظر الاعتبار في تعامله العسكري مع العدوّ، لذلك سمَح للمقاتلين بأن يجيروا الشخص الذي يطلب الأمان منهم: بغية أن يسمع كلام الله، بأن يتفهّم المبادىء التي يحملها المقاتل الإسلامي مثلاً، حينئذ ينبغي علىٰ المقاتل الإسلامي أن يبلغ المستجير مأمنه: فلا يغدر به، بل يحرص علىٰ سلامته تحقيقاً للدلالة الإنسانية التي لحظنا مدىٰ نصاعتها في الموقف الإسلامي.

* * *

بدأت سورة (التوبة) بالبراءة من المشركين ـ كما لحظنا في صفحات سابقة ـ فمنحت أولاً أربعة أشهر فرصة التوبة للعدو، ثم شدّدت عليه بعد المدة المذكورة: لكنها سمحت أيضاً بالتوبة، وها هي الآن تمنح فرصة جديدة في مرحلة ثالثة من مراحل الجهاد العسكري المتصل بالتعامل مع العدو من خلال العهود والمواثيق، ولنقرأ: **﴿كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلاّ الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين * كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلاً ولاَ ذمةً يُرضونكم بأفواههم وتأبىٰ قلوبهم وأكثرهم فاسقون﴾**.

هذا النص ـ كما هو واضح ـ يتحدث عن العدوّ ودأبه علىٰ عدم مراعاة

العهود وإلىٰ أنه يتحدث بلسانه خلاف ما في أعماقه حيث تستبطن الغدر، ومن ثمّ يقدّم لنا المسوّغ أو الأسباب التي تدفع الإسلاميين إلىٰ البراءة منه ومقاتلته، عدا الفئات التي عاهدهم الإسلاميون حيث طلب النصُ من الإسلاميين أن يستقيموا لهم ما دام العدو مستقيماً، مكرراً القول بأن الله يحبّ المتقين.

ويعنينا من هذا التلخيص للنص: أن نتناوله من زاوية البناء الهندسي ما دام هدفنا منصباً علىٰ دراسة هذا الجانب الفني في نصوص القرآن الكريم. فالمُلاحَظ هنا، أن النص يتدرّج فنيّاً من مرحلة إلىٰ أخرىٰ من حيث (الأفكار) المطروحة فيه، كما أنه يوازن هندسياً بين مختلف الأجزاء التي تتضمنها (الأفكار) المذكورة. فمن جانبٍ لحظنا تدرّج المراحل التي قطعتها السورة في تعاملها مع العدو: مرحلة الأربعة أشهر، ثم مقاتلته في حالة عدم التوبة، ثم مرحلة التشدد في قتالهم بعد ذلك: في حالة عدم التوبة في هذه المرحلة أيضاً... ثم مرحلة مواصلة القتال: في حالة عدم الاستقامة وتبيين المسوّغات والأسباب في ذلك.

كما لحظنا ـ من جانبٍ آخر ـ كيفية التوازن القائم بين جزئيات هذه المراحل مثل تكرار التوبة، وتكرار التأكيد بأن الله يحب المتقين، وتكرار الالتزام بالعهود ما دام العدو ملتزماً بها... كل أولئك نلحظه في هذا القسم من السورة: حيث كان المحور الفكري الذي يحوم هذا القسمُ عليه قائماً علىٰ طريقة التعامل مع العدو من خلال المواثيق والعهود القائمة بينه وبين الإسلاميين.

لكن، لا يزال هذا القسم من السورة متصلاً بمحور فكري آخر هو: ربط السلوك العسكري الذي يصدر العدوّ عنه بطبيعة تركيبته الفكرية بشكلٍ عام... وهذا الربط الفني بين السلوك العسكري القائم علىٰ نقض العهود والمواثيق، والسلوك العام له، ينطوي علىٰ أهميتين: فنية ونفسية. أما الأهمية الفنية

فتتمثل في الهيكل العماري الذي يصل بين بداية هذا القسم من السورة ونهايته. وأما الأهمية النفسية فتتمثل في طبيعة الربط بين سلوك جزئي وهو: السلوك العسكري وبين سلوك كلّي هو: التركيبة النفسية للعدو.

ولنستمع إلىٰ الآيات الكريمة في هذا الصدد: **﴿اشتَروا بآيات الله ثمناً قليلاً فصدوا عن سبيله، إنهم ساء ما كانوا يعملون * لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمةً وأولئك هم المعتدون * فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ونفصّل الآيات لقوم يعلمون * وإن نكثوا أيمانَهُم من بعدِ عهدِهم و طعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون * ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانَهُم وهمّوا بإخراج الرسول وهم بدأوكم أوّلَ مرة أتخشَونهم فالله أحقُّ أن تخشَوه إن كنتم مؤمنين * قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين * ويُذهبْ غَيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم * أم حسبتم أن تُتركوا ولمّا يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما تعملون﴾**.

لقد خُتم القسمُ الأول من سورة التوبة بهذه النصوص التي قدّمناها. أنها ـ كما لحظنا ـ ربطت بين كون العدو لا يرقب إلاً ولا ذمة في سلوكه العسكري وبين كونه أساساً لا يرقب في أيّ مؤمنٍ إلاً ولا ذمة، خارج الصعيد العسكري أيضاً، حيث قدمت السورة أكثر من شاهد على ذلك، ويُلاحَظ أنها ربطت في النهاية بين مقاتلة العدو للأسباب المتقدمة وبين مفهوم (الجهاد) ذاته: حيث أشارت النصوص إلى أن الجهاد عملية اختبار من قِبَل الله تعالى. وسنجد أن لهذه الإشارة إلى الجهاد إسهاماً فنياً في طرح المفهومات المتصلة بهذا الجانب.

* * *

نواجه الآن، المقطع أو القسم الثاني من سورة (التوبة) التي انتظمتها

مقاطعُ مختلفةُ يقوم كلٌ منها بطرحِ مفهوماتٍ مُحدَّدة تصبُّ ـ في نهاية المطاف ـ في الهيكل الفكري العام للسورة. ولنقرأ:

﴿ما كانَ للمشركين أنْ يَعْمُروا مساجدَ الله شاهدين علىٰ أنفسهم بالكفر أولئك حبطتْ أعمالُهم وفي النار هم خالدون * إنما يَعْمُرُ مساجِدَ الله مَن آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتىٰ الزكاةَ ولم يخشَ إلا الله فَعَسىٰ أولئك أن يكونوا من المهتدين * أجعلتُم سقاية الحاجِ وعمارة المسجدِ الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهدَ في سبيل الله. . . .﴾.

كان المقطع الأولُ من سورةِ التوبة يتحدَّثْ عن العلاقة الاجتماعية القائمة بين الإسلاميين والمنحرفين من حيث التعامل العسكري مع المواثيق والعهود. . .

أمّا هذا القسم، فيتحدثُ عن نمطٍ آخرَ من العلاقةِ الاجتماعية بينَهُما إلاَّ أنه يصُبُّ في نفسِ الهدفِ الفكري الذي تضمَّنهُ المقطعُ السابق وهو: عزلُ المنحرفين عن البُنيةِ الإسلامية في مختلف أوجهِ النشاطِ ومنها الوجهُ المُتصلُ بالمساجدِ ومستلزماتها المتنوعة، بصفةِ أنّ المساجدَ كانَت يَومئذٍ مؤسسة اجتماعية ذات أهميةٍ ملحوظة. . . لقد أنكرَ النصُّ علىٰ المنحرفين أن يعمّروا مساجدَ الله شاهدينَ علىٰ أنفسِهم بالكفر، كما أنكرَ أن يُماثلَ بين نشاطينِ أحدُهما يتّسمُ بكونِه شكلياً أو عادياً مثلُ سقايةِ الحاج وعمارةِ المسجد الحرام بالقياس إلى النمطِ الآخر الذي يكتسِبُ أهميةً حقيقةً وهما: الإيمان بالله واليوم الآخر والجهادُ في سبيل الله.

فالأول، يظلُ نشاطاً يرتبطُ بدوافعَ ذاتية مثل: الرغبة في تحقيق السيطرةِ أو المنزلة الاجتماعية كما لا يتطلبُ تضحيةً ذات قيمةٍ في النفسِ أو المال، بينما نجدُ أن النّمطَ الآخر يرتبطُ بدوافعَ موضوعيةٍ وبتضحيةٍ في الأنفسِ والأموال،ونَعني به: الإيمانَ والجهادَ في سبيلِ الله.

المهمُ: أنَّ النّصَ القرآنيَّ الكريمَ حينَما يُحدِّدُ أمثلة هذِه العلاقة الاجتماعية بين الإسلاميينَ وبين المنحرفين ممن شهد علىٰ نفسه بالكفرِ (وهم أهلُ الشّرك) أو ممَّن كان أيمانُه في ذلك الوقت أقلَّ درجةً من سواه، عندما يُحدّدُ النصُ القرآنيُ أمثلة هذه العلاقة ينتقلُ بعدها إلى تحديدِ علاقةٍ أخرىٰ بينَ الإسلاميينِ والمنحرفين،ولكن مَن حيث الولايةُ أو التعاطفُ الوجداني،وهو ما تُوضّحه الآيتان الآتيتان: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءَكُم وإخوانَكم أولياء إن استحبّوا الكفرَ علىٰ الإيمان ومَن يتولَّهُم منكُم فأولئك هُم الظالمون * قل إن كان آباؤكم وأبناؤكُم وإخوانكُم وأزواجكُم وعشيرتكُم وأموالٌ اقترفْتموها وتجارةٌ تَخشَون كسادَها ومساكِنُ ترضونها أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهادٍ في سبيلهِ فتربصوا حتى يأتي الله بأمره. . .﴾.

هذا النصُ يتحدث عن قضيةٍ وجدانية أولاً، هي التعاطفُ الذي يَصدُر عادةً عن ضعافِ الإيمان حيالَ أقاربهم أو إخوانِهم غيرَ المؤمنين كما يتحدث ثانياً عن المتاعِ النفسي والمادي اللّذين يطغيان علىٰ دوافع الإنسان المتصلةِ بعاطفةِ الأبوة والبنوّة والزوجية والتملك للمالِ والأرضِ ونحو ذلك بحيث يُؤثِرُها ضعافُ الإيمانِ علىٰ محبةِ الله ورسولِه والجهاد في سبيله.

هنا ينبغي الوقوفُ فكرياً وفنياً علىٰ هذا المقطعِ القرآني من السورة. . . فمن حيثُ البُعدِ الفكري نجدُ أن النَّص تحدَّث عن أهم الدوافعِ المُركَّبةِ في الإنسان مثل: عاطفَةِ الأبوة والزوجية والسيطرة والتملّك سواء أكانَ ذلك في نطاقِ المنحرفين أساساً مثل (المشركين) أو في نطاقِ ضعافِ الإيمانِ، حيث أوضَح النصُ أنَّ أمثلة هذهِ العواطف لا قيمة لها إذا قِيسَتْ بدوافعَ موضوعيةٍ هي التعامُل معَ الله حيث يغيمُ حيالها أيّ تعاملٍ دنيوي عابر.

صحيح أنَّ العواطفَ الذاتيةَ ذات إلحاحٍ وبريقٍ في تركيبةِ الآدميين إلاّ أن العواطفَ الموضوعية كـ«التعامل مع الله» أشد فاعلية من العواطفِ الذاتية إذا

قدّر للشخص أن يُمارسَ عملية تأجيلٍ لها بحيث تتمُ عمليةُ تحويل من (الذات) إلى (الموضوع) خلال التدريب حتى ينتهي الأمرُ إلى أن يتحسَّس الشخصُ المدرَّب أنّ الامتاعَ الموضوعي(التعامل مع الله) أشدّ من الامتاعِ الدنيوي العابر.

المهم: أن هذا البُعد الفكري الذي طرحتهُ السورة الكريمة في المقطع الذي نتحدثُ عنه: قد تمّ (من الزاوية الجمالية أو الفنيّة) من خلال بناءٍ هندسيٍ تتنامىٰ وتتجانسُ أجزاؤه حيث كان المحورُ العامُ للسورة،ونعني به(الجهاد في سبيل الله) هو: الهدف الفكري الذي حامَ المقطعُ المذكورُ عليه، كما أن الأفكارَ التي طُرِحتْ فيه تمَّ الانتقالُ فنياً من أحدِها إلى الآخر بنحوٍ بدأ النصُ فيهِ بالحديثِ عن العلاقة بينَ الإسلاميين وبين سائرِ أشكالِ الانحراف (مُشركين وضعيفي الإيمان)، من علاقةٍ عسكريةٍ تتصلُ بالمواثيق والعهود إلى علاقةٍ عاطفيةٍ تتصلُ بالتعاطفِ مع المنحرفين: كُلُّ ذلك تَمَّ من خلالِ تدرّج فنيّ في الموضوعاتِ التي أشرنا إليها.

* * *

المقطعُ الجديدُ الذي نواجِههُ الآنَ في سورةِ التوبة هو مخاطبةُ الله تعالى للإسلاميين: ﴿لقد نصرَكُم الله في مواطنَ كثيرةٍ ويومَ حُنينٍ إذْ أعجبتْكُم كثْرتكُم فكم تُغْنِ عنكُم شيئاً وضاقَتْ عليكُم الأرضُ بما رَحُبَتْ ثم ولَّيتُم مدبرينَ * ثمَ انْزَلَ الله سكينَتَهُ علىٰ رسولِهِ وعلىٰ المؤمنينَ وأنْزَلَ جُنوداً لم تَروْها وعذَّب الذينَ كَفَرُوا وذلك جزاءُ الكافرين﴾.

جاء هذا المقطعُ جَواباً علىٰ مقطعٍ سابقٍ ذُكِرَ فيه أنّه إنْ كانتْ عاطفةُ الأبوةِ والنبوّةِ والزوجيةِ والقُربىٰ، وحبّ التملكِ للأموال والأرضِ أحبَّ من الجهادِ في سبيل الله، فسوفَ يَلْحَقُ أصحابَ هذهِ العواطفِ جزاءٌ ليس في صالِحِهم. وهذا يعني أنَّ السورةَ الكريمةَ سلكت أداةً فنيّاً خاصاً هو: التلويحُ

غيرُ المباشرِ بالمعْطَياتِ التي أَفْرَزَها الله للإسلاميينَ في مواطنَ كثيرةٍ ومنها معركة «حنين» بشكلٍ خاص حيثُ أَنْزَلَ الله سكينتَهُ عليهم وأيَّدهُم بجنودٍ لَم يَروْها. بكلمةٍ أخرىٰ، أنَّ النَّص وكأنَّهُ استَهْدفَ أن يوضِّحَ للمجتمع الإسلامي أنَّ الجهادَ في سبيلِ الله ينبغي أن يكونَ أحبَّ إلىٰ الشخصِ من ذَويهِ أو دوافعه لأنّ شدائدَ الحياةِ لا يمكنُ إزاحتُها إلاّ بدعمٍ من الله.

ولا أدلَّ على ذلك مِنْ شدائدِ القتالِ في سبيلِ الله حيثُ نَصَر الله الإسلاميينَ في مواطنَ كثيرةٍ وفي معركةِ حنين وذلك من خلالِ الدَعْم غير المرئي (نزول الملائكة) والدعمِ النفسي(السكينة).

إذنْ من خلالِ الأداء الفنيّ غير المباشرِ قدَّم النصُ القرآني إيضاحاً حيالَ الصراعَ الذي يحياهُ الضِّعافُ نفسياً حينما يُؤْثِرُونَ عواطِفَهم الذاتية منْ موالاةِ لذويهم ومنْ لُهاثٍ وراءَ المتاعِ العابرِ من مالٍ أو أرضٍ علىٰ الجهاد في سبيل الله، . . . حيثُ أَوْضَحَ بأنَّ «الجهادَ» ـ على عكسِ ما خُيّل للضعافِ نفسياً ـ سوفَ يقترنُ بنصر مِنَ الله بدليلِ المواطنِ الكثيرةِ التي تحقق النصْرُ من خلالها ومنها معركةُ حنين كما أَشَرْنا.

لكن: خارجاً عن الهيكل الفني الذي تمّ الرَبْطُ فيه بين المقطع الأسْبق والمقطعِ الذي نتحدثُ عنه الآن. خارجاً عن ذلك، يعنينا أن نتجهَ إلى دراسةِ الأفكارِ المطروحةِ في هذا القسم من السورةِ طالَما تَظَلُّ ـ من جانبٍ ـ ذاتَ صلةٍ بالبناء الهندسي للسورة، مثلَما تظَلُّ ـ من جانبٍ آخر ـ ذاتَ أهميةٍ بالغةِ المدىٰ في ميدانِ الجهادِ في سبيلِ الله وانعكاساته علىٰ المجتمَعِ الإسلامي.

* * *

لقد أشارَ النصُّ إلى معركةِ حُنين مشدّداً علىٰ إبرازِ ثلاثِ ظواهِرَ منَ السلوكِ العسكري احداها: ضخامةُ الجيشِ الإسلامي، والثانيةُ ضيقُ الساحةِ عليهم، والثالثةُ فرارُهم من العدوّ. إلا أنّهُ بالرغمِ من ذلك: أنزل الله سكينَتَهُ

علىٰ المسلمينَ وتمَّ النصر.

والسؤالُ هو: ما هي انعكاساتُ الظاهرةِ الأولىٰ،ونَعْني بها: الإعجابُ بكثرةِ المقاتلينَ الإسلاميين.

إن الفارقَ بين المقاتلِ الإسلامي وغيره يتمثَّلُ في كونِ الأولِ مرتبطاً بالتعامُلِ معَ الله، فالأسباب الماديةُ من ضخامةِ العدو أو السلاحِ مثلاً لا قيمةَ لها قُبالةَ الدعمِ الحقيقي الذي تقدمُه السماء للمقاتلِ الإسلامي. لقد غَفِلَ ضِعافُ النفوسِ عن فاعليةِ الله تعالى حينَما وجدوا أن كثرتهم سوف تغلِبُ العدوَّ حيث تحاوَروا فيما بينَهم من أنّهم سوفَ لن يُغلبوا عن قلّة.... لكن، سُرعان ما أجابتهم السماءُ على ذلك حيث انهزَموا سريعاً وضاقَتِ الأرضُ عليهم وَولّوا مدبرين...

إن التلميحَ بهذهِ الظاهرةِ له أهميةٌ فنيةٌ ونفسيةٌ كبيرةٌ كما هو واضحٌ، فمنَ الجانبِ الفنيِّ هناكَ معادلةٌ هندسيةٌ بنحوٍ غير مباشرٍ بينَ ضعافِ النفوس الذينَ كانت عواطفُهم حيال الآباء والأولادِ والأموال والمساكن أشدَّ منها حيالَ الله والجهاد في سبيله حيثُ يَبْدُو النصُّ القرآنيُ وكأنّهُ يخاطبهُم قائِلاً: كما لم تُغْنِ الكثرةُ العسكريةُ أولئك الذين أعجبُوا بعددِهم الكبير حيثُ انهَزَموا أمامَ العدو، كذلك لم تغنكم أموالُكم أو ذَوُوكم حيث ستنهزمونَ أيضاً: مادّياً ونفسيّاً، ما دامَ النمطانِ (أنتم وأولئك) يحيا غائباً عنِ السماءِ وفاعليتِها الحقيقيةِ في رسمْ المصائر.

بالمقابل: نجد أنَّ النصَّ القرآني الكريم يُعقّبُ علىٰ الهزيمة العسكرية التي لَحِقتِ المجتمعَ الإسلامي في بَدءِ المعركة يعقّبُ عَليها بالإشارةِ ـ في نهايةِ المطافِ ـ إلىٰ تَحقيقِ النَصرِ، أي أنّه في صَددِ تقديمِ واحدٍ من الاختباراتِ العباديةِ متمثلةً في كلٍ منَ الهزيمة والنصر: الهزيمةُ بصفتها جواباً علىٰ الإعجابِ الزائفِ بالقدرات الذاتية للإنسان، والنصرُ: بصفته جواباً أيضاً علىٰ

سُلوكِ المقاتلين الذين عادُوا إلى القتَالِ بعدَما استجابُوا لنداءِ الرسول(ص). . .

إذَن: جاءَ كلٌ منَ النصْرِ والهزيمةِ، أو لنَقُل: جاءَتْ الإشارةُ في هذا القسم من سورةِ التوبة إلى معركةِ حُنين، جواباً فنياً لأولئك الذينَ طبَعهم نمطٌ خاصٌّ من السلوكِ هو: الضَعْفُ النفسيُّ متمثّلاً في واحدةٍ من الشرائح الاجتماعية التي اضطلعتْ سورةُ التوبة برسمِها في هذا القسم بعدَ أن كانَ القسمُ الأولُ من السورةِ يضطلعُ برسم (المشركين) وطريقةِ التعامُلِ العسكري مع الشريحة المذكورة في حين يتحدَّثُ القسمُ الثالثُ من السورةِ عن نمطٍ ثالثٍ.

* * *

القسم الجديد من السورة يتحدث عن الكتابيين وهم (اليهود والنصارىٰ)، بعد أن تحدثتْ السورةُ عن مُطلقِ المنحرفين في الأقسام السابقةِ.

يقولُ النصُّ: ﴿**قاتِلوا الذين لا يُؤمنون بالله ولا باليومِ الآخر ولا يُحرّمون ما حرّمَ الله ورسولُهُ ولا يَدينون دينَ الحقِ مِنَ الذين أُوتُوا الكِتَابَ حتى يُعطُوا الجِزية عن يَدٍ وهم صاغرون**﴾.

فنياً: لا نحتاجُ إلى التعقيب علىٰ هذا القسمِ الذي يتحدثُ عن المنحرفين الكتابيين: نظراً لوضوحِ العِمارةِ الهندسيةِ للسورة التي تتناولُ في كلِ قسمٍ منها تحديداً لعلاقاتٍ اجتماعيةٍ بين المؤمنين وأعدائِهم بمختلف شرائحهم التي تقدّمَ الحديثُ عنها، وها هي السورةُ تتحدثُ الآن عن (الجهاد) الذي شكّلَ بطانةً فكريةً لكلّ أقسامِها، فيما يختصُ الآن حديثُها: بالجهادِ حيالَ الكتابيين. لقد أمَرَ النصُ بقتالهم، لكنه: استثنىٰ مِن ذلك، الفئاتِ التي تُعطي (الجزية).

إنّ أهميةَ هذا النمطِ من مقاتلةِ (الكتابيين) تتمثّلُ في المسوّغاتِ العامةِ لعمليةِ الجهادِ. فما دام الكتابيون ـ كما يقولُ النصُ ـ لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخرِ ولا يُحرّمون ما حرّمَ الله ورسُولُه ولا يَدينون دينَ الحقِ، حينئذٍ يتعيّنُ قتالُهم بنفسِ المسوّغاتِ التي تدفعُ الإسلاميين إلىٰ قتالِ غيرهم من المنحرفين

مِمَّنْ تقدَّمَ الحديثُ عن البراءةِ منهم.

إلا أن مجرّدَ انتسابِهم إلىٰ (الكتاب): أكسبهُ الله نمطاً من الخصوصيةِ بحيث تُميّزهُمْ عن مطلقِ الكافرين، وذلك: من خلالِ تحديد علاقةٍ معيّنةٍ بينهم وبين الإسلاميين، هي: مسالمتهُم من خلالِ دفعهِم ضريبةً ماليةً (الجزية). ويُلاحَظُ أن النصَّ القرآني الكريمَ رَبَطَ عمليةِ (الجزية) بمفهومٍ نفسيٍ هو (الذلّ) الذي ترشّحُ به عمليةُ إعطاءِ الضريبة (حتىٰ يُعطوا الجزيةَ عن يدٍ وهم صاغرون) أي: أذِلآءُ وإلاّ فإن مقاتَلتَهُمْ ـ وهم يُصِرّون علىٰ موقفهِم المنحرف ـ يَظَلُّ مرتبطاً بنفسِ المسوغاتِ التي تطبعُ قتالَ الكافرين. وهذا ما أوضحهُ النصّ القرآني حينما تابعَ رسمَهُ لهذه الشريحةِ الاجتماعية من الأعداءِ، قائلاً:

﴿وقالتِ اليهودُ عُزَيْرٌ ابنُ الله وقالت النصارىٰ المسيحُ ابنُ الله ذلك قولُهم بأفواههم يُضاهِئون قولَ الذين كفروا من قَبلُ...﴾.

لِيلاحظْ: كيف أنّ النصَّ القرآني الكريمَ ربطَ (من زاويةِ البناءِ الفنّي للسورة) بين سلوكِ الوثنيين الذين تحدثت عنهم المقاطعُ السابقةُ من السورةِ وبين سلوكِ هؤلاء الكتابيين، حيث جعل مقاتلةَ هؤلاء مماثلاً لمقاتلةِ أولئك: نظراً لتماثلِ الموقفين الفكريين لدىٰ الوثنيين والكتابيين. لنستمعْ من جديدٍ إلى هذه الفقرة: **﴿ذلك قولُهم بأفواهِهم يُضاهئون (أي: يشابهون) قولَ الذين كفرُوا من قبل﴾**.

إذن، التماثُل الفكري بين عبَدةِ الأصنامِ الذين طَالَبَ النصُّ في المقاطعِ السابقةِ بمقاتلتِهم، وبين الكتابيين الذين يتحدثُ النصُّ عنهم في المقطعِ الحالي من حيثُ كونُهم يَصدُرون عن موقفٍ وثنيٍ أيضاً هو إشراكُ (الابنِ) المزعومِ في عملية الخلقِ. هذا التماثُل الفكري بين الوثنيين والكتابيين، يفسرُ لنا ـ كما تحدَّثَ النصُّ بذلك صراحةً ـ تَماثُلَ الموقفِ العسكري حيالَهما أيضاً، بحيثُ يتعيّنُ على الإسلاميين مقاتلتُهم (في حالةِ عدمِ إعطاءِ الجزية) بنفسِ المسوّغِ

الذي يدفعُ الإسلاميين إلى مقاتلةِ عبدةِ الأصنام. . . كما يفسّرُ لنا (من حيثُ البُعدُ الهندسي للسورة) أسرارَ التجانسِ الفني بين أجزائِها التي يتحدّثُ كلٌّ منها عن شريحةٍ اجتماعيةٍ خاصةٍ تتضمنُ المواقفَ المتجانسةَ بينهم أيضاً.

وقد تابع النص إلقاءَ مزيدٍ من الإنارةِ علىٰ موقفِ الكتابيين فكرياً، فيما قال عنهم: ﴿اتخذوا أحبارَهم ورُهبانَهُمْ أرباباً من دونِ الله والمسيحَ ٱبْنَ مريمَ وما أُمِرُوا إلاّ لِيعبدُوا إلٰهاً واحداً لا إلٰه إلاّ هو سبحانَهُ عمّا يُشرِكُون﴾.

واضح في أن النصَّ شدّدَ على الأحبارِ والرُّهبانِ بصفتهم يُمثلون التوجيه الضالّ للعامةِ منهم، . . . وحسَبَ النصوصِ التفسيريةِ فإن هؤلاء كانوا يُحرِّمون ما أحلَّ الله ويُحلّون ما حرَّم الله، مما استتبعَ تقليدَ العامةِ لأفكارِهم. . . كما أنهم (أي الأحبار والرهبان) مارسُوا بالنحوِ الذي تحدثت السورةُ عنه، أنماطاً أخرىٰ من السلوكِ المنحرفِ من أكلٍ لأموالِ الناسِ وكنزٍ للذهبِ والفضةِ، وهو أمرٌ يكشِفُ لنا ـ فنيّاً ـ عن الصلةِ بين الانحرافِ النفسي متمثلاً في أكلِ الأموالِ بالباطلِ وكنزِها وبين الموقفِ الفكري المنحرفِ لديهم، بمعنىٰ أننا سوف نكتشفُ بصورةٍ غير مباشرةٍ (وهو ما يطبعُ النصوصَ الفنيّة) طبيعةَ الصلةِ بين سلوكِ الشخصِ المنحرفِ وانعكاساتِه علىٰ السلوكِ الفكري: حيث أن تحريمَ المنحرفين لحلالِ الله أو العكسِ إنما يصدرُ عن موقفٍ شخصي هو اللُّهاثُ وراءَ الحياةِ الدنيا وتحقيقِ الأشباعِ بطرقٍ غير مشروعةٍ، وليس نابعاً من دراسةٍ عقليةٍ، علىٰ النحوِ الذي سردتهُ الآياتُ المتقدمةُ التي وقفْنَا عليها.

* * *

نتجه الآن إلىٰ قسمٍ جديدٍ من سورةِ التوبة، وهو القسم الذي يتحدَّثُ عن سلوكِ (المنافقين) في صعيد النشاطِ المتصلِ بالجهادِ في سبيلِ الله، فيما قُلنا انه يشكّلُ البطانة الفكرية لسورة التوبة.

لقد تحدثت السورةُ عن جميع الشرائح الاجتماعيةِ في ذلك العَصْرِ:

وثنيينَ وكتابيّينَ ومتأرجحين وضعافِ الإيمان. ولكن: يُلاحَظُ أنّ النصّ قبلَ أن يتّجه إلى الحديث عن (المنافقينَ) أو لنقل: بعدَ أن تحدَّثَ عن الكتابيّينَ ومحاولةِ أحبارِهم ورُهبانِهم تحريمَ ما حلَّلَ تعالى وتحريم ما حرَّمهُ إلى آخرِ ما وَرَدَ منَ الحديثِ عن سلوكِهم،... أعقَبَ ذلك بطرحِ عمليةِ تحريمِ القتال في الأشهر الحرم:

﴿إنَّ عِدَّةَ الشهورِ عِنْدَ الله اثنا عشرَ شهراً في كتابِ الله يَوْمَ خَلَقَ السماواتِ والأرضَ، منها أربعةٌ حُرُمٌ ذلك الدّينُ القَيّمُ فلاَ تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أنفسَكُمْ وقاتِلوا المُشركين كافةً كما يُقاتلونكم كافةً واعلمُوا أنَّ الله مع المتقين * إنما النَّسيءُ زيادةٌ في الكُفْرِ يُضَلُّ بهِ الذين كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عاماً ويُحرِّمُونَهُ عـاماً لِيُواطِئُوا عِدَّةَ ما حرَّمَ الله زُيِّنَ لهم سُوءُ أعمالِهم والله لا يَهْدي القوْمَ الكافرين﴾.

لو نَظَرْنا إلىٰ هذا المقطعِ من زاويةِ قيمَهِ الفكريةِ لوَجَدْنا أنّهُ واحدٌ من مفهوماتِ الجهادِ في سبيلِ الله من خلالِ التعامُلِ مع المواثيق العسكرية، فالعدوُ بالرغمِ من معرفتهِ بأنَّ المجتمعاتِ في ذلك العصرِ كانت تعظّم الأشهُرَ الحُرمَ بحيثُ لا يَقتلُ الشخص حتى قاتَلَ أبيهِ فيها، بالرغمِ من ذلك كانَ يتلاعَبُ بهذه المواثيقَ وَفقاً لما تفرضهُ المصلحةُ غيرُ المشروعةِ له فيؤخر التحريمَ إلى «صفر» مثلاً بدلاً من «محرّم» مما يترتبُ علىٰ ذلك ـ ليسَ إبطالَ المواثيق العسكرية فحسب ـ بل حتىٰ الأعمالِ العباديةِ الصرفة مثل: الحجّ حيث يتأخرُ إلى محرم أو صفر مثلاً، وهكذا.

حيال ذلك، طالَبَ النصُّ القرآني الكريم بعَدمِ تجاوُزِ حرمةِ الأشهر المذكورةِ، مبيّناً أنّ التلاعُب في ذلك يستتبعُ إضلاَلَ الناسِ وترتيب النتائجِ السلبيةِ التي أشَرْنا إليها علىٰ ذلك.

هذا من الزاويةِ الفكريةِ للنص.

أما من الزاويةِ الفنية وصلةِ هذا المقطعِ الفكري بما سبقه من حيثُ

الهيكلُ البنائي للسورة، فيتحدَّدُ في جملةٍ من النِقاطِ، منها: إنَّ النص في حديثِهِ عن الكتابييّنَ كان في صددِ التعريفِ بسلوكِهم من حيثُ كونهم **﴿لا يحرّمونَ ما حرَّم الله ورسوله ولا يدينونَ دينَ الحقِ﴾** كما تقول الآية الكريمة، ومن حيثُ كونُ أحبارِهم ورهبانِهم أحلُّوا لأَتْباعِهم ما حرَّمَ الله وحرَّمُوا ما أحلَّ الله، كما تقولُ النصوصُ الواردةُ عن أهلِ البيتِ عليهم السلام، وهو أمرٌ يتجانَسُ ويتوازنُ فنياً مع نفسِ السُّلوكِ الذي عَرضهُ القرآنُ الكريمُ في هذا المقطع الذي تتحدَّث عنهُ: حيثُ جاءَ التلاعُب بالمواثيق الحربية وبمراسم الحجِ متماثِلاً في تحليله وتحريمه للأحكامِ مع سلوكِ الكتابيين، بخاصة أن النص القرآني الكريم أوضح بأن الكتابيين (اليهود والنصارىٰ) كانوا (يضاهئون قول الذين كفروا من قبل) أي: يشابهون الوثنيين في عبادتهم للأصنام وذلك بإشراكهم (الابن) المزعوم في ظاهرة (التوحيد)... وهذا يعني أن النص القرآني الكريم حينما يشير إلى هذا التماثل بين موقفي الوثنيين والكتابيين، إنما يردفه بعرض سلوك آخر لوثنيين يشابهون به سلوك الكتابيين، وهو أمر له جماليته في هندسة السورة الكريمة حيث يجيء «التقابل» بين السلوكين من جانب وعرض أحدهما علىٰ الآخر عكسياً من جانب آخر، بمثابة تنوّع جمالي يحقق الإمتاع الذي ترشح به نصوص الفن وافتراقها عن النصوص العادية.

وأياً كان الأمر، فإن النص القرآني الكريم يختتم بهذا المقطع: حديثه عن الوثنيين والكتابيين، ليتجه بعد ذلك إلى الحديث عن شريحة اجتماعية منحرفة أيضاً، وهي: فئة (المنافقين) الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر أو الانحراف.

وإذا كان الحديث عن الوثنيين والكتابيين جاء في سياق (الجهاد في سبيل الله) ـ كما لحظنا، فإن الحديث عن المنافقين يجيء بدوره في سياق عملية (الجهاد) أيضاً: طالما كانت عملية الجهاد في سبيل الله تمثّل الفكرة

الرئيسة التي تقوم سورة التوبة عليها. كلّ ما في الأمر، إن كل فئة منحرفة يتم التعامُل الإسلاميُ حيالها: من خلال سلوك خاص يتصل بعضها بالمواثيق والهُدَن العسكرية، وبعضها «بالجزية»، وبعضها: بالقتال مطلقاً، وبعضها بـالممـارسـات الأخـلاقيـة التـي يسلكهـا الإسـلاميـون: إيجـابـاً أو سلبـاً مـع المنحرفين، علىٰ النحو الذي تقدم الحديث عنه سابقاً.

* * *

تتضمن سورةُ التوبة في القسمِ الجديدِ الذي نتحدثُ عنه الآن، واحداً من الجوانبِ المتصلةِ بمفهومِ (الجهاد في سبيل الله) فيما قلنا ان (الجهادَ) هو الرافدُ الفكري الذي تصبُّ فيه موضوعاتُ السورة. هذا الجانبُ هو: التخاذلُ الذي يصدرُ (المنافقون) عنه في مواجهتهم عمليةَ (الجهاد). وقد مهّدَ هذا القسمُ من السورةِ بحديثِ الجهادِ نفسِه من حيثُ المطالبةُ به وحثّ الناسَ عليه، حيثُ قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا ما لَكم إذا قِيلَ لكُم انفِرُوا في سبيلِ الله اثاقلتُمْ إلى الأرضِ أرَضِيتُمْ بالحياةِ الدنيا من الآخرةِ فما متاعُ الحياةِ الدُّنيا في الآخرةِ إلا قليل * إلاّ تَنفِرُوا يُعَذِّبكُمْ عذاباً أليماً ويَستَبدِلْ قوماً غيرَكُمْ ولا تَضُرُّوهُ شيئاً والله على كلِ شيء قدير * إلاّ تنصُرُوه فقد نصرهُ الله إذْ أخرجهُ الذين كفرُوا ثانِيَ اثنين إذْ هُما في الغارِ إذ يقولُ لصاحبِهِ لا تحزَنْ إنّ الله مَعَنا، فانزلَ الله سكينتَهُ عليهِ وأيَّدَهُ بجنُودٍ لم تَرَوْها وجعَلَ كلمةَ الذين كفرُوا السُّفْلىٰ وكلمةُ الله هي العُليا والله عزيزٌ حكيم﴾.

إن هذا التمهيدَ يتضمّنُ الإشارة إلى مطلق المتخلفين عن الجهاد، مشفوعاً بالتهديد. والسرُّ الفنيُّ وراءَ ذلك هو: أنَّ النصَّ القرآني الكريمَ ما دام يستهدفُ تخصيصَ هذا القسمِ من السورةِ بعْرضِ سلوكِ (المنافقين) الذين يَظَلُّ التخلّفُ العسكري أبرزَ مَعالمِه، حينئذٍ فإن التمهيدَ له (من زاويةِ البناءِ الهندسي للسورة) بحديثٍ عن التخلفِ بعامةٍ: يشكلُ تنميةً عضويةً لهذا المفهومِ،

بخاصةٍ إذا أخذنا بنظر الاعتبارِ أن عمليةَ التخلّفِ عن الجهادِ لا يصدرُ عنه عادةً إلاّ من كان مريضَ النفسِ أو الفكرِ، لذلك فإن ثمةَ عنصراً مشتركاً بين ضعافِ الشخصيةِ: إسلامياً وبين المنافقين في هذا الميدانِ من السلوك وإن كان التفاوتُ في الدرجةِ بينهما من الوضوحِ بمكانٍ: بصفةِ أنَّ المنافقين يجسّدُون أعلىٰ درجاتِ الانحرافِ، بعكسِ ضعافِ الإسلاميين الذين لا يبلُغون درجةَ الانحرافِ عند المنافقين.

المهمُ، أن هذا التمهيدَ بالحديث الموجّه إلىٰ المسلمين، صدّرهُ النصُّ بالتساؤلِ أولاً: لماذا تميلون إلىٰ الدَّعة والإقامةِ في مساكنكم؟ وبالتساؤل ثانياً: أرضيتم بمتاع الحياة الدنيا دون الآخرة، مع أن متاع الدنيا قليل؟ ثم بتهديدهم بأنّ الله بمقدوره أن يستبدل قوماً غيركم، وبتذكيرهم بأن الله قادر علىٰ أن يحقق النصر دون الحاجة إليهم: كما حققه بالنسبة لمحمد(ص) غداة هاجر إلى المدينة حيث انتصر علىٰ المنحرفين في جميع مراحل الرسالة، بدءً من عملية الغار التي أشار النص القرآني الكريم إليها، وانتهاءً بما نعرفه جميعاً من الفتوحات في هذا الميدان.

ومن البين أن هذا التمهيد سوف تكون له جملة من الانعكاسات علىٰ الأجزاء الأخرىٰ من سورة التوبة بحيث يمكن القول: ان طرح مفهومات من نحو (إيثار المتاع الدنيوي) (استبدال قومٍ بآخرين) (تحقيق النصر بدون الحاجة إلى المتخلّفين)... الخ. هذه المفهومات تشكّل مبادىء فنيّة تلقي بإنارتها علىٰ الأجزاء اللاحقة من السورة مما يكشف لنا جانباً من الإحكام العماري للسورة كما قلنا، وهو أمرٌ نضطر إلى أن نشدد عليه ما دام هدفنا منصباً في هذه المباحث علىٰ دراسة النص القرآني الكريم من خلال بناء النص بأكمله وعلاقة أقسامه جميعاً واحداً بالآخر.

المهم، أن النص القرآني الكريم خَتَم هذا التمهيد بآية: تمثّل الحثّ علىٰ

الجهاد بعد أن كانت الآيات السابقة تقوم بمهمة التذكير من جانب والتهديد من جانب آخر.

تقول الآية: ﴿انفِرُوا خِفافاً وثقالاً وجاهِدُوا بأموالِكُم وأنفُسِكُمْ في سبيل الله ذلِكُمْ خيرٌ لكم انْ كنتم تعلمون﴾.

الحثُ على الجهاد في هذه الآية الختامية يشكّل تتويجاً لكل مستويات الطرح لمفهوم «الجهاد» الذي مُهّد له بالمقدمة المشار إليها، حيث أوضحت الآية عملية (النفر) بمستوييه: الخفيف والثقيل، أي ـ وفقاً للنصوص المفسّرة ـ النفر: شباناً وشيوخاً أو أغنياء وفقراء أو عزاباً ومتزوجين،الخ، فضلاً عن الجهاد بنمطيه: الأموال والأنفس، وهذا يعني أن النص القرآني الكريم شدّد علىٰ الجهاد في سبيل الله بكل مستوياته وأنماطه وهو ما تستهدفه السورة أساساً عبْر طرحها لمختلف الأفكار المتصلة بهذا الجانب، بما في ذلك: رسمها للفئات الاجتماعية المتنوعة التي بدأتها بالوثنيين، فالكتابيين، فالضعاف فكرياً ونفسياً، وأخيراً بفئة (المنافقين) الذين سيتكفل القسمُ الجديد من سورة التوبة بعرض سلوكهم المنحرف حيال عملية (الجهاد).

* * *

يبدأ النص القرآني الكريم برسم سلوك «المنافقين» في هذا القسم الذي نتحدث عنه، دون أن يعرّفنا هوياتهم، بل احتفظ بذلك ليكشفه في مكان آخر من السورة تحقيقاً لعنصر (التشويق الفني) في رسم الشخصيات، فضلاً عن أنّ الحديث عنهم جاء في سياق الكلام علىٰ ظاهر التخلّف عن سوح الجهاد: حيث يشترك ضعاف الإيمان أيضاً في عملية التخلّف المذكورة، مما يتطلّب التدرّج الفني في الكشف عن هوياتهم إلى حين الانتهاء من رسمِ سماتهم.

لقد رسمهم النص بهذه السمة أولاً: ﴿لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتّبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم

يهلكون أنفسهم والله يعلم إنَّهُم لكاذبون * عَفَا الله عنك لِمَ أذنتَ لهم حتىٰ يتبيّن لك الذين صدقوا وتَعْلَمَ الكاذبين﴾.

الخطابُ موجّه إلى النبيّ(ص)، ودلالاتُه تُشير إلىٰ أنّ فئةً من الناس: لو كان النبيّ(ص) يدعوهم إلىٰ (غنيمة) عسكرية قريبة إليهم: لاستجابوا له، ولكن بما أن ساحة المعركة بعيدة: حينئذٍ لا أمل في إجابتهم... لذلك نجدهم يحلفون بالله بأنهم لو استطاعوا ذلك، لساهموا في المعركة.

النص القرآني، لم يقل لنا مباشرةً:ان النبيّ(ص) كان يدعو هذه الفئة إلى الاشتراك في إحدىٰ المعارك وهي (معركة تبوك) البعيدة عن عاصمة الإسلاميين، بل أن المتلقي (المستمع أو القارىء) يستخلص ذلك من خلال الحوار الفنيّ الذي صيغ بنحوٍ تتكشف من خلاله طبيعة الأحداث، حيث نجد أن الحوار المذكور ينطوي علىٰ خطاب من الله تعالى للنبيّ يقول له **﴿لو كان عَرَضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك﴾** حيث نستنتج واقعةً سابقة قد حذفها الحوار هي أنّ النبيّ(ص) قد حثّ جماعة علىٰ القتال. كما أن هذه الجماعة لا تزال غير محددة في ذهن المتلقّي، لكن ما أن نتابع الخطاب حتى نستكشف تدريجاً هوية الفئة المذكورة...

هنا سوف نتابع الوقوف علىٰ سمات هذه الفئة المنحرفة دون أن نقرن ذلك بالحديث عن الصياغة الفنية للنص: نظراً لانطواء كل آية ـ بما تتضمنه من حوار أو رسم شخصية ـ علىٰ مادة غنيّة من سمات الفن فيما يتطلب الوقوف عليها جهداً يصرفنا عن إلقاء الإنارة علىٰ الهيكل العام للسورة حيث نحرص علىٰ إبراز هذا الجانب العماري منها فحسب.

ومهما كان، فإن أوّل رسمٍ لسمات هذه الجماعة، متمثلاً في كونهم سوف يستجيبون لنداء النبيّ في حالة كون المعركة لا تكلّفهم أدنىٰ جهد بقدر ما يفيدون منها في كسب الغنائم الحربية مثلاً... من هذا الرسم، نستخلص

أن هذه الجماعة تنتسب إلىٰ (المنافقين): بصفة أن (النفعية) هي السمة المميّزة للنفاق. صحيح أن ظاهرة (جر المنفعة) تطبع غالبية الفئات المنحرفة، إلا أن تكثيف الكلام عليها والبدء بذكرها: ثم متابعة ذلك بمزيد من إلقاء الضوء عليها: يكشف لنا أو لا أقل يجعلنا نتبين فنياً بأن الجماعة المذكورة تنتسب إلى «النفاق» بخاصة أن النص ذكر لنا مباشرة بأنهم (سيحلفون بالله) قائلين (لو استطعنا لخرجنا معكم)، حيث أن (الحلف) بالله يفصح عن كون الشخصية تظهر شيئاً وتستبطن شيئاً آخر وهي سمة (النفاق)، فهؤلاء يظهرون أو يفتعلون سمة الإيمان من خلال حلفهم بالله تعالى، ومن خلال ادعائهم بأنهم لو استطاعوا المساهمة في القتال: لفعلوا، في حين يبطنون الكفر من خلال لهاثهم وراء (جر المنفعة، فحسب: تبعاً لأعماقهم التي فضحها الله بقوله تعالى (لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك).

إذن، نستخلص أنّ هذه الفئة التي بدأ النصُ القرآني الكريم بعرض سماتها بهذا النحو أنها فئة «المنافقين». بل أن الآية التي عاتبت النبيّ(ص) علىٰ سماحه لهم بعدم المشاركة تكشف بما لا لبس فيه بأن (النفاق) هو الطابع الذي يسم هذه الجماعة. قال الله تعالى ﴿عفا الله عنك لِمَ أذنتَ لهم حتىٰ يتبيّن لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين﴾.

واضح، أن (الكذب) هو المظهر التعبيري الكاشف عن (النفاق) حيث طلب الله تعالى من النبيّ أن يفرز (الكاذب) عن (الصادق) في ادعائه،أي الكاذب عدم استطاعته المشاركة في القتال.

أكثر من ذلك، ما أن نتابع النص حتىٰ تواجهنا آيتان جديدتان تكشفان بنحوٍ لا مجال فيه لأي تردّد من أن (النفاق) هو الطابع العام للجماعة المذكورة، ولنقرأ: ﴿ لا يستأذنك الذين يؤمنون باللهِ واليومِ الآخرِ أَنْ يُجاهِدوا بأموالهم وأنفسهم والله عَلِيمٌ بالمتّقين * إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله

واليومِ الآخِر وآرتابت قلوبهم فهم في ريبِهم يترددون﴾.

إن هذه الفقرة الأخيرة ﴿وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون﴾: تشكّل ملاحظةً عيادية في فهمنا لشخصية (المنافق)، بصفة أنَّ (الشك) الذي يطبع أعماق المنافق يدفعه إلى أن يتردد أو لنقل: يدفعه إلى مواجهة (الصراع) في الموقف: حيث يتمزق بين إقدام أو إحجامٍ في تجاوز الموقف، إنه ـ من جانب ـ لا يملك يقيناً بالموقف الأخروي (لا يؤمنون بالله واليوم الآخر)، كما أنه ـ من جانب آخر ـ يتطلّع إلىٰ (جرّ المنفعة) الدنيوية (لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصدا لاتبعوك)، وحيال ذلك لا بد أن يتمزّق نتيجة (الصراع) حينما يواجه موقفاً جديداً هو: الذهاب إلى ساحة القتال، البعيدة عنه (معركة تبوك) حيث تتناهبه نوازع شتىٰ: من إمكانية جر المنفعة، وبُعد الشقة (ولكن بعدت عليهم الشقة)، ثم بما يستتبع ذلك من حلفٍ بالله ﴿وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم﴾ ثم بما يقترن به من (خوف) الفضيحة لسلوكه (علىٰ نحو ما يحدثنا القرآن الكريم به في مقاطع لاحقة من السورة) بحيث يجعله متردداً في ريبه (وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون) بالشكل الذي تقدم الحديث عنه.

* * *

قال تعالى في معرض كلامه علىٰ المتخلّفين عن التوجه إلى ساحة القتال، ونعني بهم: المنافقين الذين استأذنوا النبيّ(ص) في عدم الخروج: ﴿ولو أرادوا الخروج لا عدّوا له عُدَّةً ولكن كَرِهَ الله آنبعاثَهُمْ فَثَبَّطَهُم وقيل اقعدوا مع القاعدين﴾.

هذه الآية تشكل امتداداً لما سبقها من النصوص التي بدأت برسم شخصيات «المنافقين» دون أن تذكرهم بسمة (النفاق): لغرضٍ فنيّ هو التدرّج في ذكر سلوكهم واحداً بعد الآخر تمشياً مع ما يتطلبه البناء العماري للسورة

من تنامٍ وترابط عضوي لها، فقد سبق للنص القرآني الكريم إن ذَكَر جانباً من سلوك هؤلاء المتخلفين عن سوح الجهاد مثل: كونهم يحلفون بالله بأنهم لا يستطيعون المشاركة، حيث عاتب الله تعالى نبيّه(ص) بتصديق ادعائهم.

هنا، يقدّم النص القرآني دليلاً فنياً علىٰ ذلك هو: كونهم (لو أرادوا الخروج لأعـدّوا له عدة)، أما أن يكتفوا بمجرد الكلام فهذا يعني كذب ادعائهم، ولذلك عاتب الله تعالى نبيّه قبل ذلك ـ كما قلنا ـ قائلاً ﴿لِمَ أذنتَ لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين﴾: بمعنىٰ أن الجواب الفني علىٰ العتاب المتضمن تبيين الصادق من الكاذب، هو: أنهم لو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة.

لكن خارجاً عن هذا الجانب الفني: يبدأ النص القرآني الكريم بمرحلة جديدة من الرسم لهذا النمط المتخلف عن ساحة المعركة، مبيّناً أن مساهمتهم في المعركة ـ إذا قُدّر ذلك ـ لم ينطوِ علىٰ أية مصلحة إسلامية، بل علىٰ العكس: أنّ مشاركهم في ساحة القتال تستتبع أضراراً عسكرية. لقد بيّن النص القرآني، أولاً أن الله تعالى كره ﴿انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين﴾، أي: أن معرفة الله سلفاً بما تنطوي عليه أعماقُهم من مشاعر كاذبة وعدوانية، قد استتبعت أن يجعلهم محرومين عن المساهمة في القتال بحيث لم يوفّقهم لذلك.

هنا ينبغي أن نقف عند الفقرة الحوارية التي تقول: (وقيل: اقعدوا مع القاعدين). فالملاحَظ أن المعنيين بشؤون التفسير احتمل بعضهم أن يكون القائل هو النبي(ص) علىٰ وجه التهديد لهم، واحتمل البعض أن يكون القائل: أصحابهم الذين منعوهم من المشاركة في القتال. أما في تصورنا، فإن هذا الحوار من المحتمل جداً أن يكون علىٰ وجه الحوار الداخلي أو الموجَّه إليهم من الله تعالى. وأهمية مثل هذا النمط من الحوار تتصل بجانب فنيّ هو:

انطواؤه على دلالات تتناسب مع ما قلناه من أن معرفة الله سلفاً بسلوكهم القائم علىٰ الكذب والعدوان، استتبعت أن يكرههم الله، حيث تقول الآية الكريمة ﴿ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين﴾. إن كون الله تعالى قد كره انبعاثهم: يظل أمراً غيبياً بدليل العتاب الذي وجهه الله لنبيّه(ص) بتصديق كلامهم، كما أن كون الله قد ثبطهم عن القتال، يظل أمراً غيبياً بحيث مسح من أعماقهم نزعة الخير وطبع علىٰ أفئدتهم بحيث حجزها ذلك عن المشاركة في القتال، وإذا كان الأمر كذلك، فإن الفقرة القائلة(وقيل اقعدوا مع القاعدين) لا بد أن تكون امتداداً لعنصر غيبي هو: مخاطبتهم علىٰ وجه (المجاز): إذا سُمِحَ لنا باستخدام اللغة البلاغية، وأمّا إذا نقلنا الأمر إلىٰ اللغة القصصية، فيمكن القول بأن الخطاب المذكور هو حوار انفرادي من نحو (وقيل يا أرض ابلعي ماءك... الخ) أي: أن إرادة الله تعالى شاءت أن يغور الماء كما أن إرادته شاءت أن يقعد هؤلاء مع القاعدين الذين لم يوفقوا لعمل الخير.

المهم، إن الحوار المذكور يتضمن ـ في تصوّرنا الفني ـ دلالة جمالية بالغة القيمة: من حيث كونها تتناسب فنيّاً مع واحدةٍ من ظواهر التعامل: تعامل الله مع عباده من خلال معرفته سلفاً بما سوف يختارونه من سلوك، وتكييف مختلف ممارساتهم وفق المعرفة المُشار إليها بحيث يوفّق البعضَ ويُضلّ البعض الآخر تبعاً للتكييف المذكور.

وأياً كان الأمر، فإن النص القرآني الكريم: بعد أن أشار إلى أن الله تعالى كره انبعاث هؤلاء المأذون لهم بعدم الخروج إلى ساحة المعركة، اتجه النص حينئذٍ إلىٰ تبيين المصلحة العسكرية في تخلّفهم: حيث أوضح قائلاً: ﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلاّ خَبَالاً ولأَوْضَعُوا خِلالَكم يبغونكم الفِتْنَةَ وفيكم سَمَّاعُونَ لَهُم والله عليمٌ بالظالمين﴾ معنىٰ ذلك: أن هؤلاء المتخلّفين عن ساحة

المعركة، لو قُدّر لهم أن يشاركوا فيها لَصَدر منهم مزيدٌ من الشر والفساد والجبن، كما أنهم سوف يمارسون أعمالاً تتصل بتفرقة المقاتلين وتثبيط هممهم: بخاصة، وأنه ـ كما يقول النص ـ (وفيكم سمّاعون لهم) أي: الضعاف نفسياً أو فكرياً ممن يتأثر بكلامهم، فينعكس ذلك سلبياً علىٰ سير المعركة ونتائجها.

نستخلص من ذلك، أن تخلّف هؤلاء عن المشاركة في المعركة، ينطوي علىٰ مصلحة عسكرية لجانب الإسلاميين. كما أنه (من الزاوية الفنيّة) يشكل جواباً علىٰ الفقرة الحوارية (وقيل: اقعدوا مع القاعدين) بصفة أنّ قعودهم يظل في صالح الإسلاميين كما قلنا، فضلاً عن أنه ينعكس علىٰ مصائر المتخلفين أنفسهم بالنحو الذي سنتحدث عنه لاحقاً إن شاء الله.

* * *

(لحظنا أن القرآن الكريم عند رسمه لسلوك المنافقين الذين أُذِن لهم بعدم المشاركة في سوح الجهاد ـ أشار إلى أنهم لو قدّر لهم المشاركة في المعركة لترتب علىٰ ذلك ضرر عسكري يتمثل في تفرقتهم للكلمة وفي صدور الفساد والشرّ والجبن عنهم)...

والآن: يقدم النص القرآني الكريم دليلاً علىٰ ذلك، يتمثل في تجربة سابقة للمنافقين، يقول النص مخاطباً النبيّ(ص): ﴿لقد ابتَغُوا الفِتنةَ من قَبْلُ وقَلَّبُوا لك الأمورَ حتى جاء الحقُّ وظَهَرَ أمرُ الله وهم كارهون﴾...

خارجاً عن النصوص المفسّرة، يمكننا (من الزاوية الفنية) أن نقول: إن هذه الآية تقدّم دليلاً تجريبياً علىٰ أن المنافقين سبق لهم أن مارسوا عمليات شريرة في نطاق المعارك، ولكن الله خذلهم وكان النصر لصالح الإسلاميين. وهذا الدليل التجريبي يشكّل جواباً فنياً لآية سابقة تقول ﴿لو خرجوا فيكم ما زادُوكم إلا خبالاً ولأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبغونَكُم الفِتنةَ وفيكم سمّاعون لهم﴾.

أما في نطاق النصوص المفسّرة، فإن الأمر يتضح بجلاء حينما تنقل لنا هـذه النصـوص بأن الدليل الحسي السابق كان في معركة (أحد) حينما انسحب أحد كبار المنافقين ومعه ثلث الناس قبل أن يصلوا إلىٰ ساحة المعركة حيث استثمر هذا المنافق عدم التزام الإسلاميين باقتراحه العسكري القاضي بأن يبقىٰ الجيش الإسلامي داخل المدينة المنوّرة بدلاً من الخروج إلىٰ ساحة (أحد)، فحث قسماً كبيراً من الجند علىٰ الانسحاب، مستهدفاً بذلك: الفتنة، وفقاً لما وصفته الآية الكريمة بقولها: (لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور) ولكن ـ رغم ذلك ـ (جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون).

وهذا نموذج واحدٌ من سلوك المنافقين (في حالة مشاركتهم العسكرية)، وهو طلب الفتنة ابتغاء البحث وراء الغنائم (لو كان الأمر عَرَضاً قريباً وسفراً قاصداً). وأمّا خارجاً عن ذلك، فإن تقديم الأعذار والهروب من المشاركة في ميادين القتال يظل هو الوجه الآخر من سلوكهم...

لقد قالوا من قبل (لو استطعنا لخرجنا معكم) إلىٰ ساحة القتال، ولكنّ الله كره انبعاثهم فثبطهم. وها هم الآن، يقدّمون أو يصطنعون مسوّغاً آخر لعدم المشاركة في المعركة. يقول النص:

﴿ومنهم مَن يقول ائذن لي ولا تفتني الا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾.

إن هذا الكلام يظل في الذروة من السلوك القائم علىٰ مفهوم (النفاق)، حيث نجد أنّ مَن يطلب (الإذن) من النبيّ (ص) بعدم الخروج إلى ساحة القتال، يلتمس عذراً يبدو وكأنه مشروع كل المشروعية، ألا وهو عدم الوقوع في الفتنة، أي عدم الوقوع في مخالفة مبادىء الله...

المهم: أن النص القرآني الكريم حينما يتابع رسمه لشخصيات المنافقين، إنما ينتخب من نماذج السلوك ما يفصح عن أشدّ مستوياته تعبيراً

عن النفاق: حيث رسمهم (نفعيين) صرفاً لا يتحركون إلا من خلال الظفر بغنيمة عسكرية، ورسَمَهم (عدوانيين) صرفاً لا يتحركون إلا لتفرقة الكلمة، ورسَمَهم (كذّابين) صرفاً: يصطنعون الخوف من وقوعهم في مخالفة أوامر الله وهم أشد أعداء الله. . .

وها هو النص القرآني الكريم يرسمهم الآن بسمةٍ عامة يختم بها المقطع القرآني الخاص بمعالجة الموقف العسكري الذي يتحرك المنافقون من خلاله، وهو قوله تعالى مخاطباً النبيّ(ص): ﴿إنْ تُصِبكَ حَسَنةٌ تَسُؤْهُمْ وان تُصِبكَ مُصيبةٌ يقولُوا قد أخَذْنا أمْرَنا من قَبْلُ ويَتَوَلَّوْا وهم فَرِحُونَ﴾.

واضح، أن هذه الآية الكريمة تمثّل موقعاً فنياً له أهميته من حيث البناء الهندسي لهذا القسم من السورة. فبِها يُختتم المقطع المتمثل بسلوك المنافقين في صعيد التعامل العسكري، كما أنها تلخص حصيلة البناء النفسي لشخصية المنافق في التعامل العسكري المذكور. أنها توضح لنا أن استجابة الألم والفرح في شخصية المنافق: تقترن بمشاعر (الكراهية) بنحو عام للمبادىء الإسلامية المتمثلة في شخصية النبيّ(ص)، فهو ـ أي المنافق ـ يتألم حينما يحقق الإسلاميون نصراً عسكرياً، ويفرح: حينما تنزل الشدّة بالإسلاميين، يفرح أولاً لمجرد مشاهدته نزول الشدة بالإسلاميين، ويفرح أيضاً: لنجاته هو من الشدة المذكورة.

ومن البيّن أن سمة (الكراهية) تبلغ ذروتها عند المرضىٰ، حينما لا يكتفون بتحسس اللذة من خلال مشاهدتهم آلام الآخرين بل يغمرهم الفرح الأشد حينما يسلمون هم من شدّة متوقعة، وهذا ما أوضحه النص القرآني الكريم بجلاء حينما نَقَل لنا حوارهم مع أنفسهم أو جماعتهم: (وإن تصبك مصيبةٌ يقولوا ـ وهذا هو الحوار ـ قد أخذنا أمرنا من قبل)، ثم (يتولّوا وهم فرحون).

وأياً كان، فإن مشاعر (الكراهية) التي تطبع أعماق المنافقين، تظل ـ من حيث الفاعلية ـ في نطاق داخلي لا يتجاوز دائرة شخصياتهم، أما انعكاساتها علىٰ الصعيد العسكري، فأمر لا أثر له البتة، بالنحو الذي يوضّحه النص القرآني الكريم.

* * *

قال تعالى: **﴿قل لن يصيبنا إلاّ ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فيتوكّل المؤمنون * قل هل تَرَبَّصون بنا إلاّ إحدى الحُسنيين ونحنُ نتَرَبَّصُ بكم أنْ يُصيبكُم الله بعذابٍ من عندِه أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون﴾**.

هذه الملاحظة، أو التعقيب المذكور، أي: قوله تعالى: **﴿قل لن يصيبنا إلاّ ما كتب الله لنا... الخ﴾** تنطوي علىٰ حقائق فكرية وفنيّة بالنسبة إلى السياق الذي وردت فيه فضلاً عن انطوائها مطلقاً علىٰ حقائق عبادية بالغة القيمة... أما بالنسبة إلى حقائقها العبادية: فهي تتضمن طرحاً لصياغة المصائر البشرية دنيوياً وأخروياً...، إسلاميين ومنحرفين... فهناك (في اللوح المحفوظ) كتب الله الآجال: من حيث قصرها وطولها... من حيث انتسابها إلىٰ سببٍ من القتل أو حادث آخر أو إفضاء طبيعي إلى الموت... كل أولئك وفقاً لمعرفة الله سلفاً بما سوف يسلكه الآدميون من سلوكٍ قائم علىٰ عنصر الاختيار خيراً أو شراً، ثم تكييف المصائر وفقاً للسلوك المذكور من جانبٍ ووفقاً لمتطلبات حكمة السماء من جانبٍ آخر.

المهم، في الحالات جميعاً تظل المصائر البشرية ـ تبعاً لما أوضحناه ـ مُصاغَة من قِبَل الله تعالى وليس انعكاساً لرغبات الآدميين بما يواكبها من تمنيات إيجابية أو سلبية، من أطراف نظيفة أو منحرفة... الخ.

وإذا كان الأمر كذلك، حينئذٍ: لو عدنا إلى السياق الذي وردت فيه هذه الحقيقة العبادية العامة للحظنا ـ من الزاوية الفنية ـ أن النص القرآني الكريم

طَرَح مفهوماً عاماً أو كلياً من خلال الخاص أو الجزء، وهذا الخاص أو الجزء هو: قضية (المنافقين) عبْر سلوكهم القائم علىٰ الاستجابة الشاذة التي صدرت عنهم حيال النبيّ(ص) والإسلاميين متمثلة في فرحهم بالشدّة التي تلحق الإسلاميين وفي استيائهم من النصر الذي يلحق الإسلاميين: حيث أجابهم الله تعالى بأن ما يلحق الإسلاميين: نصراً أو شدة إنما هو وفق إرادة السماء وليس انعكاساً لرغبات المنافقين الكريهة.

وهذا جانب من القضية.

أما الجانب الآخر فيتضمّن تفصيلاً لما أجمله النص القرآني الكريم في هذه القضية، حيث أمَر محمداً(ص) بأن يقول لهم: (هل تربّصون بنا: إلاّ إحدىٰ الحسنيين؟؟) وأن يقول لهم بعد ذلك: (نحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذابٍ من عنده أو بأيدينا) وأن يقول لهم في النهاية: (فتربصوا إنا معكم متربصون). الحقّ: أن المُتلقّي ليدهش (من حيث القيم الفنية والنفسية) لهذا الجانب من الطرح القرآني الكريم... فبغض النظر عن المبنىٰ الهندسي الذي وازَنَ بين جزئيات هذا القسم من السورة من حيث تناميها وترتّب أحدها علىٰ الآخر، نجد: أن هذه الإجابة تشكّل (مُثيراً) مؤلماً أشدّ الإيلام بالنسبة إلى المنافقين. فالمنافقون قد تركهم النص القرآني قبل قليل وهم يتولون (فرحين) بالشدة التي تصيب الإسلاميين: قائلين لأنفسهم أو جماعتهم (قد أخذنا أمرنا من قبل)، أي: كنا علىٰ حذر حيث لم يُصبنا سوء في هذه المعركة أو تلك. لكن، سرعان ما مُسِحَ هذا الفرح من أعماقهم عندما باغتَهم النصُ القرآني الكريم بالحقيقة المذكورة وهي:

أولاً: هل تنتظرون لنا إلاّ واحدة من نعمتين كبيرتين هما: النصر العسكري أو النصر الأخروي؟.

ثانياً: بينا نحن نتربص بكم وننتظر لكم أن تصيبكم واحدة من نقمتين

كبيرتين هما: العذاب الأخروي أو العذاب الدنيوي بأيدينا.

ثالثاً: إذن انتظروا أنتم بما سيصيبنا من إحدىٰ النعمتين، ونحن ننتظركم ما يصيبكم من إحدى النقمتين.

للمرة الجديدة، أن المرء ليدهش حيال هذه الصياغة ذات الإثارة فنياً ونفسياً، فهو من جانب يُلاحظ أنه إزاء مُلاحظة عبادية يطالب النصُ النبيّ بها من خلالها بالتعامل مع المنافقين وفقاً لإجابة تسدّ كلِ ما حملوه من فرَح مَرَضي حيال المعارك الإسلامية، كما أنه من جانب آخر يلاحظ أنه إزاء عمارة هندسية تقوم الأفكار المطروحة من خلالها علىٰ لغة منطقية تترتب فيها كلّ نتيجةٍ تبعاً لمقدمتها، وتتفرع تبعاً لسابقتها، حيث لحظنا كيف أن النص القرآني الكريم أوضح بأن إحدىٰ الحُسنيين هو من نصيب الإسلاميين، ثم قابله هندسياً مع أحد العذابين بالنسبة للمنافقين، ثم رتّب علىٰ ذلك: نتيجة نهائية هي: ليتربص كل من الإسلاميين والمنافقين واحداً قبالة الآخر: حيث يستخلص المتلقّي أنّ نتيجة التربص ستكون لصالح الإسلاميين... كل ذلك، تمّ ـ كما لحظنا ـ وفق عمارة فنيّة تحقّق امتاعاً فكرياً وجمالياً، أي: تحقّق إيصال الأفكار المتصلة بمفهوم الجهاد في سبيل الله من خلال لغة الفن.

* * *

قال تعالى: ﴿قل أنفقوا طوعاً أو كَرهاً لن يُتقبَل منكم انكم كنتم قوماً فاسقين * وما مَنَعهم أن تُقبل منهم نفقاتُهم إلّا أنّهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلاّ وهم كُسالىٰ ولا يُنفِقون إلاّ وهم كارهون * فلا تُعْجِبْكَ أموالُهم ولا أولادُهم إنما يريد الله لِيُعَذّبهم بِها في الحياةِ الدنيا وتَزْهَقَ أنفُسُهم وهم كافرون﴾.

نواجه الآن مقطعاً جديداً من سورة التوبة، يتصل بالحديث عن (المنافقين). وقد كان المقطع السابق من السورة يتحدث عن المنافقين من

خلال السلوك العسكري الذي صدروا عنه. . . أما الآن فيتحدث النصُ القرآني الكريم عن المنافقين من خلال التعامل الاقتصادي الذي يصدرون عنه.

من خلال عمارة السورة، ينبغي أن نضع في الاعتبار أنّ الفكرة العامة للسورة هي الجهاد في سبيل الله وأن الحديث عن المنافقين جاء في سياق الفئات الاجتماعية التي تواكب العملية المذكورة، وأن السلوك العسكري للمنافقين يمثل: الوجه البارز منه، وأن الانتقال من السلوك العسكري إلى السلوك الاقتصادي يتمثل في وجود عنصر مشترك في عملية الجهاد هو الانفاق، وأن السلوك الاقتصادي هو شريحة أخرىٰ من أنماط السلوك العام للمنافقين فيما يظل النّص القرآني الكريم معنياً برسمه في هذا القسم من السورة.

والآن، بعد أن اتضح لنا البناءَ الفني للسورة بكل جزئياته المتجانسة فيما بينها كما لحظنا، نتجه إلى دراسة المقطع نفسه من الزاوية الفكرية. . .

لقد أوضح النص القرآني الكريم بأن عملية (الإنفاق) التي يصدر المنافقون عنها ليست موضع تقبّل سواء أكان ذلك طوعاً أم كَرهاً، نظراً لاتّسامها بطابع النفاق، أي عدم صدورها عن إيمان واقعي برسالة الإسلام. . .

ويُلاحظ أن النص استشهد بنمطين من سلوك المنافقين هما: الصلاة التي لا يمارسونها إلا وهم كُسالىٰ، والانفاق الذي لا يمارسونه إلاّ وهم كارهون بعد أن أوضح بأنهم كفروا بالله ورسوله.

من حيث البُعد الفنيّ لهذه الصياغة القرآنية، ينبغي أن نقف عند جملة من السمات، منها: الإشارة إلىٰ أن الله لا يتقبّل إنفاقهم لا طوعاً ولا كرهاً: مع العلم أن الآية الكريمة أوضحت في نهايتها بأن إنفاقهم يتمّ كَرها وليس طوعاً، فما هو السرّ في ذلك؟

يتمثل السرّ الفني في ذلك: أن عملية الانفاق من الممكن أن تتم طوعاً

أيضاً وذلك في حالات خاصة تعود علىٰ المنافق بالفائدة العابرة، لذلك من المحتمل أن يكون النص القرآني قد استهدف سدّ هذه المنفعة عليهم أيضاً. ومن الممكن أيضاً: إذا أخذنا بنظر الاعتبار أن المنافقين وغالبية المنحرفين لا يعني أنهم في الحالات جميعاً لا يصدرون عن قناعة وجدانية بمشروعية الإسلام بقدر ما يؤثرون الحياة الدنيا علىٰ ما يقف أمام حاجاتهم غير المشروعة، لذلك نجدهم يتخوفون ـ وهذا ما سوف نلحظه في مقاطع لاحقة من السورة الكريمة ـ من افتضاح سلوكهم من خلال الوحي مما نستخلص منه أنهم قد تستيقن أنفسهم بالحق إلا أنهم ينكرونه جحوداً فحسب كما أشار القرآن الكريم إلى ذلك في مواقع أخرىٰ بالنسبة إلىٰ مطلق الكافرين.

المهم، أن النص القرآني الكريم، استشهد بنموذجين من سلوك المنافقين ليدلل ـ فنياً ـ علىٰ عدم تقبّل نفقاتهم هما: الصلاة التي يمارسونها وهم كسالىٰ، والانفاق الذي يمارسونه وهم كارهون.

وقد يُتساءل: ما هو السرّ الفني في إقحام (الصلاة) ـ وهي ممارسة حركية ـ في سياق الحديث عن الجانب الاقتصادي لسلوك المنافقين؟؟.

سرّ ذلك: أن النص في صدد التدليل علىٰ عدم تقبّل نفقاتهم، حينئذٍ فإن الاستشهاد بأهم ركنٍ إسلامي يظل موسوماً بضرورة فنية في هذا الصدد، لذلك ما أن استشهد النص بظاهرة الصلاة حتى أردفها بالحديث عن نفس الجانب الاقتصادي لسلوكهم هو (الانفاق) حيث ذكر بأن عدم تقبّله ناجمٌ من كونه إنفاقاً على كره وليس إنفاقاً تلقائياً تفرضه مبادىء الإسلام.

ويُلاحظ ـ في نهاية المطاف، أن النص القرآني: ختم حديثه عن هذا الجانب بأن أموال المنافقين وأولادهم لا تعني شيئاً بقدر ما تمثّل استدراجاً لهم ﴿إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾.

واضحٌ، إن مثل هذه الإشارة إلى المال والولد (في سياق التقبّل للنفقات

وعدمه) تعني انتفاء قيمتها أساساً بالنسبة إلى المنافقين، فما دامت لم تُستثمَر عبادياً: حينئذٍ فإنها ستعود عليهم بخسار كبير (علماً: بأن سلوكهم المنافق قائم في جزء كبير منه علىٰ المعيار الاقتصادي المذكور)، فإذا كان هذا المعيار نفسه سوف يجرّ عليهم العذاب: حينئذ فما فائدة صدورهم عن أمثلة هذا السلوك؟ وبهذا أمكننا ـ فنيّاً ـ أن ندرك جانباً آخر من عمارة السورة القرآنية الكريمة.

* * *

قال تعالى عبْر حديثه عن المنافقين:

﴿ويحلفون بالله إِنَّهُم لَمِنكم وما هم منكم ولكنهم قومٌ يَفْرَقُونَ لو يَجِدُون مَلْجَـا أو مَغَاراتٍ أو مُدَّخَلاً لَوَلَّوا إليه وهم يَجْمَحون﴾.

هذا المقطع يظل امتداداً للحديث عن السلوك الاقتصادي للمنافقين، وهو سلوك بدأ النصُ القرآني الكريمُ في مقطع سابق بالحديث عنه حيث ذكر لنا بأن المنافقين لَن تقبل نفقاتهم لا طوعاً ولا كرهاً؛ نظراً لعدم صدق إيمانهم بمبادىء الإسلام. وها هو ذا النصُّ القرآني يقدّم لنا جواباً فنيّاً علىٰ عدم صدق ممارساتهم العبادية من صلاة كُسالى أو إنفاق مكره عليه، حيث يوضح لنا حقيقة سلوكهم. أنهم يحلفون بالله بأنهم من المسلمين، ومن قبل وجدناهم يحلفون بالله بأنهم لا يستطيعون الخروج إلىٰ ساحة القتال. (لا نغفلُ عن التجانس الفنيّ بين حلفهم بالله في أول مقطع من الحديث عن سلوكهم، وبين هذا المقطع الفاضح لأعماقهم)... أقول: انهم يحلفون بالله بأنهم من المسلمين، لكن: ينبغي أن نقف على السرّ النفسي وراء عملية الحلف بالله والإلحاح على ذلك.

من البين في لغة علم النفس المَرَضي أن الإلحاح علىٰ سمة لا حقيقة لها في أعماق المريض تعني (في لغة التشخيص للامراض) مظهراً مضاداً لما في الأعماق، أي: بقدر ما يلحّ المريض علىٰ تثبيت تلك السمة بقدر ما يُفْصِحُ عن

مزيدٍ من نفيها في الواقع،... وهذا ما نَلحَظُه بوضوح في سلوك المنافقين فمن الممكن ألاّ يكونَ النبيُّ(ص) طَلَبَ منهم أن يحلِفوا علىٰ صدق ادعاءاتِهم بعدم استطاعتِهم المشاركةَ في القِتالِ (مع أن الملاحظ أن النبيّ(ص) لم يكن ليُكْرِهَ أحَداً على القِتالِ، بل إنه في حالات كثيرةٍ كان(ص) يخيّر الأشخاص بين المشاركةِ وعَدَمِها، وحينئذٍ فما هو المسوّغُ لأنْ تُمارَسَ عمليةُ الحَلْفِ من قِبَل المنافقين؟.

والأمْرُ نفسُه بالنسبة إلىٰ الانتسابِ للإسلام. وحينئذٍ أيضاً: ما هو المُسوّغُ لعملية الحَلفِ بأنّهم منَ المسلمين؟ لا شك أن الاضطراب النفسيّ الذي يَصْدُرونَ عنه يَحْملُهُم علىٰ أن يثبتوا سِمَةً مضادّةً لِمَصالِحهم وأن يلحّوا عليها حتىٰ لو لم يُطْلَبْ إليهم ذلك: بغية إزاحَةِ التوتّرِ الدّاخِلِي الذي يَحْيُونَهُ.

والحَقُّ، أنه بالرغم من أن مبادىء الإسلام لا تُكْرِهُ أحَداً علىٰ الانتساب إليهِ، إلاّ أنَّ المنافقينَ ـ في غمرةِ تَطَلُّعِهِمْ إلى أمْتِعَةِ الحَيَاةِ والخَوفِ مِنْ حِرْمانِهِم مِنها ـ يُضْطَرُّونَ إلىٰ (النِّفَاقِ) في سُلوكِهم: بغية الاستمرارِ في تَدَفُّقِ حاجاتِهم غيرِ المشروعة،... وهذا ما كَشَفَ عنه النَّصُّ القُرآني الكريم حينما أوضح أولاً بأنهم (قوم يفرقون)، أي: يخافون.

إذن، عُنْصُرُ (الخوف) يقف سبباً رئيساً وراء حَلْفِهم بالله بأنّهم من المسلمين. ولذلك ـ وهذا ما أوضحه النصُّ القرآني الكريم أيضاً حينما تابع رسْمَ شخصياتِ المنافقينَ قائلاً عنهم **﴿لو يجدون ملجأً أو مغاراتٍ أو مُدَّخَلاً لوَلّوا إليهِ وهم يَجْمَحون﴾** أي: يُسرعون ـ لذلك نجِدُهم بسببٍ من هذا الخوفِ لا يألون جهداً في أيةِ فرصةٍ للإنسلال مِنْ مَوَاقِعِهم حيث قَدَّمَ القرآنُ الكريمُ في هذا الصَدَد صورةً فنيّةً أو لنقل مَوقفاً فنياً يُعَبِّرُ بجلاءٍ عن درجةِ الخوفِ الذي يطبع المنافقين... فقد رسم النصُّ القرآني الكريم أربعَة صورٍ أو أربعةَ مواقف تَتَّصِلُ بهذا الجانب: ١ ـ صورة (الملجأ)، ٢ ـ صورة المغارة، ٣ ـ صورة

المُدْخَل، ٤ ـ صورة الإسراع إلىٰ المشاهد الثلاثة... كان من الممكن أنْ يكتفِيَ القرآنُ الكريمُ برسمِ صورةٍ واحدةٍ من المشاهدِ المتقدمةِ، إلا أنه أمعن في رسم الصورةِ المذكورةِ بحيث تتجانسُ فنياً مع تَنوُّعِ مَصادِرِ الخَوْفِ الذي يَطْبَعُ المُنَافِقِينَ.

فصورة (الملجأ) تُفْصِحَ عن موضعٍ يَتحصَّنُ فيهِ الشخصُ، و صورةُ (المغارةِ) تُفْصِحُ عن نقبٍ في الجَبَلِ يَسْتَخْفي فيه الشخصُ، و صورةُ (المُدَّخَلِ) تُفْصِحُ عن سَرَبٍ في الأرض وفقاً للتفسيرِ الوارد عنِ الإمام الباقِر (ع).

ولو دَقَّقْنَا النَظرَ في هذِه الصورة لَوَجَدْنا أنّ كلّ صورةٍ تقترن بعملية خوفٍ أشدَّ من سابِقَتِها تبعاً للتسلسلِ الفني لصياغةِ هذِهِ الصورةِ، فقد رَسَمَ القرآنُ أوّلاً صورةَ (الملجأ) وهو أَبْسَطُ أنواعِ المكانِ الذِي يُسْتَخفىٰ فيهِ، ثم قَدَّمَ صورةَ (المغارةِ) وهي أكثَرُ مِنْ سابِقتِها إمكانيةً في الاستخفاءِ حيث أنَّ النَقْبَ في الجبلِ أكْثرُ قابليةً علىٰ الاستِخفاءِ، ثُمّ قَدَّم صورة (المُدَّخَلِ) وهو (السَرَبُ) في الأرضِ بحيثُ يتحقق (الاستخفاء) تماماً.

إذن، جاءت الصياغةُ الفنيةُ لهذهِ الصورة ليستْ معبِّرةً عن جانبٍ جمالِيٍ يُثِيرُ أَشَدَّ الأحاسيس الجماليةِ عندَ المتلقّي فحسبْ، بل جاءت مضافاً إلى البُعدِ الجماليّ المُذْهِش، إفصاحاً عن درجةِ الخوفِ الذي يَطْبَعُ المُذْهِش، إفصاحاً عن درجةِ الخوفِ الذي يَطْبَعُ شخصياتِ المنافقين بحيثُ فَضَحَهم بنحوٍ يَجْعَلُنا نُطيل النَظَر في الصلةِ بين عملية (الحلف بالله) مع أنه لا ضرورة لها وبين درجة الخوف التي تحمل المنافقين علىٰ الحلف بالله بأنهم من المسلمين وما هم منهم. وهذا يعني: أننا أمام عمارةٍ فنيّةٍ بالغةِ الدهشة، تُحاوِلُ ـ من خلالِ لُغَةِ الفَنّ المُعْجِز ـ أنْ تُقَدِّمَ لنا حقائقَ مختلفةً عن شخصيةِ المنافِقِ وطرائِقِ السُلُوكِ التي يَصْدُرُ عنها.

قال تعالى في رسمه لسلوك المنافقين: ﴿ومنهم مَن يَلْمِزُكَ في الصدقاتِ فإن أُعْطُوا مِنْها رَضُوا وإن لم يُعْطَوا منها إذا هم يَسْخَطُون * ولو أَنَّهُم رَضُوا ما آتاهُم الله ورسولُه وقالُوا حَسْبُنَا الله سيُؤْتِينا الله مِنْ فَضْلِهِ ورسولُه إنّا إلىٰ الله رَاغبون * إنّما الصدقاتُ للفقراءِ والمساكينِ والعامِلِينَ عليها والمؤلَّفة قُلُوبُهم وفي الرِقابِ والغارمين وفي سبيلِ الله وابْنِ السَّبيلِ فريضةً مِن الله والله عليمٌ حكيم﴾ . . .

هذه الآياتَ امتدادٌ لآياتٍ سابقةٍ تتحدَّثُ عن التعامُلِ الاقتصادي المتصل بسلوكِ المنافقين. وقد كانت الآيات السابقة أو المقطع السابق من السورة يتحدث عن (الإنفاق). أما المقطع الذي نتحدث عنه الآن فيتناول جانب(العطاء)، أي أن هناك توازناً فنيّاً في رسم الجانب الاقتصادي من سلوك المنافقين متمثلاً في: نمط سلوكهم من حيث إنفاقُ المال في سبيل الله مقابِلَ أخْذِ المالِ بعنوانِ العطاءِ. وفي الحالين رسَمَ النصُ القرآني الكريم سلوكَ المنافقين: القائمَ علىٰ الالتواءِ في التعاملِ الاقتصادي. . . فقد لَحَظْناهم من حيثُ الانفاق قَدْ رَسَمَهم النصُ (مُكرهين) عليه، ونلحَظُهم الآنَ من حيث (العطاءُ) يَطْعَنُون ويعيبون علىٰ النبي(ص)، فإذا أُعطوا رَضُوا وإذا لم يُعطوا غضبوا.

والحق، أن ظاهرة الرضا والغضب تبعاً للإعطاء وعدمه، تَظَلُّ سلوكاً يطبع غالبية البشر، وقد عقب الإمامُ الصادقُ(ع) علىٰ هذه الآية الكريمة قائلاً: «إنَّ أَهْلَ هذهِ الآية أَكْثَرُ مِنْ ثُلثَي الناس»، بيد أن (المنافقين) يظلون في مقدمة مَن يَطْبَعُه مثلُ هذا السلوك ما دامَ طابعُ (النفعية) هو السمةَ المميّزةَ لهم كما هو واضح.

المهم، أن نلاحظ الآن: البُعدَ الفنيّ أو لنقل: عمارة النص منْ حيثُ صِلَةُ هذا الجانِبِ بِما يَلْحَقُهُ من أفكار مطروحة في هذا المقطع.

لقد عقّب النصُ القرآني الكريمُ علىٰ سلوكِ المنافقينَ المذكور بقوله: **﴿ولو أنّهُم رَضُوا ما آتاهُمُ الله ورسولُه... الخ﴾** كما عَقّبَ بعد ذلك: راسماً المواردَ التي ينبغي أن تَتّجهَ الصدقاتُ إليه وهي مواردُ الزكاةِ المعروفة: للفقراءِ، المساكين، أبناءِ السبيل... الخ. معنىٰ هذا أن النّص: اتّجَه إلىٰ طرحِ أفْكار تخصُّ الإسلاميينَ وليس المنافقين.

وبكلمةٍ جديدةٍ: بعدما انتهىٰ النَصُّ القرآنيُ الكريمُ من حديثِه عن السلوكِ الاقتصاديِّ للمنافقينَ (وهو حديثُ يخصُ فئةً مِنَ الناس): اتَّجَه من الجُزءِ أو الخاصِّ إلى الكُلِّ أو العامِّ، وهذا ـ كما نَعرِفُ جميعاً ـ سِمَةُ النصوصِ الفنيةِ التي تصِل بين العامَ والخاصَ، حيث يَتِم الانتقالُ من الخاصِّ إلى العام وفق أُسلوبٍ فنيٍّ يستهدِفُ توصيلَ الأفكارِ العامة من خِلالِ سَرْدِهِ لِنَماذِجَ خاصَّةٍ مِنَ السُلُوك...

فالمنافِقُونَ: تاريخياً، لا يَخيَونَ بأغْيانِهم في جَميعِ العُصُورِ، إلاّ أنَّ نِماذجَ سُلُوكِهِم تَظَلُّ متكررةً دونَ أدْنَى شكِ، وهو ما يُسوِّغُ ـ من الناحيةِ الفنيةِ ـ رَسْمَهُم بالنحوِ الذي لَحظناهُ في المقاطِعِ القرآنيةِ السابقة... لكن: ما يُسَوِّغُ ـ من الزاويةِ الفنية أيضاً ـ تَجَاوُزَهم زمنياً والانتقالَ منهم إلىٰ رَسْمِ الأفكارِ الإسلاميةِ العامةِ التي لا تَخُصّ زماناً ومكاناً مُعيَّنِينِ، هو: طابَعُ النُصُوصِ الفنيةِ،... وهذا ما تُمْكِنُ ملاحَظَتُهُ بِكل وضوحٍ في هذِه الآياتِ الكريمةِ التي نَتَحدَّثُ عنها الآن.

لقد رسم القرآن الكريم طابعاً عاماً لمبادىء الإسلام: من حيث التعامُلُ مع الصدقةِ أو الزكاةِ، فأوضح أولاً الجانبَ الأخلاقيّ لهذهِ الظاهرةِ، ثم أوْضَحَ المواردَ التي يَنْبغي أن تَتّجهَ الصدقةُ أو الزكاةُ إليها... فمن حيثُ البُعد الأخلاقيُ: أوضحَ القرآنُ الكريم بأنّ (المنافقين) لو كانوا قد **﴿رَضُوا ما آتاهم الله ورسولُه وقالوا حَسْبُنا الله سيؤتينا الله من فضلِه ورسولُه إنّا إلىٰ الله راغبون﴾**

لَكانَ خَيْراً لهم.

لكن، بما أنّه من المُسْتَبْعَدِ أنْ يَصْدُرَ هؤلاءِ المنافقونَ عن أمثلةِ هذا السُلوكِ الخيِّر: حينئذٍ نُدْرِكُ علىٰ الفَوْرِ بأن الخطابَ موجّهٌ إلى الإسلاميين بطريقةٍ فنيةٍ، لذلك: طرحَ عليهم هذا المبدأ الأخلاقِي وهو: الرضا بما قُسِمَ لهم من العَطاءِ، أو حتىٰ في حالَةِ المَنْع ينبغي أن يوكلوا ذلك إلىٰ الله وأن تَظَلَّ أفئدتُهُم وألسنتُهُم تُرَدِّدُ ﴿حَسبُنا الله سيؤتينا الله مِنْ فضلِه...﴾.

وأمّا الجانبُ الآخَرُ مِنَ الأفكارِ المتَّصلةِ بالصدقةِ أو الزكاةِ فهو تحديدُ مَوارِدِها التي ذَكَرَهَا النصُّ مفصّلاً حيثُ لَحَظْنَا أن النَّص القرآني الكريم، قَدَّمَ حُكْماً إسلامياً عامّاً لموارِدِ ذلك، وهو ما قلنا عنه: إنه نُقْلَة فنيّةٌ مِنَ الحدِيثِ من الخاصِّ إلى الحديثِ عن العامّ الذِي تُعْنىٰ بِهِ جميعُ العُصورِ بالنسبةِ إلى الظاهرةِ الاقتصادية المذكورةِ.

والآن، بعد أن رسَمَ القرآنُ الكريم في هذا المقطع: الجانِبَ الاقتصاديَ من سلوكِ (المنافقين): يَتَقَدَّمُ إلىٰ رَسْمِ جانبٍ آخَرَ منه هو: السلوكُ العدوانيُ العامُّ للمنافقينَ.

هنا ينبغي أن نتذكَّرَ أن القرآن الكريم بدأَ أولاً بالحديثِ عن السلوكِ العسكري للمنافقين أتْبَعَهُ بالحديثِ عنِ السلوكِ الاقتصاديّ لهم، وها هُو الآن يَتَقَدَّمُ إلىٰ الحديثِ عن السلوكِ (العدواني) لهم.

* * *

قال تعالى في رسمه لسلوك المنافقين: ﴿ومنهم الذين يؤذون النبيَّ ويقولون هو أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لكم يؤمن بالله ويُؤْمِنُ لِلمؤمنين ورحمةٌ للذينَ آمنوا منكم والذين يُؤْذُونَ رسولَ الله لهم عذابٌ أليم * ويَحْلِفُونَ بالله لكُمْ لِيُرضُوكم والله ورسولُهُ أَحَقُّ أنْ يُرضُوهُ إنْ كانوا مؤمنين * ألَمْ يَعْلَمُوا أنَّهُ من

يُحَادِدِ الله ورسولَهُ فَأَنَّ له نارَ جَهنَّمَ خالِداً فيها ذلك الخِزْيُ العظيم﴾.

من الواضح أنَّ النزعةَ العدوانية أو نزعة الكراهية التي تختزنها الأعماق تظل أحطّ النزعات البشرية إيلاماً وتمزيقاً لـ(الذات)، أنها تُشَتِّتُ (الذات) وتَدَعُها نَهْبَاً للتوتُّرِ الداخِلي بحيث لا يُحِسُّ صاحبها بأدنىٰ استقرار حتىٰ لو لم تُتَرْجَمْ إلىٰ سلوكٍ عمليٍ يتَّجهُ إلىٰ الخارج. أما في حالة صدورها إلىٰ الخارج فإن انعكاساتها علىٰ الآخرين تظل من الوضوح بمكانٍ كبير، يستوي في ذلك أن تكون في صعيدٍ لفظي أم حركي... وقد اتجه النص القرآني الكريم في الآيات المتقدمة إلىٰ رسم جانبٍ عام من سلوك المنافقين هو: صدورهم عن النزعة العدوانية: بعد أن كانت المقاطع السابقة من سورة التوبة تتحدث عن المنافقين في تشريح جوانب أخرىٰ من سلوكهم.

وبالرغم من أن نزعة العدوان تتخلل جميع أنماط السلوك ومنه: السلوك العسكري والسلوك الاقتصادي اللذين وقفنا عليهما في مقاطع سابقة من سورة التوبة، إلا أنّ إبراز السلوك العدواني في مقطع خاص (وهو المقطع الذي نتحدث عنه الآن) يظل خاضعاً لهدف فنيّ هو لفت الانتباه إلىٰ النزعة المذكورة في غمرة التشريح لسلوك المنافقين.

لقد أبرز النص القرآني هذه النزعة في أحد مظاهرها وهو: المظهر «اللفظي» فحسب، متمثلاً في قول المنافقين عن النبيّ(ص):انه أذن سامعة لكل ما يُقال له.

ويلاحظ أن النص القرآني أشار بوضوح إلىٰ سمة (العدوان) لأقوال المنافقين حيث صدّر حديثه عن ذلك بقوله تعالى (الذين يؤذون النبيّ) من حيث كون (الأذىٰ) هو عمليةَ تصديرٍ للنزعات العدوانية نحو الخارج...

والمهم، أن النص الكريم يتكفّل بالرد علىٰ المنافقين في هذا الصدد فيقرّر بأن محمداً (ص) هو (أذُن خيرٍ للناس) وإلى أنه رحمة للذين آمنوا. هنا،

ينبغي أن نقف علىٰ هذا الردّ لنلاحظ كيف أن النص القرآني الكريم يقدّم بطريقة فنيّة رداً علىٰ كلّ تُهمة أو أي مظهر من مظاهر السلوك المنافق يتناسب وحجم المظهر المذكور. لقد أراد المنافقون أن يسيئوا إلى النبيّ(ص) وإلى الإسلاميين بعامة حينما وجّهوا له التهمة المذكورة، ثم جاء الردّ علىٰ ذلك مطبوعاً بسمة مضادةٍ تماماً لنزعات المنافقين.

المنافقون ـ كما أشرنا ـ يصدرون عن نزعة عدوانية مثقلة بمشاعر الكراهية للآخرين، لكن: لننظر كيف أن الردّ القرآني الكريم كان معنيّاً بإبراز المشاعر المضادة لأعماقهم وهي مشاعر الخير والرحمة التي صدر عنها النبيّ(ص). لنقرأ من جديد: الردَّ القرآني، ولنتأمل بدقة: دلالات العبارة القرآنية في الردّ المذكور: (قل: أذن «خيرٍ» لكم) ثم لنقرأ أيضاً (ورحمة للذين آمنوا منكم)... أنّ كلاً من مصطلحي (الخير) و(الرحمة) يعني: النزعة «المُسالمة» أي: النزعة المضادة تماماً لنزعة (العدوان).

إذن، كيف كان الردّ القرآني ـ مصاغاً بطريقة فنية غير مباشرة حينما شدد علىٰ نزعة (الخير) و(الرحمة) في سلوك النبيّ(ص): مقابلاً للنزعة العدوانية التي طبعت سلوك المنافقين. لكن في الآن ذاتِه: لم يترك النصُّ القرآني الكريم هؤلاء المنافقين بمنأىً من تحمّل مسؤوليتهم حيال التهمة المذكورة، بل أشار إلى أن محمداً(ص) (رحمة للذين آمنوا منكم)، أي: أن كونه رحمةً وأُذُنَ خيرٍ إنما هو لمن آمن من الناس وليس لمن نافق في سلوكه، بل أن أمثلة هؤلاء **﴿الذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم...﴾**.

إذن، جاء الرد القرآني الكريم مطبوعاً بسمة فنية مزدوجة هي: إبراز النزعة المسالمة في شخصية محمد(ص) مقابل النزعة العدوانية عند المنافقين، ثمّ: سدُّ الأبواب أمام هؤلاء الذين خيّل إليهم أنهم سيحيون بمنأىً من الجزاء الأخروي: حينما يعادون الله ورسوله.

أخيراً، ينبغي أن نقف أيضاً عند الظاهرة (الحلف بالله)، حيث جاء في هذا المقطع الذي نتحدث عنه أن المنافقين: ﴿**يحلفون بالله ليُرضُوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين**﴾ فالملاحظ أن ظاهرة (الحلف بالله) تكررت على السنة المنافقين في مواقف متنوعة، منها: الحلف بالله بأنهم لا يستطيعون الخروج إلىٰ ساحة القتال، ومنها: الحلف بالله بأنهم من المسلمين بعامة، ومنها: الحلف بالله في هذا المقطع بأنهم من المسلمين عبْر موقف خاص حلفوا من خلاله بالله تعالى بأن ما بلغ المسلمين عنهم هو باطل، حيث أشار الله تعالى إلى أن الأجدر بهم أن يرضوا الله ورسوله لا أن يرضوا عامة الناس... وهذا إفصاح آخر عن سمة (النفاق) أو(النفعية) التي تطبع الفئة المذكورة. فهم حيناً يحلفون بالله ليرضوا محمداً(ص) في مواقفهم العسكرية، وحيناً آخر يعيبون محمداً(ص) يتجهون إلى إرضاء العامة من المسلمين، دون أن يلتفتوا إلى هذا التضاد في مواقفهم، مما يفصح عن بلاهتهم من جانب، وعن كونهم (نفعيين) صرفاً يتخذون من الحلف بالله مجرد دفاعٍ عن رغباتهم غير المشروعة.

وأياً كان، فإن النص القرآني الكريم عبْر رسمه لهذا الجانب العدواني من شخصية المنافقين يكون قد رسم أكثر من سمة لسلوكهم: عسكرياً واقتصادياً وعدوانياً، بالنحو الذي تقدم الحديث عنه.

* * *

قال تعالىٰ: ﴿**يَحْذَرُ المُنافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عليهِم سُورةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِما فِي قُلوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِأُوا إِنَّ الله مُخْرِجٌ ما تَحْذَرُونَ * وَلَئِنْ سأَلْتَهُم لَيَقُولُنَّ إِنَّما كُنا نَخوضُ ونَلْعَبُ قُلْ أَبِالله وآياتِه وَرَسُولِهِ كُنتم تَسْتَهزِءُونَ * لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بعد إيمانِكُم إِنْ نَعْفُ عَنْ طائفةٍ منكُم نُعَذِّبْ طائفةً بِأَنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمين**﴾.

الآيات المتقدمة تمثّل امتداداً لآيات سابقة تتحدث عن المنافقين، إلا أن

الملاحَظَ أنَّ الآياتِ السابقةِ لم تذكر اسم (المنافقين) بل تحدثت عن سلوكِ فئةٍ اجتماعيةٍ مُبهمةٍ لم تُحَدِّدْ هُوياتِهم بالاسم بل اكتفت بِذِكْرِ نماذجَ من السلوك العسكريِ والاقتصاديِ والعدوانيِ للفئة المذكورةِ. ثم بدأتِ الآن في القسمِ الرابعِ الذِي يَتَحدَّثُ عن نموذجٍ جديدٍ في سلوكِهم، بدأت الآياتُ الكريمةُ في هذا القِسمِ بتشخيصِ هويّاتِ الفئة المذكورةِ، وأَطْلَقَتْ عَلَيْهِم سمةَ (النِفاق) بِقَولِها: ﴿يَحْذَرُ المُنافِقُونَ أَنْ تُنزَّلَ عليهم سُورةٌ تُنبِّئُهم بما في قُلُوبِهم... الخ﴾.

ترىٰ، ما هو السبب الفني وراء ذلك؟؟

من الواضح، أن النص القصصي (في نماذجه البشرية) يتّسم في بعض أشكالِهِ بِخَصِيصةٍ فنيةٍ هي: الاحتِفاظُ بأَحَدِ الأَسْرارِ مِثل: الكشف عن الشخصية أو الموقف حيث يتم الكشف عن السرّ المذكور في نهاية القصة أو وسطها: بغية شدّ القارىء إلى متابعة العمل القصصي. هنا في النص القرآني الكريم نجد أن النص المذكور قد احتَفَظَ بعدمِ ذِكْرِ هويةِ المنافقين ثم كَشَفَ عَنْ ذلِكَ في هذا المقطعِ الذي نَتَحدَّثُ عنهُ الآن...

وأهميةُ هذا الكَشْفِ مِنَ الممكِنِ أنْ تَرْتكِنَ... في جملةِ ما تَرْتكِنُ إليه... إلى عُنصُرِ التشويقِ الفَنِّيِّ، إلا أنَّ هُناكَ أسراراً أخرىٰ يمكننا أن نَتَبيَّنَها في هذا المجال... منها: أنّ هذا القِسْمَ الذي نَتَحدَّثُ عنه يتكفلُ بإبرازِ العملياتِ النفسيةِ التي يَصْدُرُ المنافقون عَنْها في سلوكِهم: فعندما يتخلَّفُ المنافِقُ عن الالتحاقِ بساحةِ المعركةِ مثلاً، أو عندما يُنْفِقُ بَعْضَ المالِ مُكْرَهاً، أو عندما يَسْخَطُ في حالةِ عَدَمِ حُصوله علىٰ العَطاءِ: هذه الأمثلةُ مِنَ السلوكِ من الممكِن أن يَصْدُرَ عنها سائرُ المنحرفينَ دونَ أنْ تَخُصَّ المُنَافِقِينَ وَحْدَهم وإنْ كانـت السِّـمَةُ الـغـالبـة تُحَـدِّدُ هُويَّاتِهم في الواقع... لكِنْ ثمةَ خَصَائِصُ تُميِّزُ المنافق بشكلٍ واضِحٍ هو: إحساسُهُ بِثُنائيّةِ سلوكِه القائمِ علىٰ اسْتِبطانِ شيءٍ

وإظهارِ شيءٍ آخر، ومن ثم اقتران ذلك بالخوف من الفضيحة طالما كانت ثنائية سلوكه تقوم أساسا علىٰ (جَرِّ المَنْفعَةِ)، وحينئذٍ فإنَّ الخوفَ مِنَ الافتضاحِ يظلُّ له مسوغاتُه ـ في لُغةِ الأمراضِ النفسية ـ عندَ المنافِقِ: نَظراً إلىٰ أنَّ (جَرَّ المَنْفَعَةِ) هو السببُ وراءَ تشكّل شَخْصِيَّته بِسِمَةِ الثنائية أو النفاق، فإذا افْتُضِحَ فإنَّ (جَرَّ المَنْفَعَةِ) يَنْتَفِي أساساً، وهذا ما يُفَسِّرُ لنا سَبَبَ الخوفِ الذي يَعْتَمِلُ داخِلَ الشخصيةِ المُنافِقَة. لذلك، نجد أن النص القرآني الكريم ما إنْ يَصِلْ في حديثِهِ عن جانبِ (الخوفِ مِنَ الفضيحةِ) حتىٰ يَذْكُرَ لَنا أَسْمَ (المنافقين) بِمُصْطَلَحِهِ الاجتماعي، فيقولَ: ﴿يَحْذَرُ المُنافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عليهم سُورةٌ﴾. وقد حاوَلَ بَعْضُ المُفَسِّرينَ أن يَحْمِلَ عبارَةَ (يَحْذَرُ المنافقون) علىٰ فِعْلِ الأَمْرِ بمعنىٰ (لِيَحْذَرِ) المنافقون مِنْ نُزُولِ سُورةٍ تَفْضَحُهُمْ. إلاّ أنَّ ذلِكَ نَسْتَبْعِدُهُ مِنَ الزاويةِ النفسيةِ والفنية، بل نحتملُ بِقُوَّةٍ أنَّ العِبارَةَ المذكورة هي إخبارٌ عنِ العملياتِ النفسية التي تَطْبَعُ سلوكَ المنافقين: بدليلِ الآيات اللاحقةِ التي تَتَضمَّنُ افْتِضَاحَهُم بالفعل مثل قوله تعالى: ﴿إن الله مخرج ما تحذرون﴾ فلو كان أمراً بالحذر لما صحّ أن يقال لهم:ان الله يفضح ما تحذرون وكذلك قوله تعالى ﴿ولئن سألْتَهُم لَيَقُولُنَّ إنما كُنَّا نَخُوضُ ونَلْعَبُ قُلْ أَبِالله وآياتِه ورَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ حيثُ نستخلصُ من هذا الحوار أن المنافقين قدِ افتضح بعضُ سلوكِهم بالفِعل، وأنَّهُمْ قد أحاطوا خُبْرَاً بإمكانيةِ المزيد مِنَ الافتضاحِ، وإلاّ لا يُمْكِن أنْ نَتَصَوَّرَ أنَّهُمْ عندما يُعاتَبون علىٰ صُدورِ سُلوكٍ مِنْهُم: كما تَنْقُلُه النُصوصُ المُفَسِّرةُ مِنْ أنَّهُمْ تآمَرُوا مَرَّةً علىٰ قَتْلِ النبيِّ(ص) بعد عودتِه من معركةِ تَبُوك أو أنَّهُمْ اسْتَهزءُوا بالنبيِّ(ص) عندما بَشَّرَ الإسلاميينَ بِفَتح حصون الشام وقصورها، أو أنهم اتهموا الإسلاميين بالجبن والكذب، أو أنّهم كانوا يستهزءون بالكتاب الكريم وبمحمد(ص)،إلى آخر ما تنقله النصوص المفسرة في هذا الصدد،... لا يمكن أن نتصور أنهم عندما يفتضحون من قِبَل النبيّ(ص) بأن ينقل لهم كلامَ الوحي: ثم لا يتيقنون من صحة الإخبار!!

إذن: لا بد أن نذهب إلىٰ أن المنافقين كانوا يحذرون فعلاً أن تفتضح أعماقهم: للأسباب النفسية التي ذكرناها سابقاً، مضافاً إلى أنهم كانوا يطلقون التهم علىٰ النبي(ص) والإسلاميين بنحوٍ جدي... نفس هـذه الإجـابـة تكشف لنا عن أن النص القرآني الكريم قد صاغ الحقيقة المذكورة بطريقة فنية هي: أنه كشف عن هوية المنافقين بأن ذكرهم بمصطلح (النفاق): مقترناً بعملية الكشف عن العمليات النفسية التي تحياها أعماقهم دوماً وهي الخوف من افتضاح سلوكهم الثنائي علىٰ النحو الذي فصلنا الحديث عنه.

* * *

قال تعالى: ﴿المُنافِقونَ والمُنافقاتُ بَعْضُهُم أولياءُ بَعْضٍ يأْمُرُونَ بِالمُنْكَرِ وينْهَونَ عَنِ المَعْروفِ ويَقْبِضُونَ أيْدِيَهُمْ نَسُوا الله فَنَسِيَهُمْ إنَّ المُنافِقِينَ هُمُ الفاسِقُون * وَعَدَ الله المنافقين والمنافقاتِ والكُفارَ نارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فيها هِيَ حَسْبُهُمْ ولَعَنَهُم الله ولَهُمْ عذابٌ مُقيم * كالذين مِن قَبْلِكُمْ كانوا أشَدَّ منكم قُوَّةً وأكْثَرَ أمْوالاً وأولاداً فاْسْتَمْتَعُوا بِخلاقِهِمْ فاْسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاقِكُم كما اْسْتَمْتَعَ الذِين مِن قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ وخُضْتُمْ كالذِي خاضُوا أولئك حَبِطَتْ أعمالُهُم في الدُنْيا والآخرةِ وأُولئكَ هم الخاسِرون * ألَمْ يَأْتِهِم نَبَأُ الذِين مِنْ قَبْلِهِمْ قَومِ نُوحٍ وعادٍ وثمودَ وقَومِ إبراهيمَ وأصْحابِ مَدْيَنَ وَالمُؤْتفكاتِ أتَتْهُم رُسُلُهُمْ بِالبيّناتِ فما كانَ الله لِيَظْلِمَهُمْ ولكِنْ كانُوا أنْفُسَهُم يَظْلِمُون﴾...

بعد أن أوضح القرآن الكريم في مقاطع سابقة بأن الله تعالى سوف يفضح ما يحذر المنافقون منه. بدأ في هذا المقطع الذي نتحدثُ عنه الآن: بفضحهم فعلاً وبتذكيرهِم بالأممِ السالفةِ التي كانت أشدَّ منهم قوةً وأكثَرَ أموالاً وأولاداً.

الجديدُ في هذا المقطعِ يتمثّل في جملةٍ من الأفكارِ المطروحةِ التي تتطلَّبُ شيئاً من الدقةِ في تمثُّلِ مضموناتِها...

لقد دخل في هذا المقطع عُنْصُرُ (المنافقات مضافاً إلى المنافقين)، حيث

قال تعالى ﴿المنافِقُون والمنافقاتُ بَعْضُهُم أولياءُ بَعْض﴾ كما دخل مضمون جديد من سلوكهم هو كونهم (بَعْضهم وليّ بعض)، ولعل هذا الكونُ يُفَسِّرُ لَنا ـ فنياً ـ صِلَةَ (المنافقاتِ) بهذِهِ السمَةِ الاجتماعيةِ: مضافاً إلى لفتِ الانتباه إلىٰ فاعليةِ العنصر النسائي في هذا الميدانِ مِنْ حَيْثُ مساهَمَتُه أو تأثيرُهُ في حَقْلِ السُلُوكِ الاجتماعي.

ودَخَل أيضاً في هذا المقطعِ مضمونٌ آخَرُ هو كونُهُم يأمُرونَ بالمنكرِ وينْهَونَ عن المعروفِ وهذه السمةُ قَلَّ أنْ يَتكرَّرَ ذِكْرُها في رَسْمِ المنحرفينَ، لذلك حينما يُشَدِّدُ النصُ القرآنيُ عليه بالنسبة إلىٰ (المنافقين) لا بُدَّ أنْ نستخلِصَ منها أنْ سُلوكَهُم يشكِّلُ ظاهرَةَ مضادَّة تماماً لِعُنْصُرِ الخير... فمن الممكن مثلاً أن يصدر المنحرف عن نزعة شريرة في بعض ممارساته أو غالبها ويحتفظ في الآن ذاته ببعض عناصر الخير،... أمّا أن يُعكس الأمر تماماً بحيث يتحول المعروف، إلىٰ منكر والمنكر إلى المعروف فهذا يعني قمة الالتواء في السلوك الذي يصدر المنافقون عنه.

ثم يواجهنا مضمون آخر هو: أنّهم (يَقْبِضُونَ أيْدِيَهُم) عَن الانفاق، وهي سمة تُجَسِّدُ (البُخْلَ) بطبيعة الحال، ومعنىٰ البخل هو انغلاقُ النفس تماماً على الذاتِ وعدمُ تصديرها أيَّ خيرٍ إلىٰ الخارجِ أي إلىٰ الآخَرين...

ثم نلحظُ مضموناً آخَرَ هو أنَّ النصَّ القرآنيَّ قَرَنَ المنافقين مع مطلق الكفار في قوله تعالى ﴿وعد الله المنافقين والمنافقاتِ والكفار نار جهنم﴾ وهذه العمليةُ تُوحي بوضوحٍ أنّ سمةَ (النفاق) لا تَقِلُّ عن سِمَةِ (الكُفْرِ): بالرغم من أن التكيّفَ الاجتماعيَّ الذي يَسْلُكُه المنافِقُ: لا يتحققُ عند الكافِرِ الذي يُعلِنُ انحرافَهُ مُقابِلَ المنافِقِ الذي يَتَستَّرُ بكُفْرِهِ...

أخيراً: يُلاحَظُ أنَّ النَصَّ ذَكَّرَ المنافقين بأسلافِهِم الماضين أقوامِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ... الخ. لكِنْ: شَدَّدَ النَّصُ علىٰ ظاهرةٍ معيّنةٍ في عمليةِ التذكيرِ

تَختلفُ عن الظواهرِ التي تَقْترِنُ عادةً بسلوكِ المنحرفينَ المعاصرين لرسالةِ الإسلام، هذه الظاهرة تتمثَّلُ في (النصيب الدنيوي) أو ما أُطْلِقَ عليهِ عبارةُ **﴿فاستمتعتم بخَلاَقِكم كما استَمْتَعَ الذين من قبلكم بخلاقِهِم﴾**، ومن البيّن أن ما يُمَيِّزُ المنافِقَ هو كونُهُ حريصاً أشَدَّ مِنْ غيرِهِ علىٰ الاستمتاع بنصيبِهِ مِنَ الدنيا، فالمنحرفُ الذي يُعْلِن انحرافَهُ دُونَ اكْتِراثٍ من الممكن أن يَتَنازَلَ عن نصيبِهِ في الحياةِ: عِنْدمَا يُعَرِّضُ نفسَه إلىٰ النَّفْي أو السِّجْنِ أوِ القَتْلِ، بينا لا يَتَنازَلُ المنافِقُ عن نصيبِه مِنَ الدُّنيا، لأنَّ التنازُلَ عَنْهُ يَتَنافىٰ أساساً مع ظاهِرةِ النفاقِ: طالما نَعْرِفُ بُوضوحٍ أنَّ إظْهارَهُ الإيمانَ إنَّما يُعَبِّرُ عن رغبتِهِ المُلْحةِ في الاستمتاعِ بخلاقهِ مِنَ الحياة الدنيا.

المهم، أن النص القرآني الكريم حينما يشدد علىٰ إبراز هذا الجانب من عملية التذكير بالأمم السالفة: إنما يُجانس فنياً بين الأفكار التي يطرحها في هذا المقطع، كما أنه حينما يذكّر المنافقين بالأمم السالفة التي استمتعت بخلاقها: إنما يذكّرهم بأن الحرص علىٰ الاستمتاع بمباهج الحياة الدنيا سوف لن يعني شيئاً ما دامت المصائر التي لحقت الأمم السالفة قد طبعتها إبادةٌ شاملة لمجتمعاتهم.

هنا بعد أن انتهىٰ النص من رسم السلوك المنافق من حيث كونُ أصحابِهِ بعضهم أولياء بعض، وكونهم يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف... الخ. اتجه بعد ذلك إلىٰ رسم السلوك المضاد لهم وهو سلوك المؤمنين حيث قال تعالى عنهم: **﴿والمؤمنونَ والمؤمناتُ بَعْضُهُم أولياءُ بَعْضٍ يأمُرونَ بالمعروفِ ويَنْهَوْنَ عَنِ المنكر... الخ﴾**. إن التقابل الفنيّ بين الفئة المنافقةِ والفئةِ المؤمنةِ يُحقِّقُ إمتاعاً جمالياً وفكرياً كما هو واضح حيث يضع قُبالةَ المُنافقينَ والمنافقاتِ: المؤمنينَ والمُؤمنات، ويَضَعُ قبالةَ الأمْرِ بالمنكرِ والنهيِ عنِ المعروف عند المنافقين الأمْر بالمعروفِ والنهي عنِ المنكر عِنْد المؤمنين،

ويضعُ قبالةَ المنافقينَ مِنْ حيثُ كونُهُم بعضاً أولياء بعض: المؤمنين بعضاً أولياءَ بعضٍ أيضاً، وهكذا.

هذا من حيث الامتاع الجمالي وأما من حيث الامتاع الفكري، فيكفي أن يفيد المتلقّي من الموازنة المذكورة في تعديل سلوكه وهو ما يستهدفه النص دون أدنىٰ شك عند عرضه لنماذج من سلوك المنحرفين والمؤمنين.

* * *

قال تعالى: ﴿يا أيها النبيُّ جاهد الكفارَ والمنافقين واغلُظْ عليهم ومأواهم جهنمُ وبئسَ المصيرُ * يحلِفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمةَ الكفر وكفروا بعد إسلامِهم وهمّوا بما لَم يَنالوا وما نَقموا إلاَّ أنْ أغناهم الله ورسوله من فضلِه فإن يتوبوا يك خيراً لهم وإن يتولوا يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا والآخرةِ وما لهم في الأرض من وليٍّ ولا نصير﴾.

بدأت سورة التوبة مطالبةً بمجاهدة المشركين. ثم عرضت لنا بعد ذلك شرائح اجتماعية مختلفة يجمعها طابع الانحراف ومنها: فئة المنافقين حيث ركّزت علىٰ هذه الفئة الأخيرة وعرضت لنا جانباً من سلوكهم: عسكرياً واقتصادياً وعدوانياً، ثم قرنت ذلك مع الكفار مطلقاً لتوحي لنا بوحدة الانحراف التي تطبع كلاً من الكافرين والمنافقين... وها هي الآن (أي: سورة التوبة) تقدم لنا قسماً جديداً من النص يتحدث عن المنافقين أيضاً ولكن من خلال طرحٍ آخر من سلوكهم العسكري والاقتصادي والعدواني. فما هو هذا الجديد، وما هو موقعه من عمارة السورة، ما دمنا نستهدف أساساً توضيح البناء العام للسورة وصلة أجزائها بعضاً مع الآخر؟؟

لقد بدأ المقطع الجديد مطالباً بمجاهدة الكفار والمنافقين، بعد أن كان استهلال السورة منحصراً بمجاهدة المشركين فحسب.

واضحٌ، أن المنافقين: بعد أن تحدثت السورةُ مفصلاً عن سلوكهم

المنحرف، دخلوا عنصراً جديداً في قائمة الانحراف، ولذلك جاء المسوّغُ الفنّي لإشراكهم مع مطلق الكفار في المطالبة بمجاهدتهم **﴿يا أيها النبيّ جاهد الكفار والمنافقين. . . الخ﴾**. ثم جاء المسوّغ الفنيّ أيضاً لإعادة الكلام عليهم ما داموا موضع مطالبةٍ بمجاهدتهم، لكن بما أن الفن القرآني الكريم لا يرتكن إلى عنصر (التكرار) إلاّ وفق متطلبات السياق، لذلك لم يجيء (التكرار) بنفس المفردات السابقة من سلوك المنافقين، بل بنمط آخر منها يتناسب فنيّاً مع ظاهرة (الكفر) التي قَرنها النصُ مع (النفاق)، بمعنىٰ أن الجديد في هذا القسم من السورة التي تتحدث عن المنافقين أيضاً هو: أن تبرز أنماطاً من السلوك المنافق الذي يشترك مع سلوك الكفر: بعد إن كان القسم الأول من السورة يركّز علىٰ إبراز مفهومات (النفاق) وحده. . . لذلك، يتعيّن علينا أن نلتفت لهذا الجانب الفنيّ الخطير من عمارة السورة وجمالية بنائها الهندسي القائم علىٰ الوحدة والتنوّع والتنامي: من خلال ظاهرة (التكرار).

و الآن ، لنقف عند المفردات المتكررة من سلوك المنافقين. لقد عرض لنا النص القرآني ظاهرة (الحلف بالله) حيث قال عنهم) **﴿يحلفون بالله ما قالوا و لقد قالوا كلمة الكفر بعد إسلامهم﴾**. . . لنلاحظ أن النص ذكر سابقاً ثلاثة أشكال من (الحلف بالله)؛ الحلف بالله بأنهم لا يستطيعون الخروج إلى ساحة الجهاد، ثم بأنهم من المسلمين، ثم: ليرضوهم دون الله ورسوله، أما الآن، فإن ظاهرة الحلف (في هذا المقطع الجديد الذي نتحدث عنه) تتصل بكلماتٍ تلفظوا بها (وقد أبهمها النص) ولكن ذكر النصُ بأنها «كلمة الكفر» (ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم). . .

قد تكون هذه الكلمات هي نفس الكلـمات التي صدرت عنهم في مواقف سابقة ذكرها النصُ القرآني في حينه، إلا أن إعادتها الآن جاء في سياق اقتران (النفاق) مع (الكفر) وليس في سياق تبيين مجرد السلوك المنافق. . .

ومع ذلك سنجد في الأقسام اللاحقة من السورة سلسلة من نماذج السلوك الصادر عن المنافقين فيما تُعتبر (من زاوية البناء الهندسي للسورة) تفصيلاً لما أجمله النص الآن. لذلك سوف نُعنىٰ بإبراز هذا الجانب الفنيّ تباعاً: لكن، إنّ ما نعتزم لفت النظر إليه في هذه الجزئية من الآية هو: أن نشير إلى أن النص القرآني قد أوضح بجلاء ـ عندما طالبَ بمجاهدة الكفار والمنافقين (في آن واحد) ـ إن المنافقين قد حلفوا بالله (ما قالوا كلمة الكفر، ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم). والمطلوب الآن هو: تبيين كلمة (الكفر) التي صدرت عن المنافقين. لكن، لا بدّ أن نتابع رحلةً فنيّة طويلة المسافة قطعها النصُ لتوضيح هذا الجانب، وهو ما يتطلبه الأداءُ الفنيّ العظيم.

إذن: لنتابع.

إنّ أوّل ما ذكره النص من سلوك المنافقين هو أنهم: ﴿همّوا بما لم ينالوا﴾ أي: هموا بممارسة السلوك المفصح عن الكفر دون أن يستطيعوا تحقيق ذلك... وقد ذكر المفسّرون احتمالات ثلاثة في ذلك: محاولة قتل النبي(ص)، محاولة إخراجه من المدينة، محاولة نشر الفساد وتفرقة الكلمة بين المسلمين. وأياً كان ذلك، فإن محاولة القتل أو الإخراج أو نشر الفساد: تظل واضحة الانتساب إلى (الكفر) مضافاً لكونها منتسبةً إلى (النفاق) أيضاً.

بعد ذلك، ذكر النص مسوغات سلوكهم المذكور بقوله تعالى: ﴿وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله...﴾.

ومن الزاوية النفسية: يمكن القول بأن النص القرآني الكريم أوضح لنا طبيعة الأعماق المنحرفة التي يصدر المنافقون عنها، فعندما يتفضّل شخص أو جهة علىٰ آخر، فإن هذا الآخر ينبغي أن يتعاطف مع الجهة المذكورة، أما أن ينقم من ذلك، فهذا يعني أنه بلغ قمة الاضطراب في بنائه النفسي، وهذا ما طبع سلوك المنافقين من حيث بلوغهم قمّة الاضطراب النفسي المذكور،

والمهم ـ بعد ذلك ـ هو أن ظاهرة (النقمة) علىٰ رسالة الإسلام تمثل عملية (كفرٍ) به، وهو ما يستهدف النصُ القرآنيُ الكريمُ توضيحَه في هذا القسم من السورة.

إذن: جاء التكرار الفني في هذا القسم من السورة مطبوعاً بطرح ظاهرة جديدة من سلوك المنافقين، ومن ثمّ: لو تابعنا سائر مفردات السلوك التي يطرحها النص القرآني في هذا القسم الجديد من السورة، لوجدنا نفس السمة الفنية المشار إليها، بالنحو الذي نبدأ الحديث عنه(لاحقاً) إن شاء الله.

* * *

قال تعالى في رسمه لسلوك المنافقين: **﴿ومِنْهُم مَن عاهَد الله لئن آتانا مِنْ فضلِه لنصدقَن ولنكونَن مِنَ الصَّالِحين * فلما آتاهم من فضلِه بخلوا بِهِ وتولَّوا وهم معرضون فاعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون﴾**.

إن سمتي (النفاق) و(الكفر) تظلان هدفاً فكرياً للنص الذي خصص هذا القسم من السورة لإبراز الجانب المذكور، إن سمة (الكفر) تتمثل في: الكفران بنعم الله، وإذا كان المنافقون ينفقون بعض المال ـ كما رسمهم النص في قسم سابق من السورة ـ كارهين، فإن عملية (الكره) تعبّر عن النفاق أو الثنائية التي يتحقق الانفاق من خلالها دون أن يقترن ذلك بقناعة داخلية.

أما ظاهرة (الكفر) فتتجه وجهة أخرىٰ هي: عدم الالتزام بما عاهدوا عليه، وها هو النص القرآني الكريم يحدثنا بأن من المنافقين مَن عاهد الله بأن يعطي كلّ ذي حق حقه: إذا رزقه من فضله، لكن ما أن آتاه الله من فضله حتىٰ بخل بالانفاق بل تولىٰ معرضاً عن مبادىء الإسلام.

لذلك، رتبت السماء علىٰ الموقف نتيجة هي: تثبيت سمة (النفاق) في قلوبهم إلى الأبد.

والآن، ما هي الدلالة الفنية والفكرية لهذه الظاهرة التي طرحها النص القرآني الكريم؟ هل أن ذلك يعني أن هذا النمط من الناس لم يكن مطبوعاً بسمة النفاق بقدر ما كان مجرد شخص بخل بماله وكفر بأنعم الله، ولذلك أورثه الله سمة النفاق؟؟ إن عمارة السورة الفنية توحي لنا بما لا غموض فيه بأن هذا القسم من السورة امتدادٌ للسابق منها من حيث تمحضها لرسم سلوك المنافقين. . . لذلك، لا نتوقع أن تكون سمة (البخل) التي صدرت عن النمط المذكور تنفي سمة (النفاق) عن هذا النمط. . . بل أن هناك من السمات الشخصية ما ينبغي أن نقف عندها بغية الإفادة منها في تعديل السلوك. . . ففي حقل التصوّر الإسلامي للسلوك هناك من النصوص ما يشير إلى أنه هناك ثلاثة أنماط من السلوك. إذا صدر الشخص عنها عُدّ (منافقاً):أحدها (إذا وعد أخلف) والآخران: إذا حدّث كذب، وإذا أؤتمن خان.

ويعنينا من ذلك: سمة (خلف الوعد) حيث أشار النص القرآني الكريم إلىٰ النمط المذكور بقوله تعالى ﴿أخلفوا الله ما وعدوه﴾ مما يعني أن هؤلاء الأشخاص كانوا يحملون طابع النفاق قبل أن يعقبهم الله نفاقاً في قلوبهم إلى الأبد. كل ما في الأمر أن سمة (النفاق) كانت ذات شحنة قد تكون ضخمة وقد لا تكون كذلك، . والجديد في الأمر هو أن الله تعالى ثبت ذلك في قلوبهم بنحوٍ لا مجال لإدخال عمنية (التعديل) عليه، أي: طُبِعَ علىٰ قلوبهم بحيث لا يُرجىٰ منهم ذات يوم أن يتوبوا إلىٰ الله.

ويمكننا أن نتبيّن ذلك بوضوح أشدّ إذا أدركنا أن غالبية الناس إسلاميين أو غيرهم قد يصدرون عن عمليات (الكذب) و(خلف الوعد) و(خون الأمانة) في لحظات الضعف التي يواجهونها ـ مما يعني وفقاً للتصور الإسلامي للسلوك ـ أنهم يحملون سمة (النفاق) بدرجة معينة تبعاً لحجم الكذب أو الخلف أو الخيانة التي يصدرون عنها. لذلك، نتوقع أن هذه الفئة التي حدثنا

القرآن الكريم عنها كانت تحمل من سمات (النفاق) درجته الشديدة، وبما أنها تعرّضت لتجربة حاضرة هي كونها قد عاهدت الله لئن آتاها من فضله فسوف تتصدق بذلك، . . وبما أن درجة (النفاق) التي طبعت شخصيتها كانت شديدة حينئذٍ أخلفت الوعد وهو خلف ليس عادياً بطبيعة الحال نظراً للطرف الآخر من التعامل وهو (الله) تعالى، لذلك أعقبها الله (النفاق) في أعماقها إلى الأبد، بمعنىٰ أن سمة (النفاق) التي كانت تحملها سابقاً قد تبدّلت من كونها (طارئة) إلى سمة (ثابتة)، ومن كونها خاضعة لإمكانات التعديل في السلوك: كما لو تاب الشخص أو مارس تدريباً علىٰ التخلص من سمات الكذب والخلف والخيانة، إلى كونها ثابتة يتعذر أو يمتنع إدخال (التعديل) عليها.

* * *

قال تعالى: ﴿الذين يَلْمِزُونَ المُطَّوِّعينَ مِنَ المؤمنينَ في الصَّدَقاتِ والذين لا يَجِدُون إلا جُهْدَهُم فَيَسْخَرُون منهم سَخِرَ الله منهم ولهم عذاب أليم * اَستَغفِرْ لهم أو لا تستغفر لهم أن تَسْتغفرْ لهم سبعينَ مرة فلن يَغْفِرَ الله لهم ذلك بِأَنَّهم كفروا بالله ورسولِه والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ . . .

في آيات سابقة من سورة التوبة ذكر النصُ القرآني الكريم جانباً من السلوك الاقتصادي للمنافقين وهو معاهدتهم الله أن يصدّقوا لو رزقهم من فضله، لكنهم أخلفوا الوعد. . . هنا يتابع النص القرآني رسم سلوكهم من خلال سمة أخرىٰ تجسّد مفهومي (الكفر) و(النفاق)، وهما المفهومان اللذان تكفّل هذا القسمُ من سورة التوبة بتناوله.

المُلاحَظ هنا، أن النص يطرح جملة من الأفكار، منها: الانفاقُ بقدر الطاقة: موقفُ المنافقين من ذلك، فبالرغم من أنهم رُزِقوا أموالاً كثيرة لكنهم يبخلون بذلك كما حدثنا نص سابق. . . والمفروض أن الشخصية الباخلة عندما تواجه الآخرين الذين يسخون بأموالهم: حينئذٍ تلتزم جانب الصمت

خجلاً من موقفها، لكن: نجد أن المنافق الذي يتضخم حجمُ التواءاته واضطراباته لا يسعه الصمت: بقدر ما يحسّ بالحاجة إلى التفريج عن توتّراته فيتجه إلىٰ غمز المتصدقين بأموالهم بخاصة إذا كان تصدّقهم يسيراً بقدر جهدهم.

سرّ ذلك (من زاوية التشخيص العبادي) إن المنافق بحاجة إلى عملية دفاع عن نفسه: بغية إزاحة المشاعر الكريهة التي يتحسسها عن ذاته البخيلة، حينئذٍ يلتمس أدنىٰ عيبٍ اقتصادي عند الآخرين ليُسقط عيوبه الذاتية عليهم. فمثلاً عندما يجد أن الإسلاميين الضعفاء مادياً، يتبرعون بصاعٍ من تمر يبدأ حينئذٍ بإعابتهم والسخرية منهم منتهزاً قلة المال المتصدّق به لتمرير نزعته المريضة.

أما في حالة مواجهة المنافق للأشخاص الذين يتبرعون بالمال الكثير: حينئذٍ فإن عملية الدفاع اللاواعي الذي يصدر المنافق عنه يتخذ قناعاً مَرَضياً آخر هو: إعابة المتصدق بسمة (الرياء) وهو ما حدثتنا عنه النصوص المفسرة التي ذكرت بأن المنافقين كانوا يعيبون المُكثر بأنه (مراءٍ)، والمقلّ بأنه لا قيمة له.

المهم، أن النص القرآني الكريم رسم لنا في هذا المقطع من السورة جانباً من الفعاليات المضطربة عند المنافقين متمثلاً في ما يُطلق عليه (في التشخيص العبادي) بـ(الإسقاط)، بعد أن كان المقطع السابق يرسم لنا جانباً آخر من السلوك المضطرب عند المنافقين وهو خلف الوعد الذي يرتكن إلى سمة تترتب عليها عملية (الاسقاط) المذكورة، ونعني بها سمة (البخيل) الذي دفع المنافقين إلىٰ أن يحموا أنفسهم منها من خلال عملية الاسقاط المشار إليها.

هنا قبل أن نتجه إلىٰ مقطع جديد من السورة ينبغي لفت النظر إلى البناء

العماري لهذا القسم منها متمثلاً في عملية الربط الفني الذي لحظناه بين مقطع تحدثنا عنه سابقاً والمقطع الذي تحدثنا عنه الآن، فالنص القرآني الكريم بما أنه نص فنيٌ لا يحدثنا مباشرةً عن الحقائق ولا بلغتها التشريحية بل يعتمد (الانتقاء) و(اللغة غير المباشرة) مادةً وتعبيراً. . . أما الانتقاء فيعني انتخاب (عيّنة) من السلوك مثل (معاهدة المنافق بأن يتصدق لو زرقه الله من فضله ومن ثم خلفه للوعد بذلك، (إعابته المتصدقين بالمال القليل أو الكثير). فهاتان العيّنتان من السلوك تمثّلان مقدمة ونتيجة ترتبط إحداهما بالأخرى ـ كما لحظنا، إلا أن النص القرآني الكريم اعتمد (اللغة غير المباشرة) أو لنقل (اللغة الإيحائية) أو (اللغة المفتوحة) التي تعني أن المتلقّي وليس النص هو الذي يتكفل بالكشف عن الحقائق بعد أن يضع النصُ في يده مفتاح ذلك. فبدلاً من أن يقوم النص بعملية تشريح أو تحليل نفسي لسلوك المنافق: يضع أمام المتلقي عيّنة من سلوكه هي (بخله بما عاهد عليه الله) ثم نتيجة ذلك وهي (تثبيت النفاق في قلبه نتيجة لخلفه الوعد) ثم عينة تبدو وكأنها منفصلة عن سابقتها وهي ﴿**الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم**﴾.

هذه الآية التي تبدو وكأنها منفصلة عن سابقتها، إنما هي ـ في لغة الفن المعجز ـ فرز طبيعي لإبراز السلوك السابق للمنافقين، أي بما أنهم بخلاء حينئذ يلمزون المطوعين: مع أن النص القرآني الكريم فَصَلها عن السابق وتحدّث عنها مستقلاً مبيّناً أن هؤلاء الذين سخروا من المتصدقين سوف يسخر الله منهم ولهم عذابٌ أليم، بينا حدثنا في الآية السابقة بقوله: ﴿**ومنهم من عاهَدَ الله لئن آتانا من فضله لنصدقّن ولنكوننّ من الصالحين * فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون * فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلىٰ يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون * ألم يعلموا أن الله يعلم سرّهم ونجواهم وان الله علام الغيوب**﴾ فهذا المقطع الذي يتحدث عن العهد والبخل

والنفاق ثم معرفة الله تعالى بأسرارهم ونجاواهم، قد اتبع باية ﴿الذين يلمزون المطوعين الخ﴾ وهي آية تبدو ـ كما كررنا ـ مستقلةً عن سابقتها، لكن النص ـ من خلال لغة الفن ـ جعلنا نستكشف نمط العلاقة بينهما ـ ليس بالنحو العابر ـ بل وفق لغة إيحائية تدع كلّ متلقٍّ يستكشف منها دلالة تتناسب مع حجم خبراته العلمية، حيث يستكشف الملاحظ العابر مجرد كون المنافقين يسخرون من المتصدقين وإلى كون السخرية سلوكاً معيباً، بينا يستكشف منه: المُلاحظ العيادي أسراراً نفسية تتصل بعملية التشخيص لمختلف الاضطرابات التي يصدر المنافق عنها.

* * *

قال تعالى: ﴿فَرِحَ المُخَلَّفون بِمَقْعَدِهِم خِلافَ رسولِ الله وكَرِهُوا أن يُجاهدوا بأموالِهم وأنفسِهم في سبيلِ الله وقالوا لا تَنفِروا في الحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لو كانوا يَفقَهون * فَلْيَضْحَكُوا قليلاً ولْيَبكُوا كثيراً جزاءً بِما كانوا يكسِبُون * فإن رَجعَكَ الله إلى طائفةٍ مِنهم فاسْتأذَنُوكَ لِلخروجِ فَقُلْ لَنْ تَخرُجوا معي أبداً ولَنْ تُقاتِلُوا معي عَدُوّاً إنّكُم رَضيتُمْ بالقُعُودِ أوّلَ مَرّةٍ فاقعدوا مع الخالفين﴾.

في أوائل السورة حدثنا النص عن جانب من سلوك المنافقين، وكان ذلك متصلاً بالكشف عن أعماقهم المنافقة حينما عرفّهم بأنهم استأذنوا الرسول(ص) في الخروج إلى ساحة القتال علىٰ نحو التملّق وأوضح بأنهم لو أرادوا الخروج فعلاً ﴿ لأعـدّوا لـه عـدّةً ولـكن كـرِهَ الله انبعاثَهم فَثَبطهم و قيل اقعدوا مع القاعدين﴾. . . أما الآن، فإن النص القرآني الكريم يتنامىٰ بوقائع المنافقين فنيّاً لينقل لنا واقعة جديدة تتسبب عضوياً عن سابقتها، والواقعة الجديدة هي: فرح المنافقين بتخلّفهم عن الجهاد في سبيل الله، والإعلان عن أعماقهم بصراحة بعد أن كانوا متسترين سابقاً، أنهم يقولون الآن بصراحة: (لا

تنفروا في الحرّ)، كما أن النبي(ص) يحدثهم بلغة الكاشف لأعماقهم فيقول لهم **﴿لن تخرجوا معي أبداً﴾** إلى معركة أخرىٰ بسبب **﴿أنكم رضيتم بالقعود أوّل مرة فاقعدوا مع الخالفين﴾**.

إن الأهمية الفنية لهذا المقطع من حيث صلته بالمقطع الذي لحظناه في أوائل السورة، ينطوي علىٰ خصائص في غاية الأهمية من حيث بناء السورة بنحو عام، فهنا لا يتكرر الحديث إلا في طرح جديد لسلوك المنافقين بالرغم من أن السلوك العسكري لهم منصبٌ علىٰ قضية واحدة هي تخلفهم عن الجهاد في سبيل الله. فأولاً لا بدّ أن نتذكر بأن النص القرآني الكريم يستهدف الآن أن يحدثنا عن المنافقين بصفتهم (كفاراً) لا بصفتهم مجرّد (منافقين) لأن القسم الأول من السورة الكريمة قد اضطلع بمهمة التعريف بنفاقهم، أما الآن فإن مهمّة التعريف (بكفرهم) هو الهدف الفني للسورة، لذلك بدأ بالكشف عن سلوكهم السافر (وليس السلوك الباطني)، فكشفهم بحقيقتهم السافرة التي تحث المقاتلين علىٰ عدم الخروج إلى ساحة القتال بحجة الحرارة التي تطبع هذا الموسم. . .

وإذا كان النص القرآني الكريم يعاتب رسول الله(ص) سابقاً بقوله **﴿لِمَ أذنت لهم حتى يتبيّن لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين﴾** فإنه الآن قد كشف كذبهم تماماً، ولذلك لم يأذن لهم بل قال لهم (لن تخرجوا معي أبداً). كما أنّه إذا كان النص القرآني سابقاً قد أوضح بأن الله كره **﴿انبعاثهم فثبّطهم وقيل لهم اقعدوا مع القاعدين﴾** فإنه الآن قد كشف ذلك للنبي (ص)، ولم تعد القضية بخافية عليه بحيث كان الله تعالى وحده عالماً بأعماق المنافقين وكارهاً لانبعاثهم وجاعلَهم من القاعدين، أما الآن فإن النبيّ(ص) يقول لهم بصراحة **﴿إنكم رضيتم بالقعود أول مرّة فاقعدوا مع الخالفين﴾**. لننظر بدقة وتأمل إلىٰ هذا المنحىٰ الفنيّ الممتع، متمثلاً في تنامي الوقائع وتطورها، حيث رسَمَ النصُ في

أوائل السورة أعماق المنافقين وهي خافية سريّة لا يعلم بها إلاّ الله، رسَمَها منذ البدء بكونها قد طُبِعَ عليها بحيث حجزها الله عن أية عملية تعديل في السلوك، وحيث كره الله انبعاثها وحيث جعلها قاعدة مع القاعدين: دون أن تبدو واضحة أمام الآخرين، أنها قضية بين الله تعالى وبينهم: لا يعلمها أحد. لكن: بما أن هذه القضية قد حفلت بتكييفٍ خاص هو: كرهُ الله تعالى لانبعاث المنافقين وجعْلُهم مع القاعدين: حينئذٍ نتوقّع (من الزاوية الفنية) أن ينعكس هذا التكييف: في سلوك لاحق عند المنافقين، وها هو الآن يبدو بجميع منعكساته في سلوك واضح محدد هو: قيام المنافقين بممارسة نشاطٍ عملي هو تثبيط همة المقاتلين الإسلاميين، أي: قعودهم مع القاعدين حيث جسّدوا التكييف المذكور المتمثل في كراهة الله تعالى لانبعاثهم: جسدوه في قعودهم الفعلي وعدم مشاركتهم في القتال، كما تجسّد التكييف المذكور: في عدم السماح لهم في المستقبل أيضاً بالمساهمة في أيّة معركة: يحاولون من خلالها أن يستثمروا الموقف لصالحهم مثل: الظفر بغنيمة مثلاً أو مجرّد استمرارية تعاملهم أو بقائهم في دار الإسلام، وأخيراً تجسّد التكييف المذكور في قعودهم فعلياً عندما خاطبهم النبي(ص) قائلاً (اقعدوا مع الخالفين) حيث أنه صدىً لقوله تعالى: ﴿اقعدوا مع القاعدين﴾.

ويلاحَظ: أن النكتة الفنية في كون المنافقين (قاعدين) في المرة الأولىٰ هي: كون أعماقهم المتستّرة قد تكيّفت مع سائر القاعدين الممنوعين من الجهاد: نتيجة لكره الله تعالى لانبعاثهم. أما الآن فقد وصفهم النص بقوله ﴿اقعدوا مع الخالفين﴾ وليس ﴿اقعدوا مع القاعدين﴾ والسمة الفنية في هذا الفارق هي: أن (الخالفين) يمثلون واقعاً عمليّاً وليس مجرد(تكييف) لأعماقهم، أي: أنهم يمثلون تخلفاً عن (الجهاد) (بالفعل)، بعد أن كانوا يمثلونه بـ(القوة)، إنهم يمثلون تخلفاً فعلياً بعد أن كانوا يحملون (استعداداً) علىٰ أن يتخلفوا ذات يوم.

المهمّ، خارجاً عن السمات الفنية المشار إليها، يعنينا أن نشير إلى أن النص القرآني قد أوضح بأن لعبة (النفاق) سوف لن تحقق هدفها الذي تستّرت به حيناً وأعلنت عنه حيناً آخر، بالنحو الذي تحدثنا عنه.

* * *

قال تعالى في حديثه عن المنافقين: ﴿وإذا أُنزِلتْ سورةٌ إن آمنُوا بالله وجَاهِدوا مَعَ رسولِه استأذنكَ أولوا الطَّوْل منهم وقالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ القَاعِدِينَ * رَضُوا بأَنْ يكونوا مع الخوالِفِ وطُبِعَ علىٰ قلوبهم فهم لا يفقهون * لكنِ الرَّسُولُ والذين آمنوا معه جاهَـدُوا بأموالِهِم وأنفسِهِم وأُولئك لَهُم الخَيْراتُ وأولئكَ هُمُ المفلحونَ * وجاء المُعَذِّرُونَ مِنَ الأعرابِ لِيُؤْذَنَ لهم وَقَعَدَ الذينَ كَذَبُوا الله ورسولَهُ سَيُصِيبُ الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾.

في هذا المقطع من السورة يواصل النص القرآني الكريم حديثه عن «المنافقين»، حيث كانت المقاطع السابقة تتحدث عنهم بشكل عام، أما الآن فيتحدث النصُ عنهم من خلال الإشارة إلى المتمكنين منهم ممّن يمتلك قابليةً علىٰ المشاركة في القتال: حيث طالبوا الرسول(ص) بأن يعفيهم من المساهمة في الجهاد ورضوا بأن يكونوا مع الخوالف، فيما طُبع علىٰ أفئدتهم. هنا ينبغي أن نتذكر بأن السمات النفسية والاجتماعية التي ذكرها النص عن المنافقين مثل كونهم (قد طُبع على قلوبهم) وكونهم (خوالف) ومطالبتهم بأن يكونوا من (القاعدين) تظل صدىً لمقاطع سابقة وَصَفَتْهُم بنفس السمة. إلا أن الجديد فيها هو: مجيئهم في سياق المقارنة مع الفئات الاجتماعية التي انتظمها المجتمع الإسلامي آنذاك حيث تتوزّع في أنماط متفاوتة في درجة إيمانها أو انحرافها.

لقد قارن النص القرآني أولاً بين المنافقين الذين وصفَهم بالسمات السابقة وبين الإسلاميين الذين وصفهم بقوله ﴿لكن الرسول والذين آمنوا معه

جاهدوا بأموالهم وأنفسهم﴾: وهي سمات تقف علىٰ الضد من سلوك المنافقين من حيث اختيارهم الجهاد بالأموال والأنفس مقابل اختيار المنافقين القعود عن الجهاد. ولا حاجة إلى التعقيب علىٰ فائدة هذه المقارنة بين المنافقين والإسلاميين ما دمنا نعرف تماماً بأن هدف النص هو: الحثّ على الجهاد في سبيل الله وفق قناعة داخلية خالية من شائبة النفاق أو مطلق السلوك الذي يصطنع العذر للتخلص من مسؤولية الجهاد... لذلك نجد أن النص القرآني الكريم ما أن انتهىٰ من المقارنة بين المنافقين والإسلاميين حتى اتجه إلىٰ شريحة اجتماعية أخرىٰ هي «الاعراب» ليعرضها بنفس المقارنة بين مؤمنين بالجهاد حقاً وبين منحرفين لا إيمان لهم: مركّزاً علىٰ ظاهرة محدّدة من السلوك هي: قضية (الاعتذار)، بصفتها (المظهر) الذي يتوسّل به (المنافقون) للتخلص من الجهاد، ولكنها في الآن ذاته تشكّل مظهراً من الممكن أن يرتكن المؤمنون أيضاً إليه في حالة وجود العذر الصحيح لهم بالنسبة إلىٰ تخلفهم عن الجهاد.

لقد أوضح النص القرآني الكريمُ: هذه الحقيقة حينما قارن بين منافقي (الاعراب) ومؤمنيهم، قائلاً: **﴿وجاء المعذّرون من الاعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله ورسوله﴾**...

إن هذه المقارنة لها أهميتها الكبيرة في حقل دراسة المجتمعات... فمن الواضح أن ثمة فوارق بين مجتمع المدينة أو مجتمع البدو أو الريف أو سائر المجتمعات المنعزلة عن أضواء المدنيات أياً كان مستواها الحضاري... ولسنا الآن في صدد دراسة الفوارق المذكورة بقدر ما نستهدف الإشارة إليها فحسب: من حيث أن سكان البادية يتميزون بصفة عامة بسمة الجفاء والغلظة من جانب وبسمة العزلة الفكرية من جانب آخر، لكن لا يعني ذلك أن هذه السمات محكومة بطابع ثابت بقدر ما يعني ذلك بتغليبها... بمعنى أنه من

الممكن أن يشذّ عن المجتمع البدوي أفراد أو رهوط بحيث تعكس التربيةُ الفرديةُ أثَرها على الشخص وتلغي الطابع الاجتماعي لسلوكه... فبالرغم ـ وهذا ما لاحظه جمع من علماء الاجتماع وعلماء الأقوام عبر التجريب الميداني ـ من أن البيئة الجغرافية من جانب والبيئة الثقافية التي تتشكل وفقاً للبيئة الجغرافية من جانب آخر، تفرض سماتها علىٰ صياغة الأفراد والمجتمعات، إلا أن ذلك لا يعني ثبات السلوك: إذا أخذنا بنظر الاعتبار إمكانية أن يشذ البعض عن ذلك بسبب من حدّةٍ ذكاء أو تجربة فردية أو هجرة إلى الخارج أو دخول ثقافة جديدة مثل: الإسلام الذي دخل إلىٰ المجتمعات ومنها: مجتمع الأعراب الذي تحدّث القرآن الكريم عنه. فهذا المجتمع رسَمَه النصُ القرآني لنا بأنه منشطر، إلى نمطين: إيجابي وسلبي كما سنوضح ذلك لاحقاً. ونقل لنا جانباً من السلوك الإيجابي لهذا المجتمع حينما قرّر قائلاً ﴿وجاء المعذّرون من الاعراب ليؤذن لهم﴾ مقابل المنحرفين الذين وصفهم النص قائلاً ﴿وقعد الذين كذبوا الله ورسوله﴾.

المهم، أن المعذِّرين هنا من الممكن أن يُقصَد بهم مَن هو صادق في اعتذاره (كما ذهب إليه بعض المفسرين) ومن الممكن أن يُقصد بهم مَن هو علىٰ الضدّ من ذلك (كما ذهب بعض آخر من المفسرين إلى ذلك)، لكن في الحالين، سنلحظ أن المقاطع اللاحقة من السورة الكريمة تتحدث بوضوح عن انشطار مجتمع الأعراب إلىٰ نفس الانشطار الذي يطبع مجتمع المدينة، بيد أن ما نعتزم لفت النظر إليه الآن هو: المُقارنة بين مجتمع البدو (في سلوكه العسكري الذي يُعنىٰ النصُ القرآني برسمهِ في هذا المقطع من السورة) وبين رسم سلوك (المنافقين) في الصعيد المذكور، والانتهاء من ذلك إلى التمييز في ظاهرة (الاعتذار) عن الجهاد في سبيل الله ـ بين الصادق من الناس بدوهم وحضرِهم، وبين الكاذب منهم، وهو ما أجمله النص الآن في هذا المقطع من السورة، بينا سيفصّل الحديث عنه لاحقاً وفقاً لما يتطلبه البناء الفنيّ للسورة من

إيحاء وتطوير عضويين للأفكار المطروحة بالنحو الذي سنتحدث عنه لاحقاً).

* * *

قال تعالى: ﴿ليس علىٰ الضعفاء ولا على المرضىٰ ولا علىٰ الذين لا يَجِدُون ما يُنْفِقُون حَرَجٌ إذا نَصَحوا لله ورسولِه ما علىٰ المُحسنينَ مِنْ سبيلٍ والله غفورٌ رحيم * ولا علىٰ الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أَجِدُ ما أَحْمِلكم عليه تَوَلَّوا وأَعيُنُهم تَفيضُ من الدَمْعِ حَزَناً ألاَّ يَجِدُوا ما يُنفقون * إنَّما السبيلُ علىٰ الذين يَسْتأْذِنُونَك وهم أَغْنياءُ رَضُوا بأَنْ يَكُونُوا مِنَ الخَوالِفِ وَطَبَعَ الله علىٰ قلوبِهِم فَهُمْ لا يَعْلَمون﴾.

في هذا المقطع من سورة التوبة لا يزال الحديث عن المنافقين يتّجه إلىٰ طرح جملة من أنماط السلوك المتصل بعملية الجهاد في سبيل الله، حيث تظل ظاهرة (الاعتذار) أو (طلب العفو) من المشاركة في القتال هو (الفكرة) التي تحوم عليها هذه الأجزاء من سورة التوبة: كما أشرنا سابقاً.

الجديد في هذا المقطع هو: تبيين الموارد التي يتميز فيها سلوك المنافق عن غيره.

لقد أوضح النص القرآني الكريم: جملة من الموارد التي تفرز الصادق من الكاذب في ميدان الجهاد أو التخلّف عنه. «فالضعفاء» ممن لا تسعفهم القوىٰ الجسمية، والمرضىٰ، والفقراء الذين لا يملكون نفقة الخروج إلىٰ ساحة القتال: هؤلاء الأنماط الثلاثة معفوّون ـ أساساً ـ عن المشاركة في القتال...

بمعنىٰ أن هذا المقطع من السورة يستهدف طرح فكرٍ خاص هو (فقه الجهاد) المتصل بعنصر المشاركة وعدمها، حيث أوضح سقوط الجهاد عن الأنماط الثلاثة المذكورة: مع ملاحظة أن المبنىٰ الهندسي للسورة يحوم علىٰ فكرة (الجهاد في سبيل الله) كما كررنا الإشارة إلى ذلك، وإلى أنّ طرح الأفكار المتصلة بهذا الجانب قد تركز على سلوك فئات اجتماعية مختلفة، منها:

سلوك المنافقين حيث تكفلت المقاطع السابقة من السورة بعرض مواقفهم بخاصة ظاهرة (العذر) عن المشاركة في الجهاد. هنا، استثمر النص القرآني الكريم ـ بطريقة فنية ـ هذا الجانبَ ليطرح لنا ظاهرة (العذر): بالنسبة إلى فئاتٍ، منهم: الضعيف، والمريض، والفقير وليس أولي الطول من المنافقين الذين اعتذروا بدورهم عن المشاركة في الجهاد. . . ثم تقدّم النص إلىٰ طرح نمطٍ خاص من السلوك المتصل بهذه الظاهرة أيضاً، إلا أنه سلوك يميّز الصادق من الكاذب: ما دام المنافقون ـ كما شرحتهم مقاطع سابقة من السورة ـ يقدمون أعذاراً مختلقَة لا نصيب لها من صدق الأعماق، إن الصادق من المشاعر هو ما يشرحه النصُ الآتي من القرآن الكريم حيث يواصل حديثه عن الفئات الذين سقط الجهاد عنهم بسبب مشروع قائلاً عنهم **﴿ولا علىٰ الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلتَ لا أجد ما أحملكم عليه تولّوا وأعينهم تفيض من الدمع حَزَناً ألاّ يجدوا ما ينفقون﴾**.

إن الفارق الكبير بين المؤمنين حقاً وبين المنافقين هو أن المؤمنين يتطلعون بشوق حادٍّ إلىٰ المشاركة في الجهاد إلى الدرجة التي تفيض أعيُنهم ـ من خلالها ـ ألماً لأنهم لم يوفقوا إلى المشاركة المذكورة. أنهم يجيئون إلى النبي(ص) مطالبين المساهمة في الجهاد، إلا أن النبيّ(ص) لم يُتَح له أن يحملهم ذلك لعدم توفّر المستلزمات العسكرية وغيرها، وحينئذٍ يكون ألَماً لعدم حصولهم علىٰ شرف المساهمة في القتال.

هذا النمط من الناس: رسمهم النص القرآني الكريم في سياق الرسم الذي تناول المنافقين الذين مارسوا سلوكاً مضاداً لسلوك الإسلاميين. . .

هنا ينبغي لفت النظر إلىٰ الجانب الفني أو العماري أو الهندسي للسورة. فقد جاء الحديث عن الإسلاميين المتطلّعين إلى المشاركة في الجهاد مقابلاً للمنافقين الذين استهلّ النص القرآني الحديثَ عنهم في هذا القسم من سورة

التوبة بقوله ﴿فرِحَ المخلَّفون بمقعدهم خلافَ رسول الله وكرِهوا أن يُجاهدوا بأموالهم وأنفسهم﴾... فالمنافقون (فرحوا): بسبب من تخلّفهم عن الجهاد حيث كرهوا الجهاد بأموالهم وأنفسهم. لكن، يقابلهم هذا النمط من الإسلاميين الذين (حزنوا) وفاضت الدموع من أعينهم: بسبب من تخلّفهم عن الجهاد.

لننظر من جديد: كم هو الفارق بين مَن (يفرح) لأنه تخلّف عن الجهاد، وبين من (يحزن) للسبب المذكور.

هذه المقابلة بين (الفرح) و(الحزن) ينبغي ألاّ نهملها ونحن نتحدث عن البناء الفني للسورة القرآنية الكريمة من حيث قيامها على هيكل مترابط متجانس متوازن، كلّ جزء منها يرتبط بالجزء السابق واللاحق لها، وكل جزء يتقابل مع الجزء الآخر، فها نحن بعد أن نواجه رسماً للمنافقين يتحدث عن كونهم (يفرحون) بالتخلّف عن الجهاد ويقدّمون أعذاراً مختلفة، نواجه بطريقة غير مباشرة ـ رسماً آخر يتحدث عن الإسلاميين من حيث كونهم (يحزنون) لعدم المشاركة في الجهاد، وكونهم يتقدّمون بأنفسهم لغرض المشاركة ـ لا أنهم يعتذرون ـ أولئك يعتذرون عن المساهمة، وهؤلاء يعتذر النبيّ(ص) إليهم. كم هو الفارق بين هذين النمطين من الناس؟ ومن ثمّ: كم هي جمالية هذا البناء الهندسي الذي يرصد دقائق المشاعر التي تطبع الفريقين: المنافقين والإسلاميين عبر رسمٍ فنيّ غير مباشر يتحسسه كلّ متذوق خبر خصائص الفنّ المعجز الذي يعرض لنا الأفكار المطروحة بمختلف صُعدِها التي وقفنا عليها، ومنها: هذا الجانب المتصل برسم المقارنة بين سلوك المنافقين وسلوك المؤمنين عبر ظاهرة (العذر) وما واكبها من الموضوعات التي تقدم الحديث عنها مفصلاً.

* * *

قال تعالى: ﴿يعتذرون إليكم إذا رَجعتم إليهم قل لا تعتذروا لن نُؤمِنَ لكم قد نبّأنا الله مِنْ أخبارِكم وسيَرىٰ الله عملَكم ورسولُه ثم تُردُّونَ إلى عالم الغيبِ والشهادةِ فينبّئكم بما كنتم تعملون * سَيَحْلِفون بالله لكم إذا انْقلبتُم إليهم لِتُعرضوا عنهم فأَعْرِضُوا عنهم إنَّهم رجسٌ ومأواهم جهنمُ جزاءً بما كانوا يكسِبُون * يحلِفون لكم لِترْضَوا عنهم فإنْ تَرْضَوا عنهم فإنَّ الله لا يرضىٰ عنِ القومِ الفاسقين﴾.

في هذا المقطع من السورة: يواصل النص القرآني الكريم حديثَه عن المنافقين الذين سبق الحديثُ عن جانب من سلوكهم العسكري وهو: استئذانهم للخروج إلى ساحة القتال بعد أن تخلّفوا عن الخروج إلىٰ معركة سابقة: حيث خاطبهم النص(ص) بأنكم لن تخرجوا بعد الآن إلى أية معركة ما دمتم رضيتم بالقعود أوّل مرة.

أما الآن، فإن نفس السلوك المنافق يبرز إلى الموقف لكن ليس من خلال طلب المساهمة في القتال بل من خلال الاعتذار عن التخلّف السابق... والفارق بين السلوكين هو أن الاعتذار أشد التواءً من الاستئذان وأكثر تعبيراً عن ظلمة الأعماق التي يصدر المنافقون عنها، ولذلك يعقّب النص القرآني علىٰ سلوكهم المذكور في هذا المقطع بأنهم (رجسٌ) وهو تعبير يطلقه النصُّ علىٰ مطلق الكفار الذين لا إيمان لهم البتة،... وبما أن هذا القسم من السورة يختصُّ بتناول سلوك المنافقين من حيث كونهم (كفاراً) إلى جانب كونهم (منافقين) أيضاً: لذلك خلص النص إلىٰ رسمهم بأشد الصفات لصوقاً بالكفر وهي سمة(الرجس) بعد أن كانت المقاطع السابقة تتناول جوانب أخرىٰ من الكفر.

هنا، يطرح النص أيضاً شريحة معيّنة من السلوك تتصل بنمط التعامل مع هؤلاء المنافقين من خلال الاعتذار الذي يتمسكون به في سلوكهم... أنهم

يحلفون بالله لكي يُرضوا الإسلاميين، ويحلفون بالله تعالى لكي يعرض الإسلاميون عنهم.

لكن، بما أن هذا السلوك المنافق الذي يقوم علىٰ جرّ المنفعة وهو عملية المطالبة بالصفح، ومحاولة إرضاء الإسلاميين: من الممكن أن يحقق لهم المنفعة فعلاً مستثمرين في ذلك طيبة الإسلاميين، لذلك حذّر النص هؤلاء الإسلاميين من أن يرضوا عن المنافقين، مطالباً إياهم أن يعرضوا عنهم أبداً، وألاّ يُخدعوا بهم أو لنقل: بألاّ تنتابهم لحظات من الضعف الإنساني، أو لا يتأثروا عاطفياً بهذا النمط من الاعتذار، قائلاً ﴿**فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضىٰ عن القوم الفاسقين**﴾. إن هذا التحذير الذي خَتَم به النص حديثَه عن المنافقين: يُعدّ ـ من الزاوية النفسية ـ علىٰ جانب كبير من الخطورة في ميدان السلوك، طالما نعرف أنه من الممكن أن يقتنع الإنسان ـ نظراً لقصوره عن إدراك النفوس ـ بصدق العواطف المنافقة التي تعتذر إليه، بخاصة أن مثل هذه القناعة تتدعّم عادة بالألفة الاجتماعية التي تجعل الإنسان يندمج عاطفياً مع أمثلة هؤلاء المنافقين... لذلك، جاء هذا التحذير بمثابة حسم لأي تردّد من الممكن أن يقع البعضُ فيه حيال الفئة المذكورة.

* * *

بعد هذا المقطع الذي لحظناه. يواجهنا مقطع جديد يتحدث عن الأعراب وصلتهم بالمنافقين والكفار من جانب، وبالمؤمنين من جانب آخر. وقد سبق أن طرح النص القرآني الكريم ظاهرة (الأعراب) من حيث تركيبتهم النفسية والاجتماعية، إلا أن ذلك كان مجرد تمهيد جاء في سياق الحديث عن المنافقين الذين قعدوا عن الجهاد مقابل المؤمنين به ممن كان له عذر في التخلف عنه وهم: الأعراب المشار إليهم.

أما الآن، فإن النص يتّجه (من حيث البناء الهندسي للسورة) إلى رسم

هؤلاء الأعراب وموقعهم من النفاق أو الإيمان في غمرة حديثه عن كفر المنافقين: مفصلاً الحديث عنهم بعد أن أجمله في مقطع سابق.

ومن الواضح أن ظاهرة التفصيل بعد الإجمال، أو العرض بعد التقديم تظل في الصميم من الإحكام الهندسي للنص، بخاصة إذا أخذنا بنظر الاعتبار أن النص القرآني الكريم عندما عَرَض لصحة (العذر) عند الأعراب الذين تخلفوا عن الجهاد، اتجه بعد ذلك لشرح عملية (العذر) التي لحظناها عند المنافقين من حيث عدم مشروعيته عند المنافقين: وكأن النص يريد أن يقول لنا: ان الأعراب علىٰ ما هم عليه من الغلظة والجفاء كان اعتذارهم مشروعاً في حين أن المنافقين: كان اعتذارهم مجرد قناع يتسترون به لتحقيق منافعهم الذاتية. لذلك ما أن انتهىٰ النص من الحديث عن هذا الجانب من المقارنة بين السلوكين، حتى اتجه إلى الحديث عن (الأعراب) ليفصّل الحديث عنهم في المقطع الجديد الذي تتناوله الآن:

طبيعياً: لا يعني أن القرآن الكريم عندما يمتدح قسماً من طائفة اجتماعية إنما يسحب هذا الثناء عليهم جميعاً، بل يعني أنه في خضم المقارنة بين سلوكين: (سلوك المنافق وسلوك الأعرابي) يستهدف حيناً أن يقول لنا: ان بعض الأعراب (مع أنهم جفاة) أفضل من المنافقين (مع أنهم خبروا حياة المدينة بما يواكبها من تهذيب حضاري) دون أن يعني ذلك أن (الاعراب) بنحو عام هم أكثر مرونة من منافقي المدينة.

المهم، أن عمارة النص القرآني (من حيث جمالية أجزائها التي تتنامىٰ من مقطع إلى آخر) تتجه بعد عملية المقارنة بين سلوك المنافقين و الأعراب في جزئية خاصة منهما إلىٰ عملية رسم شامل لسلوك الأعراب، منتقلةً بذلك (بنحوٍ فنيّ) من سلوك طائفة اجتماعية إلىٰ طائفة اجتماعيةً أخرىٰ. من سلوك (المنافقين) مطلقاً إلى سلوك (الأعراب) مطلقاً: وذلك من خلال تعامل

الطائفتين مع مبادىء الإسلام، وفي مقدمتها الجهاد في سبيل الله فيما تظل الفكرة العامة التي تحوم عليها موضوعات السورة، ومنها: سلوك الأعراب حيال هذا الجهاد.

* * *

قال تعالى: ﴿الأَعْرابُ أَشَدُّ كُفراً ونفاقاً وأَجْدَرُ ألاَّ يَعْلَمُوا حدودَ ما أَنزلَ الله علىٰ رسولِه والله عليمٌ حكيمٌ * ومِنَ الأعرابِ مَن يتَّخِذُ ما يُنْفِقُ مَغْرَماً ويَتَربَّصُ بكم الدوائرَ عليهِمْ دائرةُ السَّوءِ والله سميعٌ عليم * ومِنَ الأعرابِ مَن يؤمِنُ بالله واليوم الآخِرِ ويتَّخِذُ ما يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ الله و صلواتِ الرسولِ ألا إنَّها قُرْبةٌ لهم سَيُدْخِلُهُم الله في رحمتِه إنَّ الله غفورٌ رحيمٌ * والسابِقونَ الأوَّلونَ مِنَ المهاجِرِينَ والأَنصارِ والذِينَ اتَّبَعُوهم بإِحسانٍ رَضيَ الله عَنْهُم ورَضُوا عنه وأَعَدَّ لَهُمْ جناتٍ تجري تَحْتها الأنْهارُ خالِدين فيها أبداً ذلك الفوزُ العظيم * و مِمَّنْ حولَكُم مِنَ الأعرابِ مُنافِقُون ومِنْ أَهْلِ المدينةِ مَرَدُوا علىٰ النِفاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُم سَنُعَذِّبُهُم مرَّتينِ ثُم يُرَدُّونَ إلىٰ عذابٍ عظيم...﴾.

في هذا المقطع ملاحظة اجتماعية علىٰ الأعراب وموقعهم من رسالة الإسلام إيجاباً وسلباً... لكن، بما أن السورة الكريمة تتحدث عن المنافقين وكشف مستويات سلوكهم في هذا القسم الذي وردت الملاحظةُ الاجتماعية المذكورة فيه، حينئذٍ نتوقع ـ من زاوية البناء الهندسي لها ـ أن تتركز هذه الملاحظة الاجتماعية علىٰ ظاهرة(النفاق) أيضاً.

لقد أوضح النص أن الأعراب أشد كفراً ونفاقاً من طائفة المنافقين الذين تقدم الحديث عنهم في مقاطع سابقة من السورة مبيّناً أنهم أولىٰ من غيرهم بأن لا يعلموا مبادىء الإسلام. ولكي يوضّح النص هذا الحكم علىٰ الأعراب، تقدّم ـ بطريقة فنيّة ـ بنموذج عملي من سلوكهم للبرهنة على ذلك، فقال عنهم (ومن الأعراب مَن يتخذ ما ينفق مغرماً). إن التفكير القائم علىٰ تصوّر كون

الانفاق عملية خسار مالي، يدلنا بوضوح علىٰ سقم هذا التفكير وكونه بعيداً عن إدراك مبادىء الإسلام. لكن، بعد أن يدلّل النص ـ فنياً ـ علىٰ هذا الجانب من سلوك الأعراب يتجه ـ اجتماعياً ـ إلىٰ عرض بعض الحقائق المتصلة بالمجتمعات البشرية، فبالرغم من كون الأعراب أشد كفراً ونفاقاً من سواهم بسبب تخلّفهم الذهني والحضاري، إلا أن ذلك لا يعني كون الظاهرة المذكورة تشكّل قاعدة اجتماعية بل أن الظاهرة الفكرية أو المبدأ الإسلامي القائل بأن كلّ نفسٍ بشريّة تُلهَمْ فجورها وتقواها تظل أقوىٰ من أية قاعدة اجتماعية، ولذلك فإنّ من هؤلاء الأعراب مَن يكون علىٰ عكس المتخلفين ذهنياً، إنّ منهم ـ كما يقول النص ـ ﴿مَن يُؤْمِنُ بالله واليَوم الآخِرِ ويَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ قُرُباتٍ عند الله﴾.

لننظر أولاً، إلى التقابل الهندسي بين الأعراب الذين يتخذون ما ينفقونه (مغرماً) وبين الأعراب الذين يتخذون ما ينفقونه(قربةً)... ونحنُ بعد أن ننتقل من هذا الجانب المادي الجميل للمقطع، إلى الجانب الاجتماعي منه، نجد أن تقرير هذه الحقيقة الاجتماعية تشكل وثيقة بالغة الأهمية في حقل التصوّر الإسلامي للمجتمعات، أي أنها تلغي الاتجاه الاجتماعي الأرضي الذي يحاول ربط المجتمعات ببيئاتها فحسب وتتجه إلىٰ تفسير خاص للمجتمعات هي كونها خاضعة لعنصرين: عنصر(بيئي) وعنصر (غيبي) أو (فطري). العنصر الفطري يتمثل في كون الإنسان قد أودع الله فيه قابلية إدراك الخير والشر، والعنصر البيئي يتمثل في كون الإنسان يتأثر بما حوله من البيئات. فإذا كان الأعراب بسبب من تأثرهم بالبيئة الاجتماعية قد طبعوا بسمات الجفاء والغلظة والتخلف الذهني فإن ذلك لا يعني إلغاء العنصر (الفطري) فيهم: أي إدراكهم للخير والشر، بل يعني أنهم قد انصاعوا لمؤثرات البيئة دون أن يمارسوا عملية تأجيل لشهواتهم. والدليل علىٰ ذلك أن قسماً آخر من نفس الأعراب آمنوا بمبادىء الاسلام، فلو كانت البيئة الحضارية هي العنصر الوحيد لتخلفهم ذهنياً لما أتيح للقسم الآخر من الأعراب أن يؤمن بمبادىء الإسلام، وهذه الحقيقة تشكل رداً

صريحاً علىٰ بعض الاتجاهات التي يصدر عنها علم الاجتماع الأرضي في ذهابها إلىٰ حصر السلوك في بُعده الاجتماعي.

المهم، خارجاً عن هذه الحقيقة التي يقدّمها القرآن الكريم في حقل المجتمعات وتفسيرها، يعنينا أن نواصل الحديث عن هذا المقطع من السورة من زاوية بنائها الفنيّ.

* * *

لقد تقدم النص القرآني الكريم: بعرض فئة المؤمنين السابقين من المهاجرين والأنصار في سياق حديثه عن فئة المؤمنين من الأعراب، ثم عاد إلىٰ الحديث عن المنافقين من جديد: أعراباً ومدنيين.

لنلاحظ جمالية هذا العرض المتقابل بين: المؤمنين والمنافقين، فهناك مؤمنون: مهاجرين وأنصاراً. وهناك منافقون: أعراباً ومدنيين... هناك (السابقون الأولون مِنَ المهاجِرين والأنصارِ)... وهناك: ﴿وممَّنْ حَوْلَكُم مِن الاعرابِ مُنافِقُونَ ومِنْ أهْلِ المدينةِ مَرَدُوا علىٰ النِفاقِ﴾... لننظر من جديد إلى هذه الثنائية الفنيّة الجميلة في التقابل بين مهاجرين وأنصارٍ آمنوا، وبين أعراب ومدنيين نافقوا... كل واحدة من الفئتين تمثل موقعاً جغرافياً: الفئة المؤمنة تمثل (المكيين) و(المدنيّين). وأما الفئة المنافقة فتمثل (الأعراب) و(المدنيين).

هذا التقابل المدهش فنيّاً بين المنافقين والمؤمنين إنما تمّ وفق الحقائق الاجتماعية التي سبق شرحها قبل قليل. حيث أوضح النص بطريقة فنية بالغة الدهشة، بالغة الإمتاع، حقائق اجتماعية تتصل بعنصري (البيئة) و(الوراثة)، كما قدم حقائق اجتماعية تتصل بعنصري (الإيمان) و(الكفر) أو (النفاق)، ثم ربط بين هذه العناصر من خلال عملية انتقال فني من فئة اجتماعية إلى فئة أخرىٰ: علىٰ نحو ما لحظنا. ثم تقدم إلى الحديث عن فئة ثالثة قال عنها:

(وآخرونَ اعترفوا بذنوبهم خَلَطُوا عَمَلاً صالحاً وآخَرَ سيئاً . . .) حيث تمثل هذه الفئة نمطاً آخر من الشرائح الاجتماعية التي لم تجسّد (الإيمان) بشموله ولا (الكفر) بشموله، بل تأرجحت بينهما، حيث رسمهما النص وفق سلوك خاص يتكفل مقطعٌ آخر من السورة بتوضيحه.

* * *

قال تعالى: ﴿خذ من أموالهم صدقةً تطهّرهم وتزكيهم بها وصلِّ عليهم إنَّ صلاتَك سَكَنٌ لهم والله سميعٌ عليمٌ * أَلَمْ يَعْلموا أن الله يَقْبَلُ التوبةَ عَنْ عبادِهِ ويأخُذُ الصدقاتِ وأنَّ الله هُو التَّوابُ الرحيم * وقُلِ اعملوا فَسَيرَىٰ الله عملَكُمْ ورسولُه والمؤمنونَ وسَتُرَدُّون إلى عالِمِ الغيبِ والشهادةِ فينبئُكم بما كُنْتُم تَعْمَلُون﴾.

هذا المقطع من سورة التوبة يتناول فئة من الناس خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيِّئاً مقابل فئتين أخريين: المؤمنين والمنافقين، وإذا كان النص القرآني الكريم في مقاطع سابقة من السورة قد اتجه إلى رسم المنافقين بعامة فإنه من خلال عنصر المقارنة بينهم وبين سائر الفئات الاجتماعية التي انتظمها مجتمع المسلمين قد استهدف تحديد مستويات السلوك لفئتين: إحداهما مؤمنة لا شائبة في سلوكها، والأخرىٰ: خلطت عملاً صالحاً وآخر سيئاً، لكن حتىٰ هذه الفئة الأخيرة ما دامت قد وُفقت للعمل الصالح، حينئذٍ تصبح مرشحةً للتوبة من عملها السيء، وهو ما حدث فعلاً: حيث يذكر المفسرون أن المقطع المذكور نزل في نفر تخلّفوا عن إحدىٰ المعارك الإسلامية، وقد ندموا علىٰ ذلك فربطوا أنفسهم بسواري المسجد.

والمهم، خارجاً عن التفسير المتقدم، فإن النص القرآني نفسه تضمّن هذا الجانب من سلوك الأشخاص الذين طالب النبي(ص) بأن يأخذ من أموالهم صدقةً تطهّرهم، وطالبه بالصلاة عليهم لأن صلاته(ص) سكن لهم. أقول ان

النص القرآني نفسه ذَكَر هذا الجانبِ من التوبة بطريقة فنية حينما قال في الآية اللاحقة ﴿ألم يعلموا أنَّ الله هُوَ يَقْبَلُ التوبةَ عَنْ عبادِه﴾ حيث يستنتج المتلقي بأن هؤلاء الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً قد تابوا بالفعل، بل أن نفس مطالبة النص النبيَّ(ص) بأخذ أموالهم والصلاة عليهم: تعبّر ـ فنياً ـ عن مفهوم التوبة.

و المهم أيضاً، أن هذا المقطع يظل من زاوية العمارة الهندسية للسورة، متلاحماً مع مقاطعها السابقة التي ركّزت الحديث علىٰ سلوك المنافقين. فقد سبق أن لحظنا أن النص القرآني الكريم طالب النبيّ(ص) عبر رسمه لسلوك المنافقين بأن لا يستغفر لهم وإلى أنهم لو استغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم... أما هؤلاء الذين تخلفوا عن المعركة وندموا علىٰ ذلك، فبالرغم من تماثل جانبٍ من سلوكهم مع المنافقين، إلا أن التماثل المذكور كان عابراً ولحظة من الضعف بحيث ندموا عليه، بخلاف المنافقين الذين طبعوا ومردوا علىٰ سمة الشر والنفاق.

* * *

هنا، يتقدم النص القرآني الكريم برسم نمط آخر من الأشخاص الذين تخلفوا عن المشاركة في ميادين القتال حيث قال النص عنهم: ﴿وآخرون مُرْجَوْنَ لأَمْرِ الله إمَّا يُعَذِّبُهُمْ و إمَّا يَتُوبُ عليهِم والله عليمٌ حكيم﴾.

وإذا قارنا بين هذا النمط وبين النمط السابق الذي اعترف بذنبه وخلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً: نجد أن هذا النمط قد توقف الحكم عليه: امّا العقاب وامّا التوبة، وهذا يعني أنه كان أشد مفارقةً في سلوكه بحيث لم يُحسم الموقفُ حياله... والمهم: أن قضية التأرجح بين الإيجاب والسلب بغض النظر عن مستوياته التي يتفاوت الأفراد فيها من واحدٍ لآخر، تظل مجسدةً لفئة اجتماعية تنتابها لحظات من الضعف الإنساني بحيث تنم علىٰ صدورها عنه:

مقابل فئة قد اختارت من أول الأمر سبيل الجهاد من أجل الله، ثم مقابل فئة قد اختارت التخلف عن الجهاد أساساً ونعني بهم المنافقين. . . والنص القرآني الكريم عندما يعرض لهذه الفئات أنماطها المتقدمة إنما يستهدف لفت الانتباه علىٰ مختلف الاستجابات التي يصدر الناس عنها في تعاملهم مع ظاهرة الجهاد في سبيل الله، بصفة أنّ الجهاد يشكل محطاً لفرز الأشخاص والهيئات وكشف درجة الإيمان الذي يغلّف أعماقهم.

وإذا كان الإسلاميون ينشطرون ـ تبعاً للأصناف الثلاثة التي تقدم الإيماء إليهم ـ إلىٰ مؤمنين ومتأرجحين، فإن الفئة المنافقة التي تكفّل قسمٌ كبير من سورة التوبة بالكشف عن مختلف سلوكها، هذه الفئة تظل موضع رصدٍ لا يزال النص القرآني الكريم يتابع تسجيله: وفي هذا القسم من سورة التوبة حيث ينتقل النص إلىٰ رصد آخر من سلوكها الاجتماعي. لقد رسمهم النص ـ أي المنافقين ـ في صعيد السلوك الاقتصادي والعسكري: طائفةً لا تعنىٰ إلاّ بجرّ المنفعة الذاتية فهم يبخلون بأموالهم من جانب كما يتخلفون عن المعارك من جانب آخر: حفاظاً علىٰ أموالهم وأنفسهم. لكن، لا يقف الأمر عند هذا النطاق، بل يتجاوزونه إلىٰ مختلف الصُعد الاجتماعية التي تكشف عن كونهم ليسوا مجرد نفعيين بل مجموعة من المضطربين الذين لا يحتفظون بأدنىٰ درجة من التوازن الداخلي، حتىٰ أنهم ـ كما سنرىٰ في المقطع اللاحق من السورة الكريمة ـ يتجهون إلىٰ بناء مسجدٍ مثلاً (وهم أبعد ما يكونون عن المعنيّين بأمثلة هذا الاهتمام) بغية التفريج عن أعماقهم المضطربة، وتمرير نزعاتهم العدوانية حيال الإسلاميين.

* * *

قال تعالى: ﴿والذين اتخذوا مسجداً ضِراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حاربَ الله ورسُولَهُ مِن قَبْل، ولَيَحْلِفُنَّ إنْ أرَدْنا إلاّ الحُسْنىٰ والله

يَشْهَد إنَّهم لَكاذِبُون * لا تُقمْ فيه أَبَداً لَمَسْجِدٌ اسُسَ علىٰ التقوىٰ مِنْ أوَّل يوم أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فيه فيهِ رِجالٌ يُحبُّونَ أَنْ يَتَطهَّرُوا والله يُحِبُّ المُطَّهرينَ * أفَمَنْ أَسَّسَ بُنيانَهُ علىٰ تقوىٰ مِنَ الله ورِضْوَانٍ خيرٌ أم مَنْ أَسَّسَ بُنيانَهُ علىٰ شفا جُرُفٍ هارٍ فأنهارَ بهِ في نارِ جَهَنَّم والله لا يَهْدِي القومَ الظالمين * لا يَزَالُ بُنْيَانُهُم الذِي بَنَوا رِيبةً في قُلُوبِهم إلاَّ أَنْ تقطَّع قلوبُهُم والله عليمٌ حكيم﴾.

يتحدث هذا المقطع عن جانبٍ آخَرَ مِنْ سلوكِ المنافقين، حيث اتجهوا إلىٰ بناءِ أحدِ المساجد إضراراً بالإسلاميين وتفريقاً لهم، وقد يُتَساءَلُ ما هي خطورةُ بناءِ مثلِ هذا المسجدِ وانعكاساتهِ علىٰ الإسلاميين، وما هي دلالاتُهُ بالنسبةِ إلىٰ المنافقينَ أنفسِهم؟؟

أما بالنسبة إلى الإسلاميين، فقد استُهدِف منه ـ كما أوْضَح النصُ ذلك ـ ضِراراً وتفريقاً وإرصاداً لهم. وقد ذكر المُفسّرون أنّ المنافقين قد استَهْدفوا مِنْ ذلك أن يستقلوا بأنفسهم وألاّ يَحضرُوا جماعةَ الرَسُولِ الأكرم(ص) حيثُ طَلَبُوا مِنه(ص) أنْ يُصَلّيَ فيهِ: حيث تَتَفرَّقُ جماعَتُهُ(ص) وتقِلُّ خطورتُهم في أعيُنِ النَّاسِ، وحيثُ اتخذوهُ ـ من ثَمَّ ـ لأَحَدِ المُنْحَرِفينَ الكِبارِ الذي كَرَّسَ حياتَهُ لمحاربةِ الإسلام بعد أن واعَدهُم بالذهابِ إلى الخارج وتحضير الجُندِ مِنْ هناك لإخراج النبيّ(ص) مِنَ المدينة: إلا أنّهُ ماتَ قَبْلَ أَنْ يُمارِسَ مهمّتُه المنحرفة المذكورة.

ومن هذا نَفْهَمُ: أنَّ عمليةَ بناءِ المَسْجِدِ كانَتْ عملاً سياسياً ينطوي علىٰ تخطيطٍ خاصٍ لمحاربةِ الإسلام.

بيد أن النتيجة كانت لغير صالحهم ـ كما لحظنا، حيث إن النص القرآني الكريمَ يتقدم برسم صورةٍ فنيّةٍ للتعبير عَنْ فَشَلِ المهمةِ المذكورة دنيوياً وأُخرَوِياً قائلاً ﴿أمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ علىٰ شَفَا جُرُفٍ هارٍ فانْهَارَ بِهِ في نارِ جهنَّمَ﴾.

هذه الصورةُ الفنيةُ (شَفَا جُرُفٍ هارٍ) فضلاً عَنِ انطوائها علىٰ قيمٍ صوتيةٍ

تَتَّصِلُ بالتجانس بينها وبين نتيجتها (فانهار به) أي: تجانس الأصوات (ف، ن، هـ، ا، ر) ثم انطواء هذا التجانس الصوتي بين الجملتين (شفا جرف هار) و(فانهار به في نار جهنم) علىٰ تجانس (فكري) أيضاً متمثلاً في كون البناء القائم علىٰ جانب النهر إنما ينهار علىٰ نحو ما ينهار عمل القائمين به في نار جهنم. أقول: فضلاً عن الجمالية الممتعة التي نتحسسها في تجانس الأصوات بين الجملة التي تتحدث عن بناء المسجد وكأنه علىٰ شفا جرفٍ هار وبين الجملة التي تتحدث عن النتيجة الأخروية للعمل المذكور حيث ينهار به في نار جهنم، فضلاً عن ذلك، ينبغي ألاّ يغيب عن أذهاننا هذا التوازن العماري في المقطع: بين عمل الدنيا ونتيجته في الدار الآخرة. الدنيا، حيث ينهار المسجد سريعاً فلا يتحقق الهدف المنحرف من بنائه... وبالفعل: أمَرَ رسول الله(ص) بعد نزول الوحي عليه بتهديم المسجد المذكور... والأخرىٰ: حيث ينهار ـ وقتئذ ـ هذا العمل بذهاب أصحابه إلى جهنم.

أما دلالات هذا العمل من حيث التعبير عن أعماق المنافقين، فيتحدد وفق ما أشار النص القرآني الكريمُ إليه: حينما أوضح بأنه (لا يزال بُنيانُهم الذي بَنوا رِيبَةً في قلوبهم) كما أنه حينما أوضح بأن البناء المذكور كان (ضرارا)و(تفريقاً بين المؤمنين)... حينما أوضح ذلك كله: إنما دلّنا علىٰ طبيعة الأعماق المنافقة التي يسمها طابع الاضطراب الشديد لديهم.

إن (الريبة) التي أشار النص القرآني إليها: تظل من الوضوح بمكان بالنسبة إلىٰ أعماق المنافقين، فعنصر (الشك) يمثّل أقوىٰ درجات الاضطراب في النفس كما هو واضح، وسواء أكانت (الريبة) تعني (الحزازة في النفس) كما ذهب إلى ذلك بعض المعنيين بشؤون التفسير أو كانت ريبةً فكرية نابعة من استبطانِ المنافقين غيرَ ما يُظهِرونَهُ: كما ذهب إلى ذلك البعض الآخر: ففي الحالين ثمة عَرضَ نفسيٌ خطير هو تمزق النفس واضطرابها في غمرة الاهتمام

بأمثلة هذا النشاط المنحرف الذي واكب بناء المسجد.

مضافاً إلى ذلك: فإن نزعة (العدوان) من حيث كونهم يمارسون عملاً يستهدفون منه أساساً (ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله) ثم قسمَهم بالله ﴿وليَحْلِفُنَّ بالله إنْ أَرَدْنَا إلاّ الحُسنىٰ﴾ كل أولئك، أي: النزعة العدائية التي تستهدف تفرقة الكلمة، ثم الحلف علىٰ عكس ما يستهدفونه: تعبيرٌ عن أشد درجات الاضطراب في النفس، إن مشاعر (الكراهية) وحدها كافية بأن تشطر الشخصية وتحتجزها من تذوّق الأمن والتوازن الداخلي، كما أن عملية الحلف بالله بأنهم لا يستهدفون إلا الخير: مع أنهم يضطربون بلهيب الحقد والشر: إفصاحٌ واضح عن أشد درجات التمزق الداخلي. ولنا أن نتصور مدىٰ التمزق الذي يطبع الشخصية وهي تضطرم حنيناً إلىٰ تحقيق نزعاتها العدائية ثم تمارس من جانبٍ آخر عملية تبرئة لذاتها حيث تحلف بالله بأنها لم ترد إلا الحسنىٰ مستهدفة بذلك تمرير نزعاتها الحاقدة أمام الإسلاميين الذين تخشاهم كل الخشية، متوجسة خيفة من أن يفتضح أمرها فتخسر الرهان: مع أن نشاطها منصبٌ أساساً علىٰ جرّ المنفعة... حينئذ كم يبدو تمزّقها شديداً حيال الصراع العنيف الذي أشرنا إلىٰ صدور الشخصية المنافقة عنه، ثم كم كان النص القرآني الكريم قد عبّر عن ذلك بوضوح حينما خَتَم المقطع الذي تحدث به عن المنافقين بقوله (لا يزال بنيانهم الذي بنوا (ريبة) في قلوبهم، إلاّ أن تقطّع قلوبهم) حيث أفصحت عبارة (ريبةً) عن جميع الدلالات النفسية المضطربة التي تقدم الحديث عنها (بالنحو الذي فصّلنا الحديث عنه).

* * *

قال تعالى: ﴿إن الله اشترىٰ من المؤمنين أنفُسَهم وأموالَهُم بأنَّ لَهُمُ الجنةَ يقاتِلُون في سبيلِ الله فَيَقْتُلُونَ ويُقْتَلُون وَعْداً عليهِ حَقّاً في التوراةِ والإنجيلِ

والقُرآنِ ومَن أوفىٰ بعهدِهِ مِنَ الله فاْستَبْشِرُوا ببيعِكُم الذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وذَلِكَ هُوَ الفوزُ العظيم * التائبونَ العابِدُونَ الحامِدُون السائحونَ الراكِعونَ الساجِدُونَ الآمِرُون بالمعروفِ والنَّاهُونَ عَنِ المنكر والحافِظُونَ لِحُدودِ الله وبَشِّر المؤمنين﴾.

في هذا المقطع من سورة التوبة حديث عن الجهاد في سبيل الله. ومن الواضح أن سورة التوبة ـ كما لحظنا ـ تحوم فكرتها علىٰ (الجهاد) حيث تنصب موضوعاتها المختلفة في الرافد الفكري المذكور: كل ما في الأمر أن موضوعاتها التي تتناول عرض مختلف الشرائح الاجتماعية: من مؤمنين ومتأرجحين ومشركين ومنافقين، إنما تُعرض في سياق الجهاد في سبيل الله... هذا إلى أننا لحظنا أن الحديث عن (المنافقين) يظل محتلاً مساحة كبيرة من النص القرآني الكريم: نظراً لأهمية الكشف عن الفئة المذكورة التي أظهرت الإسلام واستبطنت الكفر، ثم امتداد هذه الفئة ومن شاكلها علىٰ مرّ العصور ممن يصدرون عن سلوك (النفاق) بشكلٍ أو بآخر، مما يفصح بعامة عن أهمية الطرح للظاهرة المذكورة.

وأياً كان الأمر، فالملاحظ أن النص القرآني الكريم يعرض لنا بطريقة فنية ـ يُراعىٰ من خلالها البناء الهندسي للسورة ـ بين مقطع وآخر جانباً من السلوك الاجتماعي: مستقلاً، أو ضمنياً حيث يقارن بين السلوك الإيجابي والسلبي: تثبيتاً لما هو إيجابي والإفادة منه لتعديل السلوك.

والآن، بعد أن عَرَض النصُ القرآني الكريم أنماطاً من السلوك لدىٰ المنافقين: اقتصادياً وعسكرياً واجتماعياً، ثم بعد أن عَرضَ خلال ذلك أنماطاً من السلوك الإيجابي المتأرجح، اتجه بعد الإجمال الذي ذكره عن الإيجابيين إلى تفصيل ذلك، حيث أوضح في هذا المقطع الذي تناوله الآن: ظاهرة الجهاد بأشمل دلالاتها وارتباطها بالإسلاميين بأكمل مستويات السلوك. فمن

الممكن مثلاً أن يتجه إلى الجهاد بعض النماذج غير المكتملين وعياً، ومن الممكن أن يتجهوا إليه دون أن يحيطوا بدلالاته الخطيرة. لذلك بدأ النص في هذا المقطع بتوضيح الجوانب المذكورة: استكمالاً للطرح الذي انتظم سورة التوبة ونعني به: ظاهرة الجهاد في سبيل الله.

لقد أوضح النص أولاً هذه الظاهرة، أتبعها بتوضيح المجاهدين أنفسهم، أي: طرح كلاً من دلالة (الجهاد) ودلالة (المجاهدين) لتُستكمل الصورة عن الظاهرة الفكرية المتقدمة.

وقد استخدم النصُ الكريمُ عنصرَ (الصورة الفنية) لتوضيح هذا الجانب، حيث قرّر بأن الأنفس والأموال يجسّد(ثمناً) لعملية (اشتراء): المشتري هو الله تعالى والبائع هم (المجاهدون)، وبعد أن شطر عملية البيع أو الاشتراء إلى (النفس) و(أموال) شَطَر أيضاً عملية الأنفس إلى (قتل الأعداء) و(قتل مِن قِبَل الأعداء). ثم، لكي يمنح عملية (الاشتراء) المذكورة (الضمان) لها، أكّد قائلاً (ومن أوفىٰ بعهده من الله): تثبيتاً للنفوس ويقيناً بممارستها التي تحقق لها ضمان الثمن المذكور، ثم: لمزيدٍ من التأكيد علىٰ ذلك بحيث لا يدع أدنىٰ مجال للتردد في عملية الاشتراء المذكورة، طالب المجاهدين بأن يستبشروا بهذه العملية منذ الآن، أي: أن يظفروا بتحقيق الاشباع المترتب على دفع الثمن منذ الآن، قائلاً لهم ﴿فاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُم الذِي بايَعْتُم بِهِ وذلكَ هُو الفَوْزُ العظيم﴾.

والحق: أن أي قارىء ـ حتى لو كان عابراً ـ ما أن يتأمل هذه الآية الكريمة حتىٰ يتحسس بنمط من البشرىٰ تغمر أعماقه، وحتىٰ يتمنىٰ في الصميم من أعماقه أن يتجه إلى سوح الجهاد في سبيل الله للظفر بغنائم هذا البيع. . . وهو أمرٌ يفصح عن خطورة الصورة الفنية التي رسمها القرآن الكريم لتجلية مفهوم الجهاد.

والآن، يتقدم النص لرسم السمات العبادية التي ينبغي أن تتوفر لدىٰ المتجه إلى ساحة الجهاد في سبيل الله، فيذكر سماتهم علىٰ هذا النحو: التائب من ذنوبه، العابد لله وحده، الحامد لنعمه، الصائم أو السائح في طلب العلم، الساجد، الآمر بالمعروف، الناهي عن المنكر، الحافظ لحدود الله أي:القائم لطاعته.

إن هذه السمات لا بد من توفَرها في شخصية المجاهد بغية أن يستكمل مفهوم الجهاد دلالته الحقة، طالما نعرف بأن الشخصية الإسلامية الناضجة لا تحيا انشطاراً في سلوكها، بل تحيا وحدة السلوك الذي لا ينفصل أيّ جزء منه عن الأجزاء الأخرىٰ، فالجهاد بالرغم من كونه عملاً عسكرياً يتطلّب تفرّغاً زمانياً ومكانياً خاصين، إلا أنّ ذلك لا يتم علىٰ حساب الاختزال العبادي لسائرالنشاطات الفردية الاجتماعية من صلاة وصوم وأمر بالمعروف الخ بل تتلاحم كل هذه النشاطات في سلوك موحَّد يمتزج فيه ما هو فردي بما هو اجتماعي وما هو تأملي بما هو عمليّ: حسب ما يتطلبه الموقف.

وأياً كان، فإن المقطع الذي لحظناه الآن، يظل ـ كما أشرنا ـ مرسوماً في سياق الكشف عن الشرائح الاجتماعية التي انتظمت المجتمع الإسلامي، ومنها: الفئات المنحرفة منافقين ومطلق الكفار... لذلك، يتجه النص القرآني الكريم بعد هذا المقطع إلىٰ رسم جوانب أخرىٰ من سلوك الفئات المشار إليها.

* * *

قال تعالى: ﴿ما كان للنبيّ والذينَ آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربىٰ من بعدِ ما تبيّنَ لهم أنّهُم أصحابُ الجحيم * وما كان استغفارُ إبراهيمَ لأبيهِ إلاّ عن مَوْعِدَة وَعَدَها إيّاهُ فلما تبيَّنَ له أنَّهُ عدوٌّ لله تَبرَّأ مِنْه إن إبراهيمَ لأوّاهٌ حليم﴾.

في هذا المَقْطَعِ من سورة التوبة صياغة لإحدىٰ الحقائق العبادية المتصلة بتعامل الإسلاميين مع المنحرفين.

هذه الحقيقة هي: استغفار النبيّ(ص) والمؤمنين للفئات المشركة، حيث أوضح المقطع بأن عملية الاستغفار للمشركين ينبغي ألا تأخذ أي طابع من المشروعية (من بعد ما تبيّن لهم أنهم أصحاب الجحيم).

ثم عرض النصُ لقصة إبراهيم مع أبيه من حيث عملية الاستغفار المذكورة، موضحاً أن إبراهيم(ع) كان قد استغفر لأبيه، إلا أن ذلك لم يكن إلاّ **﴿عن موعدة وعدها إيّاه فلما تبيّن له أنه عدّو لله تبرّأ منه...﴾**.

ويعنينا من هذا المقطع جانبان: الجانب الفكري والجانب الفنيّ المتمثل في علاقة هذا المقطع بهيكل السورة وهندستها.

أما الجانب الفكري، فيتمثّل في واحدٍ من أهمّ الموضوعات المتصلة بسلوك الإسلاميين وعلاقاتهم بالفئات الاجتماعية المنحرفة، بما في ذلك التعامل مع الأشخاص المنتسبين إليهم بآصرة القربىٰ... فالمعروف في حقل الحقائق النفسية أن القريب ـ بخاصة إذا كان أباً أو ابناً ـ يظل بموجب (الدافع إلى البنوة أو الأبوة) موضع تعاطف شديد بين طرفي العلاقة، لذلك نجد أن النص القرآني الكريم قد انتخب قضية ابراهيم مع أبيه لطرح فكرة التعامل مع أقرب الناس نسباً، ليدلّل علىٰ ضرورة تعديل الدافع المذكور وتكييفه ـ ليس علىٰ أساس فطري ـ بل على أساس فكري هو: علاقة الإنسان بالله تعالى.

صحيح أن الأب أو الابن يرتبط أحدهما بالآخر: فطرياً، إلا أنّ ذلك ينبغي أن يقوم علىٰ أساس فكري ـ كما قلنا، بمعنى أن علاقة الحب التي أودعها الله تعالى في الكائن الإنساني إنما تستمد فاعليتها من (الحب في الله) وليس الحب مجرداً عن الله، وهذا الأساس بدوره (فطري)، إلاّ أنه يحتاج إلىٰ دراسة الموقف بجدية لكي تتبين للشخص دلالة علاقته بالآخرين، فالمنحرفون

مثلاً قد (يحب) أحدُهم الآخر: نظراً لتماثلهم الفكري في ظواهر الانحراف، وحينئذ لا فائدة من هذا الحب ما دام يفضي لغير الصالح العام: كما لو افترضنا أن يتعاطف القتلة والسرّاق والبخلاء والخونة ونحوهم فيما بينهم علىٰ أساس من سلوكهم المتقدم، إذ يترتب علىٰ ذلك فساد اجتماعي لا يأتلف مع دلالة الحب أساساً. ولا أدل على ذلك ما لحظناه في سلوك المنافقين الذين تكفّلت المقاطعُ السابقة من سورة التوبة بعرض سلوكهم المنحرف: وهو سلوك قائم علىٰ النفعية، والبخل، وتفرقة الكلمة، مما تفضي بالضرورة إلى الفساد الاجتماعي.

إذن نحن الآن أمام ظاهرة فكرية تظل في الصميم من السلوك العبادي وهي قضية صياغة علاقات(الحب) وفقاً لأساس عبادي ملتزمٍ بمبادىء الله، ونبذ كل أشكال العلاقة الاجتماعية غير المرتكنة إلى المبادىء المذكورة بما في ذلك أوثق علاقات(الحب) النَسَبية مثل علاقة الأب بابنه أو الابن بأبيه. فالملاحظ أن المقطع القرآني الكريم الذي نتحدث عنه، أنه عندما ذكر قصة إبراهيم مع أبيه، لم يكتفِ بأن يرصد العلاقة النسبيّة بينهما فحسب، بل أردفها برسم سمتين من شخصية إبراهيم هما: كونه (أواهاً) و(حليماً)، فالاوّاه هو المتضرّع أو المتأوّه شفقاً، و(الحليم) هو الصابر الذي يصفح عن الذنب: فمع كونه حاداً في عاطفته، شديداً في صفحه عمن يسيء إليه ـ وهما يمثّلان الذروة في مفهوم (الحب) ـ نجده متجهاً إلى الله تعالى في تحديد علاقاته مع الآخرين، أي أنه بالرغم من شدة محبته للآخرين إنما يستمد ذلك من شدة محبته لله تعالى، فإذا كره الله المنحرفين: حينئذٍ سوف يكره إبراهيمُ بالضرورة المنحرفين أيضاً للسبب المذكور.

إذن أمكننا الآن أن ندرك (من الزاوية الفنية) صلة هذه السمات التي خلعها النص على إبراهيم بقصته مع أبيه، وصلة هذه القصة بتعامل الإسلاميين

مع المنحرفين الذين طالب الله تعالى ألاّ يُستغفَر لهم حتىٰ لو كانوا أولي قربىٰ. كما ينبغي أن نتذكر بأن المقطع القرآني الكريم إنما يتحدث عن هذه الظاهرة في سياق حديثه عن المنافقين وسائر المنحرفين: حيث ذكر النصُ في مقطع سابق بأن الاستغفار للمنافقين حتى لو كان سبعين مرة فإن الله لا يغفر لهم. وها هو النص القرآني الكريم يصل فنيّاً بين قضية عدم الاستغفار للمنافقين وعدم الاستغفار لمطلق المشركين، أي: أنه قد انتقل من رسم سلوكٍ خاصٍّ بالمنافقين إلى رسم سلوك عام لمطلق الكفار: ليصوغ لنا حقيقة فكريّة عامة: هي تحديد علاقة الشخصية الإسلامية(من حيث التعاطف) مع الفئات المنحرفة مطلقاً، وضرورة أن تتحدد هذه العلاقة من خلال التعامل مع الله فحسب ونبذ كلّ أشكال (الحب) مع المنحرفين حتى لو كانوا أولي قربىٰ، بل حتىٰ لو كانوا في نطاق أشدّ الدوافع إلحاحاً في النفس البشرية مثل عاطفة الأبوّة أو البنوة (كما لحظناه في قصة إبراهيم مع أبيه).

* * *

قال تعالى: ﴿لقد تَابَ الله علىٰ النبيّ والمهاجرينَ والأنصار الذين اتَّبَعُوهُ في ساعة العُسْرَةِ من بعْدِ مَا كادَ يَزِيغُ قُلوبُ فريقٍ منهم ثُمَّ تابَ عليهم إنَّهُ بِهم رؤوفٌ رحيمٌ * وعلىٰ الثلاثةِ الذِينَ خُلِّفُوا حتىٰ إذا ضاقت عليهم الأرضُ بما رَحُبَتْ وضاقَتْ عليهِم أنفُسهم وظنُّوا أنْ لا مَلْجَأَ مِنَ الله إلاَّ إليهِ ثم تابَ عليهِم لِيَتُوبوا إنَّ الله هُوَ التوابُ الرَّحيم﴾.

يَتَناوَلُ هذا المقطع من سورة التوبة: ظاهرة (التوبة) من خلال قضية (الجهاد) التي تشكّل عصب السورة: كما كررنا. فالمقطع يعالج قضيّتين منفصلتين من القضايا المرتبطة بالجهاد، هما: قضية تردد بعض المقاتلين في مواصلة الجهاد وقضية تردد البعض الآخر في الالتحاق بالمقاتلين. وبالرغم من أنّ كلاً من الواقعتين يصبّ في موضوعٍ غير الآخر إلا أنهما يصدران عن رافدٍ

نفسي واحد هو: التلكؤ أو التردد في المواقف الحاسمة من الجهاد في سبيل الله، فالقضية الأولىٰ ـ وفقاً للنصوص المفسّرة ـ تتناول المقاتلين الذين واجهوا شدائد كبيرة في معركة (تبوك) من حيث شدة الحرّ وقلة الزاد والراحلة حتى همّ قسمٌ بالإنصراف عن المعركة فعصمهم الله من ذلك وتاب عليهم، وأما القضية الأخرى فتتناول جماعة تخلفت عن الالتحاق بالمعركة توانياً ثم ندموا علىٰ ذلك حتىٰ ضاقت عليهم الأرض وضاقت عليهم أنفسهم والتجأوا صادقين إلى الله فتاب عليهم.

فالملاحظ هنا أن هاتين الجماعتين أو هذين النمطين من الناس لم يصدرا عن نزعة معادية للإسلام بل عن ضعف نفسي ألمّ بالنمط الأول الذي التحق منذ البدء بساحة القتال: إلا أنه كاد يزيغ فؤاده من الشدائد التي واجهها، وأما النمط الآخر فما كاد يتخلّف عن الجهاد (وهو ضعف نفسي أيضاً) حتى ندم على سلوكه المذكور، ففي الحالتين نواجه أنماطاً تحتفظ أعماقها بنزعة الخير، نمطاً يتّبع النبيّ(ص) في ساعة العسرة (وهو خير محض) لكنه يكاد يضعف حيال شدائد المعركة. ونمطاً آخر لم يتبع النبيّ(ص) في ساعة العسرة إلا أنه ندم علىٰ عدم التحاقه، مما يعني أن الاتباع في ساعة العسرة، والندم علىٰ عدم الاتّباع بالرغم من اختلاف مظهرهما لكنهما يفصحان عن توفّر جانب إيجابي فيهما... لذلك جاء التأكيد علىٰ مفهوم (التوبة) متجانساً، أو لنقل: نتيجة طبيعية لموقفهما المذكور: وهو: الإحساس بالندم بصفة أن الإحساس بالندم مفصح عن توفّر نزعة الخير في الأعماق، لكن بما أن الندم من الممكن أن يظل في نطاق الأحاسيس، حينئذٍ فإن ترجمته إلى سلوك خارجي يُعدّ تعبيراً حقيقياً عن الندم وليس مجرد أحاسيس عابرة. والنص القرآني الكريم أشار ـ بطريقته الفنيّة ـ إلى هذا الجانب حينما رسَمَ الأشخاص (الثلاثة الذين خلّفوا) بأنهم أولاً ﴿ضاقت عليهم الأرض بما رحبت﴾ وثانياً بأنهم ﴿ضاقت عليهم أنفسهم﴾، وثالثاً ﴿ظنّوا أن لا ملجأ من الله إلاّ إليه﴾.

ونتيجة لهذه المراحل الثلاث من عملية الندم وترجمته إلىٰ سلوك عملي تاب الله عليهم، حيث ذكر المفسّرون أنّ هؤلاء الثلاثة هجرهم النبيّ(ص) والناس وعوائلهم أيضاً، فاتجهوا إلى رؤوس الجبال، حتىٰ أنهم هجر كلُّ واحدٍ منهم الآخر: متضرعين إلى الله، معلنين عن ندمهم علىٰ التخلف عن ساحة القتال: حتى تاب الله تعالى عليهم. كما أن الفريق الآخر الذي التحق أساساً بالمعركة في ساعة العسرة وتلكأ أو كاد في مواصلة القتال ثم عاد إلىٰ موقعه البدائي، إنّما يشكّل عوداً إلىٰ ممارسة القتال وهو سلوك عملي يزيل كلّ آثار التلكّؤ الذي طرأ عابراً علىٰ موقفه، مما يستتبع قبول(التوبة) أيضاً.

وهذا كله من حيث البعد الفكري للمقطع القرآني الكريم الذي نتحدث عنه.

أما من حيث البناء الفنيّ وصلته بالمقاطع السابقة من السورة فيتمثّل في كونه جائياً في سياق عرض مختلف الشرائح الاجتماعية التي انتظمت مجتمع الإسلام مسلمين أو منحرفين. فبالنسبة إلى المنحرفين ـ منافقين كانوا أو مشركين ـ طالَبَ النص القرآني الكريم بعدم استغفار الإسلاميين لهم، لأنهم قد طُبِعَ علىٰ قلوبهم إلى الدرجة التي لا يمكن تصوّر أي عملية تعديل لسلوكهم.

أما بالنسبة إلى الإسلاميين، فهناك نمط سويّ علىٰ الضد تماماً من المنحرفين وهم (السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتّبعوهم بإحسان)... وهناك أكثر من نمط تتوزعهم انحرافات عابرة: بعضهم خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، وبعضهم ـ كما لحظنا في المقطع الذي نتحدث عنه ـ صدر عن تردّد أو لحظة عابرة من الانحراف ثم عاد إلى السلوك السويّ، هذه الأنماط من الشرائح الاجتماعية جاءت في مقاطع مختلفة من سورة التوبة، كما جاء مفهوم (التوبة) مواكباً للحديث عن هذه الفئات التي تاب الله عليها فعلاً، وأجّل التوبة علىٰ بعض منهم، حيث يستخلص الملاحظ ان قضية (التوبة)

طُرحت مقترنة بالمحاولات الجدية في تعديل السلوك، كما أنها طُرحت في سياق الحديث عن (الجهاد في سبيل الله) وموقف مختلف الفئات الاجتماعية من عملية الجهاد، ومنها: الفئات المتردّدة التي تلمّ بها حالات الضعف النفسي حيث ختم النصُ الكريم الحديث عنها بالتعقيب الآتي الذي يشير إلى أنه لا ينبغي للإسلاميين ﴿أنْ يَتخَلَّفُوا عن رسولِ الله ولا يَرْغبوا بأنفسهم عن نفسِه ذلِك بِأنهم لا يُصيبُهم ظَمَأٌ ولا نَصَبٌ ولا مَخْمَصةٌ في سبيل الله ولا يَطَأُونَ مَوْطِئاً يَغِيظ الكُفَّار ولا يَنالُونَ منْ عدوٍّ نَيْلاً إلاّ كُتِبَ لهم بِهِ عَمَلٌ صالح﴾ كما أنهم ﴿ولا ينفقون نفقةً صغيرة ولا كبيرةً ولا يقْطَعُون وادياً إلاّ كُتِبَ لهم﴾.

حيث نلاحظ هنا، أن هذا التعقيب جاء جواباً لأولئك الذين كان الحرّ أو شدة القتال أو البُعد يحتجزهم من المتابعة أو الالتحاق بساحة المعركة، مبيناً لهم ـ بطريقة فنية ـ أن لهذه الشدائد آثارها في ترتيب الجزاء الإيجابي.

* * *

قال تعالى: ﴿وما كان المؤمنون لِيَنْفِرُوا كافّةً فلولا نَفَر مِنْ كُلِّ فِرْقةٍ مِنْهُم طائفةٌ ليتفقّهوا في الدين ولِيُنْذِرُوا قَوْمَهُم إذا رَجَعُوا إليهم لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُون * يا أَيُّهَا الذين آمنوا قَاتِلُوا الذين يَلُونكمْ مِنَ الكُفّارِ وَلْيَجِدُوا فيكم غِلْظَةً واْعلَموا أنَّ الله مَعَ المتّقين * وإذا ما أُنْزِلَتْ سورةٌ فمنهم مَنْ يقولُ أَيُّكُم زادَتْهُ هذهِ إيماناً فأمَّا الذين آمنوا فزادَتْهم إيماناً وهم يَسْتبشرون * وأما الذين في قلوبِهم مَرَضٌ فزادتهم رِجْساً إلى رِجْسِهِم وماتُوا وَهُمْ كافرون * أوَلا يَرونَ أنَّهُمْ يُفْتَنُونَ في كلِ عامٍ مرةً أو مرتينِ ثم لا يَتُوبونَ ولا هُمْ يَذَّكَّرُونَ * وإذا ما أُنْزِلَتْ سورةٌ نَظَرَ بعضُهُم إلى بعضٍ هل يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثم انصرفوا صَرَفَ الله قلوبَهُم بأَنَّهُمْ قومٌ لا يَفْقَهُون * لقد جاءَكم رسولٌ من أنفسِكُم عزيزٌ عليه ما عَنتّم حَريصٌ عليكم بالمؤمنينَ رؤوفٌ رحيمٌ * فإنْ تَولَّوا فَقُلْ حَسْبِيَ الله لا إله إلاّ هو عليه توكلتُ وهُو ربُّ العَرْشِ العظيم﴾.

بهذا المقطع خُتِمت سورة التوبة، وهو مقطع يربط بين مقدمة السورة ووسطها: حيث قلنا بأن سورة التوبة تحوم فكرتها الرئيسة علىٰ موضوع «الجهاد في سبيل الله» كما أن عرضها للفئات الاجتماعية من مؤمنين ومتأرجحين ومنافقين ومشركين، كان منصباً علىٰ سلوكهم جميعاً حيال ممارسة الجهاد في سبيل الله، وكان (المنافقون) هم الفئة الرئيسة التي ركّز النص القرآني الكريم عليها: حيث كشف عن كل مستويات سلوكها، وها هو الآن يختتم النصُ الحديث عنها أيضاً، إلا أنه يطرح قبل ذلك جملةً من المفهومات المتصلة بفكرة الجهاد نفسه وفق طريقة فنيّة تتناول جانباً جديداً من الموضوعات والأشخاص لتربطها بعد ذلك بالفكرة الرئيسة ونعني بها: الجهاد. فمن جملة الأفكار الجديدة التي طُرحت في هذا القسم من السورة هو: قضية التفقّه في الدين من حيث صلته بممارسات الجهاد، حيث طالب النص بأن يكون الجهاد متناوباً بالنسبة للمقاتلين إذ علىٰ المؤمنين ألاّ ينفروا جميعاً لساحة القتال بل ينبغي أن تبقىٰ طائفة منهم لإرشاد الناس، وطائفة تتجه إلى القتال متناوبةً في ذلك. . . وأهمية هذه الفكرة من الوضوح بمكان طالما نعرف بأنّ المهم هو التفقه في الممارسات ومنها ممارسة الجهاد نفسه، إذ ما فائدة الجهاد إذا لم يكن قائماً علىٰ أسس المبادىء الإسلامية التي يظل الجهادُ واحداً منها كما هو واضح.

بعد ذلك يتجه النص إلى طرح مفهوم آخر من قضايا الجهاد ألا وهو مقاتلة المنحرفين: الأقرب منهم فالأقرب، وهي توصية عسكرية تتصل بالحفاظ علىٰ البلاد الإسلامية لأن مقاتلة الأقرب تظل أكثر إمكاناً في عملية التحصين لحدود البلد الإسلامي.

ثم يختتم النص حديثه عن جانبٍ جديد من سلوك المنافقين هو: محاولتهم التشكيك بإيمان الإسلاميين قائلين لهم (أيكم زادته هذه ـ أي السورة

القرآنية ـ إيماناً؟).

ومن الواضح أن سلوك المنافقين لم يكن متسماً بهذا النوع من الصراحة في المقاطع السابقة من النص، أما الآن فقد كشفهم النص وقد تجرأوا بعض الشيء بحيث صارحوا الإسلاميين بنواياهم المشككة بمبادىء القرآن. ومن الواضح أيضاً أن هذا النوع من الكشف لسلوك المنافقين يتّسق مع ما يسمّى ـ في لغة الفن ـ بالنموّ العضوي للموضوعات، أي أن الموضوعات تتدرج خلال العرض لتصل في نهاية النص إلىٰ ذروة النموّ متمثلةً في تستّر المنافقين ثم: الإعلان بصراحة عن أعماقهم، وهو ما لحظناه في ختام السورة عبْر مخاطبتهم للإسلاميين (أيكم زادته هذه إيماناً؟).

لكن مع ذلك: ما دام المنافقون ينطلقون ـ أساساً ـ في سلوكهم: من سمة (النفاق) التي تعني ثنائية السلوك من جانب، والخوف من الفضيحة من جانب آخر، ما داموا كذلك، فإن النص القرآني الكريم رسَمَ هذه الحقيقة حينما ختم حديثه عن المنافقين بهذه الآية **﴿وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحدٍ ثم انصرفوا﴾** بمعنىٰ أنهم لا يزالون يخشون الفضيحة في تساؤل بعضهم الآخر (هل يراكم من أحد) ثم في انصرافهم بعد ذلك.

إذن، أمكننا أن نلحظ كيف أن سورة التوبة تمت صياغتها فنياً وفق إحكام هندسي يرتبط بعضه بالآخر، وتتنامىٰ أجزاؤه، وكيف أن فكرة (الجهاد) كانت هي الرافد الفكري الكبير الذي تُصب فيه مختلف الموضوعات، وكيف أن التركيز علىٰ المنافقين كان يحتل المساحة الكبيرة من سورة التوبة، ثم كيفيّة اختتام الحديث عنهم: حيث تمّ ذلك من خلال الكشف النهائي عن كل مستويات سلوكهم وفقاً لتدرّج فني أوضحناه في كل أقسام السورة. والمهم بعد ذلك، أن النص القرآني الكريم أوضح ـ من خلال لغة الفن ـ أن سلوك

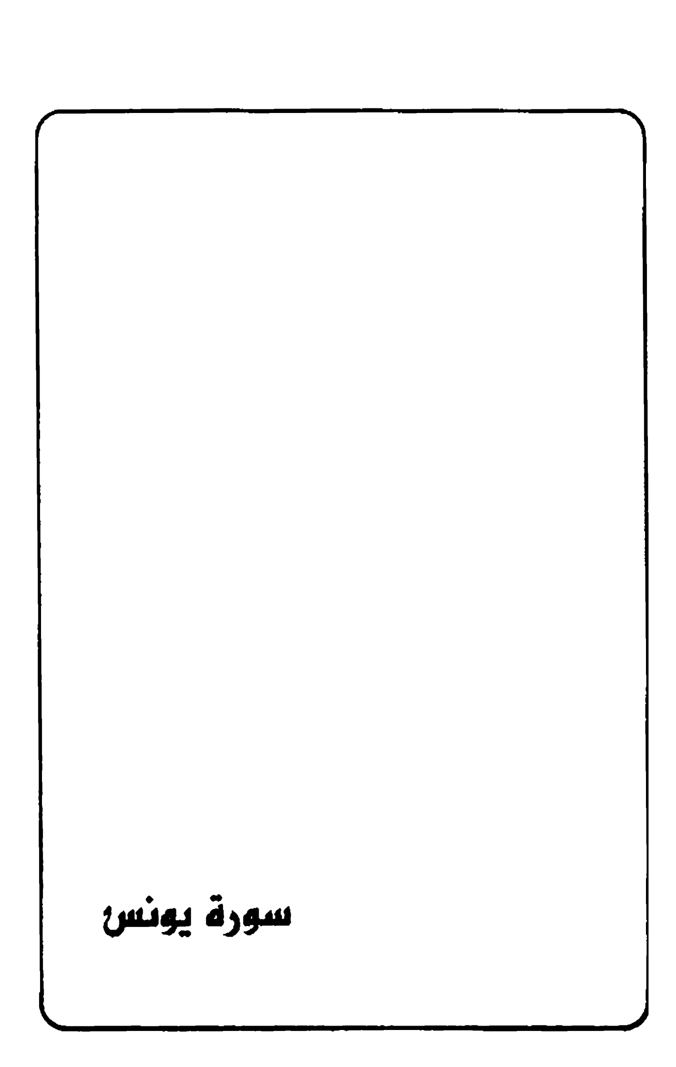
المنافقين بمستوياته التي تقدم عرضها إنما ينتسب أساساً إلى (المرض النفسي) حيث عقب علىٰ تساؤلهم (أيكم زادته هذه إيماناً) قائلاً) **﴿وأمّا الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلىٰ رجسهم وماتوا وهم كافرون﴾**.

إن إشارة المقطع المتقدم إلى (المرض) في القلوب، إنما هي تشخيص عيادي للحالة المَرَضية التي يصدر عنها المنحرفون، وهي ملاحظة فنية أيضاً حيث يستنتج المُتلقّي بأن كل ما تقدم من الحديث عن سلوك المنافقين بمستوياته المختلفة إنما هو بسببٍ من بنائهم النفسي الشاذ.

أخيراً، اختُتمت السورة المباركة بالإشارة إلىٰ أن النبيّ(ص) جاء رسولاً حريصاً على المؤمنين رحيماً بهم، وإلى أنه في حالة عدم إدراك الناس لهذه الحقيقة: علىٰ المؤمنين أن يتوكلوا على الله، وألاّ يهتمّوا بمن أعرض عن إدراك الحقيقة المتقدمة.

ومن البيّن أن الإشارة إلى الحرص والرحمة من جانب، وعدم الاهتمام بالمنحرفين من جانب آخر: تظل ـ من الزاوية الفنية ـ إفصاحاً عن مفهوم عملية (الجهاد في سبيل الله) بما تضمّنه من دلالة إنسانية كما تظل إفصاحاً عن الوظيفة التي ينبغي أن يحددها الإسلاميون حيال مَن أعرض عن تقبل الحقيقة المتقدمة.

* * *



سورة يونس

قال تعالى ﴿بسم الله الرحمن الرحيم الٓر تلك آيات الكتاب الحكيم * أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أنَّ لهم قَدَمَ صدقٍ عند ربهم، قال الكافرون إنَّ هذا لساحر مبين﴾.

بهذا المقطع تفتح سورة يونس (ع)، حيث استهل المقطع بصياغة فنية خاصة في طرحها للموضوعات. لقد تساءل النص أولاً ﴿أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم؟﴾ وهذا التساؤل له أهمّيته الفنية الفائقة حينما نضع في الاعتبار، ان القارىء أو المستمع سوف يستخلص بأن المنحرفين قد اعترضوا على نزول الرسالة على واحدٍ من البشر، وهذا الشخص قد يكون اعتراضهم عليه بسبب من يتمه مثلاً، أو قد يستخلص بأن الاعتراض من بسبب كونه بشراً قبالة العناصر الأخرى مثل الملائكة. كل هذا يستخلصه القارىء. نتيجة لصياغة العبارة بهذا النحو من الغموض الفني الجميل. بيد أن المهم ـ بعد ذلك ـ هو: أن النص قد اعتمد على الاقتصاد اللغوي في هذا التساؤل، فبدلاً من أن يعرض لنا موقف المنحرفين أولاً ثم يرد عليهم، نجده يرد عليهم أولاً حتى يسمح للقارىء بأن يستخلص بنفسه موقفهم دون ان تكون هناك حاجة للعرض، حتى يتحقق بذلك ـ من جانب ـ الاقتصاد اللغوي، وحتى يسمح للقارىء بإسهامه في كشف الدلالات من جانب آخر، وهذه هي إحدى مهمات الفن العظيم.

ولعل الإثارة الفنية تتبلور بنحو أشد وضوحاً حينما نواجه العبارة التي تلت ذلك التساؤل، حيث انطوت على أسرار فنية مثيرة لافتة للنظر.

لقد عقب النص على تساؤله المذكور، قائلاً ﴿وبشر الذين آمنوا أنَّ لهم

قَدَمَ صدقٍ عند ربهم﴾، ثم أردف ذلك بقوله﴿قال الكافرون: إنَّ هذا لساحر مبين﴾. فهنا يواجه القارىء: أسلوباً قد لا يعهده في تجاربه الثقافية التي خبرها. فبينما يتحدث النص القرآني الكريم عن تبشير المؤمنين بأن لهم قدم صدق عند الله تعالى، إذا به ينقل لنا حوارا على لسان المنحرفين هو ﴿قال الكافرون: إن هذا لساحر مبين﴾ فالقارىء قد يتضبب لديه هذا النوع من الأداء الفني بحيث لا يهتدي إلى إدراك الروابط الفكرية بين هذه الموضوعات التي تبدو وكأنها مستقلة لا رابطة من التسلسل الموضوعي فيها. بيد أن أدنى تأمل في ذلك، يستاقنا إلى إدراك الأسرار الفنية وراء مثل هذه الصياغة. وفي تصورنا الفني: أن النص أراد أن يوضح لنا بأن الكافرين عندما عرضت عليهم رسالة الإسلام قالوا عن النبي(ص) بأنه ساحر... لكن بما أن هذه التهمة لا يمكن ان يسوقها المنحرف إلا بعد أن يعجز عن تقديم دليل مقنع، حينئذ يستكشف القارىء(من خلال تساؤل النص: أكان للناس عجبا إن أوحينا إلى رجل منهم) يستكشف بأن المنحرفين حينما لم يرق لهم أن يضطلع بالرسالة شخص منهم: حينئذ قالوا ﴿إن هذا لساحر مبين﴾بعد ان رأوا الإعجاز الفني للقرآن الكريم. وبهذا النمط من التقديم والتأخير والحذف والذكر للعبارات: تحقق الاقتصاد اللغوي من جانب، مثلما سمح للقارىء بأن يساهم من كشف هذه الدلالات من جانب آخر.

ويلاحظ أن النص ـ قد استخدم مضافا لما تقدم عنصر(الاستيحاء) في صياغة الصورة الفنية أيضا. قال النص: ﴿وبشر الذين آمنوا أنَّ لهم قدم صدقٍ عند ربهم﴾ إن عبارة(قدم صدق) تشكل صورة فنية هي(الرمز) أو (الاستعارة) حيث ان(قدم) تعني لغويا: الشيء الذي يقدمه الإنسان أمامه. وحينئذ قد استخدم النص هذه العبارة ليرمز بها إلى ما يقدمه الناس من العمل الصالح ليجده أمامه يوم القيامة... وهكذا يكون النص بهذه الصورة الرمزية قد اختصر واقتصد في اللغة أيضا بدلاً من أن يفصّل الكلام في قضية العمل

الصالح الذي بشرت الرسالة بنتائجه الاخروية، محققا بهذا التجانس بين الاقتصاد اللغوي في ذكر العبارات وحذفها، وفي تقديمها وتأخيرها، محققا بهذا التجانس: إحكام العمارة الفنية للسورة الكريمة، من حيث علاقة أجزائها: بعضا مع الآخر، بالنحو الذي أوضحناه.

* * *

قال تعالى ﴿إنَّ ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون * إليه مرجعكم جميعا وعد الله حقا إنه يبدؤا الخلق ثم يعيده ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم و عذاب أليم بما كانوا يكفرون * هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقَّدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الأيات لقوم يعلمون. . .﴾.

هذا المقطع من سورة يونس يتناول ظواهر الإبداع الكوني، من السماء والأرض والشمس والقمر والليل والنهار. وما تعنينا منه هو: علاقته بعمارة السورة الكريمة، والأداء الفني الذي سلكه النص في صياغة هذه الموضوعات.
أما الأداء الفني فقد اعتمد عناصر صورية وايقاعية ولفظية في صياغة هذه الموضوعات، ففي نطاق (الصورة الفنية) نواجه (الصورة الرمزية) في قوله تعالى (ثم استوى على العرش). «فالاستواء على العرش» يرمز إلى هيمنة الله تعالى على الكون، وهي هيمنة كان من الممكن أن يصوغها النص بلغة مباشرة كما لو قيل (سيطر أو هيمن على العرش)، إلا أنه اعتمد الرمز بدلاً من الكلام المباشر حتى تتبلور الدلالة بنحو يتناسب وطبيعة القدرة المطلقة لله تعالى، حيث أن مهمة «الرمز» وافتراقه عن سائر الصور التركيبية(من استعارة وتشبيه وتمثيل وسواها)، تتمثل في كونه ـ أي الرمز ـ يجسّد تعبيراًعن شيء غير

محدود بلغة محدودة، أي: كونه ينطوي على إمكانات إيحائية لا تتوفر في الصور الفنية الأخرى، فالاستواء على العرش يوحي للقارىء بدلالات متنوعة غير محدودة بحيث يستخلص كل شخص منها ما يتناسب وخبرته العقلية عن الشيء.

مضافاً إلى أن الرمز هنا جاء متساوقا(من حيث علاقته بعمارة السورة الكريمة) مع طبيعة الظواهر الكونية التي عرض لها النص، وهي ظواهر تتصل بخلق السماوات والأرض والشمس والقمر والليل والنهار، والضياء والنور. وكلها ظواهر(حسية) وليست (تجريدية)، ولذلك كان من المناسب أن تجيء الفكرة المرتبطة بهذا الخلق للظواهر الكونية متجانسة مع ما هو حسي، فالسماء والأرض وخلقهما في ستة أيام: تعد شيئا يتحسسه الشخص من خلال البصر واللمس، أما السيطرة على ذلك، فأمر غير حسي بل هو(تجريدي).

ولذلك كان من المناسب أن يصوغ النص لهذه الظاهرة (أي: هيمنة الله تعالى على الكون) صورة(حسية) أيضاً، فجاء(الاستواء على العرش) تجسيدا للحقيقة المذكورة... لكن بما ان الله تعالى منزه عن الجسمية، حينئذ كان الاتجاه إلى(الرمز) دون سواه من الصور هو الأسلوب الأوفق لتحقيق التجانس بين ظواهر الكون وبين الهيمنة والسيطرة عليها، بصفة أن(الرمز) ـ خلافا للتشبيه الذي يتضمن شيئا من المماثلة، وخلافاً للاستعارة التي تخلع صفة شيء على شيء آخر- يلغي الحدود بين الشيئين، ويجعلهما شيئا واحداً، لذلك جاء رمز(الاستواء على العرش) تعبيرا حسياً عن شيء تجريدي، تعبيرا عن السيطرة والهيمنة المطلقة على الكون، تعبيراً متجانساً مع مفردات السماء والأرض (من حيث كونهما حسيين): حيث ان (الاستواء) هو(حسي) أيضاً، وحيث ان (العرش) تنسحب نفس الصفة الحسية عليه(في تصور القارىء)، لكنهما(أي: الاستواء والعرش) هما مجرد (رمزين) عن شيء تجريدي، مجرد

رمزين لصفات الله تعالى، مجرد رمزين للسيطرة على الكون من حيث كونه تعالى منزها عن الجسمية ، كما قلنا. والمهم، ان بهذا التجانس بين صفات اكتسبت رمزاً حسيا (هو الاستواء على العرش) وبين ظواهر هي حسية في واقعها (مثل السماء والأرض)، مثل هذا التجانس يكشف عن إحكام العمارة للسورة الكريمة من حيث تلاحم عناصرها بعضا مع الآخر.

* * *

قال تعالى﴿**ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي إليهم أجلهم فنذر الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون * وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه او قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون**﴾

هذا المقطع من سورة يونس يطرح جملة من الموضوعات، منها: تركيبة الشخصية التي تقوم على الاتجاه إلى الله تعالى في حالة مواجهتها لشدائد الحياة، ولكنها تتعامى عن الله تعالى عندما تحيا بمنأى عن االشدائد... ان مثل هذا السلوك ينطوي على جملة من الحقائق العبادية والنفسية. أما الحقيقة العبادية فهي: أن البشرية جميعا مؤمنها وكافرها ترث جهازا فطريا يقوم على توحيد الله تعالى بحيث يتجه الإنسان ـ عندما يواجه شدة من شدائد الحياة ـ نحو الله تعالى ويدعو إلى إزالتها. وأما الحقيقة النفسية فهي: أن الإنسان مطبوع على أن يتجه إلى الله تعالى(في حالة الشدة، بما في ذلك: الشخصية المؤمنة)، وإنه مطبوع على الابتعاد عن الله تعالى عند انفراج الشدة عنه. ترى، ماذا يعني مثل هذا السلوك؟.

واضح، إن هذا السلوك يفصح عن كون الإنسان معنياً بإشباع الحاجات الدنيوية العابرة، فهو يتحرك بقدر ما يحقق له تأمين حاجاته، فإذا واجه عدم التأمين، حينئذ يتحرك لمصدر الحاجات وهو الله تعالى، وإذا أشبع حاجاته:

انعزل عن الله تعالى، وهذا هو منتهى الجفاء والغلظة والكفران بالنعم مما يسلخ الإنسان من صعيد إنسانيته ويحوله إلى كائن ممسوخ لا يعنى إلا بحاجاته، على نحو مما تسلكه البهائم من إشباع غرائزها. . . المهم، أن النص القرآني الكريم طرح هذه الشريحة من السلوك وفق صياغة فنية ممتعة، فقدم أولا رسما خارجياً للشخصية هو: كيفية تحركها نحو الله تعالى (من حيث المظهر الجسمي للحركة) إذ أن المظهر الحركي هو تعبير عن المظهر الداخلي للإنسان، فالأفكار والمشاعر والانفعالات تظل حيناً حبيسة في أعماق الشخص، وتبرز حينا آخر إلى الخارج، متمثلة في تعبير لفظي(هو الكلام) أو في تعبير حركي هو: حركات الجسم المختلفة، أو في تعبير لفظي وحركي أيضا، وهذا ما رسمه النصُّ القرآني الكريم حينما رسم المظاهر اللفظية والحركية للشخص عندما يواجه شدائد الحياة وهو قوله تعالى: ﴿**وإذا مسّ الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائماً**﴾ فالدعاء هو المظهر اللفظي، والاضطجاع والقعود والقيام هي مظاهر حركية: ترمز- فنياً- إلى التعبير عن شدة الحالة النفسية التي يصدر عنها الداعي. فهو يضطجع حينا، ويقعد حينا ثانياً، ويقوم حينا ثالثاً: كلّ ذلك في حالة الدعاء والتوجه إلى الله تعالى لكشف الشدة التي يكابد منها.

لكن، ما أن تكشف الشدة: حتى يعرض الإنسان عن الله تعالى، وهذا مما رسمه النص القرآني الكريم وفق رسم خارجي حركي أيضاً، وهو قوله تعالى﴿**فلما كشفنا عنه ضرَّه مرَّ كأن لم يدعنا إلى ضر مسَّه**﴾ فهنا قدّم النص صورة أو مرأى حركيا هو: مرور الإنسان عابرا في طريقه دون أن يلتفت إلى أي شيء، وهذا المرور هو(رمز) أو صورة(صورة رمزية) تشير إلى مظهر داخلي هو: تغافل الإنسان عن الله تعالى، وانصرافه عن الله تعالى بعد أن فرّج الله تعالى عنه الشدائد.

إذن جاءت الصورتان الفنيتان الرمزيتان: مصوغتين وفق رسم خارجي: احدهما يتصل بطريقة الدعاء: اضطجاعا وقعودا وقياماً، والآخر يظل(صورة رمزية تركيبية) أي: كونها (رمزاً) وليس حركة جسمية بالفعل، حيث أن المرور العابر هو(رمز) لعدم العناية بالشيء. والمهم، بعد ذلك: ان صياغة الصورة الفنية تكتسب جماليتها الفائقة عندما يتجانس مما هو داخلي من الأفكار والعواطف والانفعالات مع ما هو خارجي من الحركات التي تعكس الداخل، وهو أمر يكشف عن إحكام النص من حيث تلاحم أجزائه بعضا مع الآخر بالنحو الـذي أوضحناه.

* * *

قال تعالى: **﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاءي نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إلي إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم * قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا ادراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون﴾**.

هذا المقطع من سورة يونس يتناول موقف الكافرين من رسالة الإسلام. والفكرة أو الموضوع الذي يحوم عليه المقطع القرآني الكريم ينطلق من إنكار هؤلاء المنحرفين لقضية اليوم الآخر، حيث وصفهم بقوله: **﴿قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا...﴾** وهذا الوصف يتكرر في جملة من المقاطع السابقة مثل قوله تعالى: **﴿إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا﴾** وقوله تعالى: **﴿فنذر الذين لا يرجون لقاءنا...﴾** الخ. وهذا يعني(من حيث المبنى الهندسي للسورة الكريمة) إن فقرة(لا يرجون لقاءنا) تشكل رابطاً فنيا بين موضوعات السورة التي انطلقت من هذا المفهوم لتصب في موضوعات مختلفة، ومنها: موقف هؤلاء الكافرين من رسالة الإسلام حيث كان عدم إيمانهم باليوم الآخر: حافزاً على إثارة الأسئلة الهزيلة من نحو

اقتراحهم القائل: ﴿ائت بقرآن غير هذا أو بدله﴾. طبيعيا، إن مثل هذا السؤال لا يحمل أي معنى سوى الكشف عن هزال تفكيرهم وانغلاقه، لأن المطالبة بإتيان قرآن آخر أو تبديل هذا القرآن تثير في ذهن السامع مجموعة من التساؤلات، مثل: هل أن موضوعاته ومبادئه وأحكامه قد صيغت بنحو يضاد تطلعاتهم دنيوياً أو يضادها عبادياً بحيث طالبوا بتبديلها؟ وإذا كان الأمر كذلك، فهل أن نزول المبادىء من السماء ينبغي أن يتم وفق رغباتهم؟ وحينئذ ما فائدة تلقي المبادىء من مصدر لا يفقهون كنهه ولا يقرون بكماله؟

إذن، طرح مثل هذا الاقتراح(وقد أجراه النص القرآني على لسانهم في شكل حوار) إنما تم فلكي يكتشف القارىء بنفسه مدى انحدار الذهن وانغلاقه لدى الكافرين من خلال وقوفه مباشرة على كلامهم الصادر عنهم. ولكي يكشف النص القرآني الكريم عن الأسباب الكامنة وراء مثل هذا الاقتراح(أي المطالبة بنزول قرآن آخر أو تبديله)، نجده يقدم الوصف الآتي لسلوكهم: ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا﴾. وبهذا المنحى الفني غير المباشر، أي من خلال عرض شريحة من سلوك الكافرين، يجعلنا نكتشف ـ دون أن يقول هذا مباشرة ـ بأن اقتراحهم المذكور لا بد أن يكون مرتبطا بسلوكهم الوثني، بمعنى ان هؤلاء الحمقى ما داموا يعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم، وما داموا يقولون: «هؤلاء ـ أي الأصنام ـ شفعاؤنا»، حينئذ لا بد أن يكون مطالبتهم بتبديل القرآن إنما هي في كونه يدعو إلى نبذ السلوك الوثني. خلال هذا السياق، يتقدم النص القرآني الكريم بطرح ظاهرة اجتماعية تظل في غاية الخطورة، ألا وهي قوله تعالى: ﴿وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم فيما فيه يختلفون﴾ وقد يتساءل القارىء: ما هو السر الفني الكامن وراء طرح هذه الظاهرة التي تتحدث عن نشأة المجتمع البشري وكونه أمة واحدة قد اختلفت فيما بعد، مع أن النص كان يتحدث عن عبادة الأصنام؟.

إن عالم الاجتماع تعنيه هذه القضية كلّ العناية، لأنها تكشف عن حقيقة اجتماعية لا يزال البحث عنها محفوفا بالغموض. وحينئذ فإن طرحها في هذا السياق: يعني (من الزاوية الفنية) أن للموضوع خطورته بحيث يستهدف النص توصيله إلى القارىء بحيث قطع النص سلسلة حديثه ليتقدم لنا حقيقة اجتماعية تتصل بنشأة المجتمع البشري، ليعود بعدها الى مواصلة الحديث عن هؤلاء المنحرفين: عبيد الأصنام.

لكن قبل ان نتحدث عن الدلالة الاجتماعية لهذا الطرح(أي: كون الناس أمة واحدة قد اختلفت فيما بعد) ينبغي أن نضع في الاعتبار بأن عبادة الأوثان تظل واحدة من مفردات هذا الاختلاف بين الناس بعد أن كانوا أمة واحدة، وهو أمر يكشف لنا الرابط الفني بين الموضوعات التي يطرحها النص بحيث نتبين من خلالها مدى إحكام النص من حيث صلة أجزائه واحداً مع الآخر.

* * *

قال تعالى: ﴿وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر في آياتنا قل الله أسرع مكراً إن رسلنا يكتبون ما تمكرون * هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين * فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون﴾.

هذا المقطع من سورة يونس يتناول البناء النفسي للشخصية الكافرة أو مطلق الأشخاص المنحرفين: من حيث كونهم يتجهون إلى الله تعالى في حالات الشدة، ويعاهدونه بالطاعة في حالة انقاذه تعالى إياهم، ولكنهم بعد ان تفرج الشدة عنهم، يبغون في الأرض بغير الحق. ويلاحظ ان النص القرآني

الكريم، سبق أن طرح هذا السلوك في مقطع أسبق، وذلك قوله تعالى: **﴿وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون﴾**. والسؤال هو: هل أن القرآن الكريم يكرر هذا الموضوع في أكثر من مقطع: كما لحظنا، أم أن تكراره للموضوع يتم في سياق جديد؟ ونحن ما دمنا نعنى بدراسة عمارة السورة: حينئذ يتعين علينا إثارة مثل هذا السؤال. الحق، أن تكرار الحقيقة المتصلة بكون الإنسان المنحرف مطبوعاً على أن يتجه إلى الله تعالى في حالة الشدائد، وأن يغفل عن الله تعالى في حالة انفراجها: إن تكرار هذه الحقيقة إنما تم في سياقات مختلفة. ففي المقطع الأسبق يتناول النص القرآني الكريم سلوكاً خاصاً هو: أن الإنسان عندما يكشف ضره يمر وكأنه لم يتجه إلى الله تعالى بعد ان كان يدعو مضطجعاً أو قاعداً أوقائماً.

أما في المقطع الجديد، فإنه يتناول سلوكاً أشدّ مفارقة من سابقه، ألا وهو: المكر والبغي، بينما كان السلوك السابق هو: مجرد التغافل عن الله تعالى وعن الدعاء. إذن، التكرار هنا جاء في سياق جديد، وهو أمرٌ يفسر لنا جانباً من السر الفني الكامن وراء عنصر التكرار.

والآن، لنقف عند هذا الموضوع الأخير لملاحظته فنياً وفكرياً... لقد قال النص: إن الناس إذا أذاقهم الله تعالى رحمة من بعد الشدة: إذا لهم مكر في آيات الله تعالى. هنا قدم النص نموذجاً عملياً لهذا السلوك، موضحاً ردود الفعل التي يصدر عنها المنحرفون في مثل هذه الحالة التي ينتهون إليها، ونعني بذلك: كونهم يبغون في الأرض بغير الحق عندما يكشف الله تعالى عنهم الشدة. يقول النص: **﴿هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من**

هذه لنكونن من الشاكرين فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحقِّ...﴾.

إن هذا المقطع الذي ينطوي أولاً على تذكير الإنسان بعطيات الله تعالى بالنسبة إلى تأمين وسائل النقل، ثم بإنقاذ الإنسان. ثانياً عند مواجهته لشدائد الغرق في البحر. هذا العرض ينطوي(من الزاوية الفنية) على أسرار جمالية متنوعة ينبغي الوقوف عندها ولو عابراً.

ولعل أول ما ينبغي لفت الانتباه عليه هو ملاحظة الهيكل الهندسي للمقطع حيث تحدث النص أولاً عن معطيات الله تعالى بالنسبة إلى تيسيره تعالى للإنسان وسائل تنقله في البر والبحر(هو الذي يسيركم في البر والبحر)، بعد ذلك تحدث عن أولئك الذين يسيرون في البحر ويتعرضون لعواصفه ولخطر الموت. إن هدف النص هو توضيح ان الناس إذا أذاقهم الله رحمة من بعد ضراء مستهم، نجدهم يمكرون في آيات الله تعالى بدلاً من الشكر على معطياته. إلا أن النص - في الحين ذاته - يستهدف لفت النظر إلى جملة من ظواهر الإبداع الكوني الذي حدثنا عنه في مقطع سابق، لذلك قطع النص سلسلة حديثه عن هؤلاء الناس الذين يمكرون في آيات الله تعالى، واتجه إلى عرض الظاهرة الإبداعية للبر والبحر، ثم عاد إلى الحديث عن سلوك هؤلاء الناس - وهم ينعمون بمعطيات الرحلة في البحر -، وبهذا التقطيع لسلسلة الموضوعات ووصلها من جديد: نتلمس مدى إحكام العمارة الفنية للنص من حيث تلاحم موضوعاتها بعضاً مع الآخر.

* * *

قال تعالى﴿هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه

لنكونن من الشاكرين فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فَنُنَبِّئُكُمْ بما كنتم تعملون﴾ .

في هذا المقطع القرآني الكريم نص (حكائي) ـ أي: حكاية وحادثة وموقفاً ـ مصوغ بلغة قصصية(سرد، حوار، موقف، بيئة، تعليق)، الحادثة هي: مجيء ريح عاصفة، يضطرب موج البحر من خلالها ويتوقع ركاب السفينة: أن يغرقوا في البحر. وأما الموقف فهو: إن ركاب السفينة بدأوا يدعون الله مخلصين له الدين: بالنجاة من الغرق. وأما «البيئة» فهي بيئة البحر وقد غمرتها ريح طيبة نعُم بها ركاب السفينة: قبل حادثة الريح العاصفة.

وأما «الحوار» فهو هتاف الركاب عبر توجههم إلى الله تعالى: ﴿لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين﴾. وأما«السرد» فهو﴿وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا انهم أحيط بهم﴾... وأما التعليق فهو ﴿فلما أنجاهم إذا هُمْ يبغون في الأرض بغير الحق﴾ ثم مخاطبة هؤلاء ﴿يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثمّ إلينا مرجعكم﴾.

والآن، بمقدور القارىء والسامع أن يستخلص الدلالة الفكرية التي يستهدفها النص من خلال تقديمه لهذه الحكاية القصصية الخاطفة، المليئة بعناصر الفن والفكر... طبيعياً، إن الإمتاع الفني في هذه الحكاية أمر يتحسسه المتلقي بوضوح من خلال ما تضمنه من سرد، وحوار، ومخاطبة، ووصف لبيئة السفينة والبحر، ورصد لردود الفعل التي تصدر عنها الركاب، وتعليق على ذلك. والأهم من ذلك كله، إن هذه الحكاية صيغت من أجل توظيف فنيّ هو: أن المنحرفين ـ كفاراً أو فساقاً ـ تطبعهم سمات منكرة هي: أنهم في حالة استمتاعهم بالحياة يمارسون البغي بغير حق ، في حين أنهم ـ في

حالة الشدة ـ يدعون الله مخلصين له الدين بأن ينجيهم منها، ويعاهدونه بأنهم إذا نجوا من الشدة فسوف يكونون من الشاكرين لله تعالى. لكن، ما إن ينجيهم الله فعلاً حتى نجدهم يبغون في الأرض فساداً. ترى، ماذا يعني هذا؟. إن هذا يعني: إن المنحرفين لا يُعنَون إلاّ بإشباع حاجاتهم. إنهم مقرّون بفاعلية الله تعالى (من حيث وحدانيته وهيمنته الكونية). إنهم يتجهون إلى الله تعالى لإنقاذهم: لكن في صعيد هذا المقطع المرتبط بنجاتهم من الشدة الوقتية فحسب، بدليل أنهم لا يلتزمون بمباديء الله عند ما لا تواجههم شدائد الحياة. . . وحيال مثل هذا الموقف، نجد أن النص القرآني الكريم: يتكفل برد حاسم هو: أنَّ الباغي إنما يبغي على نفسه، وإن هذه الحياة الدنيا متاع عابر سرعان ما يفضي إلى مصير حاسم، مصير إلى الله تعالى في اليوم الآخر. وحينئذ يحسم الموقف لغير صالحهم دون أدنى شك.

هذا هو ملخص «الحكاية» ودلالتها الفكرية. لكن ما يعنينا منها هو موقفها من عمارة السورة الكريمة (ما دمنا أساساً نعنى ما بإبراز البناء الهندسي للنص) وهو أمر يتحدد بوضوح لدى القاريء والمستمع: حينما يجد أن الحكاية القصصية المشار إليها جاءت في سياق الحديث عن سلوك المنحرفين المعاصرين لرسالة الإسلام وموقفهم السلبي منها: إيثاراً لمتاع الحياة الدنيا(مع إنهم ـ في قرارة أنفسهم ـ مستيقنون بأحقية الرسالة إلا أنهم يجحدونها إيثاراً للمتاع الدنيوي المشار إليه). والمهم، أن الاقصوصة المذكورة وظفت لإنارة هذا الجانب، مما يفصح ذلك عن الإحكام الفني لعمارة السورة الكريمة من حيث ارتباط موضوعاتها بعضاً مع الآخر.

* * *

قال تعالى﴿إنما مثل الحياة الدُّنيا كماءٍ أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض ممَّا يأكل الناس والأنعام حتى أخذت الأرض زخرفها وازينت

وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الايات لقوم يتفكرون﴾ .

هذه الآية من سورة يونس تشكل مقطعاً جديداً من السورة حيث جاءت في سياق الحديث عمن يعرض عن الله تعالى في حالات الرخاء ويتجه إلى الله تعالى في حالة الشدائد، وحيث تصب بعد ذلك في الموضوع الرئيس للسورة الكريمة، ألا وهو: الحديث عن اليوم الآخر.

لقد تضمنت هذه الآية: عنصراً صورياً يتوزع بين التشبيه والتمثيل والرمز والاستعارة، بحيث تمازجت هذه الصور الفنية وكونت صورة موحدة ذات جمال وطرافة وإثارة بالغة الأهمية. إنها قد استهلّت أولاً بالتشبيه القائل: **﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء﴾**. وكلنا يعرف بأن(التشبيه) الفني تتم صياغته وفق مستويات متنوعة، منها(التشبيه بالمثل) أي: التشبيه الذي تتصدره عبارة(مثل)، كما إننا نعرف بأن أدوات التشبيه متنوعة أيضاً، ومنها(الكاف) التي استخدمت في هذا التشبيه(كماء أنزلناه)، كذلك نعرف جميعاً بأن التشبيه قد يكون مفردا بسيطاً مجملاً، وقد يكون مركباً ومفصلاً. . . والتشبيه الذي نواجهه من هذه الآية الكريمة هو من النوع المركب المفصل، مما يعني أن النص القرآني في صدد العرض لموضوع ذي دلالات متشعبة ذات خطوط فكرية مفصلة. وفعلاً نجد أن النص في صدد التعريف بالحياة الدنيا وما تكتنفها مــن مظاهر ترتبط برغبات الإنسان التي لا حدّ لإشباعها، ثم صلة ذلك بالعمل العبادي وانعكاساته على اليوم الآخر.

المهم أن الجزء الأول من هذه الصورة الفنية الموحدة تضمن تشبيه الحياة الدنيا بالمطر(كماء أنزلناه من السماء). . . وجاء الجزء الآخر من التشبيه موضحاً بأن هذا الماء قد اختلط به نبات الأرض، ثم جاء القسم الثالث من التشبيه موضحاً بأن هذا النبات هو مما يأكل منه الناس والأنعام. والسؤال هو:

ما هي الأسرار الفنية الكامنة وراء تشبيه الحياة بالماء المنزل من السماء، وبكونه قد اختلط به نبات الأرض، وبكون هذا النبات مما يأكله الناس والأنعام؟.

طبيعياً، إن كل قارىء أو مستمع: يستخلص من هذا التشبيه دلالات تتفق مع طبيعة تجاربه العقلية، وهو أمر يجعل للتشبيه قيمته الفنية ما دام التشبيه منطوياً على إيحاءات متنوعة وليست محدودة، فمثلاً يمكننا أن نستخلص من هذا التشبيه، بأن الماء المنزل من السماء(وهو المطر) يجسد أحد معطيات الله تعالى، بدليل أنه قد ارتبط بنبات الأرض، كما أنه ارتبط بنبات يفيد منه الناس كما تفيد منه الأنعام. ومجرد كون التشبيه قد جاء في سياق المعطيات أو النعم وليس في سياق آخر إنما يكشف عن مغزى فني له أهميته، فقد كان من الممكن ان يشبه النص الحياة بالماء وليس بالمطر حيث أن المطر غير الماء النابع مثلاً، بصفة أن الماء من الممكن ألا يفيد منه النبات بل تنسحب فائدته على مجالات اخرى، وهذا بعكس المطر الذي يرتبط بنبات الأرض، لذلك عندما يجيء التشبيه بالمطر: حينئذ يتداعى الذهن سريعاً إلى فائدته المباشرة للإنسان، بخاصة أن التشبيه قد قرن نبات الأرض بما يأكله الناس والأنعام، حيث أن بعض النبات من الممكن ألا يفيد منه الناس مباشرة، بعكس النبات الذي يؤكل من قبل الإنسان، وكذلك من قبل الحيوان.

إذن: عندما ينتخب التشبيه: المطر، دون سواه من أنواع المياه، فلأن ذلك ـ كما نحتمل فنياً ـ يرتبط بالمعطيات أو النعم التي يستهدف النص لفت الانتباه عليها بصورة غير مباشرة، ولأنها ترتبط بأشد الحاجات البشرية إلحاحاً ألا وهو الطعام الذي لا مناص من تناوله، وهذا يعني أن مفردات هذا التشبيه جاءت مترابطة فيما بينها مما يكشف عن إحكام النص مـن حيث ارتباط اجزائه

بعضاً مع الآخر، على نحو ما تقدّم الحديث عنه، وعلى نحو ما نفصل ذلك لاحقاً إن شاء الله.

* * *

التشبيه المتقدم يتضمن (إنما مثل الحياة الدنيا. . .) ثلاث صور هي: تشبيه الحياة الدنيا بالمطر، واختلاطه بنبات الأرض، وإنه نبات يأكله الناس والأنعام. وقد أوضحنا الأسرار الفنية الكامنة وراء تشبيه الدنيا بمطر يختلط بنبات الأرض. أما الآن فنتحدث عن الأسرار الفنية المرتبطة بكون هذا النبات الذي اختلط به المطر، إنما هو: نبات الناس والأنعام. لذلك نتساءل: لماذا تمت صياغة هذه الصورة الفنية(أي: نبات الأرض الذي يأكله الناس والأنعام)؟. لقد كان من الممكن أن يكتفي النص بتشبيه الحياة الدنيا بالنبات الذي تنتهي دورة نمائه فييبس ويتلاشى، حينئذ يكون تشبيه الحياة بالنبات: أمراً يتناسب مع طبيعة الحياة أو العمر الذي يتلاشى. فلماذا ربط النص بين النبات وبين أكله من قبل الناس والأنعام؟ وما هي صلة الأكل بذلك؟ ولماذا جمع بين الناس والأنعام؟.

إن هذه التساؤلات تظل مصحوبة بأهمية كبيرة مادمنا نعرف تماماً أنّ النص القرآني الكريم يعنى بالاقتصاد اللغوي، ولا يذكر عبارة إلا ولها دلالتها الفنية.

في تصورنا، أن السورة الكريمة سبق أن تحدثت عن ظواهر الإبداع الكوني: من سماء وأرض وشمس وقمر وليل ونهار، وبر وبحر الخ، حينئذ عندما تقدم لنا صورة تشبيهية أو سواها، يكون هذا التقديم مصحوباً بظاهرة إبداعية أيضاً ذات معطيات ملحوظة، ولذلك جاء تقديم النبات وكونه مما يأكله الناس والأنعام متناسباً مع المعطيات الكونية التي سخرها الله تعالى الإنسان. ولكي تأخذ الصورة التشبيهية اكثف دلالاتها، نجد أنها لم تكتف

بتذكير نعم الله تعالى على الإنسان وحده بل حتى على الحيوان الذي يستخدمه البشر لاشباع حاجاته، وهذا ما يفسر لنا السر الفني الكامن وراء تشبيه الحياة الدنيا بالنبات الذي يأكله الناس والأنعام، بصفة أن الأنعام يستخدمها البشر في إشباع أشد حاجاته الحيوية(الحاجة إلى الطعام)، كما يستخدمها في الركوب، ويستخدم جلودها وأشعارها في اللبس وفي سائر أدواته المنزلية... الخ. والمهم أن النص القرآني الكريم وظّف هذا التشبيه(تشبيه الحياة بالنبات الذي تأكله الناس والأنعام) وظفه في مهمة فنية مزدوجة، حيث استهدف ـ من جانب ـ التذكير بمعطيات الله تعالى، ثم استهدف ـ من جانب آخر ـ التذكير بأن هذا النبات من الممكن أن تلحقه آفة زراعية مثلاً ويتلاشى.

وهذا يعني أن النبات(بالرغم من كونه نعمة من الله تعالى) إلاّ إنه تلاشى (من خلال الآفات الزراعية وغيرها)... كذلك: الحياة الدنيا، فهي معطى من الله تعالى، بيد انها تتلاشى أيضاً، فيما ينبغي استثمار هذا المعطى في ممارسة المهمة العبادية التي خلق الإنسان من أجلها وليس في تحقيق الإشباع المجرد.

إذن: أمكننا إدراك السر الفني الكامن وراء انتخاب النبات الذي يأكله الناس والأنعام: طرفا لتشبيه الحياة الدنيا به، كما أمكننا ـ في الآن ذاته ـ أن ندرك السر الفني وراء انتخاب المطر ـ دون سواه ـ في هذا التشبيه، حيث قال تعالى: **﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نباتُ الأرض...﴾** حيث أن المطر هو معطى كبير كما هو واضح، وهذا المعطى يتجانس مع معطى النبات أيضاً، وهما جميعاً يتجانسان مع سائر المعطيات التي ذكرها النص في هذه السورة الكريمة، لكن **﴿إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً﴾** أي: أتاها أمر الله **﴿فجعلها حصيداً كأن لم تغن بالأمس﴾** أي: إذا ازدهرت الأرض بالنبات وظن الناس أنهم قادرون على الإفادة منها، إذا بالآفة السماوية تجتاح الأرض

ونباتها فيتلاشى كل شيء.

إذن، للمرة الجديدة، أمكننا ملاحظة هذا التشبيه الفني للحياة بالنبات الذي يفيد الإنسان منه وتلاشيه فجأة: أمكننا ملاحظة دلالاته الذي نفيد منها جانب، وتجانس أطرافه(من المطر، ونبات، وأكل) من جانب آخر، فيما يفصح هذا التجانس عن إحكام النص من حيث علاقة أجزائه بعضاً مع الآخر بالنحو الذي أوضحناه.

* * *

لقد أوضحنا الأسرار الفنية في هذه الآية الكريمة من حيث انطواؤها على تشبيه الحياة الدنيا بالمطر المختلط بنبات الأرض. أما الآن فنتحدث عن القسم الآخر من الآية الكريمة وهو **﴿حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس﴾**... إن القسم ينطوي على مجموعة من الصور الفنية من نحو: الاستعارة والتمثيل والتشبيه، وكل واحدة من هذه الصور تتآزر مع مثيلاتها في إبراز الدلالة التي يستهدفها القرآن الكريم في تشبيهه الحياة الدنيا بالمطر المختلط بالنبات، ثم اصابة هذا النبات بآفة سماوية بحيث يترتب عليها تلاشي هذا النبات وكأنه لم يكن شيئاً مذكوراً.

والمهم هو أن نقف عند الأسرار الفنية لصورة النبات الذي تصيبه آفة من السماء، فيتلاشى. إن القسم الأول من هذه الصور هو قوله تعالى: **﴿حتى أخذت الأرض زخرفها وازينت﴾**... إن الزخرف يعني: الحُسن في أرفع وأكمل المستويات، والزينة تعني: ارتداء أجمل الملبوسات، وحين يخلع النص هاتين السمتين على نبات الأرض إنما يستهدف ـ من خلال الاستعارة ـ توضيح أن الأرض: عندما يستكمل نمو النبات فيها ويثمر، أو: عندما يكسوها النبات ويحولها إلى مشاهد جميلة في غاية الجمال بحيث تتزين بهذه المرائي

أو المشاهد، ثم ـ في غمرة تصور الإنسان بأنه قادر على الانتفاع من هذه الأرض ـ إذا بالآفة السماوية تنهي كل شيء. ومع إدراكنا الوظيفة الفنية للاستعارتين(الزخرف والزينة)، حينئذ ينبغي أن نتبين الصور الفنية التي استخدمها النص بالنسبة لتوضيح الآفة السماوية التي تصيب الأرض ونباتها.

لقد استخدم النص القرآني الكريم صورتين فنيتين في رسم الآفة التي تصيب الأرض. هما(الرمز) و(التمثيل)، أما(الرمز) فهو قوله تعالى: **﴿أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً﴾**، وأما(التمثيل) فهو قوله تعالى**﴿فجعلناها حصيداً﴾**. لقد كان من الممكن ـ ما دام النص يتحدث عن الحياة الدنيا وكونها متاعاً عابراً ـ أن يقرر النص بأن نبات الأرض الذي اختلط بماء المطر: سوف يتعرض لليبس والتلف بعد أن يقطع مراحل النمو(تشبيهاً بالحياة الدنيا) ولكنه ـ أي النص القرآني الكريم ـ لم يستهدف في هذا الموضع مجرد تشبيه المتاع العابر بنبات ينمو ويموت بل يستهدف لفت النظر إلى أن تحقيق الإشباع الدنيوي إنما بأمر من الله تعالى بحيث يكون بمقدوره تعالى أن يحجز الناس من الاستمتاع بهذا النبات الذي يأكله الناس والأنعام(في حالة عدم القيام بوظيفتهم العبادية)، لذلك نجده قد اتجه إلى الصورة الفنية(الرمز) وهي قوله تعالى**﴿أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً﴾** أي: بينا خيّل للناس بأنهم قادرون على الانتفاع بنبات الأرض التي أخذت زخرفها وازينت: إذا بأوامرنا تصدر من السماء بأن تهلك هذا النبات من خلال حدوث آفة زراعية وغيرها، وحينئذ تصبح الأرض ونباتها(حصيداً: كأن لم تغن بالأمس).

وهذه الصورة(التمثيلية) أي: جعل الأرض حصيداً، تنطوي على سر فني هو: أن (الحصيد) الذي يعني(القطع) يرتبط في الذهن بكونه ذا علامة بالمحصول الزراعي، أي ما حُصِد من الزرع، ولكن النص حوّله من معناه القاموسي (وهو حصد الزرع) إلى دلالة مضادة هي(إتلاف الزرع)، بمعنى أن

الله تعالى يجعل هذه الأرض التي أخذت زخرفها وازينت و ظن الناس أنهم قادرون على الانتفاع بها، يجعلها ـ في لحظة ـ حصيداً، أي: أرضاً يابسة لا زرع فيها.

طبيعياً، ينبغي ألا نغفل عن أنّ النص القرآني الكريم قد رسم هذه الصورة الفنية في سياق حديثه عن أولئك الأشخاص الذين يتجهون إلى الله تعالى في حالة الشدائد، ولكنهم حينما يفرج عنهم: يبغون في الأرض فساداً، وحينئذ هدّدهم الله تعالى بقوله: **﴿يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم﴾**، وفي غمرة هذا التهديد تقدم النص برسم الصور الفنية المرتبطة بمتاع الحياة الدنيا(وهي الأرض ونباتها)، محققاً بهذا الرسم: إحكام النص من حيث علاقة أجزائه بعضاً مع الآخر، بالنحو الذي لحظناه.

* * *

قال تعالى**﴿والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم * للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قترٌ ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون * والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة مالهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلماً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾**.

هذا المقطع من سورة يونس امتداد لمقاطع تحوم فكرتها على اليوم الآخر، حيث يقارن هذا المقطع بين مصائر المؤمنين ومصائر المنحرفين التي ينتهون إليها في اليوم الآخر، وقد ركن النص إلى عنصر(الصورة الفنية) في رسمه للمصائر المشار إليها، فبدأ بالحديث عن المؤمنين: (للذين أحسنوا: الحسنى وزيادة) (ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة). إن صورة (لا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة) تنتسب إلى الصورة(الرمزية) أو(الاستعارية) حيث

يرمز(القتر) ـ وهو الغبار أو السواد ـ إلى الكآبة التي تصيب المنحرف، منعكسة على المظهر الخارجي للوجه. وأهمية هذه الصورة(فنياً) إنها قد انتخبت عينة حسية هي الغبار والدخان بصفة أنهما(من حيث اللون) غير محددين، وليس فيهما أي ملمح من الجلاء والإشراق الذي يميز سائر الألوان، إن لون الدخان والغبار يميل إلى القتامة والضبابية والدكنة، ولا شيء أدل على إبراز أثر الكآبة على الوجه من اللون الداكن، لأنه لون غائم يتناسب مع الكآبة التي لا تتحدد أيضاً في انعكاساتها على الوجه... طبيعيا أن اللون الأسود(كما سنرى عند حديثنا عن الصورة التي رسمها النص للمنحرفين) يفصح عن الانعكاسات النفسية الأخرى على الوجه، إلا أن الكآبة أو القلق مثلاً (بصفتها تعبيراً عن الصراع أو التمزق) يختلفان عن (اليأس) الذي يتناسب مع لون محدد هو السواد، لأن اليأس عملية نفسية لا أثر للصراع فيها ما دام الأمل لا وجود له في أعماق المنحرف، بعكس الكآبة أو القلق اللذين يكشفان عن صراع وتجاذب نفسي بين الأمل واليأس.

المهم، إن الصورة التي رسمها النص بالنسبة للمؤمنين وهي: إن وجوههم سوف لن يلحقها قتر، تظل إفصاحاً عن اليقين أو الاطمئنان الذي يتحسسه المؤمن وهو يواجه اليوم الآخر. وهذا على العكس من المنحرف الذي رسمه النص وفق الصورة الآتية: ﴿**كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً**﴾... إن هذه الصورة ـ كما ألمحنا قبل قليل ـ لم تتجه إلى خلع سمة الغبار أو الدخان على وجه المنحرف، بل خلعت سمة الليل المظلم، أي اللون الأسود وليس اللون القاتم مثلاً. والسر في ذلك ـ كما نحتمل ذلك من خلال التذوق الفني الصرف ـ إن النص يستهدف لفت النظر إلى أنّ المنحرف يصدر عن استجابة يائسة في اليوم الآخر، غير محفوفة بأي أملٍ من الخلاص، لذلك ينعكس هذا اليأس على وجهه بنحو يتحول فيه الوجه إلى لون يماثل الليل المظلم. علماً بأن اللون الأسود هو أشد الألوان غيمومة، كذلك فإن اليأس هو

أشد الاستجابات أو ردود الفعل غيمومة، وذلك لعدم اقترانه بأمل الخلاص.

ويلاحظ أن النص شبه وجه المنحرف بقطع من الليل، وكان من الممكن أن يشبهه بالظلام مطلقاً، إلا أنه اتجه إلى التشبيه بـ(القطع) أي بالأجزاء من الليل، نظراً ـ كما نحتمل ذلك فنياًـ إلى ان الأجزاء مىن الظلام ترمز إلى أجزاء من اليأس أو الانسحاق، أي أن المنحرف يواجه مستويات متنوعة من اليأس، فهو أنَّى يتجه: يرتطم بشدة نفسية بحيث تتوالى الشدائد عليه منعكسة في قطع على وجهه، كل قطعة: تفصح عن شدة، وهكذا. إذن، أمكننا ملاحظة هاتين الصورتين: الصورة التي تنفي عن المؤمن إلحاق أي قتر في وجهه، والصورة التي تؤكد بأن المنحرف يتحول وجهه إلى مظهر يماثل قطعاً من الليل مظلماً، حيث جاءت كل صورة متواسقة مع طبيعة الموقف، وهو أمر يفصح عن جمالية الرسم: من حيث(الإحكام) الذي يطبع النص القرآني الكريم: في علاقة جزئياته: بعضاً مع الآخر.

* * *

قال تعالى: ﴿ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيَّلنا بينهم وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون * فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين﴾.

هذا المقطع من السورة الكريمة يتناول جانباً من مواقف اليوم الآخر(وهو العصب الفكري للسورة)، حيث يعرض ـ وفق منحىً فني ـ موقف المشركين وشركائهم من خلال المحاورة بين الطرفين: المشركين ومن أشركوهم في العبادة: من أوثان أو جن أو ملائكة... وقد اعتمد المقطع: أدوات العرض القصصي في رسمه لهذا الموقف، حيث سرد أولاً مقدمات العرض وهو ﴿ويوم نحشرهم﴾ ثم بدأت المحاورة من قبل الله تعالى: ﴿ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم﴾ هذه المخاطبة تحمل بعداً فنياً هو: رسمها

لقاعة المحاكمة، حيث طالبت بأن يجتمع المشركون وشركاؤهم في مكان معين. ثم أوضح النص بأنه يتم التفريق بين الطرفين في البدء ﴿فزيَّلنا بينهم﴾ أي: فرّقنا بين المشركين وشركائهم بعد ان طولبوا بالحضور في مكان محدد، ثم يبدأ الحوار بين المشركين وشركائهم، ولكن النص لا يعرض من هذا الحوار إلا طرفاً واحداً هو: حوار الشركاء وليس حوار المشركين، تاركاً للقارىء بأن يستخلص بنفسه ـ وهذه هي سمة الفن المدهش ـ أن المشركين إما إنهم لم يتقدموا بأي سؤال لشركائهم: حيث لا ضرورة للسؤال عن قوى هم قد أشركوها(مثل الأصنام أو الجن أو الملائكة) دون أن تطلب هذه القوى مشاركتهم، بل إن عدم رؤيتهم للشريك (كما لو كان من الجن أو الملائكة) أو عدم إمكان محادثتهم مع الشريك (كما لو كان وثناً) لا يسمح لهم ـ في قاعة المحكمة ـ بأن يوجّهوا إليها سؤالاً عن موافقتهم لاتخاذهم شركاء.

لذلك(من الزاوية الفنية) لم يذكر النص سوى حوار الشركاء الذين قالوا: ﴿ما كنتم إيانا تعبدون﴾ أي: يقول الشركاء(لم نشعر بانكم كنتم قد اشركتمونا في عبادة الله تعالى). وهذا الجواب ينطوي على قيمة فنية كبيرة، حيث ان الشركاء(إذا كانوا أوثاناً) حينئذ فإنهم لم يشعروا حقاً بعبادة الناس لأنها مجرد أحجار، فقولهم في اليوم الآخر ﴿ما كنتم إيانا تعبدون﴾ يعني إن نفي العلم بالعبادة ناشيء من كون الحجارة لا تحس بالقرارات التي يتخذها المشركون. كذلك(مع افتراض أن الشركاء هم من قوى الجن او الملائكة) لا علم لهم بهذه المشاركة أو بالأحرى لم يدخلوا طرفاً في القضية، حيث لم يتم اتفاق على مثل هذه العبادة المشركة، ولذلك فإن قولهم﴿ما كنتم إيانا تعبدون﴾ يظل جواباً فنياً للتدخل على انهم لا دخل لهم في صنع القرارات المشركة.

ليس هذا فحسب، بل إن شركاءهم يواصلون التعليق على مواقف المشركين، ويقولون لهم﴿فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتهم

لغافلين﴾. هذا التعليق يلقي إنارة فنية على الموقف، فهو أولاً يوضح بأن الله تعالى هو الذي يتكفل بحسم الموقف فيما بيننا وبينكم(بين الشركاء والمشركين)، ويوضح ثانياً ـ وهذا الملفت للنظر فنياً ـ إن الشركاء غافلون عن قرارات المشركين **﴿كنا عن عبادتهم لغافلين﴾**. والأهمية الفنية لهذا التعليق هي: إن القارىء لم يكن يدرك معنى قولهم أولاً**﴿ما كنتم إيانا تعبدون﴾**لأن المشركين قد عبدوا هذه الأوثان أو القوى غير المرئية، وحينئذ لا بد أن يكون المقصود من قولهم**﴿ما كنتم إيانا تعبدون﴾** ليس هو عدم العبادة بل عدم اطلاع هذه القوى أو الأحجار على عبادتهم. وهذا الاستخلاص لا يمكن ان يصدر عنه القارىء إلاّ من خلال التعليق الأخير القائل**﴿إن كنا عن عبادتكم لغافلين﴾**، إذن: جاء هذا التعليق بمثابة توظيف فني يستهدف توضيح المقصود من كلامهم **﴿ما كنتم إيانا تعبدون﴾**... و هذا أمر له أهميته الفنية الكبيرة ـ ما دمنا أساساً نعني في دراساتنا ـ بالبناء العماري لنصوص القرآن الكريم، حيث تلتحم أجزاء النص فيما بينها من خلال التنامي العضوي بين الأجزاء من جانب، وبينها وبين الفكرة أو الموضوع العام للسورة بأكملها من جانب آخر، علماً أن السورة الكريمة تحوم على موضوع اليوم الآخر فيما يكشف مثل هذا التلاحم عن إحكام العمارة الفنية للسورة الكريمة بالنحو الذي أوضحناه.

* * *

قال تعالى **﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحيّ و من يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون * فذ لكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنّى تصرفون﴾**.

يتحدث هذا المقطع عن سلوك المشركين الذين لا يؤمنون باليوم الآخر. الجديد في المقطع هو: تذكيرهم بالحقائق الحسية التي يخبرها المشركون،

ومنها: قضية الرزق أو قضية المطر الذي ينزله الله تعالى من السماء فيختلط بنبات الأرض، حيث سبق للنص القرآني الكريم أن قدم تشبيهاً للحياة الدنيا بأنها مثل ماء أنزل من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام.

وها هو النص يذكر المشركين بقضية الرزق **﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض﴾** حيث أن المطر من السماء والنبات من الأرض، إنه يذكرهم بهذه الظاهرة التي يقرون بها: ليربط بين أجزاء السورة بعضها مع الآخر، وليواصل طرح الموضوعات الجديدة من نحو تذكيرهم بأن الله تعالى يملك السمع والأبصار، ويخرج الحي من الميت وبالعكس، ويدبر الأمر. وهي ظواهر يقر بها المشركون بدليل أنهم عندما يسألون عمن يرزقهما... الخ. (فسيقولون: الله). لذلك يعقب المقطع على هذا الإقرار بقوله تعالى **﴿فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال﴾**. إن هذه الفكرة **﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال﴾** تجسد صورة نطلق عليها مصطلح(الصورة الاستدلالية) حيث تستهدف هذه الصورة لفت النظر إلى أن المشركين ضالّون في ذهابهم إلى أن الأصنام أو القوى الأخرى تملك فاعلية الرزق وغيره، ولكنه بدلا من أن يتحدث مباشرة عن هذه الحقيقة: اتجه إلى صياغتها من خلال(الصورة الاستدلالية) التي تقول: **﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال﴾** حيث يستوحي القارىء منها بأنه كل ما يصدر عنه المشركون من سلوك إنما هو ضلال: بعد ان أقروا بأن الله تعالى يملك فاعلية الرزق وسواه.

وهنا يعود النص ليطرح من جديد تساؤلاً آخر هو: **﴿قل هل من شركائكم من يَبْدؤا الخلق ثم يعيده﴾ ﴿قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق﴾**... وأهمية مثل هذا التساؤل هي: إن النص القرآني الكريم(ما دام

الموضوع الرئيس فيه هو: فكرة اليوم الآخر) حينئذ يكون طرح هذا السؤال عن بدء الخلق وإعادته: مستدعياً لاستحضار فكرة اليوم الآخر، كما أن طرحه للسؤال عمن يهدي إلى الحق: إنما هو عملية ربط بين الصورة الاستدلالية السابقة ﴿**فماذا بعد الحق إلا الضلال**﴾ وبين صورة استدلالية جديدة هو قوله تعالى ﴿**افمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لايهدي إلا أن يُهدى فما لكم كيف تحكمون * وما يتبع أكثرهم إلاّ ظناً إن الظن لا يغني من الحق شيئاً**﴾.

هذه الصورة الاستدلالية، تنطوي على جملة من الأسرار الفنية، منها ما يتصل بالشركاء، حيث قارن بين الله تعالى ﴿**وهو يهدي الحق**﴾ وبيَّنها حينما قال ﴿**افمن يهدي إلى الحق أحقُّ أن يتبع أمن لايهدي إلا أن يُهدى**﴾. هنا قد يتساءل القارىء: ما المقصود من هذه الصورة الاستدلالية التي تقول بأن الشركاء لا تهدي إلى الحق إلاّ أن تُهدى إلى الحق؟ علما بأن الأصنام مثلاً لا تملك وعياً حتى تهدي إلى الحق... ونُجيب أن مهمة الصورة الفنية هي أنها تتعامل على نحو(المجاز) مع الظواهر، وليس على نحو الحقيقة، وهذا ما يفرق بينها وبين الكلام التقريري، لذلك عندما يخلع النص القرآني الكريم سمة (الوعي) على الشركاء: إنما يخلع ذلك(مجازاً) وليس حقيقة، أي أنه مجرد افتراض: لتبيين الحقيقة الذاهبة إلى أن الأصنام لا تملك فاعلية الإهداء إلى الحق حتى في حالة افتراضنا تملكها للوعي.

خلال ذلك، يطرح المقطع إحدى حقائق السلوك العقلي وهي ﴿**إن الظن لا يُغني من الحق شيئاً**﴾، بمعنى أنَّ المشركين يتبعون الظن ـ وليس الحقيقة ـ في موقفهم المذكور: مع أن الظن لا يُغني من الحق شيئاً، حيث تتضمن هذه العبارة عنصراً استدلالياً من جانب (وهو عدم إغناء الظن من الحق شيئاً)، وتتضمن من جانب ثانٍ: تقريراً لإحدى حقائق السلوك الذهني عند البشر. فضلاً عن إنهاـ من جانب ثالث ـ تقوم بعملية ربط فني بين موضوعات السورة الكريمة التي تحوم على فكرة اليوم الآخر وموقف المشركين من ذلك ومن

سائر أنماط سلوكهم، حيث يتضح مثل هذا الربط عن الاحكام الهندسي للنص، بالنحو الذي أوضحناه.

* * *

قال تعالى﴿ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون * ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدي العُميَ ولو كانوا لا يبصرون﴾.

نواجه في هذا المقطع من سورة يونس: رسماً جديداً لسلوك المنحرفين عن رسالة الإسلام. لقد رسمهم النص القرآني الكريم صماً وعمياً، لا يعقلون ولا يبصرون. لكن ما يعنينا من هذا الرسم هو: المنحى الفني الذي سلكه النص في صياغة الموضوع. لقد استخدم النص أدوات (لفظية وصورية) بالغة الإثارة في صياغة هذا الموضوع، حيث اعتمد(من حيث الصورة) عنصر(الرمز) أولاً... ومن المعلوم أن(الرمز) هو أشد الصور قابلية على الإيحاء وتكثيف الدلالات بالقياس إلى الصور الأخرى: من تشبيه واستعارة وتمثيل ونحوها. لقد(رمز) للكافر بأنه(أصم)، والأصم من فقد جهاز السمع، و(رمز) له بأنه(أعمى)، والأعمى هو من فقد جهاز النظر. وأهمية هذين الرمزين تتمثل في كون(السمع) و(البصر) هما: أدق الأجهزة قابلية في تلقي الأشياء وإدراكها، بالقياس إلى أجهزة الذوق والشم واللمس. لذلك، عندما ينتخب النص أشد الحواس قابلية في ادراك الشيء، حينئذ يكون بهذا الانتقاء قد أجهز على الكافر وسيلة مقومات الإدراك، وألغاه من الحساب تماماً.

وهذا ما يتصل بعنصر(الصورة)...

بيد أن ما يضخم من عنصر الإثارة الفنية هو: صياغة هذه الصور من خلال(الأدوات اللفظية) من(تقابلٍ) و(تساؤل) و(افتراضات) ونحوها.

لقد وصفهم النص بأنهم يطلبون الاستماع إلى كلام محمد(ص) فقال(ومنهم من يستمعون إليك) ثم تساءل قائلاً ﴿أفأنت تسمع الصّمَّ﴾ ثم

أضاف أيضاً ﴿ولو كانوا لا يعقلون﴾. طبيعياً قد يتساءل القارىء عن السر الفني وراء صياغة هذه الحقيقة على نحو الاستفهام والمخاطبة ﴿أفأنت تسمع الصم﴾، وقد يتساءل أيضاً عن السر الفني وراء عبارة﴿ولو كانوا لا يعقلون﴾ بصفة أن الأصم لا يسمع أساساً، وتبعاً لذلك لا يتعقل الكلام، فلماذا ـ إذن ـ أتى بهذه العبارة التي تبدو وكأنها يمكن أن يستغنى عنها؟.

والسر الفني في هذا، أن النص حينما رسم الكافر بأنه(أصم) إنما رسمه بذلك على نحو(الرمز) وليس (الحقيقة)، لأن الكافر يمتلك جهاز السمع، ولكنه لا يمتلك قابلية التعقل للكلام، ولذلك تساءل ﴿ولو كانوا لا يعقلون﴾.

كذلك، نجد أن النص سلك نفس المنحىٰ في (الرمز) الآخر المتصل بجهاز البصر، حيث قال أولاً ﴿ومنهم من ينظر إليك﴾ ثم تساءل ﴿أفأنت تهدي العمي﴾ ثم أضاف ﴿ولو كانوا لا يبصرون﴾، حيث جاءت عبارة ﴿ولو كانوا لا يبصرون﴾ محكومة بنفس الحقيقة التي ذكرها، وهي إن صفة(العمى) بالنسبة للكافر جاءت على نحو(الرمز) وليس(الحقيقة)، لأن الكافر يتملك جهاز البصر، ولكنه يفتقد القابلية على ممارسة النظر. ويثار سؤال آخر: إن الكافر يستمع إلى محمد(ص) و«ينظر» إلى محمد(ص)، وإذا كان «الاستماع» يعني: الاستماع إلى أقواله(ص) ورفضها من قبل الكافر، حينئذ فما هو معنى النظر إلى محمد(ص)؟ أي لماذا قال النص: إن الكافرين ينظرون إلى محمد(ص) ولكنهم لا يبصرون، مع أن النظر إلى شخصية محمد(ص) لا علاقة له بالرسالة بخلاف الاستماع إلى أقواله: لأنها ذات صلة بالرسالة كما هو واضح؟.

في تصورنا أن النظر إلى محمد(ص) إنما هو(تجوّز) وليس «حقيقة»، أي إن النظر هنا هو(رمز) إلى شيء آخر هو(الآيات الكونية) التي تستدعي ممارسة النظر، أو الأدلة التجريبية أو حتى الأدلة العقلية التي تستدعي «النظر» فيها، فيكون(النظر) هنا رمزاً للتأمل الفكري. والمهم ـ بعد ذلك كله ـ أن نشير

إلى أن هذين الرمزين وطريقة صياغتهما قد خضع رسمهما إلى بناء فني ممتع ومحكم، بحيث(تتقابل) العبارات والموضوعات فيما بينها على نحو متوازٍ هندسياً، حيث تقابل عبارة ﴿ومنهم من يستمعون إليك﴾ عبارة ﴿ومنهم من ينظر إليك﴾، وتقابل عبارة ﴿أفأنت تسمع الصم﴾عبارة ﴿أفأنت تهدي العمي﴾ وتقابل عبارة ﴿ولو كانوا يعقلون﴾ عبارة ﴿ولو كانوا لا يبصرون﴾. إن هذا التقابل بين العبارات(من حيث صياغتها)، ثم تقابل موضوعاتها: يحقق قمة الإثارة والدهشة والإمتاع الفني حيث يتلمس القارىء أو المستمع مدى(إحكام) النص من حيث تلاحم وتواشج وتجانس موضوعاته: بعضها مع الآخر، بالنحو الذي أوضحناه.

* * *

قال تعالى: ﴿ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين﴾.

تتحدث هذه الآية الكريمة عن احد مواقف اليوم الآخر، عندما يحشر الناس في عرصات يوم القيامة... حيث تعرض الآية واحداً من أشكال ردود الفعل التي يصدر الناس عنها في لحظة مواجهتهم لهذا اليوم، وهو: الإحساس بالزمن، حيث تقول الآية بأن إحساسهم بالزمن يقوم على هذا النحو﴿كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار﴾.

إن الإحساس بالزمن يشكل واحداً من عناصر العمل الفني الذي تعنى به تجربة الأدب البشري، وحينما ننقل هذا الإحساس إلى الفن التشريعي(وهو: القرآن الكريم) نجد أن صياغة هذا الإحساس بالزمن تأخذ بعداً فنياً له إثارته وطرافته الفكرية والجمالية، بخاصة إذا تمت صياغته بهذا النحو الذي عرضته الآية الكريمة، حينما لفّعته بشيء من الغموض الفني. إن النصوص المفسرة تتراوح في تفسير المقصود من عبارة ﴿ساعة من النهار﴾، كما أن القارىء نفسه

يظل مستخلصاً أكثر من دلاله دون أن يستطيع ان يرسو على يقين محدد، حيث يتردد بين الذهاب إلى أن المقصود من ذلك هو إحساس البشر بأنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة، أو إحساسهم بأنهم لم يلبثوا في القبور إلا ساعة، بالقياس إلى الزمن الذي يواجهونه في تلكم اللحظة.

طبيعياً، أن النص القرآني الكريم قدم(صورة تشبيهية) تعتمد الأداة(كأن) لبلورة هذا الإحساس بالزمن، لأن هذه الأداة بالقياس إلى أدوات التشبيه الأخرى تظل ملتقطة لا وجه الشبه بين الشيئين بنحو يقل عن الأدوات الأخرى، مما يعني إن الإحساس بالزمن (وكأن الدنيا أو القبر هو ساعة من النهار) هو إحساس لا حقيقة واقعية له من حيث القياس الطبيعي بقدر ما يفرضه أهوال يوم القيامة حيث أن طول النهار الذي يستغرقه يوم الحشر: يجعلهم يتحسسون بأن الدنيا وكأنها ساعة من هذا اليوم... طبيعياً، أن نهار القيامة(وفقاً لنصوص قرآنية أخرى تشير إلى اليوم الآخر بأنه خمسون ألف سنة) يجعل الإحساس بزمن الدنيا: ساعة من نهار الآخرة... لكن هل يستخلص القارىء بأن المقصود هو مقايسة نهار الآخرة بزمن الدنيا، أم يمكنه أن يستخلص شيئاً آخر هو: إن نهار الدنيا أو نعيمها يبدو الآن وكأنه ساعة من النهار: ليس بالقياس إلى نهار الآخرة بل بالقياس إلى نهار الدنيا نفسها، لأن الإمتاع الذي كانوا يتحسسونه في الدنيا قد تصرم ولا أثر له الآن مما يجعل الإحساس به وكأنه ساعة أو لحظة تصرمت؟

إن كلا من الاحتمالين وارد دون أدنى شك، فالاحتمال الأول تفرضه قرائن أخرى تشير إلى طول يوم القيامة واستغراقه خمسين ألف سنة، والاحتمال الآخر تفرضه قرائن فنية هي أداة التشبيه(كأن)، ولعل هذا الاحتمال هو الأصح، إذا أخذنا بنظر الاعتبار ان استخدام التشبيه يسوغ لنا هذا الاحتمال، لأن الذهاب إلى أن نهار الدنيا كأنه ساعة من الآخرة لا يحتاج إلى

(التشبيه) ما دامت الآخرة تخضع لمقاييس زمنية أخرى، وهذا على العكس من إحساس الإنسان بماضيه الذي يبدو الآن وكأنه لحظة تصرمت، أي أن الإنسان حتى في تجربته الدنيوية كأن يستعرض لذائذ الماضي حتى يتحسسها قصيرة(في لحظته الحاضرة) مع ان الماضي يمتد سنوات طوالاً. وأياً كان الأمر، فإن خضوع هذه الصورة الفنية لأكثر من احتمال فني: يهبها قيمة جمالية ضخمة دون أدنى شك، فضلاً عما تنطوي عليه من دلالات متنوعة تصب جميعاً في هدف واحد هو: إن الحياة الدنيا تبدو وكأنها ساعة، حيث ينبغي للشخصية أن تعتبر بهذه الحقيقة وأن تعدّل سلوكها وتوظفه من أجل العمل بمبادىء الله تعالى.

أخيراً يجب ألا نغفل عن أن سورة يونس تحوم على فكرة اليوم الآخر، وان هذه االآية الكريمة جاءت في سياق الفكرة المشار إليها، مما يكشف ذلك عن الإحكام الهندسي للسورة من حيث علاقة أجزائها بعضاً مع الآخر.

* * *

قال تعالى: ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين * قل لا أملك لنفسي ضرّا ولا نفعاً إلا ما شاء الله لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون * قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتاً أو نهاراً ماذا يستعجل منه المجرمون﴾.

هذا المقطع من سورة يونس امتدادٌ لمقاطع سابقة تتحدث عن قضايا اليوم الآخر وموقف المشركين منه. إلا أن السورة الكريمة لا تحصر الموضوع في فئة من المشركين بل تطرح هذه القضايا ليفيد منها الناس جميعاً، كما إنها تتجاوز قضايا اليوم الآخر لتطرح من خلال حديثها عن هذا اليوم: مفهومات أخرى تستهدف توصيلها إلينا. من ذلك مثلاً: هذا المفهوم ﴿قل لا أملك لنفسي ضرّا ولا نفعاً إلا ما شاء الله﴾ فهذا الموضوع يرتبط بحقيقة عباديه هي:

إن الإنسان مطلقاً لا فاعلية لديه وإن الله هو الذي يهب الإنسان فاعلية التحرك من هذا الميدان أو ذلك. . . فهذا الموضوع بالرغم من انه جاء في سياق الحديث عن سؤال المشركين عن ميعاد اليوم الآخر **﴿ويقولون متىٰ هذا الوعد﴾** إلا أنه جاء جواباً عاماً يتصل بمطلق سلوك الإنسان كما قلنا.

وهكذا بالنسبة لطرح الموضوع الآخر وهو قوله تعالى: **﴿لكل أمة أجل﴾**، فهذا الكلام بالرغم من أنه جاء في سياق الإجابة عن سؤال المشركين حول ميعاد اليوم الآخر أو حول ميعاد نزول العذاب عليهم دنيوياً، إلا أن النص قدم إجابة عامة تتصل بأحد المبادىء الاجتماعية أو القوانين الاجتماعية التي تحكم المجتمعات، وهو القانون القائل بأنه **﴿لكل أمة أجل﴾** وهو أمر يمكن ملاحظته بالنسبة للمجتمعات البشرية جميعاً: قديمها وحديثها حيث نجد قيام المجتمعات وزوالها ـ في مختلف العصور ـ أمراً لا ترديد فيه بحيث يشكل قانوناً عاماً كما هو ملاحظ.

إذن، عندما يطرح النص قضية خاصة مثل اليوم الآخر، يطرح في الآن نفسه قضايا عامة من نحو المبدأ النفسي القائل بأن الإنسان لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرّاً، والمبدأ الاجتماعي القائل بأن لكل أمة أجلها. . . وهذا النوع من الصياغة الفنية: له أهمية الكبيرة من حيث عمارة السورة القرآنية الكريمة حيث يتم الربط بين موضوع رئيس تحوم عليه السورة وبين موضوعات ثانوية تتخلل ذلك.

ولعل أوضح مستويات البناء الفني، يتمثل في هذه الإجابة التي يقدمها النص بالنسبة لأولئك المشركين الذين يتساءلون عن ميعاد اليوم الآخر أو ميعاد نزول العذاب عليهم، حيث يخاطبهم **﴿أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتاً أو نهاراً﴾** أي: ماذا يستعجلون من العذاب الذي يأتيكم فجأة ليلاً أو نهاراً؟ هنا ينبغي أن نتذكر بأن النص ـ في مقطع أسبق ـ قدم لنا تشبيهاً عن الحياة الدنيا بأنها تشبه

النبات الذي يأكله الناس والأنعام ﴿حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها إنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً﴾. . . هنا أيضاً يقول النص ﴿أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتاً أو نهاراً﴾ أي: جانس النص بين الزرع الذي يظن الناس انهم يسيطرون عليه: ثم تأتي آفة سماوية تقضي عليه ليلاً أو نهاراً، وبين العذاب الذي يظن المشركون بأنهم بمنأى منه، حيث يمكن أن يأتيهم ليلاً أو نهاراً أيضاً. إذن، كم نجد هنا(من حيث عمارة السورة) جمالية ملحوظة بين موضوعاتها المتلاحمة، حيث توازن بين نقاط متباعدة في النص وتخضعها لخيط فكري يربط بينها: بين آفة سماوية تقتلع الزرع الذي يأكله الناس والأنعام ليلاً أو نهاراً، وبين عذاب يقتلع المشركين ليلاً أو نهاراً، حيث يفصح مثل هذا التوازن ـ كما قلنا ـ عن إحكام السورة الكريمة من حيث صلة موضوعاتها.

* * *

قال تعالى: ﴿ويستنبئونك أحق هو قل إي وربي إنه لَحقٌّ وما أنتم بمعجزين * ولو أنَّ لكل نفس ظلمت ما في الأرض لافتدت به و أسروا الندامة لما رأوا العذاب وقضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون﴾.

هذا المقطع يتحدث عن جانبٍ جديد من سلوك المنحرفين وردود فعلهم في اليوم الآخر. وقد ربط النص بين سلوكهم دنيوياً وأخروياً، أي: انعكاسات سلوكهم في الدنيا على ردود فعلهم في اليوم الآخر، فأوضح بأن المنحرفين يوجّهون، سؤالهم إلى النبي(ص) بهذا النحو: ﴿ويستنبئونك أحق﴾ أي: يسألونك يا محمد: أحق أن العذاب الواقع دنيوياً؟ أو أحق أنه الواقع أخروياً؟ أو: أحق هذه الشريعة التي جئت بها؟ أو أحق ما تلوّح به من حقائق اليوم الآخر. كل هذه التساؤلات من الممكن ان يستخلصها القارىء من عبارة ﴿ويستنبئونك أحق﴾ حيث إن سمة الفن العظيم: أن يرشح بجملة من الدلالات التي تختزنها العبارة. والمهم ـ فنياً ـ أنَّ الأجزاء اللاحقة من المقطع القرآني

الكريم: تسمح للقارىء بأن يرجح التفسير القائل بأن سؤالكم يدور حول اليوم الآخر أو حول العذاب الذي لوّح به النبي(ص) من انه واقع بهم، يدلنا على ذلك قوله تعالى ﴿ولو أن لكل نفس ظلمت ما في الأرض لافتدت به وأسروا الندامة لمّا رأوا العذاب﴾. هذا الكلام ـ فضلاً عن كونه ينطوي على وظيفة فنية هي: إلقاء الضوء على محتوى السؤال الذي تقدم به المنحرفون نجده منطوياً أيضاً على حقائق جديدة عن اليوم الآخر من حيث ردود الفعل التي تصدر عن المنحرفين. فأولاً يوضح النص بأن المنحرف يتمنى بأنه لو افتدى بكل ما في الأرض لإنقاذ نفسه من العذاب، ويوضح ثانياً بأن المنحرف يخفي ندمه حينئذ. هذه الحقيقة الأخيرة تتطلب شيئاً من التوضيح: نظراً لدلالاتها النفسية التي تكشف عن تركيبة الشخص المنحرف ـ كافراً كان أم فاسقاً ـ يتمنى لو يفتدي بكل ما في الأرض من إنقاذ نفسه: نظراً لهول الموقف والمصير إلا أنه: يسر الندامة ولا يعلنها. ترى ما هو السر في ذلك؟

النص القرآني الكريم ساكت عن تبيين السر... لكن بمقدور القارىء أن يستخلص بأن سبب ذلك هو: أنَّ إسراره أو إعلانه للندم لا ينقذه من العذاب بدليل انه لو يفتدي بكل ما في الأرض لم ينفعه ذلك... لكن: لماذا يخفي ندمه علماً بأن النصوص القرآنية ـ في مواقع أخرى ـ تذكر كيف أنَّ المنحرفين يعضون أناملهم حسرة على ما فاتهم من العمل العبادي أو تذكر تلكم النصوص: بأن رؤساء الضلال يتبادلون مع أتباعهم: اللوم حيث يلقي كل طرف مسؤولية انحرافه على الآخر، أو أنَّ المنحرفين يتوسلون بإرجاعهم إلى الحياة ليعملوا صالحاً...الخ. كل هذه المواقف تكشف عن أنَّ المنحرف (يعلن) ندمه ولا يخفيه عن الآخرين. فلماذا ـ إذن ـ نجد المنحرفين ـ في هذا المقطع الذي تتحدث عنهم السورة الكريمة ـ قد ﴿أسروا الندامة لمّا رأوا العذاب﴾.

في تصورنا، أنَّ بعض الحالات تفرض على المنحرف ـ وهو يواجه أشخاصاً كانوا يتحدونه بنزول العذاب أو كان يتعجل نزول العذاب كما هو مفادُ مقطع سابق يقول(وقد كنتم به ـ أي العذاب ـ تستعجلون)، حينئذ عند مواجهته لعذاب كان يتعجله سخرية، لا بد أن يتظاهر بعدم الندم: صوناً لماء الوجه كما هو واضح، والمهم أنَّ رجوعنا إلى الآيات السابقة أو اللاحقة لهذا المقطع الذي نتحدث عنه، يقتادنا لكشف أمثلة هذه الحقائق فيما يفصح ذلك عن إحكام النص القرآني الكريم من حيث علاقة أجزائه بعضها مع الآخر.

* * *

قال تعالى: **﴿يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاءٌ لما في الصدور وهدىً ورحمةٌ للمؤمنين * قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خيرٌ مما يجمعون﴾**.

هذا المقطع من السورة الكريمة يتضمن عنصراً صورياً هو «التمثيل» أو «الرمز» بالنسبة إلى القرآن الكريم ومبادئه. فقد(مثَّلَ) للقرآن الكريم بصورة **﴿الشفاء لما في الصدور﴾** أي: اكتسب القرآن الكريم طابع «الدواء» بالنسبة للنفس، طبيعياً كان من الممكن أن(يشبه) القرآن الكريم «بالدواء» الذي يشفي ما في الصدر، أي كان من الممكن أن نواجه صورة(التشبيه) بدلاً من(التمثيل) فيقال مثلا إنَّ القرآن بمنزلة الدواء: لكن بما أن الفارق بين(التشبيه) و(التمثيل) أنَّ التشبيه يتناول العلاقة بين شيئين: بخلاف(التمثيل) الذي يتناول العلاقة بين شيئين: يكون احدهما تجسيماً وتجسيداً للآخر، أي أنَّ كل طرف من الطرفين هو عين الآخر وليس شبيهه، من هنا عندما قال النص الكريم بأن القرآن هو(شفاء) إنما جعله شفاء حقيقيا لمرض النفس مقابل الأدوية الكيميائية التي هي شفاء لمرض الجسم، وهذا بخلاف ما لو قال مثلاً بأن القرآن هو بمثابة أو بمنزلة الشفاء ـ لأننا بمثل هذا التعبير الأخير نكون أمام«تشبيه» وليس أمام

حقيقة. والمهم بعد ذلك أن نقف عند هذه الصورة التمثيلية لملاحظة دلالاتها فنياً وفكرياً.

إنَّ صياغة مبادىء القرآن(شفاء) لما في الصدور، يعني بوضوح: أن(النفس) حينما تحيا بمنأى عن الله تعالى لا بد أن تصاب بالأمراض الروحية بما يواكب هذه الأمراض من صراعات وتوترات وانشطارات نفسية لا تعرف إلى التوازن والاستقرار سبيلا. وهذا يعني أن المعطى القرآني لا ينحصر في تحقيق الإشباع الأخروي ـ أي الإثابة ـ في اليوم الآخر فحسب، بل يتجاوزه إلى الإشباع الدنيوي أيضاً حيث تتحسس الشخصية التي تعمل بمبادىء القرآن أنها متوازنة مطمئنة، لا تحيا أي قلق أو تمزق في الحياة الدنيا، كما أنها ـ في الحياة الأخرى ـ تحيا مطمئنة بالضرورة: نظراً لعدم وجود عنصر التجاذب بين قوى الخير والشر فيها.

إذن، أمكننا ملاحظة السر الفني وراء صياغة الصورة(التمثيلية) **﴿شفاء لما في الصدور﴾** من حيث معطياتها الدنيوية والأخروية...

لكن ينبغي أن نتابع ملحقات هذه الصورة التمثيلية. لقد أردف النص القرآني الكريم: هذه الصورة بقوله **﴿قُل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾**. إنَّ (الجمع) هنا يشير إلى المتاع الدنيوي من مال ونحوه، حيث طالب النص: الشخصية بأن تفرح بفضل الله وبرحمته لا أن تفرح بجمع المال. إنَّ المال يحقق إشباعاً دنيوياً دون أدنى شك... لكن: لا يواكب ذلك إشباع أخروي أيضاً؟ ثم: هل يواكب ذلك شفاء لأمراض النفس؟. هذا ما تستهدف الصورة الفنية: توصيله إلى القارىء، حيث تجعله مستوحياً من ذلك: إنَّ المهم هو معطيات الله تعالى(الفضل والرحمة) نظراً لكونها تحقق (في المجال الدنيوي) توازن النفس **﴿شفاء لما في الصدور﴾**، وتحقق(أخروياً) أعلىٰ درجات الإشباع، بينما لا يحقق جمع المال إلا إشباعاً

أحادي الجانب(الدنيا فحسب)، وحتى في هذا المجال فإنَّ الإشباع أو الراحة يظل أحادياً أيضاً لأنه لا يقترن بشفاء الأمراض النفسية، طالما نعرف بأن جمع المال محفوف بالقلق والحرص ونحوها فضلا عن ان خلو النفس من(اليقين) لا يحقق لها أي توازن مهما كان المتاع المادي ضخماً.

أخيراً ينبغي ألا نغفل عن أنَّ السورة الكريمة تحوم فكرتها على اليوم الآخر وقضاياه. وأن هذا المقطع الذي تحدثنا عنه يصب في الموضوع ذاته.

* * *

قال تعالى: **﴿قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً قل ءالله أذِن لكم أم على الله تفترون * وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون * وما تكون في شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين﴾**.

يتناول هذا المقطع من سورة يونس جملة من الموضوعات المتصلة بسلوك المشركين وموقفهم من اليوم الآخر: حيث تصبّ السورة في هذا الموضوع وتطرح خلاله مفهومات فرعية منها: الحقيقة الذاهبة إلى ان الله تعالى لا يعزب عنه مثقال ذرة من عمل الإنسان أو حركة الكون ولا أصغر من ذلك ولا أكبر وانّ ذلك جميعاً محفوظ في كتاب مبين **﴿وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين﴾**. ما يعنينا من هذه الحقيقة الأخيرة هو: المنحىٰ الفني الذي سلكه النص في صياغة الموضوع حيث اعتمد عنصر (الصورة الفنية) في بلورة الحقيقة المشار إليها. والآن، لننظر إلى الصورة الفنية. لقد وظفت هذه الصورة لبيان ان الله تعالى لا يغيب عنه أدنى سلوك يصدر عن الإنسان وانَّ هذا السلوك ترتب

عليه مسؤولية أخروية من حيث الثواب والعقاب. لذلك، ارتكن النص إلى عنصر «الإستعارة» لتوضيح وتعميق هذه الحقيقة، مبيناً أن أصغر أو أبسط سلوك (كما لو كان بقدر ذرة) لا يخفى على الله تعالى، حيث إنه تعالى استعار للسلوك وحدة عيارية هي(مثقال ذرة)، والمثقال هو: المقدار أو الميزان الذي يوزن الشيء، وقد يطلق على وحدة عيارية تساوي خمسة غرامات: لكن بقرينة (الذرة) نستنتج بأن المقصود منه هو(المقدار) وليس المعيار، وأما(الذرة) فقد يقصد منها صغار النمل، أو أصغر جزء من الأجسام أو مصطلحها الحديث... وفي الحالات جميعاً أي سواء أكان المقصود منها صغار النمل أو الأجزاء المتناهية من الأجسام، فإن صياغتها (استعارة) للعمل من حيث أبسط مستوياته، يظل أمراً له أهمية الفنية كما هو واضح... حيث أن أصغر وحدة مادية (وهي الذرة) قد أعارها النص(أصغر وحدة سلوكية) ـ كما لو نوى الإنسان مثلاً خاطرة خير أو شر لم يتجاوز ثواني معدودة ـ حينئذ فإن هذه الخاطرة الخاطفة لا تعزب عن الله تعالى كما لا يفوت تسجيلها: ثواباً أو عقاباً.

ويلاحظ أن النص لم يكتف بإعادة الذرة للسلوك، من حيث الموازنة بينهما بل أضاف إلى ذلك قائلاً: **﴿ولا أصغر من ذلك ولا أكبر﴾**... أي أنه قدم ما يطلق عليه مصطلح (التشبيه المتفاوت) ـ وهو التشبيه الذي يرصد العلاقة بين شيئين من حيث كون أحدهما(أعلى) أو(أدنى) من الطرف الآخر ـ حيث أن قوله تعالى **﴿ولا أصغر من ذلك ولا أكبر﴾** ـ أي ولا أصغر من مثقال ذرة ولا أكبر منها ـ وهذا السر هو: أن سلوك الإنسان أو مطلق تحركات الكون لا يمكن مقايسته بوحدة مادية يتساوى فيها الطرفان، بل يتخذ الوزن(وهو مثقال ذرة) معياراً تقريبياً للموازنة، ولكي تصبح الموازنة بين الشيئين في أدق مستوياتها حينئذ فإن هذا التشبيه (وهو: ولا أصغر من ذلك ولا أكبر) يجسد هذه الدقة في الموازنة. أن النص يستهدف الإشارة إلى سلوك الإنسان سواء

أكان بقدر الذرة أو أصغر منها أو أكبر منها: لا يعزب ذلك عن علم الله تعالى ولا يفلت من ترتب المسؤولية عليه، وحينئذ يكون هذا التشبيه(ولا أصغر ولا أكبر) دقيقاً كل الدقة، لأنه ـ ببساطة ـ يسمح للقارىء بأن يقدر بنفسه حجم العمل مهما صغر في تصوره: تقديراً بالغ الدقة، وهذا ما تكفلت به الصورة المدهشة التي اعتمدت الإستعارة والتشبيه المتفاوت: كما لحظناه.

أخيراً ينبغي ألا نغفل عن أن هذه الصورة تصب في الفكرة الرئيسة التي تحوم عليها سورة يونس، وهي: فكرة اليوم الآخر حيث تفصح هذه الصياغة عن إحكام النص من حيث تجانس عناصره.

* * *

قال تعالى: **﴿ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون * الذين آمنوا وكانوا يتقون * لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم﴾**.

هذا المقطع من سورة يونس يتناول مصائر المؤمنين مقابل المصائر التي رسمها للكافرين... ويلاحظ أن المقطع القرآني الكريم يركز على طابع نفسي هو(التوازن) الذي يحياه المؤمن في دنياه فضلاً عن آخرته، حيث سبق أن لحظناه ـ في مقطع سابق، كيف أنَّ القرآن الكريم قد جعله الله تعالى **﴿شفاء لما في الصدور﴾** أي: علاجاً للأمراض الروحية، وها هو الآن يقدم لنا نموذجاً من المحركات أو المنبهات التي تحقق للمؤمن توازنه دنيوياً وأخروياً حيث يقول عن المؤمنين **﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾**. إنَّ «البشرى» هي تجسيد لقمة التوازن الذي يحلم به الفرد، حيث يبشر المؤمن ـ وفقاً للنص التفسيري الوارد عن الإمام الباقر(ع) ـ من خلال(الرؤيا) التي يراها أو يراها الآخرون بالنسبة له، يبشر بها بمصيره الذي يؤول إليه، وهو مصير سبق

لمقدمة السورة الكريمة أن لوحت به حينما قالت﴿**وبشّر الذين آمنوا أنَّ لهم قدم صِدقٍ عند ربهم**﴾.

طبيعياً، ينبغي ألا ننسى بأن قضايا(اليوم الآخر) هي التي شكلت (موضوعاً) تحوم عليه سورة يونس، وان مصائر المؤمنين جاءت في سياق الحديث عن مصائر الكافرين الذين لا يزال النص يتابع رسم سلوكهم من خلال تذكيرهم بمعطيات الله تعالى وبإبداعه للظواهر الكونية المختلفة. يقول النص: ﴿**ألا إنَّ لله من في السماوات ومن في الأرض وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون * هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً إنَّ في ذلك لايات القوم يسمعون * قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغني له ما في السماوات وما في الأرض إن عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله ما لا تعلمون**﴾.

إن ترابط وتلاحم هذه الموضوعات بعضها مع الآخر أمر لا يحتاج إلى التوضيح: ما دامت عمارة السورة الكريمة تقوم أساساً على قضايا (اليوم الآخر) وموقف المشككين به. بيد أن ما نعتزم توضيحه هو: السمات الفنية التي توكأ عليها النص القرآني الكريم في صياغة الحقائق المشار إليها. وأول ما يلفت نظرنا هو: إن النص كرر حديثه عن خلق السماوات والأرض، فقال أولاً: إن لله (مَن) في السماوات و(مَن) في الإرض، ثم قال تعالى: له (ما) في السماوات و(ما) في الأرض، أي: استخدم في الآية الأولى أداة (من) وهي للعاقل، واستخدم في الآية الثانية أداة (ما) وهي لغير العاقل. ما هو السر الفني في ذلك؟ ويلاحظ أيضاً إنه تعالى عند حديثه عن الإبداع الكوني لظاهرة (الليل والنهار) ـ وهما غير عاقلين ـ قد خلع عليهما سمات عقلانية ﴿**جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مُبْصِراً**﴾ حيث جعل للنهار سمة (الإبصار) مع أن الذي (يبصر) هو الإنسان (وليس النهار)، فما هو السر الفني وراء ذلك أيضاً؟

بالنسبة للسؤال الأول نحتمل ـ فنياً بأن هدف النص هو في (الشريك) عنه، فأشار إلى أن (من) في السماوات والأرض هو (تابع) الله تعالى فلا يشاركه أي (كائن عاقل) في ذلك، أما في الآية الأخيرة، فإن هدف النص هو نفي (الولد) عنه، حيث اقتضى ذلك إلى أن يشير إلى أنه تعالى (غني) عن أن يتخذ له ولداً وله كل ما في السماوات والأرض، أي: في الحالة الأولى جعل المشركون لله تعالى شريكاً، وفي الحالة الثانية زعموا بأنه هو تعالى قد اتخذ ولداً، وحينئذ: اقتضى في الحالة الأولى أن ينفي أي شريك له فاعلية العاقل، وأن ينفي في الحالة الثانية اتخاذ الولد، مشيراً إلى أنه غنى عن ذلك ما دامت السماوات والأرض ملكاً له تعالى.

وأما خلع السمة العقلانية على النهار وجعله (مبصراً)،، ففي تصورنا أن هذه (الإستعارة) تستهدف دمج التجربة البشرية بالتجربة الكونية مثل قوله تعالى: ﴿فهو في عيشة راضية﴾ حيث جعل العيشة راضية وكأنها عنصر بشري راضٍ، كذلك فإن جعل النهار مبصراً يعني جعله وكأنه عنصر بشري مبصر، فيتم التبادل بين عناصر الوجود: تأكيداً لوحدة التجربة الكونية. والمهم ـ بعد ذلك ـ ان هذه الصورة جاءت في سياق الفكرة العامة للسورة التي تحوم على قضايا(اليوم الآخر) حيث يجيء التذكير بمعطيات الله تعالى ضمن هذا الموضوع، مفصحاً بذلك عن تلاحم أجزاء النص بعضها مع الآخر، بالنحو الذي لحظناه.

* * *

قال تعالى: ﴿واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبُر عليكم مقامي وتذكيري بايات الله فعلى الله توكلت فاجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إليَّ ولا تنظرون * فإن توليتم فما سألتكم من أجرٍ إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين * فكذبوه فنجيناه ومن

معه في الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين﴾.

نواجه في هذا المقطع عنصراً قصصياً هو: قصة نوح(ع) مع قومه... وقبل أن نتحدث عن البعد الفني لهذه الأقصوصة، ينبغي ان نشير إلى أن الأقصوصة جاءت توظيفاً فنياً للأفكار المطروحة في السورة، وهو: «قضايا اليوم الآخر» وموقف المكذبين من ذلك، حيث كانت المقاطع السابقة تشير إلى معطيات الله تعالى دنيوياً وأخروياً، مثلما كانت ملوحة بالجزاءات الدنيوية والاخروية أيضاً قبالة من يتنكر لرسالة السماء ومعطياتها. وها هي الأقصوصة التي صيغت في هذا السياق، تتقدم لتعرض لنا مواقف وأحداثاً تحوم على الموضوعات المشار إليها. لقد عرضت القصة أول حدثٍ اجتماعي ترتب عليه زوال مجتمع عالمي وقيام المجتمع الجديد ﴿وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذّبوا﴾ أي: زوال المجتمع المنحرف، ونشوء المجتمع السوي... طبيعياً، إن المجتمع الجديد نفسه يبدأ بعض أفراده بالإنحراف فيما بعد، كما أن شرائحه الإجتماعية تبدأ بالإنحراف تدريجياً، مما ستترتب عليه نتائج مشابهة للمجتمع السابق، إلا أن المهم هو: رسم الجزاء الدنيوي الذي يترتب على ممارسة الإنحراف(فضلاً عن الجزاء الأخروي الذي يأخذ موقعه فيما بعد).

إن الاقصوصة تعرض لنا مجتمع نوح وانقراضه، ثم نشوء مجتمع ما بعد نوح (ممن أنقذوا من الطوفان). أما مجتمع نوح(ع) فقد أبرز النص القصصي موقف نوح منه حيث توكأ هذا الموقف على لغة تجمع بين الله تعالى وبين السخرية من المنحرفين، حيث خاطبهم نوح بأنه: إن كان عظم عليكم مقامي بينكم وتذكيري بآيات الله، فنفذوا ما عزمتم من قتلي ولا تغتموا من ذلك، فإنني مصمم على تنفيذ أوامر الله تعالى لا أبتغي بذلك أجراً منكم بل أنا مأمور بأن أستسلم لأوامر الله تعالى. هذا الكلام لم تصغه القصة بنحو تقريري بل

بنحو نتلمس من خلاله انتقاء مواقف معينة واختزال مواقف أخرى يترك القارىء بأن يستخلص منها دلالتها المتنوعة، لقد خاطبهم مثلاً بقوله **﴿فاجمعوا أمركم وشركاءكم﴾** حيث جعل هذه العبارة مشحونة بإيحاءات متنوعة منها: إن جمع الأمر قد يقصد منه: العزم على قتله(ع) أو إبعاده أو إلحاق الأذى له... الخ. كما أن جمع الشركاء قد يقصد منه: الأوثان أو الشركاء في الإنحراف، وحينئذ يكون المقصود من ذلك بأن يعملوا ما يشاؤون: هم ومن يشاركهم في الرأي، أو بأن يعملوا مع أوثانهم التي لا فاعلية لها... ففي الحالين ثمة تهديد وسخرية من القوم واستهانة بقراراتهم عديمة الفاعلية، سواء أكانت قدرات بشرية أو وساوس وأوهاماً نسجوها حيال أصنامهم.

والأهم بعد ذلك، إن خاتمة القصة (فكذبوه فنجيناه) جاءت ـ من الزاوية العمارية ـ إنماءً عضوياً لوسطها الذي سخر من القوم، حيث ان القارىء وهو يلحظ أن لغة نوح(ع) قد اتسمت من جانب بالسخرية منهم، وبتهديدهم من جانب ثانٍ، وباعتداده بالله تعالى من جانب ثالث، أقول: عندما يلحظ القارىء أمثلة هذه اللغة التي تجمع بين التهديد والسخرية والإعتداد: حينئذ يتوقع ان تكون نهاية هؤلاء القوم: نهاية كسيحة ما دام هناك أكثر من موقف يرهص بمثل هذه النهاية... وفعلاً، جاءت الخاتمة التي تقول **﴿فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا...﴾**: جاءت هذه الخاتمة منسجمة مع طبيعة اللغة التي هدد نوح(ع) من خلالها هؤلاء القوم، وهو أمر يفصح عن جمالية القصة من حيث إحكام عمارتها وتلاحم أجزائها: بعضها مع الآخر.

* * *

قال تعالى: **﴿ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملإه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين * فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا**

لسحر مبين * قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون * قالوا أجئتنا لِتلفتنا عمَّا وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكِبْرياءُ في الأرض و ما نحن لكما بمؤمنين﴾.

نواجه في هذا المقطع من سورة يونس قصة جديدة هي: قصة موسى وهارون عليهما السلام مع فرعون ومجتمعه. وقد سبق أن لحظنا قصة نوح(ع) مع مجتمعه والمصير الذي انتهى المنحرفون إليه في حادثة الطوفان وصلة ذلك بفكرة السورة الكريمة التي تحوم على قضايا اليوم الآخر، أما الآن فنواجه قصة جديدة توظف ـ فنياً ـ لبلورة الفكرة المشار إليها: حيث يجيء الجزاء الدنيوي والأخروي واحداً من الأفكار التي تستهدف القصة الكريمة توصيلها إلى القارىء بالنسبة للمجتمعات المنحرفة المكذِّبة لرسالات السماء ولليوم الآخر. لقد بدأت القصة بمحاورة بين موسى وهارون وبين مجتمع فرعون على هذا النحو: قال فرعون وجماعته: «إنَّ هذا لسحرٌ مبين» أجابهم موسى(ع) «أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا» قال فرعون وجماعته من جديد: «أجئتنا لتلفتنا عمَّا وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض».

هنا ينبغي أن نلاحظ أن الحوار المتقدم قد أفرز جملة من الأفكار تماثل الأفكار التي تصدر من الجاهليين وموقفهم من رسالة الإسلام، حيث يكشف مثل هذا التماثل بين الأفكار عن الهدف الفني الذي انطوت عليه القصة: من حيث توظيفها لإنارة الأفكار المطروحة في السورة الكريمة... لقد أجاب المنحرفون: بأن المبادىء التي جاء بها موسى وهارون، هي: «سحر»، وإنما جاءت لتصرفهم عن دين آبائهم وإن موسى وهارون يريدان أن تكون لهما الكبرياء في الأرض.

هذه الإجابات تكشف عن التخلف العقلي والنفسي والإجتماعي الذي يصدر عنه القوم، ومماثلته ـ بطبيعة الحال ـ للتخلف الذي يطبع مجتمع

الجاهلية... وأول طابع لهذا التخلف هو: إتهامهم الحق بأنه «سحر» حيث يعجز المتخلفون عن تقديم الرد العقلاني، وحينئذ يضطرون إلى الصدور عن فكر عابث لا مسؤول. وأما الطابع الآخر للتخلف فيتمثل في ردهم القائل بأن موسى وهارون يستهدفان صرف المنحرفين عن تقليد آبائهم، وهو رد يجسد قمة التخلف كما هو واضح، حيث لا يمكن ان نتصور تخلفاً عقلياً أشد من جمود الإنسان على أفكار سالفة لا يبدي أي استعداد لمناقشتها بل يتقبلها كالطفل تماماً فيما لا يملك قابلية على محاكمة الأفكار. وأما السمة الثالثة للتخلف الذي طبع مجتمع فرعون فهي: تخيلهم بأن موسى وهارون يريدان أن تكون لهما الكبرياء في الأرض، أي يستهدفان الظفر بموقع إجتماعي هو: أن يحكما ويسيطرا ويتأمرا عليهم... وهذه السمة هي عملية (إسقاط)، أي أن المتخلفين: نظراً لكون مجتمعاتهم لا تخبر إلا مفهومات السيطرة والتحكم (وفرعون نموذج واضح لهذا التحكم كما سنرى ذلك في الأقسام اللاحقة من القصة) حينئذ يخيل إليهم ان موسى وهارون عليهما السلام يستهدفان أيضاً: التحكم والسيطرة، من خلال الإتيان بمبادىء تخالف دين أسلافهم المتخلفين، وإنهما يتوسلان بالسحر للوصول إلى أهدافهما.

هذا التصور أو التخلف العقلي والنفسي والإجتماعي يظل دلالات نجد انعكاساتها على الأجزاء اللاحقة من القصة كما قلنا، فضلاً عن إنه صدى لدلالات تستهدف السورة الكريمة إبرازها في غمرة رسمها لسلوك الجاهليين وموقفهم من رسالة الإسلام وهو أمر يكشف ـ دون أدنى شك ـ عن إحكام السورة الكريمة من حيث علاقة أجزائها: بعضها مع الآخر، بالنحو الذي سنلحظه لاحقاً.

* * *

قال تعالى: ﴿وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم * فلما جاء السحرة

قال لهم موسىٰ القوا ما أنتم ملقون * فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر إنَّ الله سيبطله إنَّ الله لا يصلح عمل المفسدين﴾.

هذا هو القسم الثاني من قصة موسى وفرعون. وكان القسم الأول من القصة يتحدث عن مجتمع فرعون واتهامه موسى بالسحر، وها هو القسم الثاني من القصة يتحدث عن ممارسة قوم موسى للسحر، أي إن التهمة التي وجهها القوم لموسى(ع)، تأخذ ـ في هذا القسم من القصة ـ موقفاً معاكساً حيث تنقلب التهمة وتوجه من قبل موسى إلى قوم فرعون بعد أن كان القوم يتهمون موسى بالسحر فعلياً. . . وهذا الإنقلاب في الموقف له قيمته الفنية (من حيث عمارة السورة الكريمة) حيث يكشف عن تقابل هندسي جميل بين الموقفين. . . لقد بدأ هذا القسم من القصة بمطالبة فرعون بأن يأتوه بكل ساحر عليم (وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم). . . لقد اختزلت القصة جملة من الأحداث والمواقف، تاركة للقارىء بأن يستخلص بنفسه تفصيلات الموقف، حيث اكتفت بالقول بأن فرعون طلب إتيانه بالسحرة، وهذا يعني ان هناك محاورات قد تمت بين موسى وبين فرعون بحيث أفضت إلى أن يطللب فرعون السحرة. و﴿**فلما جاء السحرة قال لهم موسى القوا ما أنتم ملقون**﴾. هنا حذف النص أيضاً تفصيلات الحدث بحيث يستخلص القارىء بأن السحرة قد ألقوا عصيهم وان عملهم قد باء بالفشل، وان عصاه أبطلت السحر. هذه التفصيلات لا وجود لها في القصة وذلك بقدر ما يستهدف النص إبطال التهمة التي وجهت إلى موسى بأنه ساحر، لذلك لم تسرد في القصة إلا ما يلقي الضوء على هذا الجانب. يدلنا على ذلك أنَّ موسى(ع) عقب على حادثة السحرة بقوله﴿**ما جئتم به السحر إنَّ الله سيبطله إنَّ الله لايصلح عمل المفسدين**﴾. القارىء ـ بطبيعة الحال ـ سوف يدرك سريعاً بأن موسى عندما قال لهم(إنَّ الله سيبطله: أي السحر) يدرك سريعاً بأن موسى(ع) قد ألقى عصاه، وان انقلابها ثعباناً يلقف ما عملوه، إنما هو تجسيد لقوله(إن الله سيبطله). كل هذه الأحداث والمواقف قد

اختزلها النص ليركز على إبطال التهمة من جانب، وإلقاء الحجة عليهم من جانب آخر.

بعد ذلك، يواجهنا القسم الثالث من القصة بهذا النحو: **﴿فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون و ملإهم أن يفتنهم وإن فرعون لعالٍ في الأرض وإنه لمن المسرفين * وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين * فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين * ونجنا برحمتك من القوم الكافرين﴾**.

هذا القسم من القصة يحفل بسمات فنية متنوعة لا بد من الوقوف عندها تفصيلاً. لكن قبل ذلك ينبغي ألا تفوتنا الإشارة إلى المبنى الهندسي للنص: من حيث علاقة هذه التفصيلات بالأقسام السابقة واللاحقة من القصة، وذلك: نظراً لكون هذا القسم من القصة يتضمن أهم المواقف ألا وهو: أن طائفة من مجتمع فرعون قد استجابت لرسالة موسى، على خوف من فرعون والطبقة العليا من مجتمعه المنحرف، ولاشك ان مثل هذا الموقف يجسد(من حيث عمارة القصة: إنماءً عضوياً أو صدى لكلام موسى(ع): في القسم السابق من القصة وهو قوله: **﴿ويحق الله الحق ولو كره المجرمون﴾** وفعلاً: يبدأ البعض بالإنسلاخ عن فرعون ومجتمعه، ينتصر موسى في النهاية كما سنرى، مما يفصح مثل هذا النمو العضوي للأحداث والمواقف عن إحكام المبنى الفني للنص من حيث علاقة أجزائه بعضها مع الآخر.

* * *

قال تعالى: **﴿فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملإهم ان يفتنهم وإنَّ فرعون لعال في الأرض وإنه لمن المسرفين * وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين * فقالوا على الله**

توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين * ونجنا برحمتك من القوم الكافرين﴾.

هذا هو القسم الثالث من قصة موسى(ع)... حيث يتناول هذا القسم سلوك الطائفة التي آمنت برسالة موسى عصرئذ، لقد وسمَ النص هذه الطائفة بكونهم(ذرية) من قومه، ووسمهم بالخوف من فرعون ومشايعيه **﴿فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون﴾**. لا شك إن لهذه السمات أو السمتين دلالتها الإجتماعية والفنية... فالاسوياء أو الأذكياء أو الطيبون يجسدون القلة دائماً على العكس من الغالبية التي يغلِّفها الجهل والمرض ونزعات الشر. وقد أكدت قصة سابقة ـ وهي قصة نوح(ع) فيما أعقبتها قصة موسى(ع) ـ أكدت هذا الجانب حينما أفرزت قلة من الناس وحملتهم في السفينة وأغرقت الباقين، وهذا ما يدلنا على التجانس الفني بين القصتين من حيث انصبابهما في دلالة أو مبدأ اجتماعي متماثل هو: مبدأ الأقلية المؤمنة والاكثرية المنحرفة. أما السمة الأخرى ونعني بها سمة(الخوف) الذي واكب الطائفة المؤمنة، فتشير إلى مبدأ اجتماعي آخر هو: اقتران الحياة بالشدائد، وإن المؤمن بخاصة يظل عرضة لجملة من الشدائد، منها: الشدة التي يكابدها المؤمنون من قبل سلاطين الدنيا ومطلق المنحرفين.

وقد تكفلت القصة ببيان هذا المبدأ حينما عقبت على ذلك بقولها **﴿وإن فرعون لعال في الأرض﴾** حيث تضمنت هذه العبارة تقرير حقيقتين أولهما: التعريف بهذه الشخصية المفسدة(فرعون) ـ من حيث كونها أحد شخوص القصة التي تترك تأثيرها في سلسلة الحوادث والمواقف في القصة ـ وأخراهما: بيان الوظيفة العبادية التي ينبغي ان تمارسها الطائفة المؤمنة حيال الشدائد التي تواجهها من قبل الطغاة... وهذا ما أوضحته القصة الكريمة، حينما **﴿قال موسى: يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين﴾**... وجاء

الجواب : ﴿على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين و نجنا برحمتك من القوم الكافرين﴾.

هذا الحوار بين موسى(ع) وبين جماعته، يكشف عن جملة من الحقائق الفنية والفكرية. . . أما (فكرياً)، فإن الحوار تضمن تقرير الحقيقة العبادية الذاهبة إلى أن (التوكل) على الله تعالى هو الوظيفة التي ينبغي أن يصدر المؤمن عنها حيال الشدائد التي يواجهها من قبل الطغاة، وأن يواصل جهاده دون خوف من ذلك، وأما (فنياً) فيلاحظ أن القصة سبق أن أشارت إلى أنه **﴿ما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملإهم أن يفتنهم﴾** أي أن الطائفة المؤمنة (خافت) من الوقوع في (الفتنة) من قِبل فرعون وبطانته. وها هو «الحوار» أو الجواب الذي تقدمه الطائفة المؤمنة يتضمن الإشارة إلى (الفتنة) حيث قالت في دعائها (ربنا لاتجعلنا (فتنة) للقوم الظالمين) إذن، ينبغي أن نتنبه على هذه السمة الفنية (حيث نعنىْ في هذه الدراسات بعمارة السورة القرآنية الكريمة)، ونعني بها سمة (التلاحم العضوي) بين(الفتنة) التي خاف القوم الوقوع فيها، وبين (الفتنة) التي طالبوا ـ من خلال الدعاء ـ بأن يقيهم الله تعالى منها، حيث شكل هذا الدعاء (ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين) إنماء عضوياً لمفهوم (الفتنة) التي يخافها المؤمن متمثلاً في (الخوف من الفتنة) ثم (المطالبة بإزاحتها)، وهو أمر يكشف ـ كما قلنا ـ عن أن القصة الكريمة مطبوعة بإحكام فني من حيث علاقة أجزائها: بعضها مع الآخر بالنحو الذي لحظناه.

* * *

قال تعالى: **﴿وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتاً واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلوة و بشر المؤمنين * وقال موسى ربنا إنّك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس**

على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم * قال قد أُجيبت دعوتكما فاستقيما و لا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون﴾.

هذا هو القسم الرابع من قصة موسى وفرعون. وقد كان القسم السابق من القصة يتناول مطالبة موسى قومه بأن يتوكلوا على الله، و قد كانوا قلة آمنت بموسى على خوف من فرعون، و ها هو القسم الجديد من القصة ينمي عضوياً قضية التوكل على الله تعالى وإزاحة الخوف وإجابة الدعاء الذي توجه به القوم إلى الله تعالى بأن ينجيهم من فرعون وبطانته.

لقد أمر الله تعالى موسى وأخاه هارون بأن تبنى لهم البيوت وأن يصلوا فيها **﴿واجعلوا بيوتكم قبلة﴾**. ترى، لماذا أمرهما الله تعالى ببناء البيوت وجعلها قبلة؟ ثم: ما هو السر الفني وراء صياغة الصورة (التمثيلية) وهي: جعل البيوت قبلة. أما بناء البيوت والصلاة فيها فأمرٌ يرتبط بظاهرة (الخوف) الذي أشار إليه القسم السابق من القصة أي قوله **﴿فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون...﴾**، وهذا يعني ان القصة (من حيث البناء الفني) أنمت قضية الخوف ورتبت عليه أثراً هو: أن يمارس هؤلاء المؤمنون الصلاة في بيوتهم ما دام الخوف يحتجزهم من أداء الصلاة بمرأى من فرعون وأعوانه. مع ملاحظة إن المطالبة ببناء البيوت والصلاة فيها، تنطوي على سر فني هو إبراز أهمية الصلاة وكونها أهم معلم لسمات الشخصية العبادية، وهو أمر يكشف عن أهميتها من خلال المطالبة حتى في الرسالات السابقة على الإسلام.

وأما من حيث صياغة الصورة (التمثيلية) أو (الرمزية) التي تقول (واجعلوا بيوتكم قبلة) فإن النصوص المفسرة تتفاوت في تفسير المقصود من هذه العبارة، إلا أننا نرجّح ـ لأسباب فنية ـ أن يكون المقصود من العبارة المذكورة (واجعلوا بيوتكم قبلة) هو: (اجعلوا صلاتكم في بيوتكم) فتكون

العبارة (رمزاً)، أي: بما أن الصلاة لا بد أن تتم من خلال التوجه بها إلى جهة خاصة (وهي القبلة) ـ بغض النظر عن تحديدها عصرئذ حينئذ جاءت الصورة ﴿واجعلوا بيوتكم قبلة﴾ لتشكل (رمزاً) لتلكم الجهة التي لا بد من التوجه إليها، وإلا كان بمقدور النص أن يقول مثلاً: (وأقيموا الصلاة في بيوتكم)، لكن ـ وهذا مجرد احتمال فني ـ بما أن الصلاة تقترن بالقبلة حينئذ جاءت الصياغة المشار إليها (رمزاً) يشير إلى هذا الجانب. ومما يعزّز هذا الإحتمال الفني إن القصة القرآنية الكريمة اعقبت الصورة المتقدمة ﴿واجعلوا بيوتكم قبلة﴾ أعقبها بالقول (وأقيموا الصلاة)، فالمطالبة بإقامة الصلاة قد تبدو في الظاهر مخالفة للتفسير الذي احتملناه باعتبار أن قوله تعالى: ﴿اجعلوا من بيوتكم قبلة﴾ إذا كان (رمزاً) للصلاة، فما معنى ان يعقب النص بعد ذلك بإقامة الصلاة. لكن إذا دققنا النظر ملياً، وجدنا العبارة الأولى كانت في مقام تأكيد المكان والجهة التي يصلى إليها، وإن العبارة الثانية جاءت في تأكيد ممارسة الصلاة ذاتها.

وأياً كان الأمر، يعنينا أن نشير إلى عمارة القصة الكريمة مكرراً(ما دمنا نعنىٰ فنياً بهذا الجانب في السورة القرآنية) حيث لحظنا كيف ان المطالبة ببناء البيوت والصلاة فيها، جاءت إنماء عضوياً للقصة، حيث أُمِروا بأدائها في بيوتهم. وهذا الأمر يكشف بوضوح عن إحكام النص من حيث تلاحم وتنامي أجزائه بعضها مع الآخر بالنحو الذي لحظناه.

* * *

قال تعالى: ﴿وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا أطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم * قال قد أُجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون﴾.

هذا هو القسم الخامس من قصة موسى(ع) مع فرعون.

في هذا القسم من القصة، نواجه محاورة بين الله تعالى وبين موسى، يتجه موسى إلى الله تعالى قائلاً **﴿ربنا إنك أتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا﴾**. ويقول أيضاً **﴿ليضلوا عن سبيلك﴾** ويقول أيضاً **﴿ربنا اطمس على أموالهم و اشدد على قلوبهم﴾**.

لقد طالب موسى(ع) أو لنقل: اتجه بدعائه إلى ثلاث قضايا هي: أن فرعون قد أوتى زينة وأموالاً، وإنه استثمرها في إضلال الناس، ثم دعا موسى بأن يطمس الله على أموال فرعون وجماعته وأن يشدد على قلوبهم.

حيال هذا الدعاء جاءت الإجابة من الله تعالى بالنسبة لموسى وأخيه هارون عليهما السلام علىٰ هذا النحو: (قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما...).

ما يعنينا من هذه المحاورة ملاحظة صياغتها فنياً، ثم ما تنطوي عليه من دلالات فكرية.

وأول ما ينبغي تسجيله هنا هو أن الدعاء يقترن بالإجابة بخاصة إذا كان صادراً من الشخصيات المصطفاة، أو مطلق الشخوص الذين يعملون من أجل الله ونشر مبادئه... إن (الحوار) نفسه يكشف (من الزاوية الفنية) عن هذه الحقيقة حيث جاءت وظيفته الفنية لتكشف عملياً عن أن الدعاء يقترن بالإجابة... ليس هذا فحسب، بل أن الرد من قبل الله تعالى على طلب موسى (قد استجيبت دعوتكما) فقوله تعالى (قد أجيبت دعوتكما) هو تأكيد قولي على إجابة دعائهما، علماً بأن هذا التوكيد سوف يسحب آثاره على القسم الآخر من القصة عندما يغرق فرعون وقومه كما سنرى.

الحقيقة الفنية الأخرى التي نستخلصها من هذا الحوار هي: أن الزينة

والأموال قد استثمرهما المفسدون في الأرض ليضلوا عن سبيل الله تعالى. . . والفارق بين الزينة وبين الأموال، ان الزينة تتصل بالمظهر الخارجي للشخص مثل الملابس أو جمال الهيئة أو الصحة أو هي جميعاً مما تشبع الحاجات المشروعة وغير المشروعة لكل ما يتصل بالتقدير الإجتماعي والذاتي للشخص. . أما الأموال فهي تحقق مطلق الحاجات بما فيها: الرغبة في التملك حتى لو لم تكن حاجة إلى ذلك. والمهم أن القارىء يستخلص من هذا كله إن الزينة والأموال لا تكاد تنفك عن المفسدين في الأرض، وإنها تستثمر لإضلال الناس، ومن ثم فإن عاقبة أمرها هو الفقدان. ولذلك طالب موسى بأن يطمس الله تعالى على هذه الأموال وطالب أيضاً بأن يشد الله على قلوبهم (واشدد علي قلوبهم).

هنا قد يتساءل القارىء أو (السامع) عن السر الفني وراء هذه العبارة التي تقول (واشدد على قلوبهم). فالشدّ على القلب يعني تقوية القلب. فما هي دلالة ذلك؟ إن أدنى تأمل لهذه العبارة يكشف لنا بأن المطالبة بشد القلب تنطوي على دلالة نفسية هي: إن الدنيويين ـ وهم يعنون بالزينة وبالأموال ـ لا يملكون سواها، ومن ثم فإن آمالهم وتطلعاتهم مشدودة إلى ذلك،أي أن قلوبهم منشدة إلى الزينة والمال، وحينما يفقد الشخص ما ينشدّ قلبه إليه تكون مصيبته ضخمة تتناسب مع حجم انشداده إلى الشيء المفقود، وهذا يعني أن موسى(ع) طالب بأن يضخم انشداد القلوب ـ لدي هؤلاء المنحرفين ـ بالنسبة إلى الزينة والأموال، حتى يتضاعف إحساسهم بالألم عند فقدانها.

والمهم أن الله تعالى أجاب دعاء موسى وهارون كما قلنا، وهو أمر نلحظه بوضوح في القسم الأخير من القصة حينما نقرأ فيها: ﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فاتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً حتى إذا أدركه الغرق. . . الخ﴾. حيث تشكل هذه العبارة إنماء عضوياً لقضية الدعاء بحيث ينعكس أثره

على المصائر التي تلحق فرعون وقومه، وهو أمر يكشف عن إحكام النص القرآني الكريم: من حيث صلة أجزائه بعضها مع الآخر.

* * *

قال تعالى: **﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فاتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين * ءالآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين * فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون * ولقد بوأنا بني إسرائيل مبوأ صدق ورزقناهم من الطيبات فما اختلفوا حتى جاءهم العلم إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾**.

هذا هو القسم السادس والأخير من قصة موسى(ع)... حيث يتضمن نهاية فرعون وقومه على النحو الآتي من العرض: موسى وجماعته يعبرون البحر، فرعون وجماعته يتبعونهم لكي يلحقوا الأذى. ويدرك الغرق فرعون فيضطر إلى التسليم بالحقيقة التي كان يجحدها أي الإيمان بالله تعالى، فيقال له: لا ينفعك مثل هذا التسليم في حالة الغرق... وتعرض جثته أمام الأعين ليكون عبرة للآخرين.

هذا هو ملخص العرض القصصي لنهاية فرعون وقومه. لكن ما يعنينا منه هو: المنحىٰ الفني الذي سلكه النص في صياغة هذه الأحداث والمواقف.

* * *

لقد طلب موسى وهارون أن ينتقم الله تعالى من فرعون وقومه. وجاء الجواب بأنه (قد أجيبت دعوتكما). وها هي القصة تعرض قضية عبور موسى وقومه للبحر لتكشف لنا بنحو فني غير مباشر: إن الانتقام من فرعون وقومه قد تحقق. إلا أن النص لم يتعرض لتفصيلات الحادثة بل اكتفى بعبارة تتصل بفرعون وحده وهي عبارة (حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت)... طبيعياً، أن

القارىء سوف يستخلص بأن القوم قد غرقوا وأن فرعون عندما أدركه الغرق قال: آمنت. . . هذه التفصيلات ـ كما قلنا ـ لا وجود لها في القصة، وذلك لسبب فني هو: إن النص يستهدف إبراز حقيقة تتصل بفرعون دون قومه باعتباره رأس الفساد. . . أما الانتقام بعامة فقد أحيط القارىء به علماً دون أن تكون هناك ضرورة فنية لذكره ما دام القارىء يستطيع أن يستنتج ذلك. وهذه هي مهمة الفن الذي يعتمد الإقتصاد اللغوي والإيحاء الفني. أما الحقائق التي يستهدف النص إبرازها وتأكيدها والتركيز عليها فيفصل الحديث فيها وهو ما نلحظه في العرض القصصي المرتبط بفرعون في حالة غرقه وقوله (آمن) بالله تعالى، ثم التعقيب على قوله من قبل النص القرآني لهذا الكلام **﴿ءالآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين * فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون﴾**.

إذن، الفكرة أو القضية التي يستهدفها النص القصصي هي: أن فرعون عندما يئس من الحياة. أعلن إيمانه بالله تعالى، وأن جثته عُرضت على الناس ليكون آية للآخرين. وهذا الموضوعان أو الهدفان لهما أهميتهما الكبيرة في ميدان العمل العبادي حيث أبرزهما النص بهذا النحو: تحسيساً بأهميتها المشار إليها. . . أهمية الموضوع الأول هي: ان التوبة ينبغي أن تتم في حالة الإختيار من جانب وفي فسحة من العمر من جانب آخر. والسر الفني في ذلك أن التوبة ـ في حقيقتها ـ ندم على ممارسة الذنب وعزم على الإقلاع منه، وهذا لا يحقق فاعليته إلا في حالة الفسحة من العمر بحيث يؤجل شهواته ويمارس الطاعة، أما في حالة الإشراف على الموت فلا فاعلية لممارسة التوبة، نظراً لعدم وجود الحياة التي يؤجل شهواته فيها. وحينئذ لا فائدة من هذه التوبة التي يضطر إليها الشخص دون أن يختارها بملء رغبته.

أما أهمية عرض جثة فرعون أمام الملإ فتتمثل في كون ذلك منبهاً أو

محركاً يحمل الآخرين على التفكير بمصير المفسدين الذين يخيل إليهم بأن سيطرتهم الدنيوية تنقذهم من المصير البائس الـذي ينتهون إليه. . . والمهم ـ بعد ذلك ـ أن فرعون عندما أعلن عن إيمانه حينما رأى الموت إنما جاءت صياغة هذه الحقيقة المتصلة به: إنماءً عضوياً لدعاء موسى(ع) عندما توجه إلى الله تعالى قائلاً(فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم)، وها هي انعكاسات كلام موسى(ع) تتنامى ـ في أحد مصاديقها ـ على موقف فرعون مما يفصح مثل هذا التنامي عن إحكام العمارة الفنية للنص من حيث تلاحم أجزائه بعضها مع الآخر بالنحو الذي أوضحناه.

* * *

قال تعالى: ﴿**ولقد بوأنا بني إسرائيل مبوأ صدق ورزقناهم من الطيبات فما اختلفوا حتى جاءهم العلم إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون * فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين * ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين * إنَّ الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الاليم * فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين**﴾.

في هذا المقطع عنصر قصصي يربط بين أجزاء السورة الكريمة، حيث لحظنا أن قصة موسى مع فرعون قد ختمت بالإشارة إلى أن الإسرائيليين قد ورثوا الفراعنة، بعد أن دعا موسى(ع) بأن يهلك الله تعالى فرعون وقومه، و كان من جملة دعائه ﴿**ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم**﴾ تحتل موقعاً فنياً من القصة حيث انتقل النص من الحديث عن الإسرائيليين إلى الحديث عن الجاهليين الذين عاصروا رسالة

الإسلام وناهضوها فعقب سبحانه وتعالى على موقف هؤلاء بنفس الفقرة السابقة **﴿ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم﴾** فالملاحظ فنياً هنا أن النص سرد لنا قصة موسى(ع) ليربط بين الفراعنة الذين لم يؤمنوا وبين الجاهليين الذين لم يؤمنوا أيضاً.

وها هو النص يسرد لنا قصة جديدة هي قصة قوم يونس(ع) ليربط بينها وبين الأقوام الذين آمنوا، أي على العكس من الأقوام السابقين الذين تمت الإشارة إليهم. يقول النص: **﴿فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي﴾**. إن هذه الأقصوصة أو الحكاية تنطوي على دلالات فنية متنوعة. فالملاحظ ان غالبية المجتمعات التي عرض لها القرآن الكريم مثل مجتمعات نوح وهود وصالح ولوط وأبراهيم وموسى... الخ قد أنهاها إلى مصائر كسيحة هي نزول العذاب عليهم دنيوياً، خلافاً لمجتمع يونس حيث أنهاه إلى مصير إيجابي هو: رفع العذاب عن المجتمع المذكور. والأهمية الفنية لعرض مثل هذه الأقصوصة هي أنها جاءت ـ كما نحتمل ـ لتقرير حقيقة تتصل بمجتمع محمد(ص) حيث أن الله تعالى خصّ هذا المجتمع ـ كرامة لمحمد(ص) ـ بمصائر تختلف عن مصائر السابقين، منها: رفع العذاب الجماعي وحصره في الهزائم العسكرية مثل معركة بدر مثلاً... وبما أن مجتمع محمد(ص) ـ من جانب آخر ـ قد آمن برسالة الإسلام فيما بعد بخاصة (في مرحلة المدينة) ثم توّج ذلك بدخول الناس في دين الله أفواجاً(في مرحلة فتح مكة): حينئذ فإن انشطار هذا المجتمع إلى طوائف مؤمنة وأخرى غير مؤمنة (مثل كبراء قريش وقبائل وأمصار أخرى) بخاصة في مرحلة مكة التي ندر فيها المؤمنون وكثر فيها المنحرفون.

أقول: إن مثل هذا الانشطار يستدعي فنياً تقديم قصة تعرض المصائر الإيجابية لمن آمن من الأقوام السابقين حتى يتسق هذا المصير مع مجتمع

محمد(ص) فيما آمن برسالة الإسلام فيما بعد... مضافاً إلى ذلك، فإن هدف أية قصة يعرضها القرآن الكريم إنما يتمثل في استخلاص العظة منها من جانب، وجعلها بمثابة ضوء ينير الموقف من جانب آخر. فالنص القرآني الكريم يستهدف لفت النظر إلى المجتمع الذي لا يصدق برسالة السماء فإن مصيره ـ دنيوياً ـ هو نزول العذاب عليه (وقد جاءت قصة موسى مع فرعون: تجسد هذا المفهوم)، أما المجتمع الذي يصدق برسالة السماء: فإن مصيره هو: رفع العذاب عنه (وقد جاءت قصة يونس: تجسد هذا المفهوم)، وبما أن المخاطب هو مجتمع محمد(ص) وان الهدف من مخاطبته هو: حمله على تعديل سلوكه، حينئذ جاءت هاتان القصتان بمثابة نذير وبشير لهذا المجتمع... نذير: يلوِّح بالعذاب دنيوياً (في حالة عدم الإيمان)... بشير: يلوِّح برفع العذاب (في حالة الإيمان)... وحينئذ يكون النص بهذا النمط من الصياغة القصصية قد ربط بين أجزاء النص: بعضها مع الآخر بالنحو الذي أوضحناه.

* * *

قال تعالى ﴿و لو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين * و ما كان لنفس أن تؤمن إلّا بإذن الله و يجعل الرجس على الذين لا يعقلون...﴾.

بهذا المقطع وما بعده تختتم سورة يونس التي كانت فكرتها تحوم على قضايا اليوم الآخر وموقف المشركين من ذلك. لكن: خلال هذه الفكرة، طرح النص مجموعة من الموضوعات المرتبطة بها، وفي مقدمتها: كيفية التعامل مع هؤلاء المنحرفين. لقد طرح النص في ختام السورة خلاصة الموضوعات التي فصل الحديث عنها في حينه، وكان الموضوع الذي أبرزه بخاصة في ختام السورة هو: قضية الإيمان بالله تعالى ومنعكساته... فهو بعد ان قدم لهم سلسلة من الآيات والبراهين مثل: إبداع الله تعالى للظواهر الكونية... ثم بعد

ان سرد لهم قصص الأمم والمصائر التي انتهوا إليها، عاد فأوضح قضية الإيمان بالله تعالى وما يترتب على ذلك من النتائج، مبيناً جملة من القوانين الإجتماعية، ومنها هذا المبدأ: **﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً﴾** ثم هذا المبدأ **﴿أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾** ثم هذا المبدأ **﴿وما كان لنفسٍ أن تؤمن إلا بإذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون﴾**.

هذه المبادىء أو القوانين الثلاثة: تشكل من جانب: التعامل الدنيوي. فالناس أحرار في اتخاذ الموقف الفلسفي من الكون والحياة، والمسؤولون: لا يلزمهم إكراه الناس على الإيمان... وهذا هو التعامل الدنيوي. أما عبادياً فهناك المبدأ الذي يقول: إن الإيمان قضية ترتبط بالله تعالى، فإذا أُذن لشخص بأن يؤمن: كان له ذلك، وإلا فإن الله تعالى (يجعل الرجس على الذين لا يعقلون). هذا يعني ان الإيمان معطى ضخم يهبه الله تعالى لمن يملك استعداداً لأن يؤجل شهواته ويتعقل مبادىء الخير، وأما عدا ذلك فإن الناس (رجس) (ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون)... فالملاحظ هنا، ان النص القرآني الكريم: استخدم عنصر الصورة الفنية لبلورة هذه الحقيقة، وهو (الرمز) ونعني به عبارة(ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون) فالرجس هنا (رمز) فني يشير إلى القذارة والوساخة ونحوها من السمات المادية التي خلقها النص على البشر غير المؤمن، فأكسبه سمة نفسية هي وساخة أو قذارة القلب أو النفس حيث لا سمة أشد إيلاماً على الشخص أو أشد إهانة له من قذارة نفسه.

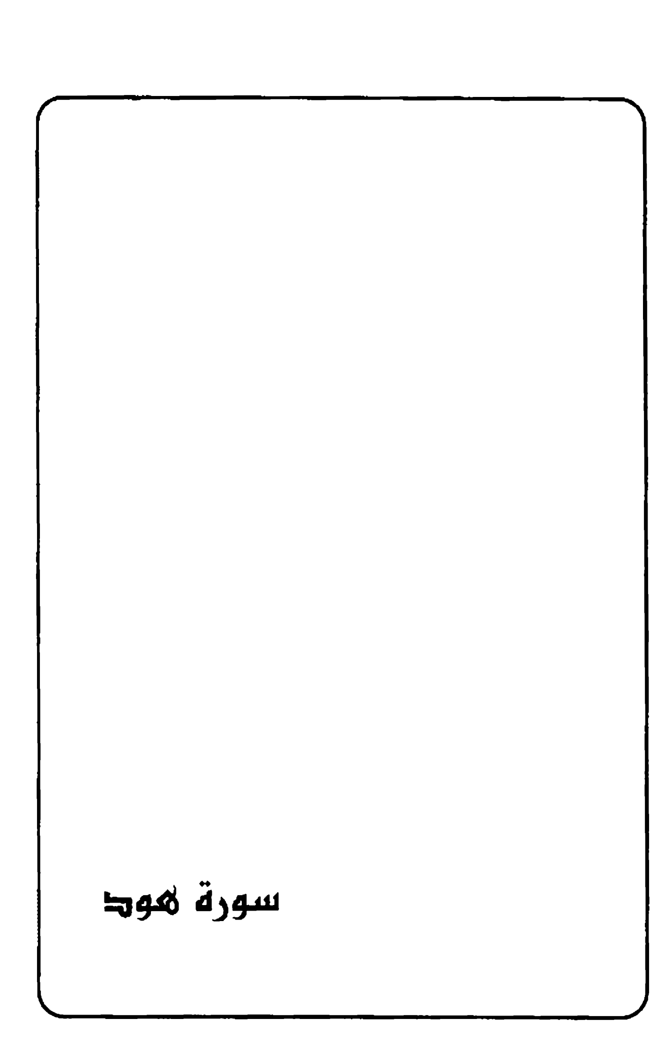
بعد ذلك: ربط النص بين موضوعات كان قد ربطها سابقاً مثل: إبداع الله تعالى للسماء والأرض ومثل سرده لقصص الماضين، ربط بينها وبين هؤلاء الذين خلع عليهم سمة الوساخة أو القذارة: **﴿قل انظروا ماذا في السماوات والأرض وما تغني الآيات والنُّذر عن قوم لا يؤمنون * فهل ينتظرون إلّا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا...﴾**. لقد ذكرهم النص بإبداع الله

تعالى، لكن: لا يغني ذلك عن قوم لا يتعقلون. ثم، ذكرهم بقصص الماضين، وهدّدهم بالمصير المماثل لمصائر أولئك البائدين... ويلاحظ أن النص: قد اعتمد صورة فنية جديدة في هذا التذكير وهي (الصورة التشبيهية) ﴿فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم﴾... إن أداة التشبيه (مثل) تتميز عن غيرها من أدوات التشبيه (من نحو: الكاف، كأن) بكونها ترصد أوجه الشبه بين الشيئين على نحو التطابق بينهما، أما (الكاف) و(كأن) فإنهما يتناولان نسبة محددة من أوجه الشبه، لذلك: عندما يستخدم النص الأداة (مثل) في هذا الموقع فهذا يعني(من الزاوية الفنية) ان العذاب الملح به سوف يلحقهم بنحو (مماثل) للعذاب الذي لحق البائدين، سواء أكان هذا العذاب دنيوياً (مثل هلاك بعض المشركين في معركة بدر) أو أخروياً.

وهذا ما يرتبط بالمنحرفين.

أما ما يرتبط بالمسؤولين، ممن أذن لهم الله تعالى أن يؤمنوا وأن يبلغوا رسالة الإسلام فقد طالبهم النص في ختام السورة الكريمة بأن يصبروا(حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين).

وبهذا الختام يكون النص قد حدد وظائف الطائفة المؤمنة المبلغة برسالة السماء، وطريقة تعاملها مع المنحرفين الذين رسم النص سلوكهم في تضاعيف السورة الكريمة مفصحاً بهذا عن إحكام العمارة الفنية للنص: من حيث علاقة موضوعاته: بعضها مع الآخر بالنحو الذي أوضحناه.



سورة هود

قال تعالى﴿بسم الله الرحمن الرحيم الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدُن حكيم خبير * ألا تعبدوا إلّا الله إنني لكم منه نذير وبشير * وان استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضلٍ فضله وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير * إلى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير * إلا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرُّون وما يعلنون﴾ . . .

تبدأ سورة هود بهذا المقطع الذي يتحدث عن أحكام القرآن الكريم وتفصيله والمطالبة بتوحيده تعالى، وبالتوبة وبالخوف من عذاب يوم كبير. هذه الموضوعات سوف تنسحب على السورة الكريمة بنحو مفصل بعد أن طرحتها مقدمة السورة بهذا الإجمال.

وأول ما يواجهنا بعد المقدمة هو قوله تعالى ﴿ ألا إنـــهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور﴾. هذه الآية تشكل أول موضوع مطروح في السورة الكريمــة حيث نحاول الآن دراستها فنياً وتوضيح علاقتها بعمارة السورة الكريمة.

إنها تتحدث عن سلوك الكافرين حيال رسالة الإسلام بخاصة حين استماعهم إلى محمد(ص) وهو يتلو عليهم آيات الله تعالى. لقد قدم النص مجموعة من (الصور الفنية)في حديثه عن سلوك المنحرفين. وهذه الصور تتأرجح بين الإستعارة والرمز وبين الصور الحسية المباشرة. وتتمثل «الإستعارة» في عبارة «يثنون صدورهم»، ويتمثل (الرمز) في عبارة «يستغشون

ثيابهم» وتتمثل الصورة الحسية أو الصورة المسرحية في العبارة الأخيرة ذاتها أي «يستغشون ثيابهم» في حالة أخذنا التفسير القائل بأن المنحرفين كانوا إذا واجهوا محمداً(ص) غطوا رؤوسهم بثيابهم، فتكون الصورة حينئذ «واقعية» وليست (رمزاً) للواقع. . . لكن في الحالات جميعاً فإن هذه الصورة مصوغة فنياً بنحو يبتعث الإثارة والطرافة، وهذا ما نبدأ بتوضيحه.

إن(ثني الصدور) من الممكن أن يكون (استعارة) تشير إلى أن المنحرفين كانوا يحنون صدورهم عداوة لمحمد(ص) أو حين استماعهم للقرآن الكريم، ومن الممكن أن يكون صورة (واقعية) هي ثني هؤلاء لصدورهم بعضها مع الآخر لكي يتناجوا فيما بينهم خفية حتى لا يسمعهم الرسول(ص) أو الآخرون. وهذا ما يعززه قوله بعد ذلك (ليستخفوا منه)، أي ليتستروا عن النبي(ص). . . لكن حتى في نطاق هذه الصورة الواقعية، فإنها تتضمن صورة (استعارية) أو (رمزية) في الآن ذاته، حيث إن التناجي والهمس بين الأشخاص يتمم من خلال مظهر حركي آخر هو: تقريب الوجوه بعضها إلى الآخر وليس تقريب الصدور وحدها، بل إن حركة الرأس هي التي توحي بأن هذين الشخصين مثلاً في حالة التناجي والهمس: حيث يقرب كل منهما رأسه ووجهه وأذنه إلى الآخر ليتهامسا فيما بينهما. لكن بما أن الهمس أو الكلام الخفي: تنطوي عليه الصدور لذلك أبرز النص القرآني الكريم حركة الصدر وهي (الثني) و(العطف) تعبيراً عن سرية الكلام، بصفة أن الصدر هو موضع الأسرار من حيث موقع القلب منه.

طبيعياً، أن الصدر يتحرك مع حركة الرأس أو الوجه إلا أن حركته ثانوية من حيث المظهر البارز للحركة. لكن بما أن الصدر هو موضع السر: لذلك ابرز النص حركة الصدر بقوله (الا أنهم يثنون صدورهم منه ـ أي النبي(ص) ـ) تعبيراً عن سرية الكلام فيكون بذلك (رمزاً) أو (استعارة) تشير إلى الدلالة

المذكورة... والأمر نفسه، بالنسبة إلى الصورة الواقعية الأخرى وهي قوله تعالى﴿**ألا حين يستغشون ثيابهم**﴾، فاستغشاء الثياب تعبير عن عدم استعدادهم لمواجهة النبي(ص) (أي: رؤيته(ص))، فيكون حينئذ إبراز هذه الحركة الخارجية (وهي واقعية بطبيعة الحال) منطوياً في الآن نفسه على دلالة داخلية هي: مرض أعماقهم الذي انعكس على سلوكهم الخارجي، وهو أمر يكشف ـ من حيث الفن ـ عن إحكام الصياغة الفنية من حيث علاقة ما هو خارجي بما هو داخلي من الأفكار، مفصحاً بذلك عن تلاحم أجزاء النص بعضها مع الآخر.

* * *

قال تعالى﴿... **ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين * ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن ما يحبسه ألا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم**...﴾.

هذا المقطع امتداد لمقطع سابق يتحدث عن سلوك المنحرفين وموقفهم من رسول الله(ص)... حيث كان المقطع السابق يعرض لنا كيف أنهم كانوا يستخفون منه(ص) ويتسترون عنه حتى لا يواجهوه. أما الآن فيتحدث النص عن مفردات من سلوكهم، منها: اتهامهم إياه بالسحر، ومنها: سخريتهم من العذاب حيث يقولون: ما الذي يؤخر العذاب الذي هددهم به رسول الله(ص)... هذه المواقف عرضها النص من خلال التوكؤ على عنصر الحوار: ﴿**ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر**﴾ ﴿**و لئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمّة معدودة ليقولن ما يحبسه؟**﴾. واضح، أن هذا الحوار يكشف عن حقيقة أفكارهم العابثة والساخرة حتى يتبينها القارىء من أفواههم أنفسهم. لكن ما يعنينا من ذلك هو: الموقع الهندسي الذي يحتله هذا المقطع من عمارة السورة الكريمة ثم ما واكبته من

الأفكار التي طرحها النص خلال السياق المذكور. أما الأفكار التي واكبت هذا المقطع فتتمثل في العبارات الآتية التي سبقت الحوار الذي لحظناه: ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كلٌ في كتاب مبين * وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيُّكم أحسن عملاً ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا... الخ﴾ فالملاحظ أن النص طرح قضية الرزق والعلم بمستقر المخلوقات ومستودعها، والإبداع للسماوات والأرض في ستة أيام، وأن العرش على الماء. طرحها جميعاً في هذا السياق ليشير إلى أهميتها من جانب، ثم ـ وهذا هو الأهم من ذلك ـ ليربط بينها وبين الهدف الرئيس من خلق الكون، حيث عقب على ذلك قائلاً: (ليبلوكم أيكم أحسن عملاً)... إن هذه العبارة تلخص تجربة خلق الإنسان وإن الهدف الرئيس من ذلك هو: اختباره، وأن الظواهر الإبداعية وظفت لإنارة الهدف المذكور.

و لنا أن نشير إلى ظاهرة فنية هي: أن الموضوعات لا تكتسب درجة أهميّتها من خلال كونها تطرح بصورة رئيسة بل يمكن طرح ما هو (أهم): بصورة ثانوية، و هذا ما لحظناه في عبارة (ليبلوكم أيكم أحسن عملاً)، حيث إن خلق الكون، و نزول الرسالات، إنما يتم من أجل هذا الهدف (ممارسة العمل الأحسن) أي من أجل الإختبار المذكور، إذ ليس هناك أي موضوع مطروح: يمكن أن يكون أشد أهمية من هذا الموضوع الذي يقول: بأن خلق الكون إنما تم فلأجل ممارسة العمل العبادي، ومع ذلك فإن هذا الموضوع طرح بصورة ثانوية جاءت في سياق الحديث عن مواقف الكافرين، مما كشف ذلك عن واحد من أساليب الفن في توصيل الأفكار المستهدفة.

وهذا ما يتصل بالأفكار التي واكبت الحديث عن موقف المنحرفين حيال

رسول الله(ص) أي: مواقفهم العابثة والساخرة حيث سخروا من العذاب الذي لوّح به محمد (ص) بقولهم: ما الذي يؤخر هذا العذاب؟ لماذا ـ إذن ـ لم ينزل لحد الآن؟ وحيث أجابهم النص قائلاً **﴿ألا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن﴾**. إن ما تعنينا من هذا أن نتبين الموقع الهندسي لهذه المواقف: من حيث صلتهما بعمارة السورة الكريمة. نقول: إن مقدمة السورة خاطبت المنحرفين بالقول (فإني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم)... هذا القول الذي ورد في أول السورة ينعكس الآن على المقطع الذي تحدثنا عنه ألا وهو: استعجالهم للعذاب بقولهم (ما يحبسه؟) أي الذي منع من تأخير العذاب الذي هددهم به محمد(ص).

إذن، عبارة (إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) حيث جاءت في مقدمة السورة. جاء الآن انعكاسها على هذا المقطع الذي نتحدث عنه ممايكشف مثل هذا التنامي العضوي للموضوعات: عن إحكام البناء الهندسي للنص القرآني الكريم من حيث علاقة أجزائه بعضها ممع الآخر بالنحو الذي أوضحناه.

* * *

قال تعالى **﴿ولئن أذقنا الانسان منّا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤسٌ كفورٌ * ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرحٌ فخور...﴾**.

هذا المقطع يتحدث عن سلوك الكافرين المعاصرين لمحمد(ص) فيما نقل النص عنهم جملة من المقولات التي وردت في مقطع سابق من السورة، مثل مقولتهم عن القرآن: **﴿ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين﴾** ومثل قولهم عن نزول العذاب: (ليقولن ما يحبسه؟) أي: ماذا يمنع من نزول العذاب الذي هددهم به محمد(ص). وها هم الآن يقولون شيئاً جديداً: **﴿ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني﴾**.

هذه المقولة الجديدة تتجانس (من حيث عمارة السورة) مع مقولاتهم السابقة التي أكدها النص من خلال (لام التوكيد والنون) (ليقولن. إن هذا إلا سحر مبين) (ليقولن: ما يحبسه؟) (ليقولن: ذهب السيئات عني)... ولكن المقولة الجديدة تفترق عن سابقها بأنها تتناول سلوك الإنسان مطلقاً سواء أكان كافراً أم فاسقاً: من حيث تعامله مع الله تعالى، فيما يقول النص عن الإنسان بأنه: إذا اذاقه الله رحمة ثم نزعها منه إذا به ييأس ويكفر بنعم الله، وإذا أذاقه نعماء بعد ضراء مسته، إذا به يقول: ذهب السيئات عني، أي: إن الإنسان يستجيب لشدائد الحياة استجابة اليائس الكافر بنعم الله تعالى من جانب، فإذا زالت عنه تلكم الشدائد إذا به يطغى ويقول: لا شدة بعد الآن. إنه (فرح فخور)، فرح بالشيء فخور به أمام الآخرين.

والسؤال: ما هي السمات الفنية والفكرية لهذا المقطع الذي تحدث عن موقف الانسان من شدائد الحياة ونعمائها؟

لقد نقل النص لنا هذه المقولات من خلال ما يطلق عليه مصطلح (الحوار الداخلي) أي: حديث الإنسان مع نفسه. ونحن لا نحتاج إلى أدنى تأمل حتى ندرك السر الفني وراء صياغة الأفكار المذكورة وفق المحاورة الداخلية، وذلك لسبب واضح هو: أن ردود الفعل او الاستجابة التي يصدر عنها الانسان في شدائده ومسراته تنعكس ـ في المقام الأول ـ على أفكاره الداخلية فيتحسس بالتوازن. وهذا التوتر أو التوازن هو بمثابة حديث مع النفس (وإن لم يكن منطوقاً)، ولكن (النطق به) قد يتحقق في حالة تصاعد انفعالاته بهذا الحدث المسر أو المؤلم. طبيعياً: لا يقصد من (النطق) انبعاث الصوت من خلال أجهزة الحلق فحسب بل التفكير نفسه هو: كلام غير ملفوظ به كما هو واضح، والمهم، في الحالتين: أن انفعال الإنسان بما هو مسر أو مؤلم ينعكس (حواراً مع النفس) ملفوظاً به أو غير ملفوظ، وهذا ما أبرزه النص

حينما نقل لنا حوار الإنسان مع نفسه وهو ينفعل انفعالاً مسراً بعد أن تذهب الشدائد عنه.

لنقرأ الحوار الداخلي من جديد: **﴿ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني﴾**، إن حديثه مع نفسه(من الزاوية النفسية) أي انفعال الإنسان بالسرور، يكون أشد درجة: لو كان مسبوقاً بالشدة، بخلاف ما لو واجه منبهاً طبيعياً غير مسبوق بالشدة... ولذلك، نجد النص القرآني الكريم قد عرض لنا قبل (الحوار الداخلي) جانب الشدة بقوله: **﴿ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته﴾** هذا القول أو السرد ينطوي على أهمية فنية كبيرة من حيث الصياغة حيث يعد تمهيداً فنياً لصياغة الحوار الداخلي الذي أبرزه النص في هذا الموقع دون سواه وذلك ـ كما نحتمل فنياً ـ من أجل أن يسوّغ لنا «الحوار الداخلي» الذي يضطر الإنسان إليه حينما تتصاعد انفعالاته فيتحدث مع نفسه: تعبيراً عن التصاعد المذكور، وهذا لا يتم إلا في حالة تحسيس القارىء بأنه أمام إنسان مسته ضراء ثم أذاقه الله تعالى نعماء، وحينئذ لابد أن ينفعل هذا الإنسان بدرجة عالية (ما دام الفرح قد سبقته شدة) تضطره إلى أن يتحدث مع نفسه، بالنحو الذي أوضحناه.

إذن، أمكننا أن ندرك السر الفني وراء صياغة الحوار المذكور(ليقولن: ذهب السيئات عني) بخاصة أن النص عقب على ذلك بقوله تعالى **﴿إنه لفرح فخور﴾** حيث جاء هذا التعقيب متجانساً مع التمهيد الذي استهدف تحسيس القارىء بشدة انفعال الإنسان... وأولئك جميعاً تكشف لنا عن مدى جمالية النص من حيث علاقة أجزائه: بعضها مع الآخر، بالنحو الذي لحظناه.

* * *

قال تعالى﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل *﴾

أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا ما استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾.

هذا المقطع يتحدث عن سلوك جديد من سلوك الكافرين المعاصرين لمحمد(ص)... وقد كانت المقاطع السابقة تتحدث عن سلوكهم حيال رسالة الإسلام بعامة، أما هذا المقطع فيتحدث عن موقفهم من القرآن الكريم بخاصة... ويلاحظ أن المقطع القرآني الكريم لا يزال ينقل لنا مواقفهم من خلال عنصر «الحوار» أي: مقولاتهم التي تحاورت فيها مع محمد(ص)، حيث يشكل هذا«الحوار» سمة فنية: جاءت غالبية المقاطع متوكئة عليه. والآن، ما هي الدلالات التي أفرزتها «حواراتهم» في هذا الميدان؟ لقد قالوا ـ في جملة ما قالوه ـ (لولا أنزل عليه كنز)، وقالوا: (أو جاء معه ملك)، وقالوا عن القرآن: (افتراه)، أي اختلقه هو ونسبه إلى الله تعالى. هذه هي مقولاتهم، وأما الإجابة عنها فقد جاءت بالنسبة إلى اقتراحهم بنزول الكنز أو الملك: إهمالاً لسؤالاتهم، واكتفاء بمخاطبته(ص) من قبل الله تعالى: **﴿إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل﴾** أي إن النص لم يرتب أثراً على اقتراحاتهم المشار إليها: إما لتفاهتها أو لعدم اقتضاء السياق لها في هذا المقطع، حيث تكفلت مقاطع أخرى بالإجابة عنها. أما في هذا المقطع الذي نتحدث عنه، فإن السياق يتطلب الصمت عنها، والتركيز على الإجابة عن مقولتهم الذاهبة إلى إنه(ص) قد اختلق القرآن الكريم. لذلك، جاءت الإجابة عن ذلك بهذا النحو**﴿قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾**.

في هذا الحوار نستكشف أكثر من دلالة. منها: أن هؤلاء المنحرفين يمتلكون إمكانات فنية بحيث يميزون بين التعبير الفني المعجز وبين التعبير العادي. وبما أنهم يشككون بالرسالة حينئذ فإن مطالبتهم بما يتميزون به من إمكانات بلاغية: يظل رداً لا سبيل إلى التشكيك به، وهذا ما يستهدفه من

تركيزه على هذا الجانب البلاغي دون سواه، ولعل مطالبتهم بعشر سور يكشف عن أن المقطع القرآني الكريم لم يستهدف مجرد العبارة البليغة التي قد يخيل إليهم امكان تقليدها بل مطالبتهم بصياغة شكل أدبي هو (السورة)، حيث إن الأشكال التقليدية حينئذ كانت منحصرة في الأشكال الآتية: القصيدة، الرجز، الخطبة، المثل أو الحكمة، الرسالة، المناظرة، الخاطرة، الكهانة. وهي نوع من العبارات المسجوعة في شكل خطبة. أما هذا الشكل الفني الجديد وهو: السورة التي تتميز بشكل منفرد ممن حيث عمارتها الفنية ومن حيث عناصرها القصصية والحوارية والصورية والإيقاعية، فضلاً عن موضوعاتها، فأمر لا عهد لهم به مطلقاً. من هنا يمكننا إدراك السر الذي يكمن وراء إبراز النص لظاهرة القرآن الكريم وتحديد أولئك المنحرفين... بل إن المقطع لم يكتف بمجرد المطالبة بالإتيان بسور مثله بل طالبهم بقوله: ﴿وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾. هذه المطالبة الأخيرة، لا تترك مجالاً لأي تشكيك يمكن أن يثيره هؤلاء المنحرفون، وذلك: لأن المطالبة بأن يدعوا جميع القوى البشرية بالإتيان بمثله تعني: أن الإعجاز القرآني الكريم أمر لا سبيل إلى الرد عليه بأي شكل من الأشكال.

ويلاحظ (من زاوية البناء الهندسي للنص) أن المقطع القرآني الكريم عقب على هذا التحدي (أي: الإتيان بعشر سور، والدعوة لجميع القوى للإتيان بمثله) عقب على ذلك بقوله: ﴿فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا اله إلا هو فهل أنتم مسلمون﴾ إن هذا التعقيب ينطوي على أهمية فنية كبيرة (من حيث عمارة النص) حيث إنه عزّز لغة التحدي الفني بلغة منطقية هي: أن هؤلاء المنحرفين ـ في حالة عدم إتيانهم بمثل القرآن ـ حينئذ يتعين على الآخرين أن يدركوا بأن القرآن الكريم ظاهرة اعجازية وهذا هو المستهدف أساساً. اذن، أدركنا جانباً من الأسرار الفنية الكامنة وراء النص لظاهرة التحدي البلاغي للقرآن الكريم دون سواه من الظواهر التي عرضها

المقطع، مما يكشف ذلك عن إحكام النص من حيث تجانس وتنامي بعضها مع الآخر.

* * *

قال تعالى **﴿من كان يريد الحياة الدنيا و زينتها نوف إليهم أعمالهم فيها و هم فيها لا يبخسون * أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار و حبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون * أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة أولئك يؤمنون به ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده فلا تك في مرية منه إنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾**.

هذا المقطع وما بعده لايزال يتحدث عن سلوك الكافرين المعاصرين لمحمد(ص). لكنه من خلال هذا العرض ينتقل إلى الحديث عن الجزاء المترتب على سلوك المنحرفين مقارناً بالجزاء المترتب على سلوك المؤمنين متوكأ على عنصر «الصورة الفنية» في المقارنة بين المنحرفين وبين الأسوياء، حيث ختم المقطع بقوله **﴿مثل الفريقين: كالأعمى والأصم، والبصير والسميع، هل يستويان مثلاً، أفلا تذكرون﴾**.

هذه الصورة الفنية (وهي أحد أشكال التشبيه) تنطوي على أسرار جمالية متنوعة ينبغي أن نقف عندها من جانب وأن نصلها بعمارة السورة الكريمة من جانب آخر. إن هذا التشبيه ينتسب إلى ما نسميه بـ(التشبيه المتكرر) حيث شبه الكافر بالأعمى من جانب، و الأصم من جانب آخر بل المؤمن الذي شبهه بالبصير من جانب وبالسميع من جانب آخر. ويلاحظ أيضاً، أن هذا التشبيه قد جمع السمة التكرارية: سمة أخرى هي ما يسميه البلاغيون القدامى بـ(التشبيه الملفوف) حيث يجمع (المشبه) ظاهرتين أو أكثر على نحو العطف ثم يجمع (المشبه به) على نحو العطف أيضاً أي: يجمع الأعمى والأصم مقابل البصير

والسميع. والمسوغ الفني لمثل هذا التكرار والجمع هو: أن البصر والسمع هما أشد الحواس التقاطاً للحقائق، مقابل حاسة الذوق والشم واللمس، لذلك جمعها في تشبيه (مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع)، ولهذا السبب ذاته: جمع بينهما (في آن واحد مقابل حديثه عن المؤمن و الكافر في سياق مقارنة أحدهما بالآخر، ولذلك لم تكن هناك ضرورة لتكرار أداة التشبيه (الكاف)، بل اكتفى باستخدام كل منها مرة واحدة أي لم يقل النص (مثل الفرقين كالأعمى والأصم) بل اكتفى بأداة واحدة جعلها للأعمى وعطف (الأصم) عليها فقال (كالأعمى والأصم)، وهكذا بالنسبة إلى التشبيه الآخر (كالسميع والبصير)حيث عطف ظاهرة (السميع) على (البصير) من دون استخدام أداة التشبيه (الكاف).

والآن إذا عرفنا هذا الجانب الفني للتشبيه المتقدم، يمكننا أن نربط بينه وبين الموضوعات التي طرحها النص القرآني الكريم وفي مقدمتها: تبيين الفارق بين المؤمن والكافر، حيث أشار النص إلى بعض هذه الفوارق مثل قوله تعالى: **﴿أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة أولئك يؤمنون به ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده﴾**. ففي هذا النص اشارة إلى المؤمن **﴿وهو على بينة من ربه﴾** مقابل الكافر. كذلك نجد في المقطع نفسه قوله تعالى: **﴿ يضاعف لهم العذاب ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون﴾** إن قوله تعالى: **﴿ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون﴾** قد جمع فيه بين سمة عدم (السمع) وعدم (البصر)، و هاتان السمتان (السمع و البصر) قد عكسهما النص على التشبيه الذي تحدثنا عنه قبل قليل **﴿مثل الفريقين كالأعمى و الأصم و البصير و السميع﴾**، وبهذا الاستخدام لحاستي السمع والبصر وجعلهما مادة فنية (مشتركة) بحيث ينفيهما عن الكافر **﴿ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا مبصرين﴾**، ثم يصوغهما بعد ذلك (تشبيهاً) يقارن من خلاله بين من لا يمتلكهما (وهو الكافر)

مقابل من يمتلكهما (وهو المؤمن)، أقول: بهذا النوع من الاستخدام، يكون النص قد أحكم عمارة السورة الكريمة من حيث صلة أجزائها: بعضها مع الآخر.

* * *

قال تعالى﴿**ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذير مبين * ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم * فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلنا وما نراك أتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأيِ وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين * قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعمِّيت عليكم أنلزمكموها و أنتم لها كارهون**﴾.

بهذا المقطع وما بعده من سورة هود يبدأ عنصر جديد من الصياغة الفنية هو: العنصر القصصي حيث يعرض لنا النص مجموعة من القصص التي تتحدث عن نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وموسى. ويعنينا من هذا العنصر القصصي: موقعه العضوي من هيكل السورة الكريمة.

ولعل ما يستوقفنا من ذلك هو ملاحظة أن أفكار القصص وموضوعاتها هي: انعكاسات للأفكار والموضوعات التي طرحتها السورة خلال عرضها لسلوك الكافرين المعاصرين لرسالة الإسلام. فمثلاً نجد في القسم الأول من قصة نوح(ع) أنه يخاطب قومه بأنه (نذير) لهم وأنه يخاف عليهم عذاب يوم أليم ﴿**إني لكم نذير مبين * أن لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم**﴾. هذه العبارات من القصة سبق أن وردت في مقدمة السورة التي جاء فيها: ﴿**الا تعبدوا الا الله إنني لكم منه نذير**﴾ وجاء فيها ﴿**فاني أخاف عليكم عذاب يوم كبير**﴾. لنلاحظ أن العبارات ـ فضلاً عن الأفكار ـ تتماثل في هذين الموقعين (مقدمة السورة، والعنصر القصصي فيها) فعبارة (إني لكم نذير) وعبارة (ألا تعبدوا إلا الله) وعبارة (أخاف عليكم عذاب يوم أليم) أو كبير:

تتكرر في هذين الموقعين. كذلك لو تابعنا الأقسام الأخرى من القصة لوجدنا هذا التماثل متحققاً في أكثر من موقع، فقول نوح لقومه في نهاية المقطع الذي عرضناه: (قال يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربي). هذه العبارة وردت في وسط السورة أيضاً حيث قال تعالى: ﴿أفمن كان على بينة من ربه﴾.

إذن، أمثلة هذا التجانس بين العبارات أو الأفكار المطروحة في القصة، تكشف لنا عن جملة من الحقائق الفنية، يتعين علينا توضيحها قبل متابعتنا لقصة نوح وما بعدها من القصص التي سنعرض لها. وأول ما يلاحظ في ذلك إن كل قصة ترد في السورة لا بد أن ترتبط فكرياً بموضوعات السورة سواء أكان هذا الموضوع مطروحاً بشكل رئيس أو ثانوي فيها، ويترتب على ذلك، أن تكون القصص مصوغة في كل سورة بنحو خاص يختلف عن صياغتها في السورة الأخرى، فنوح(ع) تتكرر قصصه في كثير من السور، إلا أن صياغة القصة في سورة هود مثلاً تختلف عن صياغتها في سورة الشعراء أو الصافات أو القمر وغيرها من السور الكريمة، بحيث نجد في كل قصة طرحاً فكرياً خاصاً يتجانس مع الطرح الفكري للسورة. طبيعياً ثمة عناصر بين هذه القصص التي تتكرر في السور (مثل حادثة الطوفان أو المطالبة بعبادة الله تعالى... الخ) إلا أن هذه العناصر المشتركة تواكبها في الآن ذاته عناصر مستقلة تتفرد بها كل سورة بحيث يتم التجانس بين موضوعاتها وبين موضوعات القصة بالنحو الذي لحظناه في القسم الأول في قصة نوح(ع).

ويلاحظ أن التجانس لا ينحصر في تماثل الموضوعات أو صياغتها التعبيرية، بل يتمثل في حصيلة الأفكار المطروحة. فمثلاً نجد في القسم الثاني من قصة نوح أنه يخاطب قومه بقوله(ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك...). إن إشارته إلى أنه ليس عنده (خزائن) الله تعالى وأنه ليس ملك، تتداعى بذهن القارىء إلى أوائل السورة الكريمة التي

جاء فيها: **﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك﴾** فالكنز والملك فيما كان المعاصرون لمحمد(ص) يشيران إليهما، نجدهما منعكسين في قصة نوح عبر نفيه لأن تكون عنده خزائن الأرض، ، أو يكون ملكاً. والمهم بعد ذلك أن أمثلة هذا التجانس بين العنصر القصصي في السورة وبين النثر غير القصصي فيها، يكشف عن إحكام بالغ الأهمية بالنسبة لعمارة السورة الكريمة، من حيث تلاحم وتنامي وتواشج موضوعاتها: بعضها مع الآخر، بالنحو الذي لحظناه.

* * *

قال تعالى **﴿قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين * قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين. . .﴾**.

هذا هو القسم الثاني من قصة نوح(ع) مع قومه حيث يدور هذا القسم من القصة حول الإنذار الذي وجهه نوح إلى قومه، بنزول العذاب عليهم: في حالة استمراريتهم على الكفر. لقد كان من المفروض أن يتعظ القوم بهذا الانذار وأن ينظروا إليه بنحو جدي، إلا انهم سخروا من ذلك وقالوا لنوح: **﴿قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾**.

إن ما يعنينا من هذا الموقف الذي صدر عن قوم نوح هو: ملاحظة صلته بعمارة السورة الكريمة وموقعه في البناء الهندسي لها، حيث سبق ان لحظنا أن السورة الكريمة كانت تتحدث عن الكافرين المعاصرين لرسالة محمد(ص)، وان قصة نوح إنما جاءت لكي تلقي الإنارة على هذا الموضوع، أي إنها قد وظفت فنياً من أجل الموضوعات المطروحة في سورة هود. لقد هدّد محمد(ص) قومه بالعذاب. ولكن قومه تساءلوا عن مجيء العذاب وسخروا من ذلك، وجاءت الإجابة تقول: **﴿ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن مايحبسه؟ ألا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم﴾** أي: «أن الله تعالى عندما

أخر نزول العذاب على هؤلاء القوم إلى أمّة معدودة، تساءل هؤلاء فقالوا: ما يحبسه؟ أي: لماذا لم ينزل العذاب كما أخبر به محمد(ص)؟. هذا الموقف نفسه، يتكرر الآن في قصة نوح مع قومه حيث قالوا لنوح: (فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين). إذن، هذا التماثل بين الموقفين موقف مجتمع محمد(ص) من نزول العذاب، وموقف مجتمع نوح من نزول العذاب: يفسر لنا واحداً من الأسرار الفنية الكامنة وراء صياغة قصة نوح(ع)، حيث يتضح ذلك: في هذا التجانس بينهما من حيث المواقف التي صدر عنها الكافرون في زمن نوح(ع).

ليس هذا فحسب بل يمكننا ملاحظة التجانس بينهما أيضاً في طبيعة الجواب الذي قدمه كل من محمد(ص) ونوح(ع).

في قصة محمد(ص) مع قومه: أشار النص الى هؤلاء الكافرين، قائلاً: **﴿أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء...﴾** أي: إن هؤلاء الكافرين لم يكن الله تعالى ليعجز عن إنزال العذاب عليهم، بمعنى أنهم سوف لن يفلتوا من العذاب الذي ينتظرهم. كذلك تحدث نوح مع قومه بنفس اللغة، قائلاً لهم: **﴿إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين﴾** أي: إنكم سوف لن تفلتوا من العذاب الذي ينتظركم.

أكثر من ذلك، إننا نجد في القسم الثالث الجديد من قصة نوح. موقفاً آخر مجانساً لموقف الكافرين المعاصرين لمحمد(ص): وانعكاسات ذلك على العذاب الذي سوف يلحق بهم: نتيجة لاستهزائهم بذلك. يقول النص عن أولئك: (ألا يوم يأتيهم (أي العذاب) ليس مصروفاً عنهم وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن). هذه الإشارة إلى استهزاء القوم من نزول العذاب، وإن العذاب سوف يأتيهم ويحيط بهم ما كانوا يسخرون منه. هذه الاشارة: نجدها أيضاً في قصة نوح(ع)، حيث يقول النص ـ في القسم الثالث من القصة، وهو القسم

الخاص بصنع السفينة: **﴿ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم﴾**. طبيعياً، ينبغي أن نأخذ ينظر الإعتبار، ان النص عندما تحدث عن نزول العذاب بالنسبة الى مجتمع محمد(ص): إنما قال عن ذلك بأنه مؤجل (إلى أمّة معدودة) أي الى حين آخر، وهذا ما يفسر لنا (من زاوية فنية) عدم نزول العذاب الفعلي، وهذا على العكس من مجتمع نوح(ع)، حيث قال لهؤلاء الذين سخروا منه (وهو يصنع السفينة): **﴿إن تسخروا مِنَّا فإنا نسخر منكم كما تسخرون﴾** حيث ترهص هذه المقولة بنزول العذاب الفعلي غير المؤجل، وهو ما كشفت عنه أحداث القصة في قسمها الأخير الذي تناول حادثة غرقهم.

والمهم هو: ملاحظة هذه الأبعاد من التجانس بين موضوعات السورة الكريمة التي تتحدث عن مجتمع محمد(ص)، وبين قصة نوح التي وظفت فنياً لإنارة هذه الموضوعات.

* * *

قال تعالى **﴿وإلى عادٍ أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلاّ مفترون * يا قوم لا أسألكم عليه أجراً إن أجرى إلاّ على الذي فطرني أفلا تعقلون * ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة الى قوتكم ولا تتولوا مجرمين * قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين * إن نقول إن اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إني أشهد الله واشهدوا اني بريء مما تشركون * من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون * إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم * فإن تولوا فقد أبلغتكم...﴾**.

هذه هي القصة الثانية من القصص التي وردت في سورة هود، حيث وظفت فنياً لإنارة الموضوعات المطروحة في السورة الكريمة. لقد كانت موضوعات السورة تدور حول الكافرين المعاصرين لمحمد(ص) وموقفهم من رسالة الإسلام، حيث خاطبهم النبي(ص) قائلاً: ﴿ألا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير وبشير * و أن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه...﴾. وها هود(ع) يخاطب قومه بنفس اللغة، ويقول (يا قوم أعبدوا الله) (ويا قوم استغفرو ربكم ثم توبوا إليه). فالمطالبة بالعبادة وبالإستغفار، وبالتوبة: هذه المفردات الثلاث من السلوك تتكرر في القصتين: قصة محمد(ص) مع قومه وقصة هود(ع) مع قومه. ليس هذا فحسب، بل إنَّ التهديد الذي وجهه محمد(ص) بالنسبة الى قومه:(وإن تولوا: فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير)... هذا التهديد يتكرر بدوره على لسان هود(ع): ﴿فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربي قوما غيركم و لا تضرونه شيئاً إن ربي على كلِّ شيء حفيظ * ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منّاً ونجيناهم من عذاب غليظ﴾. إن محمداً (ص) حذّر قومه من عذاب يوم كبير، وهذا التحذير للناس يتناسب مع طبيعة الجزاء الذي أعده الله تعالى للكافرين الذين يؤجلون إلى اليوم الآخر... لكننا حينما نتجه إلى تحذير هود(ع) لقومه، نجد أن هذا التحذير يتناسب أيضاً مع الجزاء الذي اعده الله تعالى لأولئك البائدين حيث إن العذاب وقع عليهم دنيوياً كما هو واضح.

لذلك فإن الأهمية الفنية لهذه القصة (من حيث موقعها الهندسي من عمارة السورة الكريمة) تتمثل في كونها تتجانس ـ من جانب ـ مع قصص محمد(ص) ومجتمعه وتتجانس ـ من جانب آخر ـ مع طبيعة المجتمع الذي عاصره هود(ع). فمجتمع هود وسواه من المجتمعات البائدة قدِّر له ان يتلقى الجزاء دنيوياً. وهذا الجزاء يشكل مسوغاً فنياً لصياغة هذه القصة وتوظيفها،

فما دام النص القرآني الكريم يستهدف من وراء عرضه لأحداث هذه القصة: تحذير المجتمع المعاصر لرسالة الإسلام من العذاب الذي ينتظره، حينئذ كان لا بد من تقديم قصة تتناول قضية الجزاء الذي يلحق الكافرين، ولا بد أن يكون هذا الجزاء دنيوياً حتى يتعظ به هؤلاء المعاصرون لرسالة الإسلام... في الآن نفسه، فما دام النص يستهدف من القوم تعديل سلوكهم، حينئذ لا بد من أن تعرض هذه القصة: الجزاءات المترتبة على المؤمنين أيضاً، ولذلك نجد ان القصة ركزت على هذا الجانب أيضاً حينما عرضت المصائر للمؤمنين فقالت: ﴿ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمةٍ منّا ونجيناهم من عذاب غليظ﴾. إذن، ينبغي أن ننتبه جداً على هذا المنحى الفني الذي سلكه القرآن الكريم في عرضه لقصة هود مع مجتمعه، حيث عرض مصائر الكافرين والمؤمنين بالنسبة للجزاءات الدنيوية التي لحقتهم، حتى يتحقق بذلك عنصر «الإقناع الفني» المتمثل في ترهيب الكافر من المصير الذي يؤول إليه أخروياً، ثم في ترغيب المؤمن بالنجاة التي يتطلع إليها أخروياً أيضاً. ولكي تتركز هذه الدلالة بنحو أكثر، نجد أيضاً إشارة إلى ما ينتظر هذا، المجتمع من الجزاء الأخروي أيضاً، حيث قالت القصة (واتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة).

ومن الواضح، أن النص ما دام مستهدفاً مخاطبة المجتمع المعاصر لرسالة الإسلام (وهو مجتمع قد تأجل جزاؤه إلى اليوم الآخر) حينئذ فإن لفت نظره الى قصة تتناول كلاً من المصير الدنيوي والأخروي أيضاً، يظل أمراً بالغ الأهمية: من حيث تحقق عنصر الإقناع الفني، مضافاً إلى أن هذا الربط بين مجتمع بائد ومجتمع معاصر، يكشف عن الاحكام الهندسي للسورة الكريمة، من حيث تلاحم موضوعاتها: بعضها مع الآخر، بالنحو الذي لحظناه.

* * *

قال تعالى﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم أعبدوا الله ما لكم من إله

غيره هو أنشأكم مِن الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إنّ ربي قريب مجيب﴾.

هذه هي القصة الثالثة من العنصر القصصي الذي تضمنته سورة هود، حيث جاءت قصص نوح وهود وصالح وسواها مما نعرض له موظفة فنياً لإنارة القصة الرئيسة التي تحوم عليها السورة الكريمة ونعني بها: قصة محمد(ص) مع قومه في المرحلة الأولى من ظهور الرسالة... هذه القصة تمضي (من حيث عمارتها الفنية) متجانسة مع ما سبقها مثل المطالبة بعبادة الله تعالى، وبالإستغفار وبالتوبة، وتطرح كذلك مصائر مشتركة للأقوام الذين لحقتهم الجزاءات الدنيوية مثل: الطوفان والصيحة ونحوهما من العذاب، نتيجة لتمردهم. بيد أن الملاحظ أن قصص السورة الكريمة بالرغم من تآزرها جميعاً وانصبابها في روافد مشتركة، إلا أن لكل منها نكهة خاصة وطرحاً خاصاً لا بد من ملاحظته. لقد تميزت قصة صالح بطرح خاص هو: تعرضها لتجربة الناقة التي عقرها القوم... وكانت الناقة ظاهرة إعجازية لا تدع مجالاً للشك بمشروعية ما جاء به من رسالة السماء... كما تميزت هذه القصة بلفت النظر إلى ظاهرة خاصة هي مخاطبتها للقوم بأن الله تعالى: (أنشأكم في الأرض واستعمركم فيها). وهذا يعني أن هناك صلة فنية بين عمارة الأرض وبين الناقة، فالناقة أخرجت ـ كما تقول النصوص المفسرة ـ من جوف صخرة وكانت ترد الماء بين يوم وآخر وكانت قد خرجت وهي حامل، وكانت المطالبة بها هي: تركها تأكل في أرض الله تعالى وعدم إلحاق الأذى بها: **﴿ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوءٍ فيأخذكم عذاب قريب﴾**. إن عمارة الأرض تعني أن القوم قد أفادوا من مواردها الإقتصادية كل شيء، والناقة تظل واحداً من الموارد الإقتصادية. تقول النصوص المفسرة بأن القوم كانوا يفيدون من لبنها الشيء الكثير بحيث يدخرونه... لكن ـ في الآن ذاته ـ تعرض لتجربة خاصة هي عدم تناول الماء

في اليوم المخصص للناقة إلا من الأماكن النائية عن مركز المدينة مما حملهم على محاولة عقر الناقة: لعدم استعدادهم لتحمل أية تضحية بالرغم من أن الأرض سخرت لهم بنحو ملحوظ، كما هو صريح النص القصصي (استعمركم فيها).

إن هذه التجربة الخاصة تكشف عن أكثر من دلالة، منها: أن المنحرفين عن مبادىء السماء يتحركون من خلال المنافع الشخصية بحيث ينعكس ذلك على موقفهم الفكري من الحياة والكون، فبالرغم من أن الناقة قد اقترنت بإعجاز ملحوظ مما يستتبع الإيمان بمبادىء الشيء، إلا أن ذلك: ما دام قد اقترن بالإمساس بقدر من منافعهم، حينئذ لم يمارسوا أية عملية لضبط النفس بل تمردوا على مبادىء السماء، مما استتبع نزول العذاب عليهم، وهذا ما أوضحه النص القصصي بقوله: ﴿**وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها ألا ان ثمود كفروا ربَّهم**...﴾ لنلاحظ، أن النص هنا قد ربط بين الكفران بالنعم وبين الجزاء الدنيوي الذي لحق بهم، وهو نفس الربط الذي لحظناه في قصة سابقة (قصة هود) حيث قال عن قومه (ألا إن عاداً كفروا ربهم). وهذا التجانس بين العبارتين (ألا إن ثمود كفروا ربهم ـ ألا إن عادا كفروا ربهم) قد واكبهما تجانس بين النعم التي أغدقها الله تعالى على قوم صالح والنعم التي أغدقها تعالى على قوم هود، لقد قال النص القصصي عن قوم هود﴿**يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم**﴾ وقال عن قوم صالح ﴿**أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها**﴾، إذن، ثمة تجانس بين النعم التي أغدقها الله تعالى على كل من مجتمعي صالح وهود، وتجانس بين موقفهما حيال النعم المشار إليها وهو الكفران بها وتجانس بين الجزاء الدنيوي الذي ترتب على الكفران المذكور، وأولئك جميعاً ـ أي هذه الأشكال من التجانس ـ تفصح عن جمالية فائقة في البناء الهندسي للنص، من حيث صلة عناصره: بعضها مع الآخر.

قـال تعالى﴿ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاماً قال سلام فما لبث أن جاء بعجلٍ حينـذ * فلما رأى أيديهم لاتصل إليــه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط * وأمرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسـحٰق ومن وراء إسحاق يعقوب * قالت يا ويلتي ءأَلِدُ وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب * قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد﴾.

هذه هي القصة الرابعة من قصص السورة الكريمة (سورة هود) حيث وظفت هذه القصص لإنارة الموضوعات التي تضمنتها السورة ومنها الموضوع المرتبط بنزول العذاب على المكذبين برسالة السماء وإنقاذ المؤمنين من هذا العذاب. القصة التي نواجهها الآن تتصل بشخصية إبراهيم(ع)، ولكنها تتداخل مع قصة أخرى هي قصة لوط(ع) حيث يلاحظ في جملة من مواضع القرآن الكريم ان قصة إبراهيم تتداخل مع قصة لوط: مع أن أحداث القصتين ومواقفهما لا تصبان في فكرة واحدة حيث إن الأحداث التي تضمنتها قصة إبراهيم هي: مجيء الأضياف إليه وتقديمه الطعام إليهم وتبشيرهم إياه بولادة إسحاق، مع كبر سنه وسن زوجته اللذين لا يسمحان ـ في الحالات الإعتيادية ـ بالإنجاب. وأما أحداث القصة المرتبطة بلوط فإنها تنصبّ على نزول العذاب على قومه الكافرين.

ومما يثير التساؤل الفني بنحو أشد هو أن هذه القصة المتداخلة ـ ومثلها غالبية القصص المرتبطة بشخصي إبراهيم ولوط ـ جاءت في سياق قصص متجانسة في موضوعاتها، ألا وهي: علاقة الرسل عليهمالسلام بأقوامهم الذين دعوهم إلى عبادة الله تعالى ونبذ الأوثان، ثم تمرد هؤلاء الاقوام، ونزول العذاب عليهم في نهاية الأمر نتيجة للتمرد المذكور، وهو أمر لحظناه في قصص نوح وهود وصالح عليهم السلام، كما نلحظه فيما بعد في قصة

شعيب(ع) مع قومه، حيث تتجانس جميع هذه القصص في احداثها ومواقفها ـ حتى في صياغتها فنياً: عدا قصة إبراهيم التي تداخلت مع قصة لوط التي ستتجانس ـ في بعض أحداثها (وهي نزول العذاب عليهم) مع القصص المشار إليها. لذلك، لابد من التساؤل أولاً عن السر الفني الكامن وراء هذا التداخل بين القصتين. أي: لماذا جاءت قصة إبراهيم ـ وهي تتحدث عن بشارة الملائكة إياه بولادة إسحاق ثم يعقوب ـ في سياق العرض القصصي لشخصيات نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام التي اقترن رسمها بنزول العذاب على مجتمعاتهم المنحرفة، في حين جاءت قصة إبراهيم(ع) غير مقترنة بنزول العذاب على قومه بل بشارة خاصة ترتبط بالإنجاب؟

في تصورنا أن الإجابة عن هذا السؤال المتقدم لا يتيسر بسهولة. كما أن الإحتمالات الفنية تظل أمراً لا يمكن الركون إليه بشكل أو بآخر بحيث تظل واحدة من الأسرار الفنية التي لايزال العقل البشري عاجزاً عن إدراكها: في دراسته للنص القرآني الكريم.

وبعامة يمكن القول بأن هناك جملة من الأسرار الفنية وراء ذلك، منها: أن إبراهيم(ع) ذاته شخصية متميزة ورد رسمها في القرآن الكريم بنحو ملحوظ لا تماثلها شخصيات نبوية أخرى في هذا الرسم. بيد أن الأهم من ذلك هو: ارتباط لوط(ع) بإبراهيم(ع)... فأولاً: كان كل من ابراهيم ولوط متعاصرين يعيشان في زمن واحد، مما يسوغ رسمها في قصتين متداخلتين. ثانياً: كان لوط الشخصية الوحيدة التي آمنت بابراهيم وهاجرت معه إلى الله تعالى في خضم المجتمع المنحرف الذي لم يسلم أحد فيه من الإنحراف آنئذ. ثالثاً: كان لوط(ع) ابن أخت ابراهيم(ع)، مما يعني أن العلاقة النَسَبية ـ مضافاً الى العلاقة العبادية والزمنية المشار إليهما ـ تفسر لنا واحداً من مسوغات التداخل

بين القصتين. رابعاً: ـ وهذا المسوغ يترتب على ما سبق ـ وهو: أن مجيء الضيوف (كما سنرى) كان عرضياً كما ينقل: كان مزدوجاً في مهمته، حيث وردوا ـ وهم في صدد تنفيذ العذاب على قوم لوط، مما يحمل دلالة فنية خاصة نعرض لها عند حديثنا عن قصة لوط مع قومه. المهم، لهذه الأسباب وسواها يمكن تفسير بعض الأسرار الفنية الكامنة وراء تداخل القصتين، وهو أمر يكشف دون أدنى شك ـ عن واحد من جوانب البناء الهندسي للسورة الكريمة من حيث تلاحم موضوعاتها: بعضها مع الآخر بالنحو الذي لحظناه، وبا لنحو الذي سنوضحه لاحقاً إنشاء الله.

* * *

قال تعالى ﴿و لقد جاءت رسلنا إبراهيمَ بالبشرى قالوا سلاماً قال سلام فما لبث أن جاء بعجلٍ حنيذ * فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط * وآمرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق و من وراء اسحاق يعقوب﴾.

نحن الآن أمام قصة تحفل بسمات فنية مدهشة، سبق إن أوضحنا صلتها بعمارة السورة الكريمة.

إن إول ما نواجهه من القصة هو: عنصر (التشويق) أو التطلع إلى معرفة ما طرحته في البداية، لقد قالت بداية القصة: (لقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى). ترى، ماذا تعني هذه البداية؟. ثمة (رسل) من الله تعالى حملت الى ابراهيم(ع) (بشرى) من الله تعالى. من هم الرسل؟ أمر يجهله القارىء تماماً. ثم: ما هي البشرى؟ أمر يجهله القارىء أيضاً، إلا انه يظل متطلعاً إلى معرفة هذه البشرى كما إنه يظل متطلعاً إلى معرفة حامليها: رسل الله تعالى. ويزداد القارىء تشوقاً حينما يواجه تبادل السلام بين الرسل وإبراهيم، (قالوا: سلاماً قال: سلام). هذا النمط من التحية يحمل دلالة خاصة: أبسط ما فيها انها

مفصحة عن الحب، عن المسالمة، عن الطريقة التي تتلاقى من خلالها: أحبّاء الله تعالى. لكن ماذا بعد ذلك؟ ابراهيم(ع) يجيء بعجلٍ مشوي تكريماً لضيوفه (فما لبث أن جاء بعجل حنيذ). إلا أن الضيوف يمتنعون عن تناول الطعام وهذا هو عنصر فني جديد في القصة ألا وهو عنصر(المفاجأة).

إذن، نحن الآن أمام عنصرين فنيين في القصة (عنصر التشويق) و(عنصر المفاجأة). المفاجأة هي: أن الضيوف لم يتناولوا الطعام، وهو أمر يستثير الدهشة لسبب واضح هو: أن الضيوف الذين استهلوا مقابلتهم لإبراهيم بالسلام (قالوا سلاماً) ـ وهي تحية الحب ـ لماذا يمتنعون من تناول الطعام الذي يجسد بدوره تعبيراً عن الحب؟ هذا هو عنصر الدهشة في الموقف. إذن، لا بد أن يكون هؤلاء الضيوف من جنس آخر يختلف عن الجنس البشري، أو لا أقل ـ لا بد ان يتميزوا بصفات خاصة تحملهم على عدم تناول ما هو مألوف في السلوك البشري. وفي ضوء هذا السلوك الذي يبدو غريباً على ابراهيم(ع) لا بد ان يتوجس خيفة من هؤلاء الضيوف الممتنعين عن تناول الطعام (فلما رأى أيديهم لا تصل إليه ـ أي الطعام ـ نكرهم وأوجس منهم خيفة)... طبيعياً، لا بد ان تمضي القصة من الآن فصاعداً بالكشف تدريجياً ـ وهذا هو عنصر آخر في القصة ـ عن ملابسات الموقف، لذلك عندما شاهدت رسل الله تعالى ان ابراهيم قد توجس خيفة منهم بادر الرسل قائلين (قالوا لا تخف) لكن: لابد أيضاً من ان يبين هؤلاء الرسل حقيقة الموقف حتى لا يخاف ابراهيم. وهذا ما بدأت به القصة فعلاً، حينما بدأت تكشف عن الخيوط الأولى للموقف، وذلك حينما قال الرسل مباشرة (إنا أرسلنا الى قوم لوط).

إذن: بدأ الآن عنصر (التشويق) و(المفاجأة) يتكشفان تدريجياً، ليبلورا حقيقة الموقف، متمثلة في: ان الرسل قد جاءوا لمهمة خاصة هي: إنزال العذاب على قوم لوط. لكن يتساءل القارىء من جديد: ما هي علاقة ابراهيم

بقوم لوط؟ ثم يتساءل القارىء من جديد أيضاً: ما هي علاقة البشرى التي قدمها الرسل بابراهيم؟. وهذا يعني: أن الموقف القصصي لا يزال ملفعاً بالغموض الفني، فما ان بدأ الغموض الأول يتكشف، حتى بدأ الغموض الجديد في الموقف. لقد تكشف للقارىء ـ وهذا ما يستخلصه القارىء دون ان تقول له بصورة مباشرة ـ بان «الرسل» هم «ملائكة» ـ و الملائكة لا تتناول الطعام البشري : كما هو واضح ـ . إذن : للمرة الجديدة نواجه عنصراً فنياً آخر هو: ان القصة تركت للقارىء بان يستخلص بنفسه بان الرسل هم «ملائكة» بدليل انهم جاءوا لمهمة من قبل الله تعالى والمهمة هي: انزال العذاب على قوم لوط، وان انزال العذاب يتم عادة ـ من قبل الملائكة كما هو واضح.

في ضوء ما تقدم، أمكننا ملاحظة النمو العضوي لهذه المواقف في القصة، مما يكشف ذلك عن مدى إحكام النص من حيث تلاحم موضوعاته: بعضها مع الآخر، بالنحو الذي تقدم الحديث عنه. وهو أمر لا بد ان نكتشفه لاحقاً عند الحديث عن قصة لوط. أن القارىء يتساءل: لماذا ضحكت امرأة ابراهيم؟ (وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها باسحاق...). القصة ساكتة عن توضيح السبب. قد يكون الضحك بسبب من تكشف الموقف لها حيث نتوقع ان تكون: قد أحزنها عدم تناول الضيوف للطعام فلما عرفت انهم رسل الله تعالي ضحكت بسبب من تكشف الموقف... وقد يكون السبب ـ كما يذكر بعض المفسرين ـ هو: اطمئنانها لسلامة لوط(ع) من العذاب الذي اخبرت به الملائكة ابراهيم(ع) مما يعني ان القصة قد اختزلت احداثاً ومواقف تتعلق بمهمة الملائكة المرسلين الى إنزال العذاب على قوم لوط ـ حيث تشير فقرة قصصية فيما بعد الى ان ابراهيم(ع) كان يتحاور مع الملائكة في هذه القضية (فلما ذهب عن ابراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط). إن مجادلته في قوم لوط: لعلها استفسارات عن شمولية العذاب للجميع: بما

فيهم طائفة المؤمنين مثلاً (وفي مقدمتهم: شخصية لوط نفسه). كل هذا من الممكن ان يستخلصه القارىء، وحينئذ قد يكون ضحك امرأة ابراهيم نابعاً من تبشيرها بسلامة لوط مثلاً: إذا أخذنا بنظر الإعتبار ان بعض النصوص المفسرة تشير إلى أنّ الملائكة بشروا ابراهيم بسلامة لوط من العذاب الذي سينزل بقومه. لكن، لو انسقنا مع الفن القصصي، ثم اعتمدنا النص التفسيري المأثور عن أهل البيت عليهم السلام من ان ضحك امرأة ابراهيم كان بسبب من بشارتها بالإنجاب: حينئذ نكون أمام سمة فنية من سمات الصياغة القصصية، متمثلة في عنصر (التشويق) الذي لايزال يغلف الموقف.

* * *

قال تعالى﴿ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا سلاماً قال سلام فما لبث أن جاء بعجلٍ حنيذ * فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا الى قوم لوط * وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها باسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب * قالت يا ويلتي ءألِدُ وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب * قالوا أتعجبين من أمر الله رحمةُ الله و بركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد...﴾.

لا نزال مع قصة ابراهيم(ع). هذه القصة التي حفلت بعناصر (التشويق) و(المفاجأة) و(الغموض) الفني... حيث تكشف للقارىء ان الرسل الذين جاءوا ابراهيم(ع)، هم (ملائكة) حملوا البشرى لإبراهيم (ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى) وانهم أرسلوا إلى قوم لوط. لكن القارىء لا يزال يجهل تفصيلات هذين الموقفين أو الحدثين: البشرى، ومهمة الإرسال الى قوم لوط... أما البشرى فإن القصة تبدأ بالكشف عن تفصيلاتها، فتقول (وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها باسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب). القاريء يكتشف سريعاً بأن البشرى تتعلق بقضية الإنجاب، وتسرّ امرأة ابراهيم بولادة

مولود لها: اسمه (اسحاق) ثم ولادة ولده يعقوب. طبيعياً لا يزال الموقف ملفعاً بالغموض، حيث ان دخول بطل جديد إلى القصة (وهو امرأة ابراهيم) يعني أن لهذه الشخصية «دوراً» له أهميته (من حيث بناء الشخصية): ليس في صعيد البشرى بإنجاب الولد فحسب بل في صعيد الأحداث المرتبطة بمهمة الرسل المبعوثين إلى إنزال العذاب على قوم لوط: أحداث القصة ومواقفها في جميع المراحل. أي أن النص أبرز النتيجة (وهي الضحك) ثم ارتد إلى المقدمة (وهي البشرى بالإنجاب)، والمهم: سواء أكان السبب هذا أو ذلك، فإن ما يتسم بالأهمية الأشد خطورة هو: موضوع الإنجاب نفسه، حيث انعكس بوضوح على ردود الفعل الصادرة عنها. إنها هتفت مباشرة بعد أن بشرت بالولد قائلة: (يا ويلتي أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب). وجاء الجواب من الملائكة: ﴿قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد﴾ .

طبيعياً، قد يتساءل القارىء عن سر العجب من امرأة ابراهيم (وهي تواجه ظاهرة إعجازية مجيء الملائكة)... بيد إن التأمل في البشرى ذاتها وهي (الإنجاب لشخصيات متميزة وليست عادية) أي: اسحاق ومن بعده يعقوب حيث تنتسب هذه الشخصيات إلى مواقع نبوية بمعنى إنها تكون (أنبياء) يمارسون مهمات التوصيل لمبادىء الله تعالى: كل أولئك يفسر لنا ان البشرى بالشيء جاءت متناسبة مع خطورة هذا الشيء ليس مجرد الإنجاب لشخصيات عادية. بل العجب من الإنجاب ذاته (وهي وزوجها في عمر يحوم على مائة سنة أو أكثر أو أقل)، وحينئذ يكون المشار إليه: استشناء من القاعدة، للأسباب التي مر ذكرها.

أخيراً، ينبغي ألا تفوتنا الإشارة إلى عمارة القصة الكريمة: من حيث تنامي مواقفها وأحداثها: حيث لحظنا مدى الصلة بين الشخصيات: (الملائكة

وابراهيم وامرأته) وبين موضوعات القصة، فيما يفصح ذلك عن إحكامها الهندسي، بالنحو الذي تقدم، الحديث عنه وبالنحو الذي سنوضحه لاحقاً.

* * *

قال تعالى﴿**ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عصيب * وجاء قومه يهرعون إليه و من قبل كانوا يعملون السيئات قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فأتقوا الله ولا تخزون في ضيفي اليس منكم رجل رشيد * قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد * قال لوأن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد * قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب * فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود * مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد**﴾.

هذه القصة، هي القصة الخامسة من القصص التي تضمنتها سورة هود. إنها تتناول قضية لوط(ع) مع قومه حيث طبع سلوكهم نمط خاص من الإنحراف الجنسي. وبالرغم من أن غالبية القصص جاءت في سياق الحديث عن الفكر الوثني لدى مجتمعات نوح وهود وصالح وشعيب الخ، إلا أن قصة لوط ـ ومثلها قصة ابراهيم ـ جاءتا لتتناولا موضوعات خاصة: تحسيساً بأهمية هذه الموضوعات، فقصة ابراهيم جاءت لتلفت النظر الى الإنجاب المعجز، وقصة لوط جاءت لتتناول نمطاً من الإنحرافات الإجتماعية، وان كلاً من الموضوعين منفصل عن الآخر، لكنهما يرتبطان عضوياً بأكثر من حدث وموقف. فالرسل أو الملائكة الذين بشروا ابراهيم بالأولاد، هم أنفسهم جاءوا ليصبوا العذاب على قوم لوط... وهذا واحد من الخيوط العضوية بين القصتين حيث يستخلص القارىء بأن هناك تخطيطاً غيبياً تقوم الملائكة

بتنفيذه، فهم ـ أي الملائكة ـ يقومون ـ من جانب ـ بعملية تبشير ويقومون ـ من جانب آخر ـ بعملية تدمير... التبشير يتصل بأضخم الشخصيات العبادية والتدمير يتصل بأتفه الشخصيات... التبشير يتصل بميلاد بشر، والتدمير يتصل بموت بشر. التبشير يتصل بولادة أنبياء من أنبياء (ولادة اسحاق ثم يعقوب، من ابراهيم). والتدمير يتصل بابادة بشر منحط. هذا التقابل الفني بين الشخصيات: الأرفع والأحط، بين عملية توليد وعملية إماتة، الخ يكسب النص جمالية فائقة، كما إنه يخضع لعنصر مشترك هو قيام الملائكة بتنفيذ هذا الفعل (البشارة، والإماتة).

وهذا كله حيث صلة القصتين: قصة ابراهيم ولوط مع بعضها.

أما قصة لوط وحدها، فهي تمضي إلى نهايتها المتمثلة في إبادة قوم لوط (فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود)... لكن ينبغي ان نعرض لبنائها الفني قبل ذلك... إن الملائكة ـ كما جاءوا أبطالاً في ملامح بشرية بالنسبة إلى ابراهيم... كذلك تنكروا أمام لوط، وكما حلوا أضيافاً عند ابراهيم كذلك حلوا أضيافاً عند لوط. وكما جهلهم ابراهيم جهلهم لوط أيضاً. وكما إن عنصر (التشويق) لعب دوراً في قصة ابراهيم، كذلك نجد أن (التشويق) ترك فاعلية في قصة لوط حيث أن القارىء يظل متطلعاً إلى معرفة النتيجة التي ينتهي إليها الحدث، فقد رسمت القصة لوطاً: قد ساءه مجيء هؤلاء الضيوف، وضاق بهم ذرعاً، نظراً لهجوم المنحرفين على داره، حتى إنه هتف قائلاً: (هذا يوم عصيب). لقد عرض عليهم العنصر النسوي(قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم). ثم خاطبهم من جديد محذراً (فاتقوا الله ولا تخزوني في ضيفي). ثم خاطبهم أيضاً (اليس منكم رجل رشيد؟). كل ذلك، لم يترك أثراً فيهم، بحيث التمس قوى خارجية لكي تسنده في معالجة الموقف: (قال لو أن لي قوة أو آوى إلى ركن شديد).

هذه العبارة الأخيرة التي نطق بها لوط: جاءت(من حيث البناء الهندسي للقصة) إرهاصاً بانفراج الأزمة، بحيث أفضت إلى الخلاص وذلك حينما جاءت المفاجأة: لتعلن هوية الرسل وإذا بهم يخاطبون لوطاً(ع): (يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك...). وهكذا تكشف الموقف بهذه العبارة القصصية، وحسم الأمر، حيث رسموا للوط(ع) طريقة النجاة من العذاب الذي سيلحق هؤلاء القوم، قائلين له: ﴿فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب﴾. وبهذا التخطيط لعملية الهروب من المدينة (بالنسبة للوط وأهله عدا امرأته)، تعرضت القصة للنهاية المتمثلة في: نزول العذاب علىٰ القوم وإبادتهم تماماً.

ومن الواضح أن خطوط القصة التي أفضت إلىٰ نهايتها المشار إليها، تفصح عن مدى إحكام البناء الفني لها، من حيث تنامي أجزائها وتلاحمها: بعضها مع الآخر بالنحو الذي تقدم الحديث عنه.

* * *

قال تعالى﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يومم محيط * ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين * بَقِيَّتُ الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ * قالوا يا شعيب أصلوٰتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد...﴾.

هذه القصة السادسة من القصص التي تضمنتها سورة هود. إنها تتحدث عن شعيب(ع) وقومه حيث تطرح موضوعات مماثلة لما لحظناه في قصص نوح وهود وصالح الخ، لكن مع سياقات جديدة أبرز ما فيها هو: التركيز على أحد

أشكال التعامل الإقتصادي المحظور وهو: التطفيف في الموازين. . . لاشك ان أهم الأهداف التي تضمنتها القصص هو: قضية «التوحيد»، كما أن الموضوع الرئيس الذي حامت عليه السورة هو«التوحيد» نفسه، لكن، حينما يعرض النص القرآني الكريم قضية ثانوية في سياق جديد عن قضية رئيسة، فهذا يعني أن النص يستهدف لفت النظر إلى هذه القضية الثانوية ونعني بها: التطفيف في الميزان.

وأهمية هذه القضية تتمثل في كون «التطفيف» عملية ذات بعد نفسي له خطورته في ميدان السلوك بعامة، فالتطفيف هو تعبير حاد عن (ذاتية) الشخص بحيث يفصح بوضوح عن أشد أشكال «الأنانية» من جانب، وأشد أشكال الإنغلاق عن الآخرين من جانب آخر. وإذا أدركنا أن جميع المبادىء الإسلامية تستهدف تدريب الشخص على محورين: أحدهما «سحق الذات» والآخر «الإنفتاح» على الآخرين، حينئذ يمكننا أن نستكشف بوضوح مدى أهمية هذا المبدأ الذي طرحه النص بالنسبة للتطفيف في الموازين بصفة أن التطفيف يعني أولاً أن الشخص يحاول أن يجتذب المنفعة إلى (ذاته) فيخسر الميزان حتى يكسب الفائدة إليه، ويعني ثانياً أن كسب المنفعة لنفسه يتم على حساب الضرر الذي يلحق الآخرين، إن الحرص على جلب المنفعة وحده (كما لو كان الشخص يجمع الأموال أو الأطعمة دون أن يترتب ضرر على الآخرين) هذا الحرص وحده: مفصح عن سمة ذاتية بغيضة، فإذا أضفنا إلى هذه السمة سمة أخرى وهي (العدوان) على الآخرين (كما لو كان الجمع للمال أو الطعام يتمم على حساب الضرر المترتب على الآخرين)، حينئذ تبلغ (الذاتية) قمة المفارقة مما تفسر لنا واحداً من الأسباب التي تكشف عن سر العناية بطرح هذا الموضوع (وهو التطفيف) في سياق الحديث عن مجتمعات الكفر، حتى إن سورة كاملة من القرآن «وهي سورة المطففين» يخصها النص بطرح هذا الموضوع بحيث يستهلها النص بقوله «ويل للمطففين» وبحيث يجعلها تتصدر

الحديث حتى عن قضية التوحيد والإيمان باليوم الآخر. وكل أولئك يكشف عن الأهمية التي يكسبها النص للموضوع المشار إليه.

والآن إذا غادرنا هذا الجانب من بناء القصة (قصة شعيب) (ع) واتجهنا إلى الجوانب الأخرى من بنائها الفني: لوجدنا، أن القصة تتماثل مع قصص نوح وهود وصالح ولوط بالنسبة لقضايا الدعوة إلى توحيدالله تعالى، ونبذ الأوثان، والتحذير من المصائر الكسيحة التي ينتهي الكافرون إليها دنيوياً مثل حوادث الطوفا ن والصيحة وسواهما. لكن، بما أن هذه القصة تشكل خاتمة للعنصر القصصي في هذه الصورة حينئذ نلحظ ان النص (من حيث البناء الهندسي للسورة) يطرح تحذيراً خاصاً على لسان شعيب(ع) هو: **﴿ويا قوم لا يجر منكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد﴾**... إن هذا التذكير (على لسان البطل) له أهميته الفنية الضخمة، وذلك لجملة من الأسباب، منها: ان هذه القصة تشكل خاتمة لقصص نوح وهود وصالح ولوط، ومنها: إن القصة (زمنياً) متأخرة عن أزمنة القصص السابقة، ومنها: أن الآثار المترتبة على إبادة المجتمعات السابقة: تظل بمرأىً وبمسمع من مجتمع شعيب وبخاصة: مجتمع لوط (بصفة أنه آخر المجتمعات التي تعرض لها النص) حيث تظل آثار الجزاء الدنيوي محتفظة بفاعليتها، وهو أمر أشارت القصة إليه بوضوح حينما قالت على لسان شعيب(وما قوم لوط منكم ببعيد).

إذن، أمكننا ملاحظة السر الفني الكامن وراء هذه الشريحة القصصية التي تميزت بها قصة شعيب(ع) وصلتها بالقصص السابقة، فضلاً عن الجوانب الأخرى التي أشرنا إليها مما يفصح ذلك جميعاً عن مدى إحكام النص من حيث تلاحم وتجانس أجزائه: بعضها مع الآخر.

***

قال تعالى ﴿و لقد أرسلنا موسى بآياتنا و سلطان مبين * إلى فرعون و ملائِهِ فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد * يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود * وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود * ذلك من أنباء القرى نقصُّه عليك منها قائم وحصيد * وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لمّا جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب * وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد * إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود﴾.

بهذا المقطع من سورة هود، يختم العنصر القصصي الذي وظفته السورة الكريمة لإنارة موضوعاتها المتصلة بسلوك الكافرين المعاصرين لرسالة محمد(ص). لقد تعرض النص عابراً إلىٰ قصة موسى مع فرعون، حيث لحظنا أن قصص نوح وهود وصالح الخ قد عرضت مفصلة، بينما تعرض الآن قصة موسى مجملة. كما لحظنا أن القصص المشار إليها قد تم التركيز فيها على العذاب الدنيوي الذي لحق المجتمعات السابقة، بينما نلحظ الآن أن قصة موسى تعرض للعذابين: الدنيوي والأخروي. والمهم هو أن نقف على الأسرار الفنية لهذه الأقصوصة (اقصوصة موسى): وصلتها بالمبنى الهندسي للسورة الكريمة وملاحظة هذه الفوارق بينها وبين القصص السابقة وانعكاسات ذلك على المبنى الهندسي المذكور.

إن السورة الكريمة ما دامت تتحدث عن الكافرين المعاصرين لرسالة الإسلام ومـا دام الجزاء الأخروي هو العذاب الذي ينتظر هؤلاء المكذبين حينئذ فلا بد أن تختم العنصر القصصي بقصة تجمع بين العذاب الدنيوي الذي يجسد إنذاراً لهؤلاء الكافرين وبين العذاب الأخروي الذي ينتظرهم، وهذا ما تكفلت به أقصوصة موسى مع فرعون من حيث جمعها بين العذابين، وبما أن

رؤساء الكفر في الزمن المعاصر لرسالة الإسلام، لعبوا دوراً في تضليل أتباعهم: حينئذ فإن عرض أقصوصة مثل أقصوصة موسى مع فرعون يجسد صدىً مماثلاً لسلوك هؤلاء حيث ان فرعون وجماعته كانوا أسماء متميزة في الضلال وكانت الغالبية من مجتمعهم أتباعاً لا فاعلية لهم في صنع القرارت، لذلك يجيء التجانس بين التركيبة الإجتماعية لفرعون ومجتمعه وبين التركيبة الإجتماعية للمشركين ملحوظاً في هذا الميدان، مما يفسر لنا واحداً من أسرار العرض القصصي الذي ختم به هذا القسم من السورة حيث اتجهت السورة بعد ذلك إلى الحديث مجدداً عن المشركين: بعد أن قطعت رحلة قصصية طويلة عن مجتمعات نوح وهود وصالح وابراهيم ولوط وشعيب.

لكن، خارجاً عن هذه العمارة القصصية وصلتها بعمارة السورة الكريمة، يعنينا ان نعرض لعناصر الأقصوصة: بخاصة العنصر الصوري وصلته بالعمارة المشار إليها. وأول ما يلاحظ في هذا الصعيد إن النص القرآني الكريم حاول ـ من خلال العنصر الصوري ـ أن يبلور للمتلقي مفهوم التبعية للرؤساء. يقول النص: ﴿**فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد * يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود * واتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود**﴾. الصور هنا تتجسد في صور (تمثيلية) أو (رمزية) هي الرفد والورد حيث تتضمن هاتان الصورتان دلالات ايحائية متنوعة: أبرز ما فيها هو: عنصر (التضاد) بين ايحاءات العبارة، فالورد والرفد يجسد أولهما: الماء الذي يشربه الشخص ويجسد الآخر: العطاء الذي يقدم له، إلا أن النص القصصي منحهما إيحاء مضاداً للشرب والعطاء، بحيث يتحولان إلى تجربة مؤلمة بدلاً من التجربة المسرة التي يفرزها الشرب بالعطاء. والمهم بعد ذلك ـ أن هذه الصور صيغت في سياق الحديث عن فرعون الذي يقدم قومه يوم القيامة فيوردهم النار التي رسمها النص صوراً (تمثيلية) هي: الورد المورود والرفد المرفود، وكل أولئك يكشف بوضوح عن مدى إحكام السورة الكريمة

من حيث تجانس عنصرها القصصي والصوري مع بعضها ثم تجانسها مع موضوعات السورة الكريمة ومن ثم تجانس وتلاحم أجزائها بعضها مع الآخر.

* * *

قال تعالى﴿**ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد * وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب * وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد**﴾.

بهذا المقطع ينتهي العنصر القصصي الذي تضمنته سورة هود، حيث عرض النص القرآني الكريم مجموعة من قصص المجتمعات السابقة (قصص نوح وهود وصالح وابراهيم ولوط وشعيب وموسى) في سياق الحديث من أجل إنارة الموضوعات التي طرحها النص عن سلوك المشركين. وها هو النص يعرض لنا السبب الفني الكامن وراء سرده لقصص الماضين، مبيناً أن الهدف من ذلك هو: تذكر المعاصرين لرسالة الإسلام بمصائر الأمم البائدة، حيث لم تغن أصنامهم التي كانوا يعبدونها عن نزول العذاب عليهم. هذا التذكير بأصنامهم الماضين، إنما هو منحىً فني غير مباشر يستهدف منه لفت نظر المشركين لحملهم على نبذ الأصنام: كما هو واضح. وبما أن عذاب الإستئصال الدنيوي قد رفعته السماء عن أمة محمد(ص)، وأجّلت ذلك إلى اليوم الآخر، لذلك، ربط النص القرآني الكريم بين هدفه من سرد قصص الماضين، وبين تذكير المعاصرين لرسالة الإسلام بالعذاب الأُخروي قائلاً: ﴿**إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود**﴾.

وهكذا انتقل النص هذه النقلة الفنية التي تكشف عن جمالية وإحكام المبنى الهندسي للسورة الكريمة حيث استثمر هذا الجانب، فرسم لنا البيئة

الأخروية التي تنتهي إليها مصائر الناس، إلى الجنة أو الجحيم، فقال: **﴿وما نؤخره إلا لأجل معدود * يوم يأت لا تكلم نفس الا بإذنه فمنهم شقي وسعيد * فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق * خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك إنّ ربك فعال لما يريد * وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ﴾**.

في هذا المقطع نواجه رسماً فنياً قائماً على ما يطلق عليه مصطلح (التقابل أو التضاد من خلال التماثل)، أي: نواجه رسماً يقوم على (التقابل) بين الجنة والنار، بصفة أن أحدهما ضد للآخر. وهذا التضاد يتم ـ في الوقت نفسه ـ من خلال (التماثل) بين هذين المصيرين. فالملاحظ، أن النص قام أولاً بعملية تصنيف الناس الى (شقي) و(سعيد)، ثم فصل الحديث عن كل صنف فقال عن الصنف الأول: (فأما الذين شقوا ففي النار). وقال عن الصنف الآخر: (فأما الذين سعدوا ففي الجنة)، وهذا هو عنصر (التقابل). وأما عنصر (التماثل)، فيتجسّد في قوله تعالى عن كل من هذين الفريقين بأنه خالد في الجنة أو النار ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء الله تعالى. قال تعالى عن الصنف الأول: (خالدين فيها ـ أي النار ـ ما دامت السماوات والأرض ، إلا ما شاء ربك...).

وقال تعالى عن الصنف الآخر ـ مستخدماً نفس الكلمات: (خالدين فيها ـ أي الجنة ـ ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك...).

ومما لاشك فيه، إن هذا (التقابل) بين الجنة والنار، ثم إخضاعه لعنصر (التماثل) من حيث الخلود في كل منها، ومن حيث استثناء إشاءة الله تعالى في ذلك. هذا النوع من الصياغة ينطوي على جمالية فائقة من حيث التقابل الهندسي بين أجزاء النص، فضلاً عما لحظناه من الربط العضوي بين

موضوعات السورة الكريمة وبين العنصر القصصي فيها، ثم الربط العضوي بين ذلك وبين الحديث عن اليوم الآخر.

* * *

قال تعالى﴿فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل وإنا لموفوهُمْ نصيبهم غير منقوص * ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم وإنهم لفي شك منه مريب * وإن كلاً لما ليوفينهم ربك أعمالهم إنه بما يعملون خبير * فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير * ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون * واقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين * واصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين... الخ﴾.

بهذا المقطع وما بعده تختم سورة هود التي حامت موضوعاتها على سلوك المشركين، وختمت بمجموعة من التوصيات التي تطالب باليقين، والإستقامة، وعدم الركون إلى الظالم، وإقامة الصلاة، والصبر... الخ. ويعنينا من هذا الختام ما ينطوي عليه من أداء فني يرتبط بعمارة السورة الكريمة وبجزئياتها.

وأول ما يواجهنا في هذا الصعيد هو «التشبيه» القائل عن المشركين بأنهم (ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل) كما يواجهنا (النموذج) الصوري القائل (ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم...). إن هاتين الصورتين (التشبيه، والنموذج) تنطويان على قيم بنائية لها أهميتها الكبيرة بالنسبة إلى عمارة السورة الكريمة. أما «التشبيه ـ تشبيه المشركين بما يعبد آباؤهم» فقد ورد في سياق القصص التي أوردها النص عن مجتمعات نوح وهود وصالح وابراهيم ولوط وشعيب وموسى، حيث ذكر

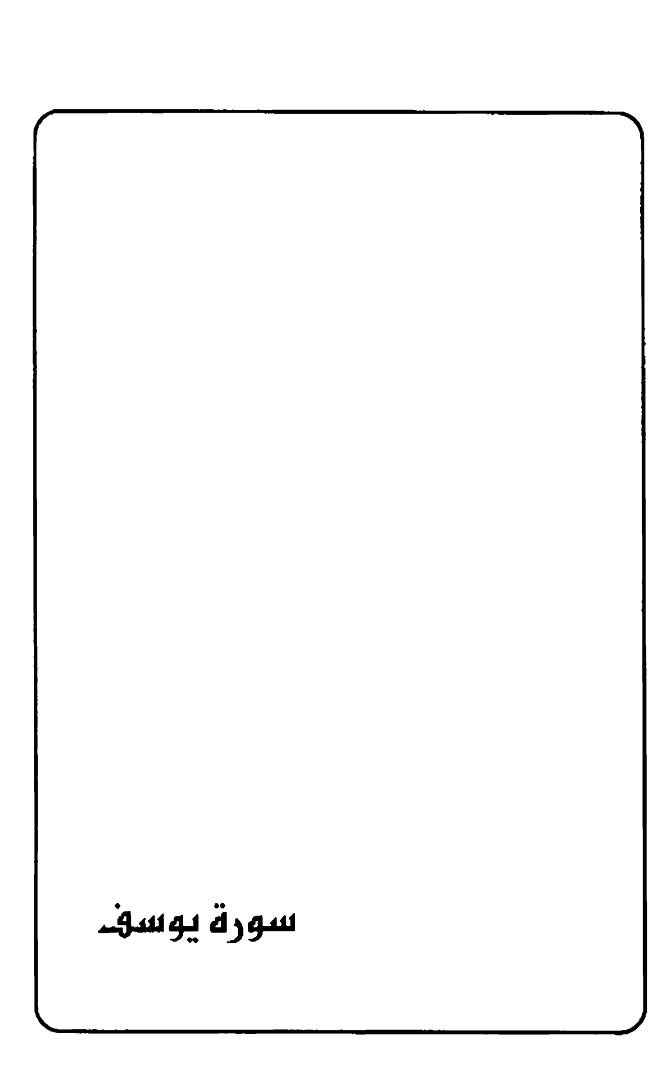
القرآن المصائر التي تنتهي إليها أولئك البائدون دنيوياً، نتيجة لكفرهم. . . والأهمية الفنية لهذا التشبيه تكمن في انطوائه علىٰ قيمة فكرية هي: إن المجتمع المعاصر لرسالة محمد(ص) بما إنه لم يكتب للمنحرفين فيه بعذاب الإستئصال بل بتأجيل ذلك: أخروياً، لذلك، اكتفى النص بصياغة «تشبيه» يربط بين المشركين وبين عبادة آبائهم السابقين مع تعقيب على هذا السلوك، هو «وانا لموفّوهم نصيبهم غير منقوص». فهذا التعقيب الذاهب إلى أن الله تعالى سوف يوفي هؤلاء المشركين جزاءهم في اليوم الآخر يتناسب مع عملية التأجيل التي أشرنا إليها. . . والمهم ـ فنياً ـ إن عنصر «التشبيه» جاء متساوقاً مع العنصر القصصي في توظيفها جميعاً من أجل إنارة الموضوعات المرتبطة بسلوك المشركين وما ينتظرهم من الجزاء الأخروي.

وأما «الصورة النموذجية» التي قدمها النص عن مجتمع موسى، (لقد آتينا الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم)، فهي بدورها تصب في الهدف المشار إليه، إن النص يريد أن يقول لمعاصري رسالة الإسلام ان قوم موسى قد اختلفوا فيما بينهم حيال الكتاب الذي أنزل عليه عصرئذ، وإن الإختلاف المذكور لا يزال ممتداً حتى زمن رسالة الإسلام. لكن ـ بماأن أحد المبادىء الإجتماعية التي قررتها السماء يقضي بأن يؤجل الى اليوم الآخر: عذاب هؤلاء القوم المختلفين فيما بينهم ـ حينئذ لا ضرورة إلى استئصالهم دنيوياً كما كان الأمر بالنسبة للأمم البائدة. اذن، يظل هدف النص منصباً على تقرير حقيقة هي: أن الجزاء الأخروي ـ وليس الدنيوي ـ هو المقرر بالنسبة للمشركين وسائر المنحرفين الذين لم يلتزموا بمبادىء السماء.

وما دمنا نتحدث عن عنصر الصورة الفنية (أي: النموذج القصصي عن مجتمع موسى، والتشبيه القصصي بالمجتمعات البائدة)، ينبغي ألا تفوتـنا الإشارة إلى عنصر صوري آخر: جاء في سياق التوصيات التي قدمها النص،

ومنها التوصية بالصلاة، حيث عقب عليها النص قائلاً: (إن الحسنات يذهبن السيئات)، فالحسنات هنا (رمز) ـ وليست أعمالاً مطلقة ـ للصلاة، بدليل إنها جاءت بعد قوله مباشرة (واقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات)، مضافاً إلى إنها قد فسرت فنياً بهذا العنصر الرمزي من قبل إئمة أهل البيت عليهم السلام، وأهمية «الرمز» ـ أي كون «الحسنات» ترمز الى الصلاة ـ تتمثل في تحسيس المتلقي بخطورة الصلاة بحيث تجسد «الحسنات» التي تصدر عن الإنسان: مع ان الحسنات متنوعة بتنوع السلوك العبادي وليست مقتصرة على الصلاة وحدها، لكن، بما ان للصلاة أهميتها الخاصة، حينئذ جاء «الرمز» لها بالحسنات أمراً له مسوغة الفني المشار إليه. والمهم ـ بعد ذلك كله ـ إن عنصر الصورة ـ في صعيد الرمز للصلاة التي استثمرها النص في هذا المجال ـ وسائر الأدوات الفنية، قد وظفها النص لإنارة الموضوعات التي تضمنتها السورة الكريمة ما يفصح عن إحكام المبنى الهندسي لها بالنحو الذي لحظناه.

* * *



سورة يوسف

لعل سورة يوسف هي السورة الوحيدة من السور الطوال في القرآن، تتمحض لسرد قصة واحدة تستغرق السورة بأكملها، دون أن يتخللها نثرٌ غير قصصي: عدا الآيات التسع التي تنتهي السورةُ بها: وهي ـ في الواقع ـ تعقيبٌ على القصة ذاتها.

ومن الواضح، أن تخصيص سورة بأكملها لقصة واحدة: يتحرك من خلالها بطل رئيس واحد، ثم أبطال ثانويون يتحركون ضمن ذلك البطل... أقول: ان تخصيص سورة بأكملها لقصة واحدة، إنما يكشف عن أهمية هذه القصة وما تنطوي عليه من دلالات خطيرة ينبغي أن نضعها في الاعتبار ـ ونحن نتناول البناء الهندسي للقصة.

والآن،ما هي الخطورةُ التي تنطوي عليها القصةُ أولاً؟ وما هي خطوط الشكل الفنّي الذي اعتمدت القصةُ عليه، ثانياً؟ وصلة ذلك بعمارة السورة أساساً.

* * *

إن أهمية قصة يوسف تتمثل في تضمنها أحداثاً ومواقف في غاية الإثارة. وهذه الإثارة ناجمة عن كونها تتصل بأهم الدوافع لدى الإنسان وأشدّها إلحاحاً، وفي مقدمتها: الدافع الجنسي.

يلي ذلك، دافع(الحسد) أو (الغيرة)، وهو دافعٌ مُلحٌّ بدوره لا يكاد يتحرّر الإنسانُ منه إلاّ بالتدريب الشّاق: من خلال الوعي الإسلامي بجذور هذا الدافع وطرائق تهذيبه أو التصعيد به، أو التخلّص منه.

هناك أيضاً دافعٌ ثالثٌ مُلحٌّ بدوره، تكشف القصة عنه، ألا وهو دافع

السيطرة أو التفوّق.

وفضلاً عن ذلك كله: ثمة دوافع وحاجات وميولٌ ومواقف تكشف القصةُ عنها، مبيّنة لنا طرائق التعامل معها، وإشباعها بالطريقة السوية أو الشاذّة.

هذه الحاجات والمواقف ستتبلور أمامنا بصورة واضحة، حيث نقف على تفصيلات هذه القصة، وما تحفل به من أحداث وأبطال وبيئات ومواقف: وبخاصة أنّها جميعاً صيغت في شكلٍ قصصيٍ حافل بأنواع الإثارة الفنّية.

الشكل الفنّي للقصة

لقد بدأت قصة يوسف على النحو التالي:

﴿إذ قال يوسفُ لأبيه:

يا أبتِ: إني رأيت أحَدَ عشر كوكباً، والشمسَ والقمرَ رأيتهم لي ساجدين﴾.

هنا أجابه أبوه، قائلاً:

﴿يا بني: لا تقصص رؤياك على اخوتك، فيكيدوا لك كيداً. إنّ الشيطان للإنسان عدوٌ مبين﴾.

إذن، القصةُ تعتمد على مادة حُلُمية منذ البداية.

والحُلُمُ ـ كما هو واضح ـ يُشكّل في القصة المعاصرة بخاصة مادة فنيّة غنيّة في التقنية القصصية.

وأهمية الحُلُم تنبثق من كون الحُلُم، واحداً من أهمّ فعاليات السلوك البشري: في الجانب اللاشعوري من الشخصية. ولذلك، فإنّ استخدام مادة الحُلُم ـ في أعمال قصصية يكتبُها البَشرُ ـ إنّما تعدّ ذات أهمية كبيرة، نظراً لأهمية الجانب اللاشعوري من نشاط الإنسان.

ونحن الآن لا يعنينا أن نتحدث عن اللاشعور بمعناه الأرضي وافتراقه عن التفسير الإسلامي للاشعور، وصلة الأحلام بذلك، بل لهذا البحث مكان آخر تحدثنا عنه مفصلاً في دراساتنا عن علم النفس الإسلامي، وإنما يهمنا الآن أن نشير فحسب إلى أهمية المادة الحلمية في العمل القصصي بصفتها واحدة من أهم فعاليات السلوك: في نطاقه خارج اليقظة، أو ما يسمّيه البحث الأرضي: خارجَ(الوعي).

على أية حال. . . حين ننقل هذه الظاهرة إلى نطاقها الإسلامي، نجد أنّ الحلم وهو نمطان: صادق وكاذب، إنما يُعد الصادق منه جزء من الإلهام تدفعه السماء إلى الشخصية: خارج يقظتها، بُغية الإفادة منه في تصحيح السلوك: في نطاق الحالِم نفسه، أو نطاق الآخرين، بحيث تتحقق الإفادة إمّا بنحو خاص متصل بالحالم وبمن يعنيه أمره، أو بنحو عام مُتصلٍ بالجماعات الإنسانية كلّها أو بعضها.

* * *

وحين نعود إلى قصة يوسف نجد أن المادة الحلمية في هذه القصة قد شملت هذه الأنواع الثلاثة من الأحلام، أي:

١ ـ الحلم الخاص بشخصية الحالم نفسه.

٢ ـ الحلم الخاص بمن يعنيه أمره.

٣ ـ الحلم المتصل بالجماعات الإنسانية.

أما الحلم الخاص بشخصية الحالم، فقد تمثّل في ثلاثة أحلام:

أ ـ حلم يوسف في رؤيته لأحد عشر كوكباً.

ب ـ ج ـ حُلُمَيْ صاحِبَيْهِ في السجن: في رؤية أحدهما يعصر خمراً، ورؤية الآخر حاملاً فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه:

﴿ودخل معه السجنَ فَتَيَان، قال أحدهما: إنّي أراني أعصر خمراً. وقال الآخر: إنّي أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه﴾.

وهذا كله فيما يتصل بشخصية الحالم.

أمّا فيما يتصل بمن يعنيه أمره، فهو حُلُم يوسف بما يتصل بسلوك إخوته. ثم حُلُما صاحبيه من حيث صلتهما بالمَلِك الذي يخدمه الأول، ويصلب الآخر.

وأمّا النوع الثالث من الأحلام التي تتصل بالجماعة الإنسانية ـ في هذه القصة ـ فهو: حُلُم المَلِكَ الذي رواه على النحو الآتي:

قال المِلكُ:

﴿إني أرى سبع بقراتٍ سمانٍ، يأكلهن سبعٌ عجاف. وسبعَ سنبلات خضر وأُخَر يابسات﴾.

وهذا الحلم يتصل ـ ليس بالحالم نفسه ـ بل برعيته أجمع من حيث خصب الأرض وجدبها.

إذن، الأنواع الثلاثة من الأحلام، وجدت طريقها في هذه القصة الحافلة بالأسرار الفنية المثيرة.

ليس هذا فحسب. . . فالمادة الحلمية لم تقتصر ـ في هذه القصة ـ على استقطابها للأنواع الثلاثة من الأحلام ـ بل تجاوزته أيضاً، إلى مهمة فنيّة أخرى هي: مهمة تفسير الأحلام الثلاثة.

إن تفسير الحُلُم يشكل بدوره جزء خطيراً من السلوك البشري.

فإذا كان الحُلُم فعاليةً لا شعورية أو فعالية غيبية، فإن تفسيره هو الذي يمنح المعنىٰ أو الدلالة التي ينطوي السلوك عليها.

من هنا، فإن المادة الحلمية في قصة يوسف قد استكملت فنياً حينما أتبعت الحُلم بتفسيره، وتوضيح دلالاته.

فالأنواع الثلاثة من الأحلام، لم يتركها النصُ القرآني بلا جواب، بل أتبع كلاًّ منها بالتفسير الذي ينطوي الحُلُم عليه.

ونقصد بالأحلام الثلاثة: أنواع الحلم من حيث صلته بالحالم، أو بمن يعنيه من الخاصة، أو بالجماعات الإنسانية على نحو ما فصّلنا الحديث عنه.

أما عدد الأحلام الذي وجد طريقه في قصة يوسف فهو أربعة أحلام، ذكرت في القصة، يُضاف إليها: حُلُمان ليوسف وأبيه وذكرتهما نصوص التفسير، فيكون المجموع ستة أحلام. أمّا ما نتناوله الآن، فهو أربعة أحلام. وفي حينه نذكر الحُلُمين الآخرين.

١ ـ حُلُم يوسف في رؤيته أحد عشر كوكباً.
٢ ـ حُلُم أحد صاحبيه في السجن في رؤيته يعصر خمراً.
٣ ـ حُلُم أحد صاحبيه في رؤيته حاملاً فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه.
٤ ـ حُلُم المَلِك في رؤيته البقراتِ السِمان والعجاف ورؤيته السنبلاتِ الخُضَر واليابسات.

هذه الأحلام الأربعة، قد أُتبعت في قصة يوسف بتفسير كل واحدٍ منها.

* * *

واليك تفسيرات هذه الأحلام الأربعة:

١ ـ حلم يوسف: وقد فسّره أبوه يعقوب على النحو التالي:

﴿لا تقصص رؤياك على اخوتك، فيكيدوا لك كيداً﴾.

٢، ٣ ـ حُلُم صاحبي يوسف في السجن: وقد فسرهما يوسف على النحو التالي:

«أما أحدكما فيسقي ربّه خمراً».

«وأما الآخر: فيُصلب فتأكل الطير من رأسه».

٤ ـ حُلُم الملك: وقد فسره يوسف أيضاً، على النحو التالي:

﴿قال: تَزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتُم فَذَرُوهُ في سنبله إلا قليلاً مما تأكلون﴾.

﴿ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلاً مما تحصنون﴾.

﴿ثم يأتي من بعد ذلك عامٌ فيه يُغاث الناس وفيه يعصرون﴾.

هذه هي التفسيرات التي قدمها يعقوب ويوسف للأحلام الأربعة في القصة.

ومنها نستخلص: أن المادّة الحلمية في قصة يوسف قد استكملت بإضافة العنصر التفسيري لها.

وبهذه الإضافة تكون المادة الحُلمية قد تشكلت ـ فنيّاً ـ على النحو التالي:

١ ـ القصة أساساً قد اعتمدت على مادة الحُلُم من حيث دَوَران أحداثها ومواقفها على حُلُم بطلها الرئيسي يوسف.

٢ ـ القصة قد اعتمدت على أكثر من حُلُم يوسف وصاحبيه والمَلِك: وهذا يعني أن عنصر الأحلام هو العصب الفنّي الذي قام عليه شكلُ القصة.

٣ ـ القصة ـ في مادتها الحلمية ـ قد استقطبت الأنواع الثلاثة التي ينحصر الحُلُم الصادقُ فيها، وهي: علاقة الحُلُم بصاحبه، أو بمن يعنيه أمره، أو بالجماعات الإنسانية.

٤ ـ القصة لم تقتصر في مادتها الحلمية على فعالية الأحلام فحسب، بل تجاوزته إلىٰ فعالية تفسير الأحلام أيضاً.

* * *

إنّ هذه العناصر الأربعة، في مادة الحُلُم الذي قام شكلُ القصة عليه، إنما تكشف عن الخطورة الفنية التي انطوت عليها قصةُ يوسف، من حيث جماليةُ البناء القصصي، وخطوطه الهندسية التي تناسقت فيما بينها: حيث تلاقت على حُلُم رئيس وأحلام ثانوية تتواكب معه: من حيث تلاقت على أحلام فردية تخص حالماً بعينه، وأحلام تخص شخصيات عادية وأخرى غير عادية، وأحلام تخص جماعة صغيرة، وأحلام تخص جماهير الشعب بأكمله: ومن حيث أنها أُتبعت بتفسير الأحلام أيضاً: ومن حيث انحصارُ التفسير في يوسف وأبيه.

كل هذه الخطوط الهندسية المتناسقة من حيث اعتمادها على مادة الحُلُم ومستوياته المتقدمة إنما تفصح عن شكلٍ فنّي له خطورته في نطاق البناء القصصي، وانعكاس ذلك على الدلالات الفكرية في القصة.

والآن، حين نتجاوز هذا البناء الفنّي القائم على مادة الحُلُم وتفسيره. . . أقول: حين نتجاوز هذا البناء إلى أشكاله الفنيّة الأخرى، فماذا سنجد حينئذٍ؟؟

* * *

بناء الحدث:

من حيث البناء الذي تتحرّك الأحداث والمواقف من خلاله، فإن الحدَثَ يأخذ تسلسله في الزمن الموضوعي: أي تسير القصة حادثاً بحادث دون أن تُقطعَ الأحداث وفقاً لزمنها النفسي، إلا نادراً نتحدث عنه في حينه.

فالقصة تبدأ بحُلُم يوسف الذي فسره أبوه بأنّ إخوته في صدد أن يكيدوا

له لو قصّ عليهم رؤياه.

ثم تأخذ الأحداث تسلسلها الزمني: بدءً من إلقائه في الجب، مروراً بقضيته مع امرأة العزيز، فإيداعه السجن، فولايته على مصر، فقضيته مع اخوته في حادثة الكيل، وانتهاء بعودة أبويه واخوته إليه.

* * *

وأمّا البناء الداخلي، للحدث، فإن القصة تسير وفق معمارية بالغة الجمال: من حيث تداخل الأحداث وصلة بعضها بالآخر. ثم نموّها عبْر خطوط تتوازى وتفترق حتى تُصبّ في نهر واحدٍ في نهاية المطاف.

ولكي نتبين معالم هذا البناء، يحسن بنا أن نقسمها إلى عناصرها من أحداث وشخصيات ومواقف وبيئات وأفكار: نظراً لما ينطوي عليه كلّ عنصر من قيمة جمالية وفكريّة لا غنىً للمتلقي من الوقوف عليها، حتى يتعرف على الأسرار الفنية لهذه القصة: ثم ما تنطوي عليه من أفكار تتصل بأهم دوافع السلوك البشري، والإفادة منها في تصحيح سلوكنا وتعديله في ضوء مبادىء السماء التي تصوغ لنا أمثال هذه القصص حتى تكون عبرة لأولي الألباب: حيث خُتمت القصة بهذه الحقيقة. وهي قوله تعالى:

﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب، ما كان حديثاً يُفترى، ولكن تصديق الذي بين يديه، وتفصيل كل شيء وهدىً ورحمةً لقوم يؤمنون﴾.

ونقف أولاً مع أبطال القصة، بادئين بأبطالها الثانويين الذين مارسوا مهمات محددة. ثم ببطلها الرئيس يوسف(ع).

ويمكننا أن نُحدد هؤلاء الشخوص الثانويين في:

١ ـ يعقوب.

٢ ـ إخوة يوسف.

٣ ـ الأخ الأصغر.

٤ ـ العزيز.

٥ ـ إمرأة العزيز.

٦ ـ نسوة المدينة.

٧ ـ صاحبي السجن.

ومن الواضح، أن مهمّة البطل الثانوي ـ في أي شكل قصصي ـ تتمثل في إبراز هدف محدّد، وفي إلقاء الضوء على الشخصية الرئيسية، مع ملاحظة أنّ بعض الأبطال الثانويين في القصص الأرضي، قد يشكّلون (وجهة نظر مبدع القصة نفسها)، وقد يضطلعون بأدوار قد لا يُتاح حتى للبطل الرئيسي ممارستها، والمهمّ، إنّ القصص القرآنية الكريمة تحدثنا بلغتنا التي نألفها ونتذوقها حسب استجابتنا التي ركبّتها السماء وفق صياغة خاصة: تأخذ كلاً من جانب الامتاع الجمالي والفكري بنظر الاعتبار، وهو هدف الفنّ في كل أشكاله.

إنّ الأبطال الثانويين في هذه القصة، مارسوا أدواراً بالغة الأهمية، بحيث يضطلع كلّ منهم بإبراز هدف محدد: يُلقي ـ من جانب ـ إنارة على شخصية البطل يوسف، ويبلور لنا ـ من جانب آخر ـ أفكاراً معينة نفيد منها في تعديل السلوك.

ولعل كلاً من يعقوب(ع)، [اخوة يوسف]، ينهضان بأدوار بالغة المدىٰ بالقياس إلى سائر الأبطال الثانويين، فيما تتجاذبهم من دوافع السلوك المتصل بدافع الأبوة، ودافع الحسد وسواهما.

كما أن [امرأة العزيز] تضطلع بمهمة خاصة تتصل بأحد (الدوافع) البشرية [الدافع الجنسي]، مثلما يظل سلوك [نسوة المدينة] قائماً على دافع (الغيرة) والحسد والدافع الجنسي أيضاً... في حين يظل سلوك [العزيز ـ ملك

مصر] و [صاحبي السجن]، متصلاً بدوافع أخرى نتحدث عنها لاحقاً.

إن ما يعنينا هنا، أن نقف عند كل بطلٍ ثانوي في القصة، لاستخلاص المهمة الفنية التي نهض بها، وتحديد موقعها العضوي من القصة.. ونبدأ بالبطل: يعقوب(ع).

شخصية يعقوب:

تظل هذه الشخصية ذات ملمح مأساوي في القصة، نظراً للشدائد التي واجهتها. بيد أنّ المأساة هنا تكتسب جانباً عبادياً يختلف عن المفهوم الأرضي للمأساة.

وأوّل ما يتبادر إلى الذهن هو: دافع أو عاطفة (الأبوة) التي تشكّل من أقوى (الحاجات) إلحاحاً عند الآدميين. وقد تضخّم حجم هذا (الدافع) بعاطفة أخرىٰ هي صغر سن ولده يوسف، ثم تضخم حجمه ثالثاً بسمة (الجمال) الفائق الذي طبع ولده.

وفي ضوء هذا يمكننا أن نقدّر مدى (الحب) الذي يكنّه يعقوب لولده، وبالمقابل، ينبغي أن نقدّر أيضاً مدى (الألم) الذي سيلحق الأب حيال أي أذّى يلحق بولده. ثم ينبغي أن نقدّر مدى ضخامة المأساة في استجابة الأب، عندما تضخم مأساة ولده، إلى الدرجة التي يفتقده، وليس مجرّد لحوق أذى به.

إن أوّل خيوط المأساة بدأت مع (الحُلم) الذي قصه يوسف على أبيه. ويمكننا بسهولة أن نستكشف لغة المرارة في أعماق يعقوب، وشدة تخوّفه، في ردّه على يوسف، وتحذيره إيّاه من أن يقص رؤياه على اخوته: خشية أن يكيدوا به. قال لولده:

﴿يا بُني، لا تقصص رؤياك على اخوتك، فيكيدوا لك كيداً. إنّ الشيطان للإنسان عدو مبين﴾.

إن (الكيد) أو التآمر ليس مجرد مشاعر عدوانية تُترجم إلى سلوك لفظي وحركي عابر نألفه اعتيادياً في سلوك غالبية البشر، بل يعني حياكة عمل أو خطة للإطاحة بالشخصية وبحياتها، وهو أمر يكشف لنا عن مدى القلق والتمزق والتوجس الذي لفّ شخصية يعقوب(ع) منذ حدوث الرؤيا، منعكساً في تحذيره الآنف الذكر.

أمّا من الزاوية الفنية، فينبغي أن نتنبأ بالأحداث اللاحقة التي ستتحرك في بيئة القصة، نتيجة لهذه الكلمة المحذّرة من الكيد... إنّ هذا التحذير القائل: «لا تقصص رؤياك على اخوتك، فيكيدوا...» لم يُرسم في القصة عبثاً، بل ينطوي على سمة فنية تتصل بالبناء العماري لهيكل القصة، ألا وهي: تهيئة ذهن القارىء لأن يتوقع حدوث مأساةٍ بالفعل: ولكن دون أن يتعرّف تفصيلاتها.

ومن الحقائق المألوفة في حقل الأدب القصصي، إنّ عملية (التنبؤ) بما سيحدث، تظل واحدة من أدوات الإثارة، ولكن شريطة ألا تُصبح بشكلٍ جاهز، وإلا فقدت القصة عنصر الإثارة بل ينبغي أن تحوم في دائرة ما هو (مُتوقع)، مضافاً إلى تضبيب مستويات الحَدَث... فأنت قد تتوقع مثلاً أن يصيب بطلاً ما أحد أشكال الأذى دون أن تتيقن ماذا سيحدث بالفعل: فقد يمرض مثلاً أو يجرح، أو يُختطف، أو يُقتل، أو يغترب... الخ.

ومن هنا يجيء عنصر (التشويق) في القصة في معرفة ماذا سيحدث حيال البطل بديلاً عن عنصر (التنبؤ) الذي قد يقلّل من الإثارة، ومن متابعة ماذا سيحدث... وأمّا، في حالة عدم تضمن القصة لعناصر (التنبؤ) بالأحداث اللاحقة، فإنّ عنصر (المفاجأة) سيلعب حينئذٍ دوراً له فاعليته في هذا الصدد...

والمهم، إنّ تحذير يعقوب لولده، يتضمن [من الوجهة الفنية] عنصر

(تنبؤ) بما سيحدث، بيد أن تضبيب أو عدم معرفة ما سيحدث، هو الذي سيُحقق لدى المتلقي عنصر إثارة كبيرة هو: التشويق لمعرفة هويّة الحدث الذي سيواكب مصير يوسف(ع).

* * *

والآن ـ خارجاً عن السمة الفنية المذكورة ـ يعنينا أن نعيد إلىٰ ذاكرتنا من جديد، أنّ أوّل خيوط المأساة التي أحاطت بيعقوب(ع) هي: توقّعه لكيد أو مؤامرة كبيرة تحاك ضد ولده في حالة قصّهِ الرؤيا على أخوته... كما أن القارىء يتوقّع أيضاً أن يكون قلق يعقوب(ع) بالغ الشدّة لجملة من الأسباب: أولها، إن يعقوب إحدى الشخصيات المصطفاة التي لا تتحدّث من خلال التنبؤات العادية، بل تتحدث من خلال لغة (الوحي)، مما يعني أنها مقتنعة تماماً بأن (مؤامرة) ضخمة ستحاك ضد ولدها يوسف في حالة قصّه رؤياه على الاخوة...

مضافاً لذلك، أن بعض النصوص المفسرة، ذهبت إلى أن (يعقوب) قد وعدته السماء بأن يستعدّ لمجابهة الشدائد: إمتحاناً لحادثة سابقة تتصل بأحد السائلين الذين شكك يعقوب(ع) بصدق جوعه...

إذن، كل أسباب القلق والخوف على مصير يوسف(ع)، تأخذ الآن في أعماق يعقوب(ع)، حجماً كبيراً من الشدة.

ثم تبدأ الشدائد، متجسّدة في وقائع بالفعل، بعد أن كانت مجرّد أحاسيس ومشاعر... وأول هذه الشدائد تبدأ مع طلب أولاده باصطحاب يوسف(ع)، حيث عبّر الأب عن بالغ تخوّفه من هذا الطلب، قائلاً بمرارة:

﴿إني ليحزنني أن تذهبوا به، وأخاف أن يأكله الذئب، وأنتم عنه غافلون﴾.

إن هذا التخوف، يشكل عنصر إضاءة جديدة لمخاوف يعقوب وشدائده

القلبية. كما أنه يشكل [من الوجهة الفنية] إرهاصاً جديداً بأن (حادثة) ما، ستحاك ضد يوسف(ع).

وهنا تأخذ القصة طابعاً فنياً بالغ الامتاع. فالقارىء قد يتوقع أن تسفر مصاحبة يوسف لاخوته عن حادثة افتراس من الذئب حقاً. غير أن هذا التوقع سيخفت عندما تكشف القصة عن أن الافتراس لا يتم بالفعل، بل أنّ ما يتم هو: حادثة (افتعال) لعملية افتراس الذئب ليوسف(ع)... ومن هنا، يمكننا أن نستكشف مدى جمالية هذا المنحىٰ من القصّ:

فأولاً: سنعرف أن لهذا التخوّف من افتراس الذئب، حقيقة ستكشف القصة عنها، وهي: أن اخوة يوسف(ع) سيجيئون إلى أبيهم عشاء يبكون، وسيقولون له: إن الذئب قد أكل يوسف ونحن عنه غافلون.

ثانياً: سيُفاجأ القارىء بحدث جديد هو: إلقاء يوسف في البئر، وليس افتراسه من قِبَل الذئب.

وبهذا المنحىٰ من صياغة القصة، تتحقق إثارة فنية كبيرة الامتاع، حيث تقوم على عنصرين هما: المفاجأة، ثم: التشويق لمعرفة ماذا سيحدث من تفصيل ونتائج من هذه العملية.

وواضح، أن القصة تبلغ قمة الإثارة بقدر ما يتوفر فيها كلٌّ من (مفاجأة) ما حَدَث، و(تشويق) لما سيحدث... وهذا ما حققته هذه الشريحة من تحرّك البطل يعقوب(ع) في بيئة القصة.

* * *

ثم جاءت المرحلة الثالثة من خطوط المأساة، بالغة قمتها: عندما بلغه خبر الذئب وافتراسه ليوسف(ع).

لكنه أدرك كَذِبَ هذا القول منهم، فخاطبهم بمرارة:

«بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً، فصبرٌ جميل، والله المستعان علىٰ ما تصفون».

طبيعي، أن نستكشف بسهولة، أنّ(يعقوب) وهو يتعامل مع (الوحي) وليس مع موازين الأرض، أدرك ـ كما قلنا ـ أن قضية الذئب لا واقع لها من الصحة. غير أنّ ما يعنينا من ذلك هو: هذه الفقرة «فصبرٌ جميل»، فيما تفصح عن دلالتين، إحداهما: بلوغ المأساة قمتها، بعد أن وقع ما كان يخشاه... الأخرى: ممارسته لفضيلة (الصبر) التي تستهدفها القصة في هذا الجزء منها.

ثم جاءت المرحلة الرابعة من خطوط المأساة، بعد أن أُخلي يعقوب(ع) من مسرح الأحداث [بدء من إلقاء يوسف في البئر، فقضيته مع امرأة العزيز، فلبثه في السجن، فتعيينه خازناً على الأرض]، جاءت هذه المرحلة بولدٍ جديدٍ يحمل بعضاً من سمات يوسف(ع) هو: أخوه الصغير لأبيه (بنيامين)...

لقد أصبح يوسف(ع) خازناً، واحتاج الجمهور إلى الطعام، ومنهم: أسرة يعقوب(ع)، فيما اضطرّ الاخوة إلى التوجه نحو يوسف. بيد أن (يوسف) ـ لحكمة خاصة ـ يطلب من الاخوة أن يصطحبوا أخاهم الصغير (بنيامين)، وجاءوا إلى الأب، فقال لهم:

﴿هل آمنكم عليه، إلا كما آمنتكم على أخيه؟﴾.

ثم أوصاهم بهذه الفقرة التي تنضح بالمرارة والخوف:

﴿يا بني لا تدخلوا من باب واحد، وادخلوا من أبواب متفرقة﴾.

ثم وقع المحذور الجديد وهو: ضياع(بنيامين) أيضاً عبر حادثة (السرقة) التي افتعلها يوسف(ع) لحكمة خاصة... وعندها وجّه يعقوب(ع) لأولاده نفس الفقرة التي عقب فيها على مصير يوسف(ع)، قائلاً: «بل سوّلت لكم

أنفسكم أمراً، فصبرٌ جميل»، لكنه الآن، يعلّق بعض الآمال على يوسف وبنيامين، قائلاً:

﴿عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً...﴾.

المهم، أن هذه الوقائع بدأت بالتخوّف عليٰ (بنيامين)، والأمر بدخول الاخوة من أبواب متفرقة، ثم: إخباره بإيداع (بنيامين) في السجن، هذه الوقائع تحفر في أعصاب يعقوب(ع) آثاراً جديدة من الشدائد، حتى تتوجت بنهاية موجعة كلّ التوجع ألا وهي فقدانه لعينيه، فيما تشف عن ذلك هذه الفقرة القصصية:

﴿وتولّى عنهم، وقال يا أسفيٰ على يوسف، وابيضت عيناه من الحزن...﴾.

لقد ظل يعقوب(ع) باكياً، وذاكراً ليوسف(ع)، حتى قال له أولاده:

﴿تالله تفتؤ، تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين﴾.

وها هو يجيبهم:

﴿ إنما أشكو بثّي وحزني إلى الله ...﴾.

إذن، بلغت المأساةُ قمتها، وأشدّ، حينما فَقَد يعقوبُ (يوسف) و(بنيامين)، وبصَره، مضافاً إلى استحضاره ذكر يوسف إلى الدرجة التي ضجّ منها أولاده، كما لحظنا.

* * *

إن موقف الأولاد نفسه، يضيف إلى حجم المأساة ثقلاً جديداً دون أدنيٰ شك... فهاهم حيناً يتهمونه أو لِنقُل: يوجهون إليه كلاماً لاذعاً من نحو «حتى تكون حرضاً» و«تكون من الهالكين»... وها هم حيناًآخر يقولون له «إنك لفي ضلالك القديم»، وهذا بعد أن اطمأن يعقوب(ع) إلى حياة ولديه من خلال (القميص) ومن خلال (قَنوات) غيبية، أطلعته على ذلك.

في نهاية المطاف، تظل شخصية (يعقوب) بصفته أحد الأبطال الثانويين في القصة، (رمزاً) أو (دلالةً) أو (نموذجاً) للأب، أو لدافع البنوّة بما يواكب هذا الدافع من شدائد لا مناص منها في عملية (الاختبار)، ثم ما ينبغي أن يزامن هذه الشدائد من عملية (الصبر) التي تظل موضع تشدّد القصة، متمثلاً فيما كرّره يعقوب(ع) مرتين بقوله: «فصبر جميل» عند بلوغه خبر فقدان كلٍ من يوسف وبنيامين.

مضافاً لذلك، نتسكشف دلالةً ثالثة في رسم هذه الشخصية الثانوية (يعقوب)، ألا وهي: النتائج التي يفرزها (الصبر) والتوكل على الله، فيما ينبغي أن نقف عندها أيضاً.

* * *

لقد عاشت المأساة في أعماق يعقوب(ع) سنوات طوالا: بدأت مع حلم يوسف(ع): بل مع تلك المقولة التي أرسلتها السماء إلى يعقوب حينما أوحت له بأن يستعد لمواجهة الشدائد، متبلورة في ابتلائه بسلوك أولاده، ففقدانه يوسف(ع)، ثم فقدانه بنيامين أصغر أولاده، ثم ذهاب نور عينيه...

إلا أنّ لكلّ ليلٍ صبحاً... ولكلّ شدة فرّجاً... وها هي خيوط الفرج تبدأ بالاقتراب، حيث تذكر لنا النصوص المفسرة أن جبرئيل بشر يعقوب(ع) بأنّ ولديه لو كانا ميتين لبَعثَهما الله إليه، موصياً إيّاه أن يصنع طعاماً للفقراء قبال سلوكه السابق الذي منع الطعام عن جائع ذات ليلة عبْر تصوره بكذب دعوى الجائع.

وتقول هذه النصوص أيضاً ان يعقوب(ع) دعا الله أن يُهبط عليه مَلَكَ الموت، فأجابه سبحانه وتعالى إلى ذلك، ولمّا سأل ملك الموت عن مرور روح ابنه يوسف(ع) عليه، أجابه المَلَك بـ: لا. حينئذٍ خفّت حدةُ المأساة في

أعماق يعقوب(ع) وبدأ الفرج يلوح على الأفق، حيث اطمأن يعقوب(ع) علىٰ سلامة ولده.

وفي ضوء هذا الاطمئنان، وجّه يعقوب(ع) إلى أولاده هذا الطَلَب:

«يا بنيّ: اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه، ولا تيأسوا من رَوح الله، إنّه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون».

* * *

وفعلاً، عندما ذهب أولاده إلى أخيهم يوسف، وخبرهم بحقيقة الأمر، عندها قال لهم:

﴿اذهبوا بقميصي هذا، فألقوه على وجه أبي، يأت بصيراً وآتوني بأهلكم أجمعين﴾.

وما أن انطلقت القافلة التي تحمل قميص يوسف(ع) من مصر متوجهة نحو بادية الشام، حتىٰ هبّت الصبا حاملة إلى يعقوب رائحة القميص، فتوجّه إلى أحفاده قائلاً:

﴿إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون﴾.

إلا أنّ أحفاد يعقوب فيما يبدو كانوا بمنأى عن معرفة عطاء السماء وما يحفل به من إعجاز، وأبوا ألا أن يوجّهوا إلى جدِّهم قدراً من الألم حينما قالوا له:

﴿تالله: إنك لفي ضلالك القديم﴾.

ولكن يعقوب(ع) ـ وهو المؤمن بعطاء السماء الذي لا حدّ له ـ كان على يقينٍ تام بالبشارة.

ولذلك ما أن جاءه البشير وألقىٰ القميص على وجهه حتى تحققت البشارة فارتدّ بصيراً بعد العمىٰ:

﴿فلما أن جاءه البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً﴾.

وعندها قال لأولاده:

﴿ألم أقل لكم اني أعلم من الله ما لا تعلمون﴾.

وهكذا، بدأت المرحلة الجديدة من حياة يعقوب(ع)، بدأت بانفراج الأزمة، بدأت بمسح المأساة من أعماقه، فقد اطمأنّ إلى يوسف(ع)، وعادت عيناه بصيرتين كما كانتا قبل المأساة...

ثم تتوجت هذه الحياة الجديدة بالتئام الشمل: حيث توجّه وأهله أجمعون نحو مصر، نحو ولده الذي تربّع على عرش مصر. وعندها:

[رفع - أي يوسف - أبوه على العرش وخرّوا له سجداً].

وقال يعقوب(ع)، مخاطباً يوسف: السلام عليك يا مذهب الأحزان.

نعم: لقد هتف يعقوب: مُعرباً عن فرحته العظيمة، عن ذهاب الحزن من أعماقه، عن ذهاب مرحلة من حياته واستقبال مرحلة جديدة: مرحلة لمّ الشمل وعودة الأهل بعضهم إلى البعض الآخر.

* * *

وإذن، نستخلص من حديثنا عن أحد الأبطال الثانويين - في قصة يوسف(ع) - وهو: البطل يعقوب(ع)... نستخلص جملة من الحقائق الفكرية والفنية من خلال الأدوار التي مرّت على هذا البطل.

إن أهم الأفكار التي ينبغي استخلاصها من حياة البطل: يعقوب هو: تحمل الشدائد وضرورة التوكّل على الله. فالشدائد ينبغي ألا تحمل الشخصية على الجزع منها واليأس من الفرج الذي يتبعها. فيعقوب(ع) بالرغم من فقدانه لولديه الأثيرين لديه جداً. وبالرغم من طول المسافة الزمنية التي افتقد فيها ابنه يوسف(ع)، لم ييأس من روح الله، حتى أنه خاطب أولاده قائلاً:

﴿ولا تيأسوا من روح الله، انه لا ييأس من روح الله، إلا القوم الكافرون﴾.

هذه الفقرة أو الآية تمثّل جوهر الأفكار التي تنطوي عليها حياة يعقوب(ع) في القصة. فالنص القرآني الكريم يُشدّد علىٰ هذا الجانب، ويطالبناألا نيأس أبداً من عطاء السماء مهما امتد زمنُ المأساة وطال. بل إنّ هذا الجانب يُلقي بأضوائه علىٰ كل أفكار القصة أساساً وليس من خلال الأدوار التي قام بها يعقوب(ع) فحسب، بل أننا لنجد أن خاتمة القصة، أو التعقيب الذي أنهتِ السماء قصة يوسف(ع) به، هذا التعقيب كان يحوم بدوره على فكرة عدم اليأس من نصرة السماء لعبدها: سواءاً كان هذا العبد يتحرك من خلال همومه الذاتية: كما هو شأن يعقوب(ع) مع أولاده، أو كان يتحرك من خلال همومه الاجتماعية أو الرسالية: كما هو شأن الأنبياء والمصلحين.

ولذلك جاءت خاتمةُ قصةِ يوسف، تحوم على إبراز هذا الجانب من حياة الرُسُل:

يقول النص في الآية التي تسبق ختام السورة:

﴿حتى إذا استيأس الرسلُ وظنوا أنّهم قد كُذبوا: جاءهم نصرُنا...﴾.

إذن، ينبغي ألا تفوتنا هذه الصلات الفنية بين أبطال ثانويين مثل يعقوب(ع)، وبين أفكار القصة بأجمعها: فيعقوب(ع) هو بطل ثانوي تجسدت حياته في جملةٍ من الأدوار التي لحظناها في القصة. وكان جوهرُها يتمثل في: تحمّل الشدائد وعدم اليأس من نصرة السماء للعبد.

وفعلاً، جاء نصر السماء ليعقوب بعد تلك الشدائد والمحن: من الاعتقاد بهلاك يوسف(ع) ثم ذهاب عينيه...

جاء نصر السماء ليعقوب(ع) أمراً لافتاً للنظر: حيث أعادت إليه يوسف

وهو من الهالكين حسب منطق الأحداث.

ثم ردّت عليه بصره وهو أعمىٰ لا يُرجى شفاؤه حسب منطق الطبّ.

إلا أن يعقوب الذي شدّد على التوكّل على الله، ثم شدّد على عدم اليأس من روح الله. قد كانت السماء إلى جانبه، إلى حسن ظنه وثقته بها: فنصرته.

هذه الفكرة نفسها قد وُظِّفت على المستوىٰ الفنّي لإنارة فكرة العمل الرسالي وضرورة تحمل الشدائد، ثم اليقين بنصرة السماء في نهاية المطاف: مهما كانت الشدائد حادة مثيرة... قد وُظفت هذه الفكرة لإنارة إحدى الأفكار الرئيسية في القصة بأكملها حتى لو لم تكن ذات علاقة بيعقوب(ع): ونعني بها: الفكرة المتصلة بضرورة تحمل أعباء الرسالة، حيث خَتَم النصُ السورة بها، فقال:

﴿حتى إذا استيأس الرسل، وظنوا أنهم قد كذبوا، جاءهم نصرُنا﴾.

إذن، كان هناك تطابقٌ أو تماثل بين حياة خاصة بيعقوب(ع) تتصل بأولاده، وحياة عامة تتصل بالأنبياء والرسل... هذا التطابق أو التماثل: يتجسّد في ضرورة عدم اليأس من نصرة السماء: مهما كانت الشدائد حادة: سواءاً كانت هذه الشدائد فردية تتصل بذهاب ولَدٍ أو بَصَر أو كانت جماهيرية تتصل بتكذيب الرسل والأنبياء من حيث فقدانهم الأنصار الذين يتسجيبون لرسالتهم.

إذن، للمرة الأخيرة: كانت حياة يعقوب(ع) ـ من خلال الأدوار التي قام بها في هذه القصة ـ تُلقي الضوء فنياً على أفكار رئيسية في القصة، وظّفها النصُ فنيّاً في هذا المجال: وهو أمرٌ ينبغي ألا تفوتنا الإشارة إليه، ما دمنا في صدد توضيح الخصائص البنائية في النص القرآني الكريم.

إخوة يوسف:

يجيء دور إخوة يوسف(ع)، بصفتهم أبطالاً ثانويين، في الدرجة الثانية بعد البطل يعقوب(ع)، من حيث تحركاتهم في القصة.

أما من حيث الأفكار فإنّ دورهم في القصة يُجسد ظاهرة (الحسد) بأعتى أشكالها.

إن(الحسد) وفق التصور الإسلامي له، يُعَد أحد الدوافع الملحة في الطبيعة الإنسانية، حتى أنّ المشرّع الإسلامي صوّره لنا دافعاً لا تكاد تخلو منه نفسٌ إنسانية بما في ذلك: عُظماء الرجال واتقياؤهم، كل ما في الأمر أنّ الاتقياء لا يُترجمون حسدهم إلى (عمل) بل يحتفظون به مجرد مشاعر وأحاسيس.

ومن هنا جاء حديث الرفع المشهور الذي لا يُحاسب الإنسان على تسعة أنماط من السلوك، منها: ما يُكره عليه، وما يُضطر إليه، وما لا يُطاق إلخ... ثم: (الحسد) ما لم يظهر بلسان أو يد.

ولقد تحدثنا مفصّلاً في دراساتنا عن علم النفس الإسلامي عن ظاهرة (الحسد) من الوجهة النفسية والتكييف الدافعي لها من خلال وجهة النظر الإسلامية.

أما الآن، فحسبُنا أن نُشير إلى (الحسد) بنحوٍ عابر ما دامت دراستُنا للنصوص القرآنية منحصرة في الجانب الفنّي منه.

ويكفينا من ذلك، أن نقرّر بأن الحسد وفقاً لحديث الرفع المتقدم، يشكل دافعاً ملحاً لا يُحاسَبُ الإنسان عليه ما دام مجرد أحاسيس أو مشاعر. إما إذا تُرجمت هذه الأحاسيس إلى (عمل) من خلال اللسان مثلاً، كمن يُحاول أن ينتقص من شخصيتك بدافعٍ من الحسد، أو من خلال اليد: كمن يحاول

الاعتداء عليك، أو السعي لإيقاعك في مكروه أو شدّة... حينئذٍ فإن هذا السلوك يظل عُرضةً للمسؤولية: حيث يتحمل الحاسد مسؤولية سلوكه: تبعاً لحجم الجريمة التي تصدر عنه.

إنّ (الحسد) في أقصوصة أو حكاية قابيل هو الذي دفع قابيل إلى القيام بجريمة قتل ـ كما لحظنا ـ ذلك في دراستنا لأقصوصة قابيل وهابيل.

وفي قصة يوسف: يقدّم النص القرآني نموذجاً جديداً من السلوك الحاسد، متمثلاً في السلوك الذي أقدم عليه إخوة يوسف، ونعني به: إلقاءهم إيّاه في الجبّ.

والآن، لنحاول متابعة النظر في سلسلة الأحداث والمواقف التي رافقت هذه العملية: من خلال الدور الذي اضطلع به إخوة يوسف(ع): بصفتهم أبطالاً ثانويين في القصة.

* * *

لقد أدرك يعقوب(ع) عندما قصّ عليه يوسفُ(ع) حُلمه. وعندما رأى هو نفسه حُلُماً في هذا الصدد... أدرك أن اخوة يوسف سيتحرك (الحسد) من خلال أعماقهم ما دام يوسف أثيراً لدى والده ويحظى بحنانه وبخاصة أنه كان صغيرهم، وكان أجملهم وجهاً. وكذلك، كان الأمر بالنسبة إلى أخ صغير آخر لهم، هو بنيامين.

ولذلك حذّر يوسف(ع) من أن يحكي لاخوته. إلا أن يوسف قصّ الرؤيا عليهم.

ليس في القرآن ما يدل على أن يوسف قصّ الرؤيا عليهم وإنما أثير حسدهم على يوسف مما رأوا أن يوسف أحبّ إلى أبيهم منهم كما نصّ القرآن

عليه هنا وفي قوله: «يخل لكم وجهُ أبيكمْ» حينما يحكي القرآن صورة المؤامرة من الاخوة على يوسف(ع).

وفعلاً، جاء ردّ الفعل على قص الحُلُم عليهم في شكل محاولة شرّيرة سبقَتْها مشاعُر وأحاسيس واضحة الانتساب إلى الحسد. إذ قال بعضهم لبعض:

﴿قالوا:
لَيوسفُ وأخوه أحبّ إلى أبينا منا ونحن عصبةٌ. إنّ أبانا لفي ضلال مبين﴾.

إن هذا الحوار الجمعي بين الأخوة، يكشف عن تحرك الحسد في أعماقهم، ما دام الأمر متصلاً بيوسف وأخيه لأبيه وأمه. فهذا الانتساب وحده كاف في تفجير الحسد، مضافاً إلى ذلك، أنهما كانا صغيرين: والصغير ـ عادة ـ يظل موضع حسد الأكبر منه.

يضاف إلى ذلك: التفوق في الملامح الجسدية. وهذا عنصر مثيرٌ ثالث للحسد.

أمّا العنصر الرابع المُثير للحسد، فهو إيثار هذين الصغيرين لدى أبيهما.

وأخيراً... كان الحلم هو المثير أو المنبّه الأكبر لتفجير الحسد: حيث أدرك الاخوةُ تماماً أن نجم أخيهم سيتألق، لأن رمز الحُلُم هو. سجود الأحد عشر كوكباً، له. بل حتى الشمس والقمر يسجدان له أيضاً.

وإذن، لنا أن نتصور كم سيكون حجم الحسد كبيراً لدى الاخوة، ما دام الأمر يصل إلى ذوبان شخصياتهم تماماً وتلاشيها، قبالَ شخصية يوسف(ع).

ومن هنا، جاء ردّ الفعل أو الاستجابة على النحو الذي قصّه القرآنُ علينا:

﴿ليوسف وأخوه أحبّ إلى أبينا منّا، ونحن عصبة﴾.

إن تحاورهم فيما بينهم من أنّ يوسف(ع) وأخاه أحب إلى أبيهم منهم، يفصح عن مرارة المشاعر التي تلف أعماقهم.

بل، إنّ قولهم «ونحن عصبة» يجسّد قمّة المشاعر الحاسدة: ومعنى قولهم المتقدم: انهم جماعة يتعصّب بعضُهم لبعض، ويعين بعضُهم البعض الآخر... هذا النحو من التفكير بعقلية (العُصبة) إنما يكشف عن أعماق لم تصل إليها يدُ التهذيب بعدُ.

بل إنهم ذهبوا أكثر من ذلك:

لقد دفعهم الحسد إلى أن يتّهموا أباهم بالضلال:

لقد قالوها بصراحة:

﴿إن أبانا لفي ضلال مبين﴾.

إذن، كم هو حجم الحسد هنا؟؟ إنه بالغٌ أشد مستوياته خطورة: حيث نتوقع أن يترتب على هذا الحوار فيما بينهم تخطيطٌ لمؤامرة ضخمة تتناسب وحجم الحسد المتفجّر في أعماقهم.

إن النص القرآني ـ من الوجهة الفنية ـ يُهيّؤنا لأن نتوقع حدوث تآمر على يوسف: فتحذير يعقوب(ع) لولده يوسف(ع) من أن يقصّ رؤياه على إخوته، يهيؤنا لمثل هذا التوقع.

كما أن طبيعة الحوار الجمعي الذي تمّ بين الاخوة على النحو الذي لحظناه، يهيؤنا لتوقع المؤامرة الكبيرة على يوسف(ع)...

كل هذه الإرهاصات الفنية، تعدنا بمؤامرة ذات حجم كبير:

تُرى: ماذا تمخض عن هذا الاجتماع؟

لقد تمخضّ اجتماع الاخوة ـ اخوة يوسف ـ عن تجسيد عملي لسلوكهم

الحاسد، متمثلاً في هذين الاقتراحين:

﴿اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً، يخلُ لكم وجه أبيكم، وتكونوا من بعده قوماً صالحين﴾.

ثم جاء اقتراحٌ ثالث ـ قدّمه أحد الأخوة، ويُسمى (لاوي) ـ حسب بعض النصوص المفسّرة، حيث قال لهم:

﴿لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجبّ، يلتقطه بعضُ السيّارة، إن كنتم فاعلين﴾.

ويبدو أنّ الاقتراح الثالث هو: أخفّ الحلول وطأة من حيث التخلّص، والثاني ـ يُشكل أحد اقتراحين متوازنين، ويحمل نوعاً أقلّ عدواناً من القتل. إلاّ أن القتل ـ فيما يبدو ـ كان قوياً في أذهان المتآمرين. ولذلك جاء الاقتراح الثالث القاضي بإلقاء يوسف في الجُبّ كاشفاً عن الحقيقة المتقدّمة، من خلال قول لاوي:

[اطرحوه في البئر بدلاً من قتله]، أي: أن القتل، كان هو المسيطر على أذهان المتآمرين.

* * *

ثم، بدأت خطةُ التنفيذ من خلال مناورة أجروها مع أبيهم، على النحو التالي:

﴿قالوا: يا أبانا مالك لا تأمنّا على يوسف، وإنّا له لناصحون. أرسله معنا غداً: يرتع ويلعبْ، وإنا له لحافظون﴾.

لقد اختزل النصُّ تفصيلاتِ الخطّة التي تمّ الاتفاقُ عليها من حيث عملية التنفيذ والطريقةُ التي يتمّ من خلالها إقناع الأب،.

لقد اختزلها النص تماماً، ثم أبرزها من خلال محاورتهم للأب: «يا

أبانا: ما لك لا تأمنّا... الخ».

وواضحٌ أن النص بهذا الاختزال، حقق إقتصاداً فنيّاً له خطورته في ميدان الشكل القصصي، حيث تركنا نحن بأنفسنا نستخلص طريقة الاتفاق الذي تمّ بينهم، والحوار الذي استغرق هذه الطريقة: وكلّه قد حُذفَ من النص، لم يبرزه لنا في عملية القصّ.

والمهم، إذا تجاوزنا هذا الجانب الفني من الحوار، واتجهنا إلى جانبه الفكري، أمكننا أن نُدرك مدى هول الجريمة التي تنطوي عليه هذه المناورة مع الأب: إنها تكشف عن النزعة العدوانية التي ألبسها الأخوةُ لبوسَ النصيحة وحب الخير، وافتعال الحرص على الحفاظ على حياة يوسف(ع) وكونهم أمناء عليه، وكونهم حريصين على توفير مُتعةِ اللعب معه.

إلاّ أن أباهم ـ وهو العارف بأعماقهم الحقيقية ـ لوّح لهم بحزنه على ولده والتخوف من أن يأكله الذئب.

وسواءاً كان هذا التخوفُ ناجماً عن رؤيا رآها عن عشرة أذؤب يشدّون على يوسف: وبخاصة أن الأرض التي كانوا يعتزمون الذهاب إليها، كانت أرضاً مليئة بالذئاب، أو كان التخوف ناجماً عن افتراسهم هم لأخيهم يوسف: حيث يجيء (الذئب) هنا رمزاً فنياً عن أعماقهم المفترسة... أقول: أيّاً كان الأمرُ، فإن جواب الإخوة على هذا التخوف، يظل استمراراً للغة المُناورة التي استخدموها مع أبيهم، عندما افتعلوا الحرص على حياة يوسف، حيث أنهم هنا: استخدموا نفس المناورة، فقالوا:

﴿لئن أكلَه الذئبُ ونحن عصبةٌ إنّا إذاً لخاسرون﴾.

أي: لا يُعقل أن نكون من العجز والضعف للدرجة التي نسمح فيها للذئب بأن يفترس يوسف ونحن جماعة نستطيع أن نحميه من أيّ خطر.

هنا، يختزل النصُ من جديد، بعض المواقف. ويُحسّسُنا بنحوٍ فني لم

يقصّه علينا، أن أباهم قد وافقهم على ذلك، وسمح ليوسف بالذهاب مع اخوته، حيث يذكر لنا مباشرة ما يلي:

﴿فلما ذهبوا به، واجمعوا أن يجعلوه في غيابت الجب، وأوحينا إليه لَتُنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون﴾.

من هذا السرد، نستخلص أن الأب وافق على اصطحاب يوسف مع الاخوة، وإلى أن الاخوة عندما صحبوه وعزموا على إلقائه في البئر، أوحى الله ليوسف عندئذٍ بأن يُخبرهم ويعظهم ويشعرهم بخطورة ما يقدمون عليه من جريمة، لعلهم يرتدعون عنها.

والمُعطى الفكري لهذا التذكير، يتمثّل في تحسيس الإنسان في لحظات الإقدام على الجريمة بهول مثل هذه العملية: فلعلّه يرتدعُ عنها ويفيء إلى صوابه.

ولكن ـ فيما يبدو ـ أن الاخوة لم ينفعهم مثل هذا التذكير والعظة، فنفذوا عمليّة الإلقاء في البئر دون تردّد.

* * *

وعملية الالقاء في البئر، لم يسردها النص القصصي لنا، بل تركها لنا ـ نحن المتلقين ـ نستخلص ذلك، وفقاً للفن القصصي الذي يختزل أو يقتطع من الحدث بالقدر الذي يجعل المتلقّي يساهم في الكشف عن ذلك: حتى يحقّق إمتاعاً جمالياً لنا.

إلا أنّ النصوص المفسرة، قد اضطلعت بعملية الكشف، وقدمت لنا تفصيلات مثيرة رافقت عملية إلقاء يوسف(ع) في البئر.

فقد ذكرت هذه النصوص أنّ الاخوة كانوا على تفاوت في درجة الشدة أو التراخي بالنسبة إلى طريقة القاء يوسف في البئر. فكان التراخي في الموقف

يتمثل حيناً في اتفاقهم على أن يلقوه في بئرٍ قليلة الماء بحيث لا تغرقه بل تُغيّبه فحسب، أو أن يلقوه في جانبٍ من البئر.

إلا أن الشدّة في التعامل كانت واضحةً أيضاً في نفس الوقت، فقد ذكرت النصوص المفسرة أنهم كانوا يضربونه وهو يستغيث بهم واحداً واحداً، بل أنهم همّوا بقتله، إلاّ أن (لاوي) ـ أحد الاخوة الذي قدم اقتراح إلقائه في الجب بدلاً من القتل ـ هو الذي منعهم من جديد عندما هموا بقتله.

والمهم، إن الشدّة في التعامل، تحددت بوضوح ـ وفقاً للنصوص المفسرة ـ التي ذهبت إلى أنهم جعلوا يدلونه في البئر وهو متعلقٌ بشفيرها. حتى أنهم نزعوا قميصه، فاستغاث بهم قائلاً: ردّوا عليّ القميص أتوارى به. فيجيبُونه بسخرية واستهزاء: أدعُ الشمس والقمر والأحد عَشَر كوكباً يؤنسنك...

وإذا صحّت هذه النصوص المفسّرة، فإن هذا النمط من التعامل، يفصح عن أحداث مثيرة غاية الإثارة تفسر لنا مدى ما يفرزه (الحسَدُ) من سلوك يجسّد قمة النزعة العدوانية لدى الحاسد، إلى الدرجة التي تجعله ساخراً مستهزئاً في موقف يستدعي ـ على الأقل ـ نوعاً من الندم على هول العملية، أو على الأقل: سكوتاً، لا سخريةً بذلك.

كان الدور الأول لاخوة يوسف(ع) وهو القاؤه في البئر على نحو ما فصّلنا الحديث عنه.

ثم اختفى دور الاخوة إلاّ في عملية القافلة التي أخرجت يوسف من البئر حيث تقول بعض النصوص المفسّرة انّ اخوة يوسف أسروا كونه أخاً لهم، عندما أنقذته القافلة، وهددوه بالقتل في حالة إخباره الجماعة بحقيقة الأمر، فكتّم يوسف ذلك فعلاً. وتقول هذه النصوص ان أحد اخوة يوسف كان قد انتبذ بعيداً عن البئر. فلما أخرجت القافلةُ يوسف أخبر اخوته بذلك، فجاءوا

إلى المُخرج وباعوه بدراهم معدودة.

وإذا صحّ هذا التفسير، فإن اخوة يوسف لم يكتفوا بما فعلوه، بل أنهم هددوه بالقتل عندما أنقذته القافلة.

ثم أنهم ـ بعد ذلك ـ باعوه بتلك الدراهم المعدودة... وهو أمرٌ يكشف عن مضاعفات عنصر(الحسد) فيهم، حتى بلغ هذه الدرجة التي لحظناها.

***

على أية حال، يبدأ دور الاخوة بالغياب بعد عملية الإنقاذ، ثم يبدأ بالظهور ـ من جديد ـ في مرحلة ما يُسمّى بمرحلة الإنارة ـ حسب المصطلح القصصي ـ أي: في مرحلة تأزّم الأحداث وإشرافها على الانفراج. حيث ينكشف الموقف على حقيقته عندما يعرّفهم يوسف ـ وهو متربع على عرش مصر ـ كل شيء.

إلا أن هذه المرحلة أيضاً، مسبوقة ببعض الأدوار التي نشط فيها الإخوة، وهم يجهلون أنهم يتعاملون مع يوسف. وقبلها أيضاً، جسّدوا دوراً مع أبيهم بعد حادثة إلقاء يوسف في البئر، ونعني به: دور إقناع الأب ـ أو في الواقع ـ إخفاء الحقيقة على أبيهم بالنسبة لمصير يوسف(ع).

ويجدر بنا أن نقف على هذه الأدوار جميعاً، لنتعرّف على مضاعفات (الحسد) الذي اقتادهم لأمثلة هذا السلوك، ثم ما تبع ذلك من ردود فعل متنوعة في هذا الصدد.

والآن، كيف واجه الإخوة أباهم بعد أن ألقوا يوسف في البئر، وبعد أن أعطوه عهداً بأنهم سيحافظون عليه؟

لقد واجهوا أباهم على هذا النحو الذي يحكيه النصُ القرآنيُ الكريم:

وجاءوا أباهم عشاء يبكون.

قالوا يا أبانا:

﴿إنا ذهبنا نستبق، وتركنا يوسف عند متاعنا، فأكله الذئبُ. وما أنت بمؤمنٍ لنا ولو كنا صادقين﴾.

وجاءوا على قميصه بدم كذب.

﴿قال: بل سولت لكم أنفسكم أمراً، فصبرٌ جميل، والله المستعان على ما تصفون﴾.

إنّ هذا الموقف وما يرافقه من حدَثَ الدم والقميص، يحفل بعناصر قصصية مُثيرة على جانب كبير من الإمتاع الجمالي، فضلاً عما يحفل به من قيم فكريّة تنم عن مدى مفارقات (الحسد) ومضاعفاته.

لقد مارسوا عملية (الكذب) بأحد أشكاله مرارة. ثم اصطنعوا عملية (البكاء) المُفتَعل. ثم اصطنعوا عملية تلطيخ القميص بالدم... كلّ أولئك، بسبب من (الحسد) الذي جرّهم إلى ممارسات متنوعة من السلوك: كلّها تنم عن المرض الداخلي الذي طَبَع تصرفاتهم.

* * *

إنّ هذا الدور ـ من الناحية الفنية ـ قد مهّد له النص من خلال قول أبيهم من أنّه يخاف أن يأكله الذئب.

وما دام أبوهم قد تخوّف من افتراس الذئب ليوسف، فحينئذٍ ما أحسنَ أن يستغلّ الإخوة هذا التخوّف، وما أحسن أن يجعلوه ـ فعلاً ـ وثيقة إدّعاء لتغطية الجريمة.

وبالفعل، تمّ الاتفاق على اصطناع هذا الحدث، ولكي يخلعوا طابع الصدق على إدعائهم، فعليهم أن يظهروا بمظهر الكئيب الآسف على ما حدث.

إذن، عليهم أن يصطنعوا عملية البكاء، ما دام البكاء يكشف عن صدق الأسى والحزن على فقد الحبيب.

وهكذا، جاءوا أباهم عشاء يبكون.

وطبيعيٌّ أن يفزع أبوهم من هذا المظهر الباكي فيسألهم حينئذٍ عن ذلك.

وهنا، تجيء الإجابةُ جاهزة، مشحونة بالكذب، حيث ادعوا بأنهم تركوا يوسف عند رحالهم ليحفظها وانشغلوا باللعب: الاستباق في الركض أو السهام، ثم جاء الذئب في فترة استباقهم وأكلَ يوسف(ع)...

إن مثل هذا الادعاء المتهافت، يبدو وكأنه غير مقنعٍ فعلاً... لذلك بادروا أباهم سريعاً بأنه سوف لن يُصدقهم حيث قالوا له: «وما أنت بمؤمن لنا وإن كنا صادقين».

ومن الحقائق النفسيّة في هذا الصدد، أنّ الخائف يعكس في تصرفاته كل ما تمارسه أعماقُه من سلوك قائم على التوتّر وما ترافقه من استجابات يخشى فضحها على حقيقتها... ولذلك كان الاخوة يصدرون عن هذا الخوف حقيقةً عندما عكسوا إجابتهم المتمثلة في أن أباهم سوف لن يصدّقهم بهذه الإجابة المصطنعة.

المهمّ، أنّ هذا الموقف لاخوة يوسف(ع) بالنسبة إلى مواجهة الأب: يكشف عن مضاعفات الحسد الذي جرّهُم إلى افتعال أكثر من حدث وأكثر من موقف بغية التستّر على الذنب.

* * *

ومن الوجهة الفنيّة، ينبغي أن نتنبه أيضاً إلى الرسم القصصي لهذا الدور.

فقد أبرز النص كلاً من الملامح الداخلية والخارجية للأبطال. كما أبرز

(بيئة) الحدث بكل ملامحها الخارجية.

أما الملامح الخارجية للأبطال، فهو: ملمحُ (البكاء) الذي افتعله الأبطال. فضلاً عن المظهر (القولي) في ادّعاء السباق.

وواضح، أن هذا الملمح الخارجي مرتبط بالملمح الداخلي، أي: الحزن على فقدان يوسف.

وأما الملامح الخارجية للحدث، فتتمثل في (الدم) و(القميص)، حيث تقول النصوص المفسرة، انهم ذبحوا سخلةً ولطخوا قميصه بدمها.

وواضحٌ أيضاً: صلة هذا الملمح الخارجي، بالملمح الداخلي الذي يحرص على إظهار الصدق في ادعاءاتهم.

ولكن، بالرغم من هذه الملامح الخارجية للأبطال وللبيئة: من بُكاء ودم على القميص، بالرغم من هذه الملامح التي تُضفي جماليةً في عملية التذوق الفني، فإنّ النص حَرِصَ على أن يفضح زيف هذه الملامح، فأنطق يعقوب(ع) سريعاً بإجابة حاسمة وهي قوله:

﴿بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً، فصبر جميل...﴾.

فهذه الإجابة الحاسمة، تكشف عن أن كل الملامح الخارجية التي افتعلها الأبطال بالنسبة للحدث ولأنفسهم، قد فقدت فاعليتها، وأن معالم الجريمة هي التي طغت على كل شيء.

وفي هذا: عظةٌ لمن اعتبر.

* * *

الدور الثالث لاخوة يوسف(ع) في هذه القصة: يتمثّل في ذهابهم إليه وهو يتربع على عرش مصر، بيده خزائن الأرض وأقواتُ الناس.

لقد أصاب القحطُ الأرض. ويوسف(ع) هو الذي يوزّع القوت على

الجمهور. وآل يعقوب إحدى الأُسَرِ التي اضطُرت إلى الذهاب لمصر لتحصيل القوت. حيث جمع يعقوب(ع) أولاده وأمرَهم بالذهاب إلى مصر. وفعلاً، قصدوا مصر:

﴿وجاء اخوةُ يوسف، فدخلوا عليه، فعرفهم، وهم له منكرون﴾.

يبدو أن معرفة يوسف لهم وما تجدد له من حياته معهم ثم ما رآهم عليه الآن من الحرمان والفقر والمأساة التي كانت تظهر بارزة في وجوههم وأشياء من هذا القبيل تلمح من خلال هذه الجملة «فعرفهم وهم له منكرون» وقد رأى إنكارهم له أيضاً من جملة تلك المآسي والحرمان.

﴿ولما جهّزهم بجهازهم، قال: ائتوني بأخ لكم من أبيكم، ألا ترون أني أوفي الكيل، وأنا خيرُ المنزلين﴾.

كان يوسف يريد بقوله «أخ لكم من أبيكم» أن يشعرهم ويلفتهم إلى واقع الأمر وأنه يعلم كل شيء ولكنهم لم يفهموا هذا التلميح.

﴿فإن لم تاتوني به فلا كيل لكم عندي و لا تقربون﴾.

﴿قالوا: سنراود عنه أباه، وإنّا لفاعلون﴾.

﴿وقال لفتيانهِ: إجعلوا بضاعتهم في رحالهم، لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم، لعلهم يرجعون﴾.

﴿فلما رجعوا إلى أبيهم، قالوا: يا أبانا مُنِعَ منا الكيلُ فارسل معنا أخانا نكتلْ، وإنا له لحافظون﴾.

﴿قال: هل آمنكم عليه إلاّ كما أمنتكُم على أخيه من قبلُ. فالله خيرٌ حافظاً وهو أرحم الراحمين﴾.

﴿ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم رُدّت إليهم، قالوا: يا أبانا ما

نبغي، هذه بضاعتنا ردّت إلينا، ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير، ذلك كيلٌ يسير﴾.

﴿قال: لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله لتأتُنّني به إلاّ أن يُحاط بكم. فلما أتوه موثقهم قال: الله على ما نقول وكيل﴾.

﴿وقال يا بنيّ: لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة﴾...

﴿ولما دخلوا من حيث أمرَهم أبوهم، ما كان يغني عنهم من الله من شيء إلاّ حاجةً في نفس يعقوب قضاها...﴾.

﴿ولما دخلوا على يوسف، آوى إليه آخاه. قال: إني أنا أخوك، فلا تبتئس بما كانوا يعملون﴾.

﴿فلمّا جهّزهم بجهازهم، جعل السقاية في رحل أخيه. ثم أذّن مؤذن: أيّتها العير إنّكم لسارقون﴾.

﴿قالوا: واقبلوا عليهم ـ ماذا تفقدون؟ قالوا: نفقد صواع الملك...﴾

﴿قالوا: تالله: لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض، وما كنّا سارقين﴾.

﴿قالوا: فما جزاؤه إن كنتم كاذبين؟ قالوا: جزاؤه مَن وُجد في رحله فهو جزاؤه...﴾

﴿فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه. ثم استخرجها من وعاء أخيه...﴾

﴿قالوا: ان يسرق فقد سَرَقَ أخ له من قبل. فأسرّها يوسفُ في نفسه، ولم يُبدها لهم. قال: أنتم شر مكاناً...﴾

﴿قالوا: يا أيّها العزيزُ انّ له أباً شيخاً كبيراً، فخذ أحدنا مكانَه... قال: معاذ الله أن نأخذَ إلا من وجدنا متاعنا عنده...﴾

﴿فلما استيأسوا منه، خلصوا نجيّاً، قال كبيرُهم: ألمْ تعلموا أنّ أباكم قد

أخذ عليكم موثقاً من الله، ومن قبلُ ما فرّطتم في يوسف. فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي﴾..

﴿إرجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا: إنّ ابنك سَرَقَ وما شهدنا إلاّ بما علمنا... واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها، وإنّا لصادقون...﴾.

* * *

هنا، النصوص القصصية، تسرد لنا دوراً ثالثاً يضطلع به الإخوة.

طبيعياً، لا نتحدث عن الأسباب التي دعت يوسف(ع) إلى أن يطالبهم بأخيه، ثم يحتجزه لديه، بل: ذاك أمرٌ نرجىء الحديث عنه عندما نتناول البطل الرئيس في القصة أي: يوسف(ع).

أمّا الآن، فيهمنا أن نوضح دور الإخوة في هذه الشريحة من القصة، وهو دورٌ مماثلٌ من جانب لدورهم مع يوسف(ع) من حيث عملية الاصطحاب، لكنه مختلفٌ عنه من حيث دوافع السلوك.

إن نقاط التلاقي والافتراق في هذا الدور، تتمثل في ما يلي:

١ ـ من حيث نقاط التلاقي:

لقد اصطحبوا في هذا الدور أخاً أصغر لهم هو (بنيامين). ومن قبلُ اصطحبوا أخاً أصغر هو يوسف. كما أنهم أعطوا أباهم عهداً بأن يحفظوا يوسف من الأخطار، وهنا أيضاً رددوا نفس العبارة، حيث قالوا: **﴿وإنّا له لحافظون﴾** بالنسبة إلى بنيامين. مع ملاحظة أن كلاًّ من بنيامين ويوسف، يشكّلان موضع (حَسَد) من الاخوة.

٢ ـ وأما حيث نقاط الافتراق:

فإنّ دوافع السلوك في هذا الدور، تظل مختلفةً عن الدور السابق مع يوسف.

فهنا بالرغم من كرههم لبنيامين، إلاّ أنهم لم يظهروا نواياً سيئةً حياله في هذه الرحلة. ففي رحلتهم مع يوسف(ع)، كانوا هم المطالبين بذلك: أما في رحلتهم مع بنيامين فإن خازن الأرض هو الذي طالبهم بذلك، أي: إنهم اكرهوا على أن يصحبوا بنيامين لأسباب تتصل بالحصول على الطعام. وتبعاً لذلك، اضطُر أحدهم ـ وهو الأكبر ـ أن يعطي موثقاً لأبيه يتكفل من خلاله بإرجاع بنيامين سالماً، دون أن يكون ذلك بدافع من رغبة، بل بدافعٍ من الحصول على الطعام.

ولهذا السبب ـ كما سنجد في الدور الرابع للاخوة ـ أن الأخ الذي أعطىٰ موثقاً لأبيه بإرجاع بنيامين، هذا الأخ ظلّ باقياً في مصر ولم يرجع مع الاخوة عندما احتجز يوسف أخاه بنيامين في حادثة افتعال السرقة.

ومهما يكن، فإنّ اخوة يوسف في هذا الدور، لم يضمروا أية نوايا سيئة مع أخيهم الأصغر بنيامين، بل أنهم امتثلوا أمر أبيهم باصطحابه والمحافظة عليه والدخول من أبواب متفرقة... الخ.

* * *

ولكنّ هذا الدور المتسم بالحرص على بنيامين، قد خبأت له الأقدار حوادث مفاجأة لم تخطر ببال الاخوة قط...

وإذا كان الاخوةُ قد طبخوا مؤامرة خطيرة على يوسف، فإن يوسف الآن، يتهيأ لطبخ مؤامرة عليهم: من خلال الأخ الأصغر بنيامين: حيث سيضع الكيل في رحل بنيامين، ويتهم الجماعة بالسرقة، حتى يحتفظ ببنيامين، ويبقيه

معه، لأسباب نفصّلها فيما بعد: حينما تتحدث عن دور البطل الرئيس يوسف(ع).

أما الآن، فيهمنا أن نتحدث عن ردود الفعل التي لحقت الإخوة في مواجهتهم ليوسف(ع) أولاً وهم لا يعرفونه، وفي ردود الفعل التي لحقتهم بعد اطّلاعهم على حادثة السرقة المفتعلة.

ثم يهمنا بعد ذلك: أن نبيّن هذا النمط من البناء الهندسي للقصة، حيث يقوم البناء على خطوط متوازنة من طبخ المؤامرات، ثم وقوع الاخوة الصغار ضحيّة هذا التآمر، ثم وجود الفارق بين نمطين من التآمر: أحدهما ينطلق من ظاهرة (الحسد) والنزعة العدوانية بعامة، مقابلاً للنزعة الخيّرة التي ستسفر عنها كل الحوادث والمفاجآت في القصة.

وأخيراً، يهمنا أن نبيّن أيضاً عنصر (المفاجأة) في القصة وهو عنصر فنّي له خطورته الكبيرة في ميدان الشكل القصصي.

* * *

والآن، نتقدم أولاً بتوضيح الجانب الفكري، متمثلاً في ردود الفعل التي صدرت عن الاخوة تجاه يوسف(ع)، عندما دخلوا عليه وهم لا يعرفونه.

وتقول النصوص المفسّرة، ان يوسف(ع)، عندما دخلوا عليه كانوا ـ بطبيعة الحال ـ لا يعرفونه.

وان يوسف(ع) حينما قابلهم وهم يعتزمون الحصول على الطعام: سألهم عن هويّتهم، فأجابوه بأنهم من أرض الشام.

ولما قال لهم: أخشى أن تكونوا جواسيس علىٰ بلادنا، أجابوه بأنهم أولاد نبيّ من أنبياء الله وهو يعقوب(ع)، وأنّ أباهم لشخصٌ محزون.

ثم سألهم عن سبب حزن أبيهم: فأجابوه بأنّهم قد كان لهم أخ صغير

صحبوه ذات يومٍ في الصيد، فأكله الذئب . .

هنا، يُعنينا أن نشير إلى أن الاخوة مارسوا في هذا الموقف، نفس السلوك السابق: القائم على الكذب. وهو موقف سيترك أثره على يوسف(ع) دون أدنى شك، حيث يقتنع تماماً بأنّ الاخوة لا يزالون عند سلوكهم السابق.

ومما عزّز هذه القناعة، إنّ اخوة يوسف، أضافوا إلى موقفهم السابق، موقفاً سلبياً جديداً يكشف عن إصرارهم على الصدور من الأعماق الحاسدة، وإلى أنّ تنفيذهم لعملية إلقاء يوسف في البئر لم تُشف أعماقهم من الحسد. ففي حادثة افتعال السرقة للكيل، وجهوا ليوسف ـ وهم لا يعرفونه بطبيعة الحال ـ وجهوا له تهمة السرقة عندما قال لهم: انّ أخاهم الأصغر بنيامين قد سرق صواع الملك. هنا قال إخوةُ يوسف(ع):

﴿إن يسرق، فقد سرَقَ أخ له من قبل﴾».

هذه الإجابة، تكشف عن أنّ اخوة يوسف(ع) لا يزالون يصدرون عن موقف حاسد ليوسف بالرغم من أنهم تخلصوا منه في حادثة إلقائه في البئر . . . انهم، مع ذلك كله، يتهمونه بالسرقة دون أن يكون هناك مسوّغ لهذه التهمة.

والمهم، أن يوسف(ع) اكتشف هذه الحقيقة، وإنها لحقيقةٌ بالغةُ الأهمية دون أدنىٰ شك، ما دامت تفصح عن حقيقة الأعماق الحاسدة لهؤلاء الإخوة، حتى أنّه صرّح بمرارة، متحدثاً مع نفسه، قائلاً:

«أنتم شرٌّ مكاناً، والله أعلم بما تصفون».

امرأة العزيز:

هذه الشخصية الثانوية، لعبت في القصة دوراً لافتاً للانتباه، لا يقلّ في أبعاده المأساوية عن المؤامرة التي حاكها اخوة يوسف(ع).

إنّ كلا من اخوة يوسف(ع) وامرأة العزيز، يجسّدان بناء هندسياً قائماً على(الموازنة) الفنية في حركة القصة: من حيث انطوائهما على دلالات (متجانسة)، ومن حيث تأثيرهما على شخصية يوسف(ع) وتحديد المصائر التي انتهى البطلُ إليها.

وهاتان الشخصيتان ـ في الآن ذاته ـ تتحركان من مواقع متفاوتة، وتفرزان دلالات متفاوتةً أيضاً. ومن هنا يمكننا أن نستكشف خطورة الفن الذي (يجمع) بين المتضادات، ويضاد بين الوحدات المتماثلة، أو لنقل: الفن الذي يحقق عنصر(التضاد) من خلال (التماثل)، و(التماثل) من خلال (التضاد).

ثمة مؤامرتان: احداهما تنطلق من دافع(الحسد)، والأخرى من [الدافع الجنسي]، وهما متضادتان... غير أنهما تقتادان الشخصية إلى سلوك مماثل هو: التآمر. الأولى يمثلها رجال، والثانية تمثلها امرأة، وهما متضادتان، لكنهما تتماثلان في تخطيط السوء.

الأولى: يمثلها اخوة، أقارب. والثانية: يمثلّها من الأباعد، امرأة غريبة، وهما متضادتان... الأولى: حادثة إلقاء في البئر، والثانية: حادثة إلقاء في السجن، وهما متماثلان... الأولى: محاولة (تخلّصٍ) من يوسف. الثانية: محاولة (تعلّق) بيوسف، وهما متضادتان... وهكذا...

إذن، كم هو جميلٌ، وممتعٌ: مثلُ هذا البناء الهندسي لنمطين من أبطال القصة الثانويين، فيما يقوم الهيكل على عنصر التضاد، والتماثل، والوحدة بينهما...؟

ولكن، لندع عمارة القصة فنيّاً، ولنتّجه إلى امرأة العزيز لملاحظة الدلالات الفكرية لسلوكها، وانعكاس ذلك على شخصية البطل يوسف(ع).

فيما يتصل بالدافع الجنسي، لا حاجة إلى الحديث عنه، بقدر ما ينبغي لفت الانتباه إلى (المقارنة) بين سلوك امرأة العزيز ويوسف، حيث يمكننا أن نستخلص بسهولة: إمكانية السيطرة على الدافع الجنسي: من خلال سلوك يوسف ذاته. ثم، نتائج مثل هذه السيطرة التي حوّلت يوسف(ع) [وهو عبدٌ اشترته إحدى القوافل بدراهم معدودة] إلى (مَلِك)، وبالمقابل، تحوّلت زوجة الملك، إلى [امرأة بائسة]، فيما تقول النصوص المفسّرة انّ امرأة العزيز قالت له بعد أن التقته ملكاً وقد افتقرت [الحمد لله الذي جعل الملوك بالمعصية عبيداً، والعبيد بالطاعة ملوكاً].

هذه الفقرة التي ذكرتها بعض النصوص، تلقي كلمة حاسمة في تحديد نتائج التحكّم والسيطرة على الدافع الجنسي، ونتائج عدم السيطرة، فيما تجعل الملوك عبيداً بسببٍ من المعصية، وتجعل العبيد ملوكاً بسببٍ من الطاعة، وكفى بذلك عظةً لمن اعتبر.

إذن، الدلالة الأولى التي نستخلصها من هذه الشخصية، هي: أن الالتواء في السلوك الجنسي، ومحاولة ممارسته بنحوه غير المشروع، يقتاد الشخصية إلى نتائج ليست في صالح المُمارس: حيث أخفقت امرأة العزيز في تحقيق الممارسة. فضلاً عن أنها قادتها إلى المصير البائس الذي نقلته النصوص المفسّرة.

الدلالة الثانية لهذه الشخصية، هي: أن المرأة التي لا تخاف الله، قد تتحوّل من شخصية (مُحبّة) إلى شخصية (مُعادية) في ساعات محدودة [في حالة عدم تحقيق حاجاتها غير المشروعة]، حتى وصل الأمر إلى أن تودع البطل في السجن، فضلاً عن تشويه سُمعته، على النحو الذي سردته القصةُ مفصلاً. ومن هنا ندرك أهمية الحقيقة التي أشار أهل البيت(ع) إلى ما مؤدّاه: من أنّ المرأة تصبر على (الحب) أعواماً، لكنها لا تكتم (كراهيتها) ساعة.

حتى أنها لا تتورع البتة من إيقاع الرجل في التهلكة: سواءاً كان ذلك متصلاً بتشويه سمعته، أو بإنهاء حياته.

* * *

أما فيما يتّصل بالإنارة التي ألقتها هذه الشخصية على البطل يوسف(ع)، فتتمثل في كشفها أولاً عن نظافة يوسف، وصبره، وتقواه، وإيثاره السجن على ما هو محرّم، حتى أنها اضطرت ـ في نهاية المطاف ـ إلى الإقرار بنزاهة يوسف(ع)، وهو ما يشكّل قمة الإنارة في مهمة هذه الشخصية الثانوية، لشخصية يوسف(ع).

وقد ترتب على ذلك، أن تحولّت هذه الشخصية من امرأة سيئة، إلى امرأة إيجابية أعلنت عن مفارقة سلوكها، وأقرّت بنظافة يوسف(ع)، أي: رُسمتْ هذه الشخصية ـ حسب لغة الأدب القصصي ـ شخصية (نامية) وليست (مسطحة)، شخصية بدأت في أول القصة تخاطب زوجها: «ما جزاء من أراد بأهلك سوء»، وانتهت بهذا الإقرار: «أنا راودته عن نفسه»... بدأت (كاذبة) وانتهت (صادقة).

ولا يغب عن ذاكرتنا، أن اخوة يوسف(ع) بدورهم، بدأوا ـ في القصة ـ وهم متآمرون، وانتهوا (تائبين)، مما يشكّل بُعداً جديداً من عناصر (التماثل) الفنّي بين نمطي الشخصيات الثانوية التي سبقت الإشارة إلى صياغتها متضادة من خلال التماثل، ومتماثلة من خلال التضاد.

والمهم، أن دلالة (التعديل) في السلوك، ينبغي ألاّ نغفلها أيضاً عبر وقوفنا على هذه الشخصية الثانوية (امرأة العزيز).

نسوة المدينة

كان اخوةُ يوسف ـ بصفتهم جزء من الأبطال الثانويين في القصة ـ قد

جسّدوا ظاهرة (الحسد) كما لحظنا.

ويبدو أنّ النص القصصي يُريد أن يُلفت انتباهنا إلى هذه الظاهرة بكل محدداتها، بما في ذلك: الفروق بين الجنسين، فأبرز لنا ظاهرة الحسد أو الغيرة في العنصر النسوي أيضاً، في نطاق التجارب الخاصة بالمرأة.

ولنقرأ النص القصصي أولاً:

«وقال نسوة في المدينة: امرأةُ العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغَفَها حبّاً، إنّا لنراها في ضلال مبين.

«فلما سمعت بمكرهنّ، أرسلت إليهنّ، واعتدت لهُنَّ مُتكئاً، وآتت كلَّ واحدةٍ منهنّ سكيّناً».

﴿وقالت: اخرج إليهن. فلما رأينه أكبرنَهُ وقطعن أيديهنّ، وقُلنَ: حاش لله، ما هذا بشراً إن هذا إلا مَلَكٌ كريم﴾

﴿قالت: فذلكنّ الذي لمُتُنَّني فيه. ولقد راودتهُ عن نفسه فاستعصم. ولئن لم يفعل ما آمرُهُ ليُسجنَنّ وليكوناً من الصاغرين﴾.

إنّ ما يُلفت الانتباه لدى نسوة المدينة، أنّ الدافع إلى انتقادهن امرأة العزيز لم يكن فيما يبدو موضوعياً نابعاً من إحساسهن بالفضيلة، بل كان نابعاً من الحسد والغيرة، حيثِ وجدن أنّ امرأة العزيز حظيت برجلٍ حُرِمْنَ هُنّ منه.

إنّ النص القرآني الكريم، يُريد أن يُبرز في هذا الدور الثانوي لنسوة المدينة... يُريد أن يبرز لنا ظاهرةَ كَمْ هو حريٌ بالمرأة أن تلتزم بالسلوك الموضوعي في نطاق علاقتها بالجنس الآخر.

أنه يُريد أن يقول للمرأة: عليكِ أن تتحركي في السلوك من خلال الموضوعية لا من خلال الذات. عليكِ أن تنهَيْ عن المُنكر لأنه مُنكرٌ فحسب لا لأنه منكرٌ بالقياس إلى سواك، وغيرُ منكرٍ بالنسبة إليكَ.

فالمفروض أن تنتصر المرأةُ للفضيلة: حبّاً بالفضيلة، والتزاماً بأوامر الله سبحانه وتعالى: لا أن يكون الانتصارُ نابعاً من الغيرة أو الحسد: ففي مثل هذا السلوك تكون المرأةُ قد سلكت مفارقتين أو جريمتين: الجريمة الأولىٰ: أنّها لا تنهى عن المنكر إذا كان ذلك متصلاً بحاجتها الذاتية. والجريمة الثانية: أنها تفتعل إنكار المنكر وتلبس قناع الفضيلة زيفاً لا حقيقةً.

والدليل على ذلك كله: إن النص القصصي قدّم لنا تجربتين إحداهما لفظية والأخرى عمليّة، ليُدلّل لنا على السلوك المنكر لدى نسوة المدينة.

أما التجربة اللفظية فتتمثّل في قول امرأة العزيز من خلال هذه الفقرة: «فلما سمعت بمكرهن».

فلقد وصفهن الله بسمة (المكر) على لسان امرأة العزيز وإلاّ، لكان يخلع عليهن صفة إيجابيةً لو كنّ حقاً نسوة يحرصن على الفضيلة.

وأما التجربة العملية، فقد أبرزها النص أيضاً من خلال تحرّك امرأة العزيز: حيث هيأت لهن وسائد أو أعدت لهن وليمة وأمرت يوسف(ع) بالخروج عليهن بعد أن هيأت أمامهن مجموعة من السكاكين: حيث كانت النتيجة أن ينخلع لبُهن من الإثارة إلى الدرجة التي قطعن أيديهن انبهاراً بدلاً من تقطيع الفواكه مثلاً...

إن هذه التجربة العملية تدلّنا بدورها على أنّ نسوة المدينة لم يكن نقدهنّ لامرأة العزيز نابعاً من الفضيلة والالتزام بمبادىء السماء، بدليل أنّهن وقعن في نفس السلوك المُنكر الذي صدرت عنه إمرأة العزيز.

* * *

وخارجاً عن ظاهرة الحسد أو الغيرة، فإن ما يمكن استخلاصهُ من هذا الدور الثانوي لنسوة المدينة، يتمثل أيضاً في جملةٍ من الحقائق، لعل أبرزها

هو: تجنب عنصر الإثارة أساساً.

إن لقاء الرجل أساساً بالمرأة، ينبغي أن يتم في تحفّظٍ بالغ المدى. والمشرّع الإسلامي ـ على سبيل المثال ـ حينما يمنع لقاء الجنسين لغير ضرورة، إنما يأخذ عنصر الإثارة بنظر الاعتبار، أي: إنّه يمنع المحادثة أو النظر أو الخلوة بين الجنسين: بغية تجنّب الإثارة، وإلاّ فإن الإثارة تحصل بالضرورة إلاّ من عَصَمَ الله.

من هنا حصل تقطيع الأيدي مثلاً، نظراً لتوفّر عنصر الإثارة.

بل أنّ هذا العنصر دفع امرأة العزيز إلىٰ أن تتمادى في المنكر وإلى أن تخلع قناع الخجل الذي ينبغي أن تصدر عنه بعد الفضيحة، لكنها ركبت غيّها واعترفت قائلة: «ولقد راودته عن نفسه». بل أنها ذهبت أكثر من ذلك، حيث تشجّعت على أن تطالبه من جديد بممارسة المنكر، حتى وصل الأمر إلى التهديد بإيداعه في السجن، قائلةً: «ولئن لم يفعل ما آمرُه، ليُسجنن».

إن هذا الإعلان الصريحَ عن المنكر، إنما صدرت امرأةُ العزيز عنه، لأنها وجدت أن نسوة المدينة قد قطعن أيديهن من الإثارة، مما شجّعها إلى أن تتمادى في الغيّ، على النحو الذي أوضحناه.

إذن، الظاهرة الأخرى التي يمكن استخلاصها، بعد الحسد أو الغيرة، في الدور الثانوي لنسوة المدينة، هي: ضرورة أن يتجنّب كلٌّ من الجنسين مواطن الإثارة من محادثة أو نظرٍ أو خلوة بينهما.

وأما الظاهرة الفكرية الثالثة التي ينبغي استخلاصُها أيضاً، من هذا الدور الثانوي لبطلاتِ نسوة المدينة، هي: ضرورة أن يصدر المرء عن سلوك موضوعي في تصرفاته لا أن يتلبّس بقناع الفضيلة تحت دافع ذاتي مُلوث يحن إلى الرذيلة في أعماق نفسه.

هذا كله، من حيث القيم الفكرية لبطلات نسوة المدينة.

وأما من حيثُ القيمُ الجماليةُ أو الفنيةُ، فإنّ هذا الدور ينطوي على إمتاع حافل بالإثارة من حيث الرُسم الخارجي لملامح الأبطال، وللبيئة التي تحرّكوا من خلالها. فقد رُسمت البيئةُ وهي مائدةُ طعام، ووسائد، وسكاكين لتقطيع الفواكه.

ثم رُسمتْ ملامحُ الأبطالِ الخارجية وهي: مرأى أيدٍ تتقطع بالسكاكين بدلاً من تقطيع الفواكه: في غمرة مرور يوسف(ع) وفي غمرة جلوس امرأة العزيز مُراقبةً عن كثب: ردود الفعل في هذا الميدان.

إن هذا المرأى المُمتع فنياً، قد أحكم ـ من حيث البناء الهندسي ـ حينما نلاحظ الصلة العضوية أو التلاحم بين رسم البيئة ورسم ملامح الأبطال: أي بين مرأى الفواكه والسكاكين، ومرأى الأيدي التي تقطعت بعد ذلك.

والمعروف ـ في لُغة الأدب القصصي ـ أن الفنّ يبلغ قمّته العالية حينما يكون ثمة ترابط أو صلة بين وصفين خارجيين: أحدهما لعنصر (البيئة) والآخر لعنصر (الأبطال): حيث يكشف الترابط بين وصف البيئة (سكاكين: فواكه) ووصف الملامح الخارجية [تقطيع الأيدي] عن إحكام هذا المبنى القصصي، وما يواكبه من الامتاع الفنّي في هذا الصدد.

البطل: «العزيز» أو «ملك مصر»

يتفاوت المفسرون في تحديد شخصية «العزيز» الذي اشترى يوسف.

ولا يهمنا تحديدُ هويته بقدر ما يهمّنا أن نتعرّف على دوره في القصة، بصفته بطلاً ثانوياً ينطوي دورهُ على (أفكار) تستهدفها القصة، كما ينطوي على مهمّات فنيّة في تطوير أحداث القصة.

ودور هذا البطل ينحصر في ثلاث وقائع:

أولها: موقفه من يوسف في صراعه مع امرأة العزيز.

الثاني: رؤياه التي فسّرها يوسف.

الثالث: توليته ليوسف على خزائن الأرض.

* * *

أمّا موقفه من يوسف في صراعه هذا الأخير مع امرأة العزيز، فيتميز بكونه صادراً عن شخصيّة ضعيفة لا تستطيع حسم الأمور بقدر ما تنصاع لأوامر امرأة متحكمة، تستبد بها أهواؤها، إلىٰ الدرجة التي تفرضها علىٰ زوجها. بالرغم من معرفة زوجها تماماً بالمُنكر الذي صدرت امرأتُه عنه.

ويتمثّل موقفه المتميّع هذا، في انصياعه لأوامر امرأته بحبس يوسف، بالرغم من معرفته تماماً ببراءة يوسف ونظافته من التهمة الموجهة إليه.

إنّ الشاهد من أهل امرأة العزيز أوضح بما لا لُبْس فيه أنّ يوسف كان بريئاً كل البراءة. بل أن امرأة العزيز نفسها أقرّت ببراءته. إلا أنّ العزيز، مع ذلك كلّه وقَعَ تحت تأثير امرأته التي استعطفت زوجها من أن سمعتها ستسوء ما لم يُسجن يوسف.

وحتى إذا انسقنا مع التفسير الذاهب إلى أنّ إيداعه يوسف في السجن لم يكن بتحريض من امرأة العزيز بل من قِبَل مستشاري العزيز أو أهله حيث رأوا أن إيداعه في السجن يشكّل إنقاذاً لسمعة امرأة العزيز...

أقول... حتىٰ مع هذا الافتراض، فإنّ انصياع العزيز إلىٰ مثل هذه الأوامر، يُعد تعبيراً واضحاً عن شخصية ضعيفة لا تنصاع إلى الحق بقدر ما تنصاع إلىٰ موقف عاطفي مُنكر... وإلاّ كيف يسمح الإنسانُ لنفسه، أن يوقع الأذىٰ بشخصية نظيفة مثل يوسف، بغية انقاذ سمعة زوجته... كيفَ لا يفكر بسمعة يوسف مع أنه بريء: ثم يفكّر بسمعة امرأته مع أنها غير بريئة...؟؟

إن مثل هذا الموقف، يُعد ـ دون أدنىٰ شك ـ نقطة ضعف كبيرة تُسجل علىٰ العزيز.

وأهمّ ما ينبغي استخلاصه من عظةٍ في هذا الصدد، هو: إن الانصياع لأوامر المرأة يُفسد الشخصية ويوقعها في سلوك منكر، وهو أمرٌ تؤكده السماء لنا، حينما تطالب الرجل بألا ينصاع لزوجته، بل المفروض أن تنصاع الزوجة لزوجها ما دام الرجل قواماً عليها حسب الحكمة التي انطوى التشريعُ عليها.

أما العظة الثانية التي ينبغي أن نستخلصها في هذا الصدد، هي: ضرورة أن يصدر المرء في سلوكه عن الحق، والتزام جانب الحيدة والموضوعية، لا أن يسمح لعواطفه وذاتيته بالتحكم في الأمور، وبخاصة في مواقف قضائية خطيرة تتصل بسمعة الشخصية وشَرَفها.

* * *

الدور الثاني لشخصية الملك في هذه القصة، هو: رؤياه التي رآها عن البقرات والسنابل. ثم تفسير يوسف لهذه الرؤيات بواسطة أحد السجينين اللّذينِ كانا مع يوسف، حيث كان الذي نجا منهما قد تولّىٰ مهمة التعريف بشخصية يوسف وقدرته على تأويل الأحلام.

وفعلاً، بعد أن فسّر يوسف لهذا الوسيط، رؤيا الملك... حينئذٍ استدعىٰ الملكُ يوسفَ.

إلا أن يوسف قبل أن يواجه الملك، قال للوسيط: ارجع إلى الملك واسأله عن النسوة اللاتي قطعن أيديهن... وقد نفّذ المَلكُ هذا الطلب، وسأل النسوة عن حقيقة الأمر، فأجبنه ببراءة يوسف... مما اضطر امرأة العزيز إلىٰ الإقرار بدورها ببراءة يوسف...

ويبدو أن تنفيذ الملك لهذا الطلب، كان بمثابة تفريج عن أزمته النفسية

التي كان يعاني مرارتها دون أدنىٰ شك: وهو يعرف تماماً أنّ هذا الشخص البريء قد أودع السجن ظلماً وعدواناً. . . فجاء هذا الطلب تفريجاً لازمته من جانب، وفرصةً كبيرة لإنقاذ يوسف، وبخاصة أنّ هذا الأمر قد اقترن بالإفادة من شخصية يوسف، بصفتها شخصية علمية قدمت عطاءها العلمي في ميدان تفسير الأحلام وهو ميدان قد انعكست خطورتهُ علىٰ الحقل الاقتصادي الذي انطوىٰ عليه الحُلُم، فالبلد علىٰ أبواب كارثة اقتصادية. . . وها هو يوسف، يقدم تخطيطاً إقتصادياً لتلافي الكارثة. . .

وإذا كان الأمرُ كذلك، فإن اقتران هذه الإفادة العلميّة مع إثبات براءته ـ عن طريق نسوة المدينة وامرأة العزيز ـ يُعدان فرصةً ذهبية لإخراج يوسف من السجن، والإفادة منه، فضلاً عن اقتران ذلك كله، بتخليص الملك من أزمته النفسية التي نجمت من ظلم الملك ليوسف.

إذن، كانت خطوة انقاذ يوسف من السجن، أوّل تغيير في سلوك الملك، أو لنقل: حسب المصطلح القصصي: أوّل خطوة في (نمو) الشخصية، وانتقالها من السلب إلى السلوك الإيجابي.

* * *

ثم، كانت الخطوة النهائية في نمو السلوك نحو الإيجاب، هي: تعيين الملك ليوسف خازناً علىٰ الأرض. . .

وهذه هي قمة التقدير لشخصية يوسف، والتكفير عن الخطأ السابق. . .

وهكذا ـ بهذا الدور الثالث للبطل: الملك ـ تنتهي علاقة الملك بالقصة. . . وتبدأ الأحداث والمواقف تأخذ منعطفاً آخر في القصة: يتصل بيوسف وأخوته وأبويه. . .

ومما لا شك فيه، أن لهذا الدور الأخير، أهمية خطيرة كل الخطورة، لأنه دورٌ حاسمٌ في تطوير الوقائع، والسماح لشخصيات يعقوب وبنيامين

واخوة يوسف بالتحرّك في مجالات جديدة، فضلاً عما ينطوي عليه تطوير لشخصية يوسف نفسه، ثم انعكاس ذلك على الحقل السياسي والاقتصادي للبلد.

البطل: يوسف

تحدثنا عن الأبطال الثانويين في قصة يوسف، وعن مختلف أدوارهم، بدءً بيعقوب، فاخوة يوسف، فامرأةِ العزيز، فنسوة المدينة... وانتهاءً بالعزيز.

أمّا الآن فنتحدث عن البطل الرئيس في هذه القصة، وهو يوسفُ نفسه...

ومما لا شك فيه، أن دور هذا البطل ينطوي علىٰ (أفكار) أو (عظات) بالغة الخطورة، إذا ضممناها إلى (الأفكار) التي استخلصناها من الأبطال الثانويين. ثم إذا فرزنا الأفكار التي استقلّ بها البطل يوسف وميزته بشخصيته المحددة.

* * *

إن الصبر علىٰ الشدائد يجسّد سمةً بارزةً في سلوك يوسف.

ومما لا شك فيه، أن يعقوب والد يوسف قد ميزته سمة الصبر المذكورة أيضاً. بيد أن الشدائد علىٰ يعقوب كانت متميزة عن الشدائد بالنسبة إلىٰ ولده يوسف...

كانت الشدائد بالنسبة إلى يعقوب منحصرة في دافع (الأبوة) وما صاحب هذا الدافع من إحباط يتصل بالمشاعر التي يفجّرها الدافعُ المذكور.

أما الشدائد التي تعرّض لها يوسف فإنها متصلة بأكثر من دافع، فضلاً عن أنها تجاوزت نطاق المشاعر إلى دائرة الشدائد الخارجية.

إن هذه الشدائد بعضها داخليٌّ صرف، وبعضها خارجيٌّ يسحب آثاره على المشاعر الداخلية...

ونحن سنتجاوز الحديث عن الصدمات الداخلية الصرف التي تعرض لها يوسف: وهي ـ عادة ـ تتمثل في تحمّل مشاعر الحسد من قِبل إخوته مثلاً، وفي تحمّل صدمات الفراق: فراق والده الذي كان يحيطه برعاية خاصة: حُرِمَ منها أمداً طويلاً من الزمن...

أقول: سنتجاوز الحديث عن أمثال هذه الشدائد مع أنها ذات ثقلٍ كبير في ميزان الشخصية واستجابتها لهذه المواجهة... نتجاوزها لنتحدث عن شدائد رافقت رحلته مع إخوته، ومع واقعة البئر، ومع حادثة بيعه إلى الآخرين، ومع حادثة امرأة العزيز، ومع حادثة السجن، ومع وقائع السجن نفسه: ثم ما صاحب ذلك من مواقف أفرزها نمط تعامله مع السماء ومع الآخرين وما استتبع ذلك من صراع سَحَبَ شدائده النفسية الكبيرة على شخصية يوسف.

* * *

لنُلاحظ ـ على سبيل المثال ـ موقفه من أحد صاحبيه في السجن، حينما فسّر له رؤياه، وعلم أنه سيحظى بمقابلة الملك... وعندها قال لصاحبه: اذكرني عند الملك. ولكن صاحبه نسِيَ هذا الطلب، فلبث يوسف بعدها في السجن بضع سنين.

إن هذه الواقعة لا تتجسّد شدّتها في أن يمكث يوسف في السجن عدة سنين أخرى، بل إن شدّتها تتمثل في نمط تعامله مع السماء ومع الآخرين، بحيث تركت آثاراً عميقة لديه، تهون عندها قضية السجن نفسه بما ترافقه من شدائد نفسية وجسميّة...

إنّ لنا نتصوّر مبلغ الشدة في أعماق يوسف، عندما يُدرك أنه قد استعان

بالبشر بدلاً من الاستعانة بالله في تخليص نفسه من السجن أو في إثبات براءته من التُهمة الموجهة إليه: بحيث كلّف صاحبه بأن يتوسّط لدى المَلِك...

إنّ الشخصيات الرفيعة التي تجسّد صفوة البشر، لَيؤلمها كلّ الألم أن تقع ذات يوم في مثل هذا السلوك... إنّها تُدرك تماماً أنّ الله وحده هو المهيمن علىٰ الكون كلّه... فما قيمة مخلوقٍ مثل المَلِك حيال الله خالقِ الملكِ وسواه؟؟

تقول النصوص المفسّرة: نقلاً عن الإمام الصادق(ع):

جاء جبرئيل(ع) فقال: يا يوسف من جعلك أحسنَ الناس؟ قال: ربي. قال: فمن حبّبك إلىٰ أبيك دون إخوانك؟ قال: ربي قال: فمن ساق إليكَ السيّارة؟ قال: ربي. قال: فمن صرف عنك الحجارة؟ قال: ربي. قال: فإنّ ربّك يقول: ما دعاكَ إلىٰ أن تُنزل حاجَتك بمخلوقٍ دوني؟؟ إلبثْ في السجن بما قلت بضع سنين...

إنّ علينا أن نتصور مدى هذه الشدّة النفسيّة علىٰ يوسف وهو يتلقىٰ هذا التذكير من جبرئيل!!

لا شك، أنّ هذه الشدّة تهون قبالها شدّةُ السجن وما يرافقها من الشدائد النفسيّة والجسديّة، لأنّها عملية تذكير بعلاقة العبد بالله، وكيفية نسيان مثل هذه العلاقة، إنها شدةٌ نفسية بالغة المدى لا يمكن أن يتحسّسها إلاّ الصفوة التي محضها الله حباً خالصاً حياله..

[فبكى يوسف عند ذلك، حتىٰ بكىٰ لبكائه الحيطان، فتأذى ببكائه أهلُ السجن، فصالحهم علىٰ أن يبكي يوماً ويسكت يوماً. فكان في اليوم الذي يسكت: أسوأ حالاً...].

اننا لو تأمّلنا هذا النص، لأدركنا مبلغ الشدة في أعماق يوسف: فحتىٰ

في اليوم الذي كان يسكتُ عن البكاء فيه، إنما كان حالُه أشدَّ ألماً من حاله وهو يبكي... وهذا يعني أن اليوم الذي كان لا يبكي فيه، إنما يصرفه بالصراع وبالتوتّر وبالتمزّق وبالندم وبمعاودة التفكير... كل أولئك أشدّ ألماً على النفس من البكاء الذي قد يختزل أو يساهم في تفريج الألم...

* * *

هذه واحدةٌ من الشدائد النفسية التي كابد منها يوسف أشدّ المكابدة...

وعلينا أن نتصور سائر الشدائد التي صاحبت يوسف في رحلته.

والآن، لنُتابعْ هذه الشدائد.

ولكن الأهمّ من ذلك: أن نتابع الاستجابة على الشدائد، أي: الصبر على الشدائد وهو ما يستهدف النص من التشدّد عليه من هذه القصة.

تُرى، ما هي هذه الشدائد؟

وكيف استجاب لها بطلنا يوسف؟؟

أوّل شدّة يكابدها يوسف، تتمثّل في شدة بدنيّة ونفسية... هي: إقتياده من قِبَلِ إخوته إلى الصحراء ثم إظهار مشاعرهم العدائية نحوه والبدء بممارسة الضرب حياله... حتىٰ أنه بدأ يستغيث بهم واحداً واحداً فلا يغيثه أحد، بل أنهم همّوا بقتله وهو يصرخ: يا أبتاه لولا أن يتدخل أحد الاخوة فيمنعهم من قتل يوسف...

إنّ هذه الشدة ليست بضئيلة البتّة، بل إنها ذات وقع كبير علىٰ يوسف دون أدنى شك...

ولنا أن نتصور أنّ أخاً صغيراً مثل يوسف وهو المدلّل لدى أبيه يُلاحظ فجأة أنّ اخوته الذين يمثّلون أقرب الأرحام يظهرون له العداء المنكر وهو

وحيدٌ في الصحراء ثم ينهالون عليه بالضرب، بل ويهمّون بقتله وهو يستغيث ولا يُغاث...

* * *

ثم يكبرُ حجمُ الشدائد، حينما يصل الأمر إلى إلقائه في البئر...

ولنا أن نتصور أيضاً: كم هو مرعبٌ ومأساوي مرأى أخ صغير يمسكه مجموعة من الإخوة قد انتزعت الرحمةُ من أعماقهم ثمّ يدلونه في بئر... لا شك، أنه مرأى مُرعبٌ، رهيب مُدمر...

ومما زاد في رُعب هذا المنظر أو المرأى هو: الطريقة التي استخدموها في عملية القائه في البئر... فلقد جردوه من ثيابه وهو يستغيث: ردّوا عليّ القميص أتوارىٰ به... وكان جوابهم: ادعُ الشمس والقمر والأحد عشر كوكباً يؤنسنك... حقاً: أنه لمرأى مُرعب تزحمه مشاعر يوسف وهي في حالة الاستغاثة التي تفجّر الرحمة حتىٰ في الحجارة...

* * *

وتتوالى الشدائد علىٰ يوسف...

فهٰا هُو يُنقذ من البئر. بيد أنّه سرعان ما يشاهد إخوته يُهرعون نحو القافلة أو السيارة، ليبيعوه بثمنٍ بَخسٍ: دراهم معدودة...

وعملية البيع ذاتها: تُعدّ شدةً نفسيةً كبيرة كما هو واضح.

* * *

وتتوالىٰ الشدائد من جديدٍ علىٰ يوسف...

لكنها الآن تأخذ منعطفاً آخر...

فها هو يقع في صراع حاد مع امرأة العزيز.

ثم يُشاهد فجأة زوجها علىٰ الباب. . .

ثم يتطوّر الأمر إلىٰ إدخاله في السجن وإلصاق التُهمة المنكرة به، بالرغم من الأدلة التي أثبتت براءته. . .

وعلينا ألاّ نمر عابرين علىٰ مثل هذه الوقائع وما تصاحبُها من الشدائد النفسية، وبخاصة لدىٰ صفوةٍ نظيفةٍ كلّ النظافة. . . كم تسحقُها مثلُ هذه الأنماط من الصراع، وكم تؤلمها مثل هذه التهم. . .

* * *

وأخيراً، تجيء شدائدُ السجن بنمطيها النفسي والجسمي. . . ولا تعقيب لنا علىٰ مثل هذه الشدائد. . . فالسجن وحده إيذاءٌ نفسي وجسدي يرشح بأكثر من مأساة. . .

لكنه، مضافاً إلىٰ ما تقدم، فقد واكبت حياته في السجن شدةٌ نفسيةٌ كبيرةٌ هانت عندها شدائد السجن، ألا وهي عتاب جبرئيل علىٰ النحو الذي تحدثنا عنه مفصلاً. . .

* * *

إنّ مكابدة يوسف لهذه الشدائد، ينبغي ألا نتركها دون أن نلاحظ كيفية استجابته حيالَها. . . فالمهم ـ وهذا ما تستهدفه السماء من وراء قصّ مثل هذه الحكايات ـ أن تستجيب الشخصيةُ المؤمنة لهذه الشدائد، بعملية (الصبر)، وهي الاستجابة التي تصدر عنها ـ عادة ـ صفوة البشر.

إن يوسف لشخصية صابرةٌ متميزةٌ في هذا الميدان. ويكفي أنّ النبيّ(ص) قد ثمّنَ ظاهرة الصبر لدى يوسف، حيث رُوي عنه(ص):

«لقد عجبتُ من يوسف وكرمه وصبره، والله يغفر له: حين سُئل عن البقرات العجاف والسمان. ولو كنتُ مكانه لما أخبرتُهم حتى اشترط أن

يخرجوني من السجن. ولقد عجبتُ من يوسف وصبره وكرمه، والله يغفر له: حين أتاه الرسول فقال: ارجع إلىٰ ربك. ولو كنتُ مكانَه ولبثتُ في السجن ما لبثت، لأسرعت الإجابة وبادرتهم بالباب، وما ابتغيت العذر. إنه كان لحليماً ذا أناة.

إنّ هذا التثمينَ من النّبي(ص) لِموقف يوسف(ع)، كافٍ، في تسجيل خطورة ظاهرة (الصبر) لدى يوسف، وإنّها لشهادةٌ جديرة بالتسجيل.

إذن، استخلاص عظة (الصبر) على الشدائد، ينبغي أن نضعها في الاعتبار ونحن نتحدث عن بطلِ القصة يوسف.

* * *

(السماح) بصفته واحداً من أنماط السلوك الذي تطالبنا السماءُ به، يشكّل سمةً ملحوظة في شخصيّة يوسف... حيث تترافق مع سمة الصبر التي وقفنا عليها.

ولو لم يكن إلاّ عفو يوسف عن إخوته الذين أذاقوه أشدّ ألوان العذاب... لو لم يكن في القصة إلاّ هذا الموقف من يوسف حيال إخوته، لكفىٰ به سمةً عظيمةً في شخصيته...

* * *

(الإرادة) سمةٌ ثالثة من سمات الشخصية لدى يوسف.

ولا حاجة بنا إلى التعقيب علىٰ هذه السمة العظيمة التي تميّز أسوياء الناس عن مرضاهم، بل تُميّز درجة السويّة بين الأسوياء أيضاً.

ويكفي، أنّ يوسف قد مارس إرادته في أشدّ الدوافع إلحاحاً، وفي أشدّ المنبهات إثارة، حتىٰ أنه هتف قائلاً: «السجن أحبّ إليّ»... إنّه اختار السجن الطويل. من خلال ممارسته للإرادة ـ وكابد ما كابد: تحقيقاً لمبادىء

السماء التي جسّدتها ظاهرة (الإرادة) كما هو واضح.

* * *

أمّا السمات الأخرىٰ التي طبعت شخصية يوسف فتتمثل في سمتين خطيرتين، إحداهما: السمة العلمية، والأخرىٰ: السمة الاجتماعية.

أما السمة العلمية، فقد تحددت بوضوح في قدرته الفائقة علىٰ تفسير الأحلام: بدءً بأحلام صاحبيه في السجن، وانتهاء برؤيا الملك. . .

وواضحٌ، إن هذه السمة تظل جزءً من سمةٍ مُعجزة منحتها السماء ليوسف عندما بلَغ أشده حيث صرّح النص القرآني الكريم بوضوح في هذا الصدد:

﴿ولما بلغ أشُدَّهُ آتيناه حكماً وعلماً، وكذلك نجزي المحسنين﴾.

السمة الاجتماعيةُ التي غلّفت شخصية يوسف(ع)، تُعد تتويجاً للسمات الأخلاقية والعلمية التي طبعت شخصيته.

لقد قال له المَلِك: «إنّك اليومَ لدينا مكينٌ أمين» وأجابه يوسف: «اجعلني علىٰ خزائن الأرض، إني حفيظٌ عليم» ثم عقبت السماء على ذلك: **﴿وكذلك مكّنا ليوسف في الأرض، يتبوّأ منها حيث يشاء، نصيب برحمتنا مَن نشاء، ولا نُضيع أجر المحسنين﴾.**

لقد أراد الملك أن يجعله مستشاراً خاصاً له: «وقال الملك: ائتوني به استخلصه لنفسي».

بيد أن الملك عندما أعاد علىٰ يوسف قصَّ رؤياه، وفصّلها يوسف من جديد، وكان مما اقترحه على الملك: أن يجمع الطعام، ويزرع زرعاً كثيراً في السنين المخصبة، ويبني الخزائن للطعام بقصبه وسنبله علفاً للدواب، وأن يرفع الناس من طعامهم الخمس، حتى يكفي الطعام لمصر ومَن حولها،

فيمتارون منه: وعندها تجتمع من الكنوز ما لا يجتمع لأحد.

هنا، أحسّ الملك بصعوبة تحقيق هذه الخطة الاقتصادية قائلاً: مَن لي بهذا ومن يجمعه (أي: الطعام).

وعندها أجابه يوسف: «اجعلني على خزائن الأرض» ومنذ ذلك الحين تولّىٰ يوسف هذه المهمّة.

ويقول الإمام الرضا(ع) إن يوسف جمع خلال الأعوام المخصبة الطعام وكبسه في الخزائن، ثم باعه في السنين المجدبة موزّعاً علىٰ سبع سنين: كل سنة بقيمةٍ تبادلية خاصة هي: النقد والجواهر والدواب والعبيد والعقار والمزارع والرقاب، حتى اجتمعت لديه كلّ الأموال وفق هذه الخطة... وحتىٰ قيل في حينه: [ما رأينا ولا سمعنا بمَلِكٍ أعطاه الله من المُلك ما أعطىٰ هذا المَلِكَ حكماً وعلماً وتدبيراً].

وقد ردّ يوسف بعد ذلك كلّ هذه الأموال إلىٰ أصحابها بما في ذلك: عتقه لمن تملكهم، وبما في ذلك: خاتم الملك وسريره وتاجُه، مبيّناً للمَلِك أنّ اجراءاته الاقتصادية المذكورة لم تكن من أجل دافع التملك أو السيطرة، وإنما من أجل إنقاذهم... ولذلك، فأنا أردّ إليهم كلّ الأموال وأردّ إليك سريرك، ولكن شريطة أن تحذو حذوي في المنهج السياسي للبلد.

وعندها: ثمّن الملك هذا التوجيه السياسي، وأعلن إيمانه بالله...

* * *

إنّ ما يعنينا مما تقدّم، أن نستخلص الدلالة الفكرية لهذه السمة التي طبعت شخصية يوسف من خلال اضطلاعه بتحمّل المسؤولية...

لقد عقبت السماء علىٰ تولّي يوسف للمسؤولية، بهذه الفقرات:

﴿وكذلك مكّنا ليوسف في الأرض، يتبوأ منها حيث يشاء، نُصيب

برحمتنا مَن نشاء، ولا نضيع أجر المحسنين﴾.

فهذه الفقرات توضح لنا أنَّ منحَ يوسف هذه المسؤولية (المُلك) إنما تشكّل عطاءً أو نعمةً في الدنيا، فضلاً عن العطاء الأخروي «ولأجر الآخرة خيرٌ للذين آمنوا وكانوا يتقون».

ومعطيات هذه النعم ليست لمجرد أنها تحقيقٌ لدافع التملّك أو السيطرة... فهذان الدافعان لا قيمة لهما عند الصفوة البشرية، بل هما وسيلة لتحقيق مصالح الآخرين، علىٰ النحو الذي حققه يوسفُ فعلاً: وحيث انتهى به الأمر إلىٰ ردّ كلّ الأموال والتخلّي عن المُلك...

ولا يغب عن بالنا أيضاً، كما تشير النصوص المفسرة، أنّ الملك نفسه قد أعلن إيمانه، وأن الآخرين أيضاً أعلنوا إيمانهم، نتيجة وقوفهم علىٰ السياسة الحكيمة التي انتهجها يوسف: وهي سياسة مستوحاة من مبادىء السماء التي ألهمته إياه دون أدنى شك.

إذن: الشخصية المؤمنة، الصابرة... الشخصية التي كابدت ألوان المهانة، وفقدت التقدير الاجتماعي... قد كافأتها السماء بتقدير اجتماعي لا يدور ببال أحد قط إلى الدرجة التي سيطرت بها على مصائر الجمهور... وهذا كله في حساب العطاء الدنيوي.

أما العطاء الأخروي فهو خيرٌ من ذلك، كما أشار النص القرآني الكريم.

هذا، إلى أن ذلك كله، إنما يتم في نطاق الالتزام بمبادىء السماء...

ثم ما يترتب علىٰ هذا الالتزام من تحقيق معطيات أخرى، هي: إرشاد الآخرين وتوجيههم إلى مبادىء السماء أيضاً. وهو ما حصل فعلاً من إيمان الملك وإيمان الجمهور.

وهذا المُعطىٰ الأخير له قيمته الخطيرة دون أدنىٰ شك... وأعني

بذلك: أن يكون المُلك أو الاضطلاع بأية مسؤولية كبيرة كانت أو صغيرة... وسيلةً للهداية... لإرشاد الآخرين نحو الإيمان بالله ومبادئه.

* * *

وبعد: هناك أحداثٌ ومواقف، لم نتحدث عنها في قصة يوسف... وبمقدور المتلقي أن يستخلص منها دلالات متنوعة، تظل حائمة على الأفكار التي لحظناها في القصة بكل شخصياتها الثانوية والرئيسية...

و أمّا من حيث البناء الهندسي للقصة، فقد اتّضح تماماً من خلال متابعتنا لأحداثها المتسلسلة فيما يكشف ذلك عن البناء المذكور . فكل دور من الأدوار التي لحقت الشخصيات الثانوية : يعقوب ، إخوة يوسف ، أحفاد يعقوب ، امرأة العزيز ، نسوة المدينة ، الأخ الأصغر ليوسف، العزيز، صاحبي السجن، الشاهد... كل دور لهذه الشخصيات قد صيغ وفق حوار وسرد مليئين بالأسرار الفنية من اختزال أو تفصيل، ومن اقتصاد لغوي، ومن عَرض مُدهش...

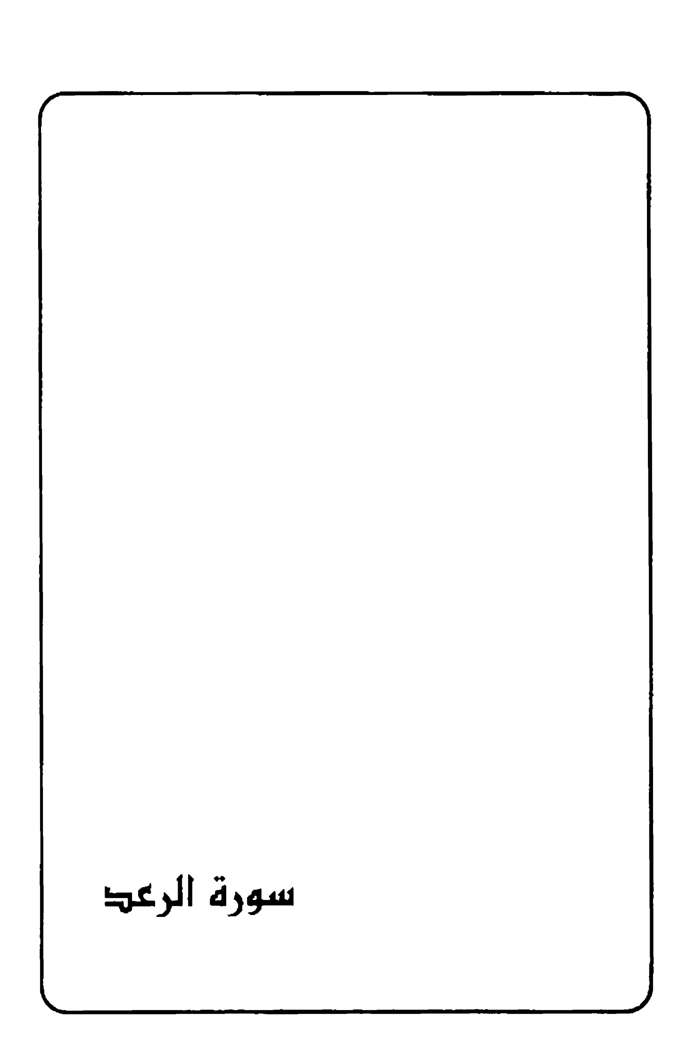
هذا فضلاً عن عناصر المفاجأة والتشويق... وفضلاً عن حركة القصة وتموجاتها وإيقاعها... وفضلاً عن بنائها الزمني ونمو الأحداث من خلاله بنحو مُدهش، نجدنا قاصرين عن التحدّث عنه، إلاّ من خلال تخصيص مساحة كبيرة لها، عسى أن نوفق لذلك في مجال آخر.

* * *

لحظنا أن قصة يوسف بدأت بحلم يوسف، وانتهت بعودة أبويه وإخوته إليه... إلا أن النص القرآني الكريم (مهّد) لهذه القصة، و(خَتَمها) بآيات محدودة... مهّد لها بالإشارة إلى القرآن الكريم تجانساً مع كثير من السور التي تتضمن هذا الجانب، كما صرّح بأنه في صدد عرض أحسن القصص من

القرآن الكريم، وبهذا يكون الربط بين بداية السورة ووسطها القصصي واضحاً لا يحتاج إلى تعقيب.

وأما ختام السورة، فقد بدأ من التعقيب علىٰ قصة يوسف (ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك، وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون)... واضح أن الربط بين العنصر القصصي وبين الختام هذا، هو توظيف القصة من أجل إنارتها للبيئة الإسلامية الجديدة، حيث ألفَت النصُ نظر محمّد(ص) إلى أبرز حوادث القصة وهو (المكر)، وإن الله تعالى في نصرة عبده، ثم لفت النظر إلى حقائق تتصل بقضية (التبليغ) لرسالة الإسلام وما يواجه صاحبه من الشدائد، وما تنطوي المجتمعات عليه من الأعراف... الخ، ثم التأكيد على أن في قصص الماضين عظة للمبلّغ الإسلامي ولمطلق الإسلاميين بالنسبة إلى تعديل سلوكهم، بالنحو الذي لحظناه.



سورة الرعد

قال تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم * المر تلك آيات الكتاب والذي أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون * الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم آستوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون * وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين أثنين يغشى الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون * وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحدٍ ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾.

بهذا المقطع تفتتح سورة الرعد، حيث تضمنت مقدمتها الإشارة إلى أنّ مبادىء الله تعالى هي الحق، إلاّ أنّ أكثر الناس لا يؤمنون.

هذه المقدمة سوف تنعكس أصداؤها على هيكل السورة الكريمة بحيث تتلاحم أجزاؤها على المحور المذكور كما سنرى.

وهذا من حيث عمارة السورة الكريمة.

وأما من حيث الجزئيات المطروحة فيها، فقد بدأ النص الحديث عنها باحدى الظواهر الكونية، ألا وهي: إبداع السماء والأرض، حيث وظف هذه الموضوعات لتصب في الموضوع الرئيس للسورة، ونعني به: المقدمة التي تضمنت الإشارة الى أن مبادىء الله تعالى هي الحق وإن أكثر الناس لا يؤمنون. لذلك نجد، أن النص القرآني الكريم ما إن يتحدث عن ظاهرة إبداعية، حتى يعقب على ذلك قائلاً (لعلكم بلقاء ربكم توقنون) (إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) ثم يتساءل قائلاً: (وإن تعجب: فعجب قولهم أإذا كنا تراباً أئنا لفي

خلق جديد... الخ) إذن عندما يطرح النص موضوعاً عن الإبداع الكوني، نجده سرعان ما يربط عضوياً بين هذا الموضوع وبين الفكرة الرئيسة التي تحوم عليها السورة الكريمة وهي تشكيك الناس بالحق الذي أنزله الله تعالى.

لكن، خارجاً عن المبنى الهندسي للسورة ولموضوعاتها المرتبطة بهذا المبنى يعنينا أن نعرض سريعاً لجزئيات الموضوع: لملاحظة الأدوات الفنية المستخدمة في صياغتها. لقد استخدم النص عناصر لفظية وإيقاعية وصورية متنوعة في هذا الصعيد. في صعيد (الصورة) مثلاً، نواجه الصورة الرمزية القائلة(ثم استوى على العرش). إن الاستواء على العرش يرمز إلى الهيمنة المطلقة لله تعالى، وبما أن أية تشبيهات أو استعارات، لا يمكن أن تعبر عن حقيقة الهيمنة أو السيطرة على الكون، حينئذ كان لابد من استخدام عنصر (الرمز) بدلاً من التشبيه أو الاستعارة، لأن التشبيه أو الاستعارة ذات بعد (حتمي) من جانب ،وهو ما لا يتساوق مع حقيقة الله تعالى المنزه عن التجسم ولأنهما (أي الاستعارة والتشبيه) من جانب آخر، لا تعدان شاملتين لكل خصائص الهيمنة أو السيطرة نظراً لكونهما تعبيراً عن علاقات «تشابه» بين طرفين أو إعارة سمة من هذا الطرف وخلعها على الطرف الآخر، حيث أن كلاً منهما لا يتناسب مع حقيقة الله تعالى.

وهذا على العكس من عنصر (الرمز)، لأن (الرمز) هو ـ حسب المصطلح الأدبي ـ «تعبير محدود عن شيء غير محدود»، وهو أمر نلحظه بوضوح، في الصورة الرمزية القائلة (ثم استوى على العرش)، لأن الاستواء على العرش تعبير محدود: من حيث كونه لفظاً محدداً ذا دلالة محددة هي: الاستواء على الشيء، لكن الاستواء على الشيء، يشير أو يرمز الى شيء غير محدود هو: الهيمنة أو القدرة أو السيطرة لله تعالى على الكون أجمع. فأنت حين تتصور مستويات الهيمنة لله تعالى، لا يكون بمقدورك أن تحددها من

خلال عملية غير محدودة لسيطرة الله تعالى وهيمنته. وهذا هو المقصود تماماً من المصطلح الأدبي في تعريف الرمز بأنه تعبير محدود عن شيء غير محدود. والمهم ـ بعد ذلك ـ أن نجد أن هذه الصورة الرمزية قد وظفت فنياً من أجل المفهوم الذي طرحته مقدمتها، ونعني به: أن ما أنزله الله تعالى هو «الحق»، وإن الظواهر الكونية والهيمنة عليها تجسيد واضح للحقيقة المشار إليها، وهذا التوظيف للصـورة الرمـزيـة، يكشف عن احكام النص القرآني الكريم، من حيث علاقة موضوعاته: بعضها مع الآخر بالنحو الذي لحظناه.

* * *

قال تعالى﴿وإن تعجب فعجب قولهم ءإذا كنا تراباً ءإنّا لفي خلق جديد أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال في أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون * ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب * ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه إنما أنت منذر ولكل قوم هاد. . .﴾.

هذا المقطع من سورة الرعد يشكل تجسيداً عضوياً لمقدمة السورة التي جاء فيها (والذي أنزل إليك من ربك الحق و لكن أكثر الناس لا يؤمنون). أي، أن النص قال في مقدمة سورة الرعد، بأن ما أنزل على محمد(ص) هو الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون به، وها هي السورة: تقدم نموذجاً من سلوك الناس الذين لا يؤمنون بما أنزل على محمد(ص)، فتقول ـ على لسان الكافرين(ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه). وتتساءل(وإن تعجب فعجب قولهم أإذا كنا تراباً أإنا لفي خلق جديد. . .؟). إذن، طرح هذا المقطع نموذجاً من السلوك الذي لا يؤمن بالحق، ويشكك برسالة الإسلام من جانب آخر، فيستبعد أن تعاد تركيبة الإنسان من جديد، ويقترح نزول ظواهر إعجازية

مع نزول القرآن الكريم. . . ويلاحظ ان النص لم ينقل لنا كلام الكافرين المذكور، إلا بعد أن قدم سلسلة من الظواهر الإبداعية مثل: رفع السماوات بغير أعمدة مرئية، وتسخير الشمس والقمر، ومد الأرض وجعل الجبال والأنهار والنباتات فيها. . . الخ.

ومن الواضح، إن النص عندما يعرض ظواهر إبداعية، ثم يعرض نماذج من سلوك المشككين: إنما يستهدف ذلك لفت النظر إلى تفاهة الاعتراضات الصادرة عن هؤلاء المشككين واسقاطهم من حساب القارىء. ومع ذلك يتقدم النص من جديد بعرض ظواهر إبداعية أخرى، حتى يستكمل بذلك إلقاء الحجة عليهم من جانب ودفع البعض منهم ـ ممن يتوقع تعديل سلوكه ـ إلى تغيير الموقف، من جانب آخر. . . من هنا نجد، أن النص يستخدم طريقتي الإرشاد والتحذير لتحقيق الغرض المشار إليه، فنجده يحذر أولئك المشككين باليوم الآخر قائلاً(أولئك الإغلال في أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون). ولكي يقوم بعملية تذكير بالعقوبات التي حلت بالمجتمعات البائدة، قائلاً: (ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات) أي: العقوبات.

وهنا ينبغي ألا نغفل عن أن التحذير من العقاب الأخروي بالنسبة للمشككين باليوم الآخر، إنما يشكل منحنى فنياً غير مباشر في تثبيت هذه الحقيقة التي يشكك بها المنحرفون. . . والآن، إذا تركنا هذا الجانب من الصياغة واتجهنا إلى العنصر«الصوري» فيها، نجد أن المقطع قد استخدم صورة «الأغلال: في أعناقهم» بالنسبة للعذاب الأخروي الذي ينتظر المكذبين. . . والسؤال هو: هل ان هذه الصورة«وهي صورة القيد الذي تشد به يد الانسان الى عنقه» صورة «واقعية» أم صورة «رمزية»؟ لا شك أن كلا من الإحتمالين يمكن أن يستوحيهما القارىء أو السامع، حيث ان تنوع الاستيحاء

يظل واحداً من سمات الفن: كما هو واضح، وأهمية الإستيحاء الأول، تتمثل في كون الصورة المشار إليها تعبيراً عن أشد أشكال الهوان والذل: بصفة ان اقتياد الشخص وهو مطوق اليد والعنق الى النار تعبير عن هوانه عند الله تعالى وعند الآخرين. وأما أهمية الإستيحاء الآخر، وهو كون الصورة المشار إليها(رمزاً)، فتتمثل في أن الكفر أو الإنحراف بعامة، يكون بمثابة طوق في عنق الشخص يحتجزه من تحقيق أهدافه التي يتطلع إليها، إنه قيد يمنعه من الحركة... إنه غل لا يسمح له بأن ينعم بأدنى راحة... إنه معلم يتميز به أمام الآخرين بحيث يشار إليه ويفتضح من خلاله... إنه الحاجز عن النعيم في نهاية الأمر.

ينبغي ألا نغفل أيضاً، عن أن هذه الصورة وسواها من العناصر الفنية قد وظفها المقطع من أجل إنارة الموضوع الرئيس الذي تحوم عليه السورة الكريمة ونعني به: سلوك المنحرفين وانعكاساته على مصائرهم الأخروية، فيما يفصح مثل هذا التوظيف الفني عن احكام المبنى الهندسي للسورة، من حيث صلة أجزائها: بعضها مع الآخر، بالنحو الذي تقدم الحديث عنه.

* * *

قال تعالى﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار * عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال * سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل و سارب بالنهار * له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم دونه من وال...﴾.

في هذا المقطع من سورة الرعد، نلحظ جملة من الظواهر المرتبطة بفاعلية الله تعالى وصفاته، وفي مقدمتها: العلم، حيث انتخب المقطع من الظواهر المرتبطة بعلم الله تعالى: ظاهرتين هما العلم بالأرحام والعلم

بالحركات الذهنية وغيرها للإنسان. ويعنينا من ذلك: المنحىٰ الفني الذي سلكه النص في صياغته لظاهرة (العلم) وصلتها بعمارة السورة الكريمة. وأول ما يلحظ ـ في هذا الميدان ـ ان المقطع اعتمد عنصر (التقابل الفني) بين الأشياء، مثل المقابلة بين (ما تغيض الأرحام) وبين (ما تزداد)، ومثل (أسرّ القول) مقابل (جهر به)، ومثل (مستخف بالليل) مقابل (وسارب النهار) ومثل (من بين يديه) مقابل (ومن خلفه)، ومثل لا يغير ما بقوم) مقابل (حتى يغيروا) الخ. هذه السلسلة من العبارات والظواهر (المتقابل فيما بينها) تهب النص جمالية ممتعة دون ادنى شك. بخاصة إذا أخذنا بنظر الاعتبار ان المقطع في صدد العرض لفاعلية الله تعالى المطلقة حيث يجيء (التقابل) فيما بين مفرداتها (أي: المفردات المرتبطة بفاعليته تعالى) عنصراً مساهماً في تعميق المعرفة بها، ما دام توصيل المعرفة ـ في أحد أشكاله ـ يعتمد على ما هو ضد أو مقابل للآخر، أي: إن البعض من الظواهر أو الأشياء تعرف بأضدادها كما هو واضح.

وندع ظاهرة(العلم) لنواجه ظاهرة أخرى هي: توظيفه تعالى للملائكة لحراسة الإنسان(له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله)... ثم نواجه طرحاً لظاهرة نفسية واجتماعية هي:(إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)... هذه الظواهر يعرضها النص ضمن حديثه عن ابداع الله تعالى وفاعليته الكونية حيث إن الفكرة الرئيسة التي يحوم النص عليها تتمثل في الذهاب إلى أن أكثر الناس ليسوا بمؤمنين بالحق الذي أنزله تعالى (والذي أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) مقدمة سورة الرعد. ومن الواضح، أن النص يستهدف من وراء عرضه لهذه الظواهر لفت النظر إلى (الحق) الذي أنزله تعالى. لذلك حينما نتابع قراءة السورة الكريمة، نواجه سلسلة أخرى من الظواهر التي يعرضها النص في هذا الصعيد، إلا أنه تعالى يعرضها في سياقات متنوعة بحيث تتحقق من خلال ذلك مهمة مزدوجة هي:

تقديم حقائق كونية مختلفة ليتعرفها الإنسان، ثم: الإستدلال بها على ان ما أنزله الله تعالى هو (الحق)، أي: توظيف الحقائق لإنارة الفكرة الرئيسة التي يقوم هيكل السورة الكريمة عليه. و من هذه الحقائق، نواجه ظاهرة جديدة يعرضها المقطع الآتي:

﴿هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينشيء السحاب الثقال * ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال * له دعوة الحق... الخ﴾.

فالملاحظ هنا، ان المقطع طرح موضوعات إبداعية لله تعالى مثل البرق والسحاب والصواعق، وطرح حقائق عبادية كونية مثل تسبيح الرعد بحمد الله تعالى(ويسبح الرعد بحمده) ومثل تسبيح الملائكة من خيفة الله تعالى(والملائكة من خيفته)... إلا أن المقطع القرآني المذكور ربط بين هذه الظواهر والحقائق وبين الفكرة الرئيسة التي يقوم عليها هيكل السورة الكريمة، ونعني بها: ان ما أنزله الله تعالى هو الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون، حيث قال تعالى تعقيباً على تلكم الظواهر والحقائق(وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال له دعوة الحق... الخ)، فهنا يشير النص إلى (الحق) ويشير إلى أن الناس يجادلون في هذا الحق، وهذه الإشارة هي نفس الدلالة التي طرحتها مقدمة السورة، أي الآية الأولى منها(والذي أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون). وفي ضوء هذا الربط بين مقدمة السورة ووسطها، يمكننا أن نستكشف مدى إحكام النص من حيث صلة موضوعاته بعضها بالآخر.

* * *

قال تعالى: **﴿له دعوةُ الحقِ والّذين يَدْعُون من دونِه لا يَستجيبون لَهُمْ**

بشيءٍ إلاّ كباسِطِ كفيهِ إلى الماءِ لِيبْلُغَ فاهُ وما هو بِبالغِهِ وما دُعاءُ الكافرين إلا في ضلال. . .﴾.

في هذا المقطع من سورة الرعد، نواجه عنصراً صورياً بالغ الأهمية، هو: (التشبيه) الفنيّ الذي يتضمن إحداث علاقة بين مَن يدعو مِن دون الله (كالأوثان) مثلاً، وبين مَن يبسط كفيه إلىٰ الماء ليشربه دون أن يستطيع إيصاله إلى الفم. . . إن أهمية هذا التشبيه تتجسّد في جملة من الخطوط، منها ما يتصل بعمارة السورة الكريمة التي تحوم فكرتها علىٰ أنّ أكثر الناس لا يؤمنون «بالحق» الذي أنزله الله تعالى، حيث جاء «التشبيه» ليقول: إنّ لله (دعوة الحق) وإنّ هؤلاء غير المؤمنين بالحق يدعون من دون الله ما لا يستجيب لهم: كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه. . . إلخ.

وهذا من حيث الموقع الهندسي للتشبيه.

أما من حيث عناصره التركيبية، فإن أهمية هذا التشبيه تتمثل في كونه أولاً: يستند إلىٰ خبرة مألوفة لدىٰ الناس جميعاً، حيث أن تجربةَ تناوُلِ الماء بالكف ومحاولة إيصاله إلى الفم تظل أمراً يخبره أبسط الناس، لذلك يُعتبر هذا التشبيه من الصور الناجحة فنيّاً ما دام مستنداً إلىٰ تجربة مألوفة. بيد أن الأهم من ذلك هو: أن تكون هذه التجربة موسومةً بالطرافة وبالعمق من حيث صياغتها الفنية، وهذا ما يمكن ملاحظته بوضوحٍ، في التشبيه المذكور. إن المعنيّين بشؤون التفسير والفن، ذَهبَ بعضهم إلى أن المقصود من هذا التشبيه هو أن عبادة المشركين للأوثان: تُشبه مَن يتناول الماء من مكان بعيد من خلال عملية بسط اليد دون أن تصل يدُه إلى الماء، وذهب البعض الآخر إلى أن العملية المذكورة تُشبه مَن يدعو الماء بلسانه ويشير إليه بيده فلا تستطيع يدُه الوصول إلى الماء. وذهب البعض الثالث إلى أن هذه العملية تُشبه من يبسط يده إلى الماء ولكنه يموت قبل أن يتناوله. وذَهَب البعض الرابع إلى أن هذا التشبيه

امتدادٌ لبعض الأمثال المألوفة عصرئذٍ، حيث تحوم هذه الأمثال علىٰ مَن يسعىٰ لتناول ما لا يدركه، فيُقال له: بأنه كالذي يقبض على الماء.

إن عَرْضنا لهذه الاستخلاصات التي توفّر عليها المعنيّون بشؤون التفسير الفني: يستهدف لَفْتَ النظر إلىٰ حيويّة هذا التشبيه، ما دمنا نعرف جميعاً أن الصورة الفنية الناجحة: هي التي تزخر بإيحاءات متنوعة بحيث يستوحي كلُّ شخصٍ منها ما يتناسب وخبرته التذوقية للفن. لذلك، فإن هذه الاستيحاءات المتنوعة التي أشرنا إليها، من الممكن أن تصحّ جميعاً ما دامت تحوم علىٰ دلالة خاصة هي: استحالة تحقق الشيء من خلال الوسائل التي لا تقترن بما هو عملي أو واقعي.

والمهم هو، أن التشبيه المذكور ـ حسب خبرتنا الخاصة ـ ينطوي علىٰ أهمية كبيرة، لجملة من الأسباب، منها: ما ذكرناه من الاستناد إلىٰ التجربة المألوفة، ومنها ـ وهذا هو الأهم ـ أن تجربة تناوُلِ الماء باليد، تقترن بكونها متصلةً بأهم الحاجات الحيوية للإنسان حيث أن الحاجة إلىٰ الماء تعدّ في الدرجة الأولىٰ من سُلّم الحاجات البشرية، وتليها: الحاجة إلى الطعام، ثم سائر الحاجات، وهذا يعني أن النص انتخب أشدّ الدوافع والحاجات ليبرهن من خلال ذلك علىٰ مدىٰ احباط وخيبة الأمل في تحقيق الإشباع لدىٰ مَن يعبد غير الله تعالى.

وهذا ما يتصل بالحاجة ذاتها، أي بالحاجة إلىٰ تناول الماء. . .

أمّا ما يتصل بـ(الوسيلة)، فإن صياغة تناول الماء من خلال بسط اليد ثم محاولة توصيل الماء إلى الفم. . . هذا النمط من الصياغة: يعدّ بدوره من أهمّ الصياغات التي تعبّر عن مدىٰ خيبة الأمل أو مدىٰ التّوتر الذي يصيب العطشان وهو يحاول إيصال الماء إلىٰ فمه. . . أنه يبسط يده ليتناول الماء مع أنّ استقرارَ الماء في اليد أمرٌ صعبٌ كما هو واضح.

وحتىٰ مع إمكان احتفاظ اليد ببعض الماء فإن محاولة إيصاله إلى الفم: أمرٌ صعب أيضاً. . . إذن: الصعوبة تكمن في استقرار الماء في اليد من جانب، وفي صعوبة إيصاله إلى الفم من جانب آخر، مع ملاحظة أن التوترات التي تصاحب الشخص في هذه المحاولة، ثم خيبة الأمل التي يصاب بها في نهاية الأمر، أولئك جميعاً تكشف عن حيوية مثل هذا التشبيه ـ كما قلنا.

أخيراً، ينبغي ألاّ نغفل أيضاً، بأن هذا التشبيه جاء في سياق الحديث عن الموضوع الرئيس الذي تحوم عليه سورة الرعد(وهو: أن أغلبية الناس لا يؤمنون بالحق)، فيما يفصح مثل هذا التلاحم بين موضوع النص وعنصر الصورة عن مدىٰ إحكام النص من حيث علاقة أجزائه: لبعضها مع الآخر.

* * *

قال تعالى: ﴿مَن رَّبُّ السماواتِ والأرضِ قُلِ الله قُلْ أفاتَخَذْتُمْ مِنْ دونِه أولياءَ لا يَملِكُونَ لأنفسِهِمْ نَفَعاً ولا ضَرّاً قُلْ هل يستوي الأعْمىٰ والبَصيرُ أمْ هَلْ تَستوي الظلماتُ والنورُ أمْ جَعَلُوا لله شُرَكاءَ خَلقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشابَهَ الخَلْقُ عَليهِم قُلِ الله خالقُ كلِّ شيءٍ وهو الواحدُ القهَّارُ. . .﴾.

هذا المقطع أو الآية الكريمة من سورة الرعد تتضمن عنصراً «صورياً» بالغ الأهمية، كما تتضمن عنصراً «لفظياً» يقوم علىٰ التكرار الفنيّ، لا بدّ من الوقوف عندهما لملاحظة صياغتهما من جانب، وعلاقتهما بموضوع السورة الكريمة التي تحوم عليه من جانب آخر.

أما العنصر «الصوري» فيتمثّل في: مجموعة من «التشبيهات» المثيرة التي وُظِفت فنياً لإنارة الفكرة التي تقوم عليها السورةُ الكريمة، ونعني بها فكرة «أن أكثر الناس لا يؤمنون بالحق الذي أنزله الله تعالى». وفي مقدمة هذه الأكثرية: أولئك الذين اتخذوا من دون الله أولياء، حيث يخاطبهم النصُ علىٰ لسان النبيّ(ص) قائلاً: ﴿قُلْ هل يستوي الأعمىٰ والبصيرُ أمْ هل تَستوي الظلماتُ

والنورُ أمْ جَعَلُوا لِلّهِ شركاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِه﴾.

فهنا نواجه ثلاثة تشبيهات (الأعمىٰ والبصير، الظلمات والنور، خَلقوا كخلقه). هذه التشبيهات، بعضها ينتسب إلىٰ التشبيه المألوف الذي يعتمد أداة التشبيه (الكاف) مثل التشبيه الأخير ﴿أمْ جعلوا لله شركاءَ خلقوا كَخَلْقِه﴾، وبعضها ينتسب إلىٰ ما نسميه بـ(التشبيه المضاد أو المتقابل) مثل تشبيهي (الظلمات والنور) و(الأعمى والبصير). ولكلٍ من التشبيهات المذكورة: مسوّغه الفني والفكري. . . ولنقف أولاً عند (التشبيه المضاد أو المتقابل).

إن أهمية التشبيه القائل ﴿هل يستوي الأعمى والبصير﴾ والتشبيه القائل: ﴿هل تستوي الظلمات والنور﴾ تتمثل في أنّ المعرفة بالشيء تتعمق حيناً من خلال الأضداد بين الأشياء حيث يُعرف الشيء من خلال ضده، فنحن نتبيّن أهمية النهار من خلال مقارنته بالليل، ونتبيّن أهمية البصر من خلال مقارنته بالعمىٰ، ونتبين أهمية النور من خلال مقارنته بالظلمة، وهكذا. لذلك، فإن «التشبيه» الذي يعتمد في تركيبته علىٰ وجود الشبه بين الشيئين، لا تنحصر فاعليته في رصد العلاقات المتشابهة بين شيء وآخر، بل يتجاوزه أيضاً إلىٰ رصد العلاقات المتقابلة بين الشيئين: أي العلاقة التي تقوم علىٰ التضاد بينهما، وهو ما نلحظه بوضوح في التشبيهين المشار إليهما «الأعمىٰ والبصير» و«الظلمات والنور»، وبما أنّ النص القرآني كان في صدد الحديث عن مفهوم «التوحيد» ومفهوم «الشرك» ﴿أفَاتَّخَذْتُمْ من دُونِه أولياءَ لا يَمْلِكُون لأنفسِهِمْ نَفعاً ولا ضَرّاً﴾، حينئذٍ فإن المقارنة بين مَن يتّخذ من دونالله أولياء لايملكون نفعاً ولا ضراً (مثل الأصنام)، وبين الله تعالى، تستلزم تقديم صورة فنية تقوم علىٰ المقارنة بين من يملك فاعلية مطلقة وبين مَن يفتقد الفاعلية حتىٰ في أبسط مستوياتها، وهو ما يتمثل في صورتي التشبيه التي يقارن بين «البصير» الذي يرىٰ كل شيء وبين «الأعمىٰ» الذي لا يرىٰ أيّ شيء، والتشبيه الذي يقارن بين

«النور» الذي يُضاءُ به كل شيء وبين «الظلمات» التي لا نورَ فيها.

وبما أنّ المقارنة بين فاعلية الله تعالى وبين انعدام الفاعلية لدىٰ غير الله تعالى لا تنحصر في عملية الإبداع الكوني فحسب، بل تتجاوزها إلىٰ مفهوم «الخير» المطلق لدىٰ الله تعالى، حينئذٍ نجد أن النص القرآني الكريم يقدّم صورتين ترتبطان بمفهوم البصر والنور مقابل العمىٰ والظُلمة، بصفة أن البصر والنور تتّسع دلالتهما لتشمل جميع الفاعليات الكونية من إرادة لله تعالى وقدرتهِ وهيمنتهِ وخيره المطلق الخ، حيث أن «النور» مقابل «الظلمات» يرمز إلىٰ مطلق الخير كما هو واضح، كما أن «البصر» مقابل «العمىٰ» يرمز إلىٰ مطلق المعرفة، فإذا اقترنت «المعرفة» «بالخير»: حينئذٍ تكتسب دلالة الوجود سمة التكامل كما هو بيّن، وهو ما يفسّر لنا واحداً من الأسرار الفنية الكامنة وراء تقديم تشبيهين ـ لا التشبيه الواحد فحسب ـ في هذا الصعيد. والمهمّ ـ بعد ذلك ـ أن عنصر التشبيه جاء في سياق الحديث عن فكرة السورة التي تحوم علىٰ مفهوم «أن أكثرية الناس لا يؤمنون بالحق الذي أنزله الله تعالى» فيما يُفصح مثلُ هذا التوظيف الفني للصور التشبيهية عن مدىٰ إحكام المبنىٰ الهندسي للسورة الكريمة، من حيث علاقة أجزائها: بعضها مع الآخر.

* * *

قال تعالى: ﴿أنْزَلَ من السماءِ ماءً فَسَالَتْ أوْدِيةٌ بِقَدَرِها فاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رابياً ومِمّا يُوقِدونَ عليهِ في النّارِ ابتغاءَ حِلْيَةٍ أو متاعٍ زَبَدٌ مثلُهُ كذلك يضرِبُ الله الحَقّ والباطِلَ فأمّا الزَّبَدُ فيذهَبُ جُفاءً وأمّا ما ينفَعُ الناسَ فيمكُثُ في الأرضِ كذلك يضرِبُ الله الأمثال...﴾.

هذه الآية أو المقطع من سورة الرعد، يتضمّن سماتٍ فنيّةً بالغة الجمال والإثارة والدهشة: من حيث التركيب الصوري لهما. لقد اعتمد النصُّ عنصر (المَثَلِ) في صياغة الصورة الفنية، حيث يجسّد (المثَل) أحد أشكال (التشبيه).

أي، أنه واحدٌ من أدوات التشبيه، كما هو واضح. والمهمّ هو: أن النص قدّمَ ـ من خلال المَثَل ـ صياغةً خاصة لمفهوم الحق وما يقابلها من الباطل، حيث أن السورة الكريمة تحوم فكرتها علىٰ مفهوم (الحق) الذي أنزله الله تعالى ﴿والذي أُنزِل إليك من ربك الحقُّ﴾ مقدمة السورة... وجاءت هذه الصياغة الصورية موظفةً فنياً لبلورة المفهوم المُشار إليه... ولعلَّ أوّل ما يلفت النظر في هذه الصياغة أنها تعتمد جملةً من الصور المتداخلة فيما بينها، فهناك صورة (المطر) الذي نزل من السماء، فسالت بسببه أوديةٌ ذات مساحات مختلفة، أي: أن الوديان التي اجتمع المطرُ فيها، يظلُّ نصيب المطر منها محكوماً بطبيعة مساحة الوادي، فإذا كان الوادي كبيراً فإنه يتسع لقدر كبير من الماء، وإذا كان وسطاً أو صغيراً، فإنه يتسع للمتوسط أو الصغير من الماء أيضاً. هذه الصورة الحسية عن المطر وتسبيبه لامتلاء الوديان بالمياه: حسب مساحاتها، قد (فرّع) منها النصُّ صورةً حسية أخرىٰ هي قوله تعالى (فاحتمل السيلُ زبداً رابياً) أي: أن هذه المياه المجتمعة في الوديان تحمل زَبَداً طافياً عليها، حيث أن الزَّبَد ـ كما هو واضح ـ لا نفع فيه، بل هو مجرّد رغوة تمثّل وضَرَ الماء وخبثَه. هاتان الصورتان ـ السيل والزبد ـ قد قَرَنهما النصُّ بصورةٍ حسيّة ثالثة هي قوله تعالى ﴿وممّا يُوقِدُون عَلَيْه في النارِ ابتغاءَ حِليةٍ﴾، أي: أن هناك معادنَ كالذهب والفضة وغيرهما، مما توقد على النار من أجل تصفيتها، وتُتَّخذ حلية عند الناس، حيث أن إيقادها على النار يستتبع تنقيتها مما هو شائب منها، أي: أن الذهب يماثل سيول الوادي من حيث انطواؤه علىٰ ما هو نافع وما هو ضارٌ أو لا نفع فيه، فكما أنّ للماء زَبَداً لا نفع فيه، كذلك فإن للذهب أو مطلق المعادن شيئاً لا نفع فيه وهو المادة المتبقية بعد التصفية.

إذن، نحن الآن أمام ثلاث صور حسيّة، الماء أو المطر المتجمع في الوديان بحسب مساحاتها من الكبر والصغر، الماء المتضمن ما هو نافع وما هو غير نافع، المعدن المتضمن أيضاً ما هو نافع وما هو غير نافع.

والسؤال هو: ما هي الدلالات التي تتضمّنها أمثلةُ هذه الصور؟ ثُمَّ: كيفية صياغتها.

أمّا دلالاتها، فإن النص القرآني الكريم يوضّح ذلك، من خلال تعقيبه على الصور المذكورة، بقوله تعالى: **﴿كذلك يضرِبُ الله الحقَّ والبَاطلَ فأمّا الزَّبدُ فيذْهَبُ جُفاءً وأمّا ما ينفعُ الناس فيمكُثُ في الأرضِ كذلك يضرِبُ الله الأمثال﴾**.

إن هذه الصورة صيغت من أجل إنارة الفكرة الرئيسة التي تحوم عليها السورة الكريمة، ونعني بها (فكرة «الحق» الذي أنزله الله تعالى)، حيث أن تعقيبه مع القائل (كذلك يضرب الله الحق والباطل) يعني: أن النص في صدد بلورة مفهوم «الحق» وما يقابله من «الباطل»، وأن هذه الصور قد وُظّفت فنياً من أجل بلورة المفهوم المشار إليه، مما يكشف مثلُ هذا التوظيف الفنيّ عن إحكام المبنىٰ الهندسي للسورة الكريمة، بالنحو الذي أشرنا إليه، وبالنحو الذينوضحه لاحقاً (إن شاء الله).

* * *

قلنا: إن هذا المقطع من سورة الرعد، يتضمن مجموعة من الصور التشبيهية التي سيقت من أجل بلورة مفهوم (الحق) الذي أنزله الله تعالى مقابل (الباطل) ـ وهذا المفهوم يشكّل (الفكرة) الرئيسة التي تحوم عليها سورة الرعد. وما يعنينا الآن من هذه الصور هو: صياغتها فنيّاً.

الصورة الأولىٰ في هذا المقطع هي **﴿أنزَلَ من السماء ماءً فسالتْ أودية بقدرِها﴾**... الصورة الثانية هي **﴿فاحتمل السيلُ زبداً رابياً﴾**... الصورة الثالثة هي **﴿ومِمّا يوقدُون عليه في النارِ ابتغاءَ حِلْيَةٍ أو متاعٍ زبدُ مثله﴾** الصورة الرابعة هي **﴿فأمّا الزّبَد فيذهبُ جُفاءً وأمّا ما ينفع الناسَ فيمكُثُ في الأرض...﴾**.

والآن، إذا كانت الصورة الفنيةُ الناجحة تتميز بكونها ذات إيحاءات متنوعةٍ، حينئذ ما هي الاستيحاءات التي يمكن أن نستخلصها من الصورة المشار إليها؟. . . الصورة الأولىٰ ﴿أنزل من السماء ماءً فسالتْ أوديةٌ بقدرها﴾ تقول: إن الله أنزل مطراً، فسالت الأوديةُ به: حسب مساحتها من الكبر أو الصغر، فالوادي الصغير مثلاً يحتفظ بقدر صغير من ماء المطر، والوادي الكبير يحتفظ بقدر كبير منه، وهكذا سائر الأودية التي تتفاوت في أحجامها. هذه الصورة الحسية تفجّر لدىٰ المتلقّي أكثر من إيحاء دون أدنى شك. فالمطر يرمز إلى الخير، إلىٰ معطيات الله تعالى، إلىٰ الحق الذي أنزله تعالى. . . الخ. والوديان قد ترمز إلىٰ النفس البشرية وطبيعة استعدادها لتقبّل الخير، لتقبّل الإيمان. . . إلخ. فهناك من الأشخاص مَن يستجيب للإيمان أو الخير بقدر كبير، وهناك من يستجيب له بقدرقليل، وهناك من تتفاوت استجابته بين القلة والكثرة: حسب استعداده، وهكذا.

إذن، الصلة بين المطر والوديان وبين الأشخاص ودرجاتهم من الإيمان، تظل واضحة في الصورة الفنية المُشار إليها.

وأما الصورة الفنية الثانية (فاحتمل السيلُ زبداً رابياً) فتعني: أن المطر حينما انهمر على الوديان، فإن سيوله التي شربتها هذه الوديان، تظل ـ عادة ـ مصحوبةً بالزَّبَد، بالرغوة الطافية علىٰ السيل، ترىٰ: ماذا نستخلص من هذه الصورة؟. النص القرآني الكريم، يقدّم لنا بعد انتهائه من صياغة هذه الصورة: السرَّ الفني الذي يُستخلص منها، ألا وهو: أن الزَّبَد يذهب جفاء، وإنّ ما ينفع الناس فيمكث في الأرض. أي: أنّ الزبدَ الذي صحب السيلَ سيتلاشىٰ لأنه رغوة طافية سرعان ما تنمحي من سطح المياه، بينا تبقىٰ المياه محتفظة بمادتها، الزبد ـ في مثل هذه الحالة ـ يتلاشىٰ، لأنه ـ ببساطة ـ لا نفع فيه، وهذا بعكس المياه التي تبقىٰ: حيث تنتفع البشريةُ بها كما هو واضح. وما

يُستخلص من هذا كله هو: أنّ (الحق) يبقىٰ، وان (الباطل) سيتلاشىٰ، تماماً: كما يبقىٰ الماء ويتلاشىٰ الزَبَدُ. . . الصورة الثالثة **﴿ومِمّا يُوقِدون عليه في النار ابتغاء حليةٍ أو متاعٍ زبدٌ مثله﴾** أي، أن المعادن الثمينة التي يفيد الناسُ منها (مثل الذهب) تحمل نفس خصيصة الماء الذي يتلاشىٰ زبده وتبقىٰ مادته، فالذهب حينما يُذاب ـ من خلال الحرارة ـ تصحبه ـ عادة ـ مواد غير أصيلة، تُلقىٰ جانباً، ويُحتفظ بما هو أصيل فحسب، فالمواد غير الأصيلة: زَبَدٌ أيضاً، أي أن النص القرآني الكريم: شبّه ما لا ينفع من الذهب بما لا ينفع من المياه (وهذا نمط فنيّ مدهش من حيث التركيب الصوري الذي تتداخل من خلاله الصورة: بعضها مع الآخر.

والمهم ـ بعد ذلك كله ـ أن النص تَرَكَنا نستخلص من خلال الصورة الرابعة **﴿فأمّا الزّبد فيذهبُ جُفاءً وأمّا ما ينفعُ الناسَ فيمكُثُ في الأرض﴾**: إنّ (الحق) ـ وهو الفكرة التي تحوم عليها سورة الرعد ـ يمكث، وأن الباطل يتلاشىٰ: تماماً كما يتلاشىٰ الزبد والمواد غير الأصيلة، وإن ذلك ـ من جانبٍ آخر ـ يبقىٰ مرتبطاً بطبيعة النفس البشرية التي تستجيب للحق أو الباطل بقدر استعدادها تقبّل الخير والشر.

إذن، للمرة الجديدة، ينبغي ألاّ نغفل عن أهمية مثل هذه الصياغة الفنية للصور المشار إليها، من حيث صلتها بفكرة النص الذي يحوم علىٰ مفهوم (الحق) مقابل الباطل، فيما تُفصح مثل هذه الصلة عن الإحكام الهندسي للسورة الكريمة.

* * *

قال تعالى: **﴿أفَمنْ يعلمُ أنّما أُنزلَ إليكَ من ربكَ الحقُّ كَمَنْ هو أعمىٰ إنّما يتذكَّرُ أولُوا الألباب * الذين يُوفُونَ بعهدِ الله ولا يَنقُضُون الميثاقَ * والّذين يَصِلُونَ ما أمَرَ الله بِهِ أنْ يُوصَلَ ويَخْشَوْنَ رَبَّهم ويَخافُون سوءَ الحِسابِ * والذين**

صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وجْهِ ربِّهم وأقامُوا الصلاةَ وأنْفقُوا ممَّا رزقناهُمْ سِرّاً وعَلانيةً ويَدْرَأُونَ بالحسنةِ السّيئةَ أُولئكَ لهمْ عُقبَى الدار . . . ﴾ .

هذا المقطع من سورة الرعد، يطرح جملة من الموضوعات المرتبطة بالسلوك العبادي والاجتماعي والنفسي مثل: الالتزام بالعهد، وصلة الرحم، والخشية من الحساب في اليوم الآخر، وممارسة الصبر، والصلاة، والانفاق سراً وعلانية، ودفْعِ السيئة بالحسنة. إن هذه المفردات ـ بالرغم من انتسابها إلىٰ أنماط مختلفة من السلوك ـ تشير إلىٰ كونها مقترنةً بأهمية كبيرة بحيث طرحها النصُّ القرآني الكريمُ في سياق الفكرة الرئيسة التي تحوم عليها سورة الرعد ونعني بها الفكرة التي استُهلّت بها السورة الكريمة ﴿والذي أنزِلَ إليك من ربكَ الحقُّ﴾. ومن المعلوم، أنّ مِن إحدىٰ الصياغات الفنية للنصوص، هي: طرح الأفكار الثانوية ضمن الموضوع الرئيس حتى يُلفَتَ إليها النظر. وها هو النص يطرح الموضوعات الثانوية المُشار إليها ضمن حديثه عن (الحق الذي أنزل الله تعالى).

فالمُلاحَظ أن النص ربَط بين مقدمة السورة وبين وسطها الذي يقول ﴿أفَمَنْ يعلمُ أنَّمَا أُنزِلَ إليك من ربك الحقُّ كَمَنْ هو أعمىٰ إنَّما يتذكَّرُ أُولُوا الألبابِ * الذين يُوفُونَ بعهد الله. . . إلخ﴾.

إن هذا الربط الفني بين مقدمة السورة التي تقول ﴿الذي أنزِلَ إليك من ربكَ الحقّ﴾ وبين وسط السورة التي تقول ﴿أفمن يعلمُ أنَّما أُنزِلَ إليك من ربكَ الحق﴾ حيث يستخدم النصُّ نفس العبارات. . . هذا الربط بين المقدمة والوسط: يُعدّ من أهم الصياغات الفنية المرتبطة بالمبنىٰ الهندسي للنص. والمهم، أنّ النص، طَرحَ ـ من جانب ـ أفكاراً ثانوية تتصل بالصلاة والانفاق والصبر وسواها من أنماط السلوك التي أشرنا إليها، كما طرح هذه الأفكار ـ من جانبٍ آخر ـ من خلال التوكّؤ على عنصر «الصورة» التي احتشد بها هذا

النصُ في مقاطعه المختلفة. ولعل التشبيه القائل ﴿**أفمن يعلم انما أُنزِلَ إليك من ربك الحق كمن هو أعمىٰ**﴾. . . لعل هذا التشبيه بين مَن يعلم الحق وبين مَن هو أعمىٰ، يُعدّ امتداداً لتشبيهات واستعارات ورموز سابقة قد وظّفها النصُ لإنارة الفكرة التي تحوم علىٰ مفهوم(الحق) الذي أنزله الله تعالى.

إن النص القرآني الكريم يعتمد حيناً صوراً مكثفة، وحيناً آخر صوراً مفردة مألوفة مثل التشبيه السابق الذي يقارن ـ ببساطة ـ بين مَن يعلم بأنْ ما أنزله الله تعالى هو الحق، وبين الأعمى، فالمشبّه به ـ وهو الأعمىٰ ـ بالرغم من كونه ظاهرة تبدو من الوضوح بمكان، إلا أنه ينطوي على أسرار فنيّة بالغة الإثارة والدهشة. . . فأولاً، نجد أن النص قد اعتمد ما نسمّيه بـ(التشبيه المتقابل) أو (التشبيه المضاد) حيث أن التشبيه المألوف يعتمد رَصْدَ أوجه «الشبه» بين الشيئين (المشبه والمشبه به)، بينا يعتمد (التشبيه المضاد) رصد أوجه «الاختلاف أو التباين» بين الشيئين، وهذا ما نلحظه في التشبيه بين العالم بالحق وبين الأعمىٰ، حيث أن العالِم يضاد الأعمىٰ. . . ثانياً، نجد أن النص قد زاوج ـ في آنٍ واحد ـ بين عنصر (الرمز) وبين عنصر (التشبيه) حيث قال تعالى ﴿**أفمن يعلم. . . كمن هو أعمىٰ**﴾ فالأعمىٰ ـ وهو المشبّه به ـ قد جاء هنا (صورة رمزية) لأنه يرمز إلى (الجاهل) أو(غير العالم)، فبدلاً من أن يقول النص (أفمن يعلم. . . كمن لا يعلم) نجده قد (رَمَزَ) لِـ(مَن لا يعلم) بعبارة (الأعمىٰ)، فجاء المشبّه به (وهو عنصر صوري) في عبارة رمزية (وهي عنصر صوري أيضاً). ومن الواضح، أنّ المسوّغ الفني لمثل هذا «التزاوج» بين الصورتين (التشبيهية والرمزية) هو: أن النص يستهدف تركيز الفكرة الرئيسة التي تحوم عليها السورة الكريمة (وهي: الحق الذي أنزله الله تعالى)، وحينئذٍ فإنّ المزاوجة بين تشبيهٍ لمن يعلم بالحق الذي أنزله الله تعالى وبين مَن لا يعلمه، ثم بين (رمزٍ) لِمن لا يعلم الحق: يُعدّ وسيلة تركيز ملحوظة في هذا الجانب، وهو أمرٌ يكشف ـ من زاوية أخرى ـ عن مدىٰ التجانس بين فكرة

النص وبين العنصر الصوري فيها، مثلما يكشف عن مدى الإحكام الهندسي للنص بعامة.

* * *

قال تعالى: ﴿ويقول الذين كفروا لولا أُنزِل عليه آية من ربه قل إن الله يضلّ من يشاء ويَهدي إليهِ مَنْ أنابْ...﴾.

في هذا المقطع من سورة الرعد، يقدّم النصُ القرآني الكريم نموذجاً آخر من سلوك المنحرفين، ألا وهو: اقتراحُهُم بنُزول معجزة من السماء. المقاطعُ اللاَّحقةُ من السورة، سَوفَ تُجيبُ عن هذا الاقتراح، مثل قوله تعالى: ﴿وما كان لرسولٍ أن يأتي بآيةٍ إلاّ بإذن الله لكل أجلٍ كتاب﴾. بيد أن المُلاحظ أن المقطع الذي نتحدث عنه، قدّم إجابةً غير مباشرة وهي قوله تعالى ﴿قل إن الله يضلّ من يشاء ويهدي إليه من أناب * الذين آمنوا وتطمئنّ قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب * الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبىٰ لهم وحسن مآب﴾. إن مثل هذه الإجابة غير المباشرة، تنطوي على أسرار فنية ترتبط بعمارة السورة الكريمة، نتحدث عنها في حينه، بيد أنّ أبرز ما يمكن ملاحظته هو: أن النص يستهدف ضمن حديثه عن سلوك الكافرين، إبراز مفهومات ثانوية ترتبط بحقائق عامة مثل ﴿إن الله يضل مَن يشاء ويهدي الخ﴾ ومثل ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ ومثل ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبىٰ لهم﴾ حيث أن الإشارة إلى أنّ الضلال والهداية مرتبطان بإشاءة الله تعالى، وأنّ التوازن النفسي للشخصية يتحقق من خلال ذكر الله تعالى، وأن المؤمن قد أعدّ الله له ـ من جملة ما أُعِدّ له ـ (شجرة طوبىٰ)... أمثلة هذه الحقائق تظل جزءً من حقائق عامة يستهدف النص توصيلها إلى السامع خلال حديثه عن سلوك المنحرفين.

بعد ذلك، يعود النصُ ليربط بين سلوك المنحرفين الذين يتعلّلون

باقتراحات هزيلة مثل اقتراحهم بنزول معجزة من السماء وبين عدم صِدْقهم في ذلك، حيث يقدّم النصُ صورة فنيّة للتدليل علىٰ هذا الجانب فيقول: ﴿ولو أنّ قرآناً سُيّرت به الجبال أو قُطِّعت به الأرض أو كُلِّم به الموتىٰ بل لله الأمر جميعاً. . .﴾. إن هذه الصورة تنتسب إلىٰ ما نسمّيه بـ(الصورة الفرضية) أي الصورة التي تخضع لمجرّد الفرض وليس لواقعٍ قد تحقّق بالفعل، والمسوّغ الفنيّ لمثل هذه التركيبة هو: تعميق القناعة بالدلالات التي يستهدف النصُ توضيحَها لدىٰ المتلقّي. إن هذه الصورة تريد أن تقول: إن هؤلاء المنحرفين الذين اقترحوا نزول معجزة من السماء تقترن بنزول القرآن: سوف لن يؤمنوا البتة حتىٰ مع نزول المعجزة التي يقترحونها. وللتدليل علىٰ هذه الحقيقة قدّم المقطعُ صورةً فنيّة تتركّب من ثلاث ظواهر هي: لو أنّ الجبال أُزيلت من أماكنها، أو أنّ الأرض شُقّقَت، أو أن الموتىٰ تكلّموا: لما آمن هؤلاء المنحرفون، بنزول القرآن. طبيعياً، أن النص لم يقدّم هذه الصورة إلاّ وهي مشفوعة بشيء من التضبيب الفنيّ حتى يسمح للقارىء بأن يساهم في كشف الدلالة. . . فهو يقول: ﴿لو أن قرآناً سُيّرت به الجبال، أو قطّعت به الأرض أو كُلِّمَ به الموتى﴾.

عند هذا الحدّ تنتهي الصورة دون أن يُتَمّمها النصُ بتفصيلات أخرىٰ. إلاّ أن القارىء يمكنه أن يستخلص ـ وهذا هو عنصر المساهمة الفنية في الكشف ـ بأن المقصود من ذلك: أما أن يكون متمثلاً في أنّ القرآن لو اقترن ببروز هذه الظواهر الإعجازية: تسيير الجبال، تقطيع الأرض، تكليم الموتىٰ، لما آمن به المنحرفون. وأمّا أن يكون متمثلاً في أنّه لو افترضنا بأنّ قرآناً سُيّرت به الجبال، أو قُطّعت به الأرض، أو كُلّم به الموتى: لكان هو هذا القرآن الذي نزل علىٰ محمد(ص). . . وعلىٰ الاحتمالين، فإن القرآن وحده كافٍ في التدليل علىٰ السمة الإعجازية.

ويُلاحَظ أن النص قد انتخب هذه الظواهر الثلاث (في تركيبة الصورة) نظراً ـ كما نحتمل ذوقياً ـ لكونها أشدّ الظواهر لصوقاً بتجارب المجتمع الذي يخاطبه النصُ الكريم، بل أشدها لصوقاً بمطلق خبرات الإنسان، فالجبال هي أشد الظواهر الطبيعية ثباتاً وشموخاً، والأرض أشدها تلاحماً وانبساطاً (وهما أي الجبال والأرض، أبرز الظواهر الحسيّة حجماً وشكلاً ووظيفة). وأما (تكليم الموتىٰ) فإنّ وظيفته ـ فنياً ـ تتمثل في دعم ما تقدّم بما هو مباشر، أي: أن الميت عندما يتكلّم، فإن كلامه يظل بمثابة تأييد لما هو صامت من ظواهر الكون مثل الجبال والأرض.

إذن، جاءت هذه الصورة منطوية علىٰ جملة من الأسرار الفنية التي أشرنا إليها، كما أنها جاءت (وهذا ما نستهدف تأكيده) موظفةً لإنارة الموضوع الرئيس الذي تحوم عليه فكرة السورة الكريمة، ونعني بها: أن أكثرية الناس لا يؤمنون بالحق الذي أنزله الله تعالى، حيث يكشف مثلُ هذا التوظيف الفني عن تلاحم أجزاء النص: بعضها مع الآخر، بالنحو الذي أوضحناه.

* * *

قال تعالى: ﴿مثلُ الجنةً التي وُعِد المتقون تجري من تحتها الأنهار أُكُلها دائمٌ وظلُّها تلك عقبى الذين اتقوا وعقبىٰ الكافرين النار والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أُنزل إليك ومِن الأحزاب من يُنكرُ بعضَهُ قل إنما أُمِرتُ أن أعبد الله ولا أشرك به إليه أدعو وإليه مـاب. . .﴾.

بهذا المقطع وما بعده، تنتهي سورة الرعد، حيث بدأت السورة بالمفهوم القائل: ﴿. . . الذي أُنزِل إليك من ربك الحقُ ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾. وحيث خُتمت بنفس المفهوم الذي يقول: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أُنزِل إليك ومن الأحزاب مَن ينكر بعضه. . .﴾. إن (ما أُنزِل علىٰ محمّد(ص)) هو الفكرة المشتركة التي تصبّ فيها موضوعاتُ السورة المختلفة، وهذا هو

المبنىٰ الهندسي لها. وإذا كانت بداية السورة تتحدث عن موقف المشركين من النزول المشار إليه، فإن وسَط السورة وخاتمتها تتحدث عن ذلك أيضاً، مع ملاحظة أن ختام السورة ربطت بين المؤمنين والمشركين ومَن يُشبههم من الاتجاهات المنحرفة يهوداً ونصارىٰ ومجوساً وسواهم مما سمّاهم النص القرآني بـ(الأحزاب) (ومِن الأحزاب من يُنكر بعضه).

والآن، خارجاً عن المبنىٰ الهندسي للنص، يعنينا متابعة الموضوعات المطروحة في ختام السورة وصلتها ـ من ثم ـ بالمبنىٰ الهندسي المذكور.

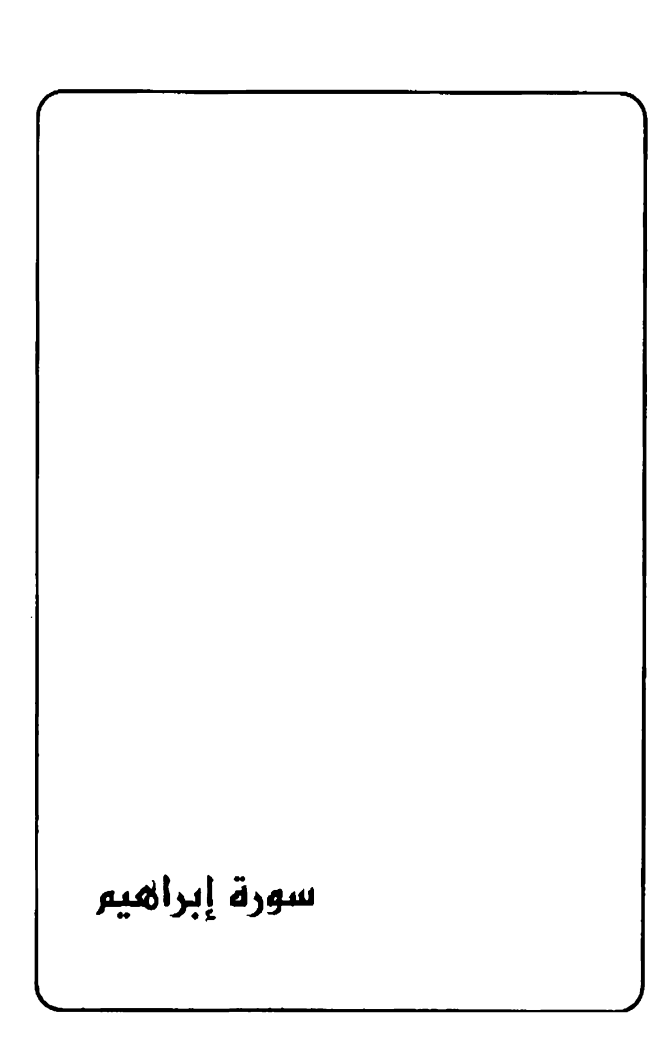
من جملة الموضوعات المطروحة، قوله تعالى: ﴿وما كان لرسولٍ أن يأتي بآية إلاّ بإذن الله لكلّ أجَلٍ كتاب يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أمّ الكتاب﴾. إن هذا الطرح يتضمن أفكاراً لها خطورتها في ميدان الحقائق الكونية من جانب، وانعكاساتها على السلوك العبادي من جانب آخر. لقد طُرِح موضوع إشارة الله تعالى وتخطيطه للمصائر الكونية والبشرية وغيرها تبعاً لمتطلّبات الحكمة، كما طُرِحَ الموضوع القائل (لكل أجلٍ كتاب) حيث طرح هذه الحقيقة ضمن حديثه عن اقتراح المشركين بنزول معجزة من السماء، واستعجالهم نزول العذاب أيضاً: سخريةً منهم. فالمُلاحَظ، أن النص انتقل من الخاص إلى العام، أي: انتقل من طرح موضوعات جزئية تتصل بسلوك الكفار في عصر النبيّ(ص) إلى موضوعات كليّة تتصل بالحقائق الكونية والعبادية. إن قوله تعالى (لكل أجل كتاب) حقيقة (عامة) تنسحب علىٰ حركة الكون جميعاً بدءً من ميلاد شخص وانتهاءً بفناء الكون.

وإذا كانت أهمية النص الفنيّ تتمثل ـ في أحد جوانبها ـ في كونها تربط بين الخاص والعام، فإن الربط الذي نلاحظه بين استعجال المنحرفين بنزول العذاب عليهم أو بنزول المعجزة، وبين الذهاب إلىٰ أن لكل شيء أجله، يظل تجسيداً واضحاً للسمة الفنية المشار إليها، بخاصة أن النص رَسَم هذه الحقيقة

(لكل أجلٍ كتاب) وفقَ ما نسمّيه في اللغة الأدبية بـ(الصورة الاستدلالية أو الحكمية)، فالكتابُ (رمزٌ) فنيّ للمبادىء أو القوانين الاجتماعية التي رسَمَها الله تعالى لحركة الكون، فبدلاً من أن يقول: «الكل حركةٍ بدايتها أو نهايتها» قال «لكل أجل كتاب» فَرمَز بـ(الكتاب) إلىٰ (التحديد الزمني) لهذه الحركة أو تلك.

والأمر نفسه فيما يتصل برسمه للحقيقة العامة الأخرىٰ وهي قوله تعالى ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾ حيث ترمز هذه الحقيقة العامة التي رسَمَها من خلال قضية جزئية هي: الاقتراح الذي صدر عن المنحرفين، ترمز إلىٰ حقيقة تقول: بأن لله تعالى تخطيطاً بالنسبة إلى إثبات هذه الحركة أو تلك أو مسحها: حسب متطلبات الحكمة، فرمزَ بـ(أمّ الكتاب) إلىٰ اللوح المحفوظ الذي يتضمن الخطط الكونية: كما هو واضح. والمهم ـ بعد ذلك ـ أنّ طَرْح هذه الحقائق العامة (ضمن حديثه عن القضايا الخاصة المتصلة بسلوك المشركين في عصر النبيّ(ص))، يفصح ـ كما هو بيّنٌ ـ عن الإحكام الهندسي للسورة الكريمة، من حيث تلاحم موضوعاتها، بالنحو الذي أوضحناه.

* * *



سورة إبراهيم

قال تعالى: ﴿الّر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربّهم إلى صراط العزيز الحميد * الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض وويل للكافرين من عذاب شديد * الذين يستحبّون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً أولئك في ضلال بعيد * وما أرسلنا من رسولٍ إلاّ بلسان قومه ليبيّن لهم فيُضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم﴾.

في هذه المقدّمة من السورة جملة من الدلالات الفكرية، منها: إن هدف رسالة الإسلام هو إخراج الناس من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ومنها: أنّ من الناس من لا يستجيب للرسالة الإسلامية إيثاراً لمتاع الحياة العابر. ومنها: أن هؤلاء المنحرفين لا يكتفون بمجرد الرفض لرسالة الإسلام بل يمنعون غيرهم من الإيمان بها، ومنها: أن أمثلة هؤلاء سوف يلحقهم عذاب متسم بالشدّة... أخيراً، أن كل رسول من رسل الله تعالى جاء برسالة السماء وفق لغة مجتمعه، وإلىٰ أن الله تعالى يهدي مَن يشاء من الناس ويضلّ من يشاء منهم وفق معرفته تعالى بطبيعة استعدادهم للاستجابة أو الرفض.

هذه المقدمة التي انتظمتها مجموعةُ الأفكار المشار إليها تبعتها مباشرةً أقصوصةٌ عن موسىٰ(ع) ومجتمعه ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أنْ أخرِجْ قومَكَ مِنَ الظُلماتِ إلىٰ النور وذكِّرْهُم بأيام الله إنَّ في ذلك لآياتٍ لكلِ صَبّارٍ شكور﴾.

لا نحتاج إلى أدنى تأمّل حتى ندرك على الفور أنّ بداية هذه الأقصوصة جاءت (من حيث عمارة النص) موظفةً لإنارة الأفكار المطروحة في مقدمة السورة، فها هو موسىٰ(ع) نموذج واحد من نماذج الرسل الذين جاءوا

برسالات السماء وفق لغة مجتمعاتهم، لكي يُخرجوا الناس من الظلمات إلى النور، ها هو موسىٰ يُطالب أيضاً بنفس المطالبة ﴿أخرج قومَك من الظلمات إلى النور﴾ بعد أن استُهلت السورة بخطاب لمحمد(ص) ﴿كتابٌ أنزَلْنَاهُ إليكَ لِتُخْرِجَ الناسَ مِنَ الظلماتِ إلى النور. . .﴾.

إذاً، إخراج الناس من الظلمات إلىٰ النور يجسّد قمة الدلالات المطروحة في السورة ما دامت مقدّمتها (الحديث عن رسالة الإسلام) ووسطها (التذكير برسالة موسىٰ(ع)) قد حامتا علىٰ هذا الجانب، كما لحظنا.

لكن، لنا أن نتساءل عن السرّ الفنيّ الكامن وراء الاستشهاد بأقصوصة موسىٰ دون غيره من الرسل.

لا نحتاج إلى أدنىٰ تأمّل أيضاً حتى ندرك أن قوم موسىٰ (وهم اليهود يظلّون من أشد المجتمعات إفساداً في الأرض وإلى أنهم أشدّ رفضاً من غيرهم لرسالة الله تعالى. . . نفهم ذلك، ليس من خلال معرفتنا فحسب بسلوك المجتمع اليهودي طوال التاريخ، بل من خلال الأقصوصة التي نتحدث عنها وذلك لسببٍ فنيّ يتصل بالهيكل الهندسي للسورة، بصفة أن الاستشهاد بالعنصر القصصي لا بد أن يكون موظفاً (من الزاوية الفنية) لإنارة السورة، كما قلنا.

ويمكننا معرفة المزيد من ذلك حين نتابع الآن محتويات الأقصوصة. تقول الأقصوصة بأن الله تعالى طالب موسىٰ(ع) بأن يذكّر قومه بأيام الله تعالى، والمقصود بـ(أيام الله) ـ وفقاً لما ورد عن المعصوم(ع) ـ (نِعَم الله تعالى).

نفهم ذلك أيضاً ليس من خلال التفسير الذي قدّمه الإمام الصادق(ع) قبالة نصوص تفسيرية أخرىٰ ـ بل من خلال الأقصوصة ذاتها أيضاً، وهذا بدوره واحدٌ من أشد الأسرار الفنية خطورة في بناء السورة القرآنية الكريمة، حيث تجيء الأجزاء اللاحقة من الأقصوصة لتفسّر لنا بطريقة فنية: المقصود

من عبارة (أيّام الله).

تقول الأقصوصة عبر نقلها للخطاب الذي وجّهه موسىٰ لقومه: **﴿وإذ قال موسىٰ لِقَومِه اذْكُرُوا نِعمة الله عليكم إذْ أنْجاكُم مِنَ آلِ فِرْعَونَ يَسُومونَكُم سُوءَ العَذاب وَيُذَبِّحُونَ أبناءكم ويَسْتَحْيُونَ نِساءَكم وفي ذلِكُم بلاءٌ مِنْ ربكُم عظيم﴾**.

إذاً، جاء التفسير الفني(لأيام الله) ضمن منطق الأقصوصة ذاتها، حيث لحظنا أن الله تعالى طالب موسىٰ بتذكير قومه بأيام الله، وحين خاطب موسىٰ قومَه بأن يذكروا نعمة الله عليهم، أدركنا أن المقصود من أيام الله هو نِعَم الله، وأن التذكير بإنقاذ مجتمع موسىٰ من آل فرعون الذين كانوا يذبّحون أبناء المجتمع المذكور ويستحيون نساءهم، إنما يعد واحداً من سلسلة النِعَم المشار إليها.

والواقع أن المنطق الفني لهذه الأقصوصة لا ينحصر إعجازها في البناء الهندسي المحكم لها، بل يتجاوز معطاها إلىٰ مستويات أخرىٰ، منها: وقوفنا علىٰ صحة التفسير الذي يقدمه أئمة التشريع(ع) مقابل التفسيرات المتفاوتة التي عرضتها نصوص أخرىٰ بالنسبة للمقصود من عبارة (أيام الله)... فالمتلقّي يهمه جداً أن يقف علىٰ التفسير الصحيح للعبارة المذكورة، وحين يواجه أكثر من نصٍ تفسيري في هذا الصدد، سوف يتّجه إلىٰ المعصوم(ع)، وبعد ذلك: حينما يقف (من الزاوية الفنية) علىٰ منطق الأقصوصة يجدها متوافقة تماماً مع التفسير الذي قدّمه المعصوم(ع) ممّا يعني أنّ واحداً من أسرار الفن العماري للسورة الكريمة أمكن أن نتبيّنه بوضوح، وأن تتجاوز ميدان(الفن) إلىٰ ميدان (العلم) أيضاً لنتبيّن صحة النصوص المفسّرة عبر مواجهتنا لنصوص متفاوتة في هذا الصدد.

ويُلاحظ أن هذا القسم من الأقصوصة قد ختمه النص بالمطالبة بالشكر

لله تعالى علىٰ النعم المذكورة، وإلى أن العذاب الشديد ـ في حالة الكفران بهذه النعم ـ سوف يلحق الكافرين: وهو أمرٌ طرحته مقدمة السورة حينما هددت الكافرين بعذاب شديد أيضاً، فيما جاءت صفة (العذاب الشديد) بصياغة واحدة في مقدمة السورة وأقصوصتها، مما يكشف ذلك عن بُعدٍ هندسي جديد في بناء السورة، مضافاً إلى ما لحظناه، وإلى ما نلحظه عبر متابعتنا للأجزاء اللاحقة من الأقصوصة.

* * *

قال تعالى: ﴿وقال موسىٰ ان تكفروا أنتم ومَن في الأرض جميعاً فإن الله لغنيّ حميد * ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلاّ الله جاءتهم رسلُهم بالبيّنات فردّوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أُرْسِلْتُم به وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب * قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السماوات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلىٰ أجل مسمّىً قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد اباؤنا فأتونا بسلطان مبين * قالت لَهُمْ رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يَمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطانٍ إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون * وما لَنا الاّ نَتوكل على الله وقد هدانا سُبلناولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون﴾.

يمكن القول، بأن هذا المقطع وما بعده من سورة إبراهيم، يمثّل شريحة قصصية تتعلق بأقصوصة موسىٰ مع قومه حيث لحظنا (في مقطع أسبق) أن موسىٰ طالب قومه بأن يذكروا نعمة الله عليهم إذ نجاهم الله من آل فرعون، كما لحظنا أن النص عقّب على ذلك بأنّ الآدميين إذا قدّروا نعم الله ليزيدنّهم وإلاّ فسيلحقهم العذاب.

والآن، يعود النص إلىٰ قصة موسىٰ عبْر منحىً فنيّ بالغ الجمال والدهشة

والأهمية: حيث نستكشف من خلال حوار موسى مع قومه، إنّ قومه (وهم اليهود) قد واجهوه بالكفران لنعم الله بدلاً من الشكر... هذه المواجهة لم تذكرها الأقصوصة بل أن جواب موسىٰ لقومه يُوحي بمثل هذه المواجهة التي أشرنا إليها.

لنقرأ من جديد: ﴿وقال موسىٰ ان تكفروا أنتم ومَن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد﴾.

المهم، أن تقديم المجتمع اليهودي: نموذجاً للكفران بنعم الله، يفسر لنا السرّ الفني الكامن وراء الاستشهاد بموسىٰ(ع) دون غيره من الرسل: خلال الربط بين رسالة الإسلام التي واجهت نموذجاً من المنحرفين في البدء وتذكير هذا النموذج بتجربة سابقة واجهها موسىٰ(ع) مع قومه، وهذا الاستشهاد بالقوم المذكورين يوضح لنا بجلاء أن المجتمع اليهودي هو أشد المجتمعات انحرافاً وكفراناً بنعم الله، وإلاّ كان الاستشهاد بغيرهم يفرض ضرورته الفنية لو كان هناك أي مجتمع منحرف يبلغ درجة الإنحراف عند اليهود.

والآن بعد أن يربط فنياً بين التجربة الجديدة لرسالة الإسلام وتجربة سابقة يبدأ بتفصيل ما أجملته أقصوصة موسىٰ(ع)، فيعرض لتجارب ثلاث بدأتها المجتمعات البشرية هي: قوم ونوح وعاد وثمود ﴿ألم يأتكم نبأ الذينَ من قبلِكم قومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ والذينَ من بعدهم﴾... والملاحظ هنا ـ من الزاوية الفنية ـ أن الاستشهاد بقصة موسىٰ تمثّل (كفران اليهود بنعم الله)، وأمّا الاستشهاد بقصص ما قبلهم فتمثّل نمط السلوك المنحرف العام للمجتمعات المذكورة حيث يذكر النص أن هذه المجتمعات ﴿فرَدُّوا أيدِيَهُم في أفواهِهِم وقالُوا إنّا كفَرْنَا بما أرْسِلتُم به﴾.

والسؤال هو: هل أن الاستشهاد بهؤلاء الأقوام (نوح، عاد، ثمود) جاء على لسان موسىٰ(ع) أم أنه خطابٌ جديد من الله حيال مجتمع محمد(ص)؟ إنّ

كلا من الاحتمالين له مسوغاته دون أدنىٰ شك، بيد أن ما يعنينا هو: طبيعة الخطوط الهندسية التي تحكم بناء السورة لملاحظة جماليتها وانعكاس هذه الجمالية علىٰ ما تنطوي عليه من دلالات فكرية يستهدفها النص.

في تصورنا أن هذا الكلام هو تعقيب من القرآن الكريم علىٰ أقصوصة موسىٰ: لأن الأجزاء اللاحقة من السورة توحي بهذا التصور: كما سنرىٰ، . . . والمهم بعد ذلك أن نشير ـ فنياً ـ إلى أن دور موسىٰ(ع) قد انتهىٰ عند مخاطبته لليهود بأن كفرانهم بالله تعالى لا يضر الله شيئاً بقدر ما يضرّ أنفسهم. وبعد تقرير هذه الحقيقة تقدم النص إلىٰ التذكير بمصائر قوم آخرين تجسّد نماذج من الكفران بنعم الله بعد أن أوحىٰ النص بأن اليهود هم قمة الكفران المذكور.

ويُلاحظ ـ من الجهة الفنية ـ أن التذكير بمصائر قوم نوح وعاد وثمود: إنما تمّ من خلال السلسلة الزمنية، حيث كان قوم نوح أول مجتمع يتعرض للجزاء الدنيوي، تبعه مجتمعا عاد وثمود. . . ثم مجتمعات أخرىٰ سكت النصُ عنها لانتفاء الحاجة.

ويلاحظ أيضاً من حيث عنصر (الصورة الفنية) وصلتها بعمارة النص، ان المقطع الذي نتحدث عنه ذكر بأن هذه المجتمعات (نوح، عاد، ثمود) واجهت رسلهم بنمطين من السلوك: نمط حركي هو (وضع اليد علىٰ الأفواه) ونمط لفظي هو: إقرارهم بالكفران والتشكيك برسالات السماء. . أما الوضع الحركي فيدلّ بوضوح على أن المنحرفين يجسّدون أشد الأشكال المَرَضية في السلوك، لأن وضع اليد على الفم سواء أكان ذلك يتمثل في العض على الأصابع تعبيراً عن الغيظ، أو إيماءً إلى الرسل بأن يسكتوا، أو غير ذلك، إنما يُعد مثل هذا السلوك أشد الأشكال بدائية، وبالفعل فإن بدائية المجتمعات المذكورة، بصفتها: النماذج البشرية الأولىٰ: لتتناسب فنياً مع الصورة التي أشرنا إليها، بمعنىٰ (أن وضع اليد علىٰ الفم) ـ وهو صورة فنية واقعية ـ

يتناسب مع عرض النص لأول المجتمعات التي تعرّضت للدمار وهي (قومِ نوحٍ وعادٍ وثمود)، بل يمكن القول ان الوضع الحركي المذكور قد يتسم به مجتمع نوح بخاصة، نظراً لما نلحظه في سورة قرآنية أخرىٰ نمطاً مَرَضياً مماثلاً من السلوك قد طبع القوم المذكورين، وهو وضع الثياب علىٰ الوجوه والأصابع في الآذان، كما أن الخطاب الذي وجهه نوح في سورة نوح إلىٰ قومه من أن الله يغفر ذنوب قومه ويؤخرهم إلى أجل مسمى في حالة تعديلهم للسلوك، هذا الخطاب يتكررُ الآن في هذه السورة (إبراهيم) حيث يقول النص ﴿أَفِي الله شَكٌّ فاطِرِ السّماواتِ والأرضِ يدعوكم لِيَغْفِرَ لكم مِنْ ذُنُوبِكُم ويُؤَخِّرَكُم إلىٰ أجلٍ مُسمًّى﴾.

المهم، أن الصورة الحركية المذكورة جاءت ـ كما قلنا ـ متجانسة فنياً مع بدائية هذه المجتمعات، كما جاءت متوافقة ـ عضوياً ـ مع قصة موسىٰ التي مهدت للحديث عن هذه المجتمعات، بالنحو الذي فصلنا الحديث عنه.

* * *

قال تعالى: ﴿قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن علىٰ من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلاّ بإذن الله وعلىٰ الله فليتوكّل المؤمنون * وما لنا الاّ نتوكّل علىٰ الله وقد هدانا سبُلَنا ولنصبرن علىٰ ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون * وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرِجنَّكم من أرضنا أو لتعودن في ملّتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين * ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد * واستفتحوا وخاب كلُّ جبار عنيد * من ورائه جهنم ويُسقىٰ من ماء صديد * يتجرّعه ولا يكاد يُسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميّت ومن ورائه عذاب غليظ * مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدّت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا علىٰ شيء ذلك هو الضلال البعيد * ألم تر أن الله خلق

السماوات والأرض بالحق إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد﴾.

هذا المقطع من سورة إبراهيم: امتدادٌ لمقطع سابق يتحدث عن رسل الله السابقين وطريقة تعامل مجتمعاتهم المنحرفة حيالهم.

لقد كانت المجتمعات المنحرفة تمارس سلوكاً شاذاً من نحو (وضع الأيدي في الأفواه) تعبيراً عن شدة بدائيتهم في التعامل المنحرف.

وفي مستوىٰ السلوك اللفظي كانوا يعبّرون عن نفس الذهنية البدائية في الإنحراف، فقد هددوا رسلهم بإخراجهم من مساكنهم وبلادهم ما لم يعودوا في ملّتهم ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِنْ أَرضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ في مِلَّتِنَا﴾ حيث خيّل إليهم أنّ القضية عائدة إلىٰ مجرد رغبة في التسلط عليهم وتغيير مواقفهم الوثنية دون أن يصلوا ذلك برسالة السماء وبالمهمة العبادية التي أوكلها الله إلى الآدميين، لذلك جابهوا رسلهم أولاً بالشك في صحة رسالاتهم ﴿وإنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إليهِ مُرِيب﴾ ثم اعترضوا عليهم بأنهم يصدونهم عن عبادة آبائهم، ثم طالبوهم بدليل. وبالرغم من أن رسلهم أجابتهم بكلام منطقي، إلا أنهم ـ بدلاً من الإذعان للحقيقة ـ هددوهم بالطرد من أرضهم.

وهنا ـ في غمرة عنادهم الذي تجاوز نطاق المعقول ـ جاءت اللطمة الحاسمة عليهم حينما أوحىٰ الله إلى الرسل بأنه تعالى سوف يهلكهم أجمعين، وإلى أنه تعالى سوف يورث الأرض لهؤلاء الرسل الذين هددهم المنحرفون بإخراجهم من الأرض.

طبيعياً، ينبغي ألاّ يغيب عن بالنا هذا التلاحم العضوي بين تهديد المنحرفين بأنهم سوف يخرجون الرسل من «أرضهم» وبين تلويح الله للرسل بأنه سوف يسكنهم «الأرض» بعد إهلاكه للمنحرفين، حيث يجيء هذا التثبيت «للأرض» مقابلاً للتهديد بالإخراج من الأرض، مما يكسب النص بُعداً جديداً من الإحكام العماري.

ويُلاحظ، أنه مضافاً إلى تلويح السماء بإهلاك المنحرفين دنيوياً لُوّح لهم أخروياً أيضاً، وهو تلويح بعذاب خاص يتناسب (من وجهة فنية) مع نمط عناد المنحرفين، فالمنحرفون ـ كما لحظنا ـ لم يكتفوا بمجرد عدم تقبل رسالات السماء، بل قرنوا ذلك بأنماط من السلوك البالغ في الالتواء: بدءً من وضع اليد في الأفواه، وانتهاءً بتهديد الرسل بإخراجهم من الأرض، لذلك جاء التلويح بالعذاب الأخروي متجانساً ـ في نمط شدته وألوانه ـ مع السلوك الملتوي المذكور، ولنقرأ ﴿مِنْ ورائِهِ جَهَنَّمُ ويُسْقَىٰ من ماءٍ صديدٍ يَتَجرَّعُهُ ولا يكادُ يُسيغُهُ ويَأْتِيهِ الموتُ مِنْ كُلِّ مكانٍ وما هُوَ بمَيِّت. . .﴾ فالملاحظ هنا، أن التلويح جاء متنوعاً من خلال (ماء صديد) ومن خلال الموت المتكرر الذي لا يتمّ قبل أن يتجدد. فأما (الصديد) فهو ـ وفق النصوص المفسرة ـ سيل من الدم والقيح، ففضلاً عن كراهة منظره يقترن بكراهة رائحته، ثم بكراهة طعمه، ثم بكراهة و. . . وأما الطرف الآخر من العذاب فهو: الإحساس بالموت دون وقوعه فعلاً ﴿ويأْتِيهِ الموتُ مِنْ كُلِ مكانٍ وما هو بمَيِّت﴾ ولا شيء أشدّ إيلاماً من الإحساس بالموت (من حيث شدة العذاب المشار إليه) ثم عدم تحققه بل تجدّده بين حين وآخر: حيث يشكّل هذا النمط من الجزاء أشدّ ما يمكن تصوّره في هذا الميدان.

أخيراً، ختم النصُ هذا المقطع بصورة فنية هي ﴿مَثَلُ الذينَ كَفَروا بِرَبِّهِمْ أَعْمالُهُمْ كرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ في يومٍ عاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا علىٰ شيء ذلِكَ هُو الضَّلالُ البَعِيد﴾.

إن هذه الصورة الفنية تُعدّ تتويجاً أو تلخيصاً لنتائج السلوك المنحرف الذي ينتظره العذاب بشكله الذي تقدم الحديث عنه. فالمنحرفون يمارسون أنماطاً مختلفة من السلوك تحقيقاً للإشباع العاجل، في حين أن هذا الاشباع الذي تعجلوه لا يعدو كونه (رماداً).

ولو كان شيئاً غير الرماد لهان الأمر، إلا أن الرماد نفسه لا يحمل أيّ شيء ذي إمتاع بل يقترن بالبشاعة وبالقَرَف. وحتىٰ ذلك لا يبقىٰ محتفظاً بديموميته بل يتناثر بنحوٍ لا يبقىٰ له أيّ أثر: تماماً مثل الرماد الذي تعصف به الريح الشديدة فتنثره بين طيّاتها، وهذا ـ كما عبر المقطع عنه ـ (هو الضلال البعيد). وفعلاً، لا ضلالَ أبعد من أن يُعنىٰ الإنسان بمتاع عابر تتمثل نتيجته في رماد تكتسحه الريح.

إن هذه الصورة الفنية بالرغم من كونها تبدو وكأنها متسمة بمنتهىٰ البساطةِ والوضوح، إلا أنها ـ في الآن ذاته ـ تظل عميقة كلّ العمق، معبّرة، حيّة تلخص تجربة الإنسان المنحرف عن مبادىء السماء، فضلاً عن أنها جاءت في سياق بناء السورة التي عرضت لنا قصتين عن المجتمعات البائدة، حيث وُظّفت هذه الصورة لإحكام البناء الهندسي للنص، وهو بناء تتجانس أبعاد مختلفة فيه، سواء ما كان يتصل منها بالعنصر القصصي (الذي وُظّف لتجلية دلالات السورة أو ما كان يتصل بالعنصر الصوري) الذي وظف لإنارة القصص، بالنحو الذي تقدم الحديث عنه.

* * *

قال تعالى: **﴿وبرزوا لله جميعاً فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنّا لكم تبعاً فهل أنتم مُغنون عنا من عذاب الله من شيء قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص * وقال الشيطان لما قُضي الأمر ان الله وَعَدكم وعدَ الحق وو عدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلاّ أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشـركتمونِ من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم﴾**.

هذا المقطع يجسّد أقصوصةً تتناول البيئةِ الأخروية التي يحياها

المنحرفون. فبعد أن تحدث مقطع سابق عن البيئة الأخروية المتمثلة في (الجحيم) من حيث الشدائد (الجسمية) التي يكابدها المنحرفون، يجيء هذا المقطع الذي نحن بصدده متناولاً الشدائدَ (النفسية) التي يكابدها المنحرفون. وهذا التقسيم للشدائد إلىٰ جسمي ونفسي ثم استقلال كل منهما في حقل قصصي: أحدهما يمثّل (الحدث) والآخر يمثّل (الموقف)، يظل (من حيث البناء العماري للسورة) أمراً له جماليته فنيّاً، كما أنه ـ فكرياً ـ يظل إفصاحاً عن مدىٰ حجم الشدائد التي سيكابدها المنحرفون عن مبادىء الله.

إن الشدائد النفسية التي عرضتها هذه الأقصوصة لا تقل فاعلية عن الشدائد الجسمية بخاصة أن الموقف الذي تعرضه الأقصوصة مقرون بظواهر الندم والعقاب الذاتي واللوم فيما لا فائدة البتة من أمثلة هذه المشاعر التي لا تغيِّر من الحدث المحدق بالمنحرفين شيئاً.

الأقصوصة تنقل لنا حواراً ثلاثياً بين فئات المنحرفين: ١ ـ فئة الاتباع ٢ ـ فئة المتبوعين ٣ ـ الشيطان.

ويُلاحظ أن الشدة النفسية لهذه الأطراف الثلاثة تتركز أكثر من سواها في فئة «الاتباع» بصفتهم: الفريق الأضعف دنيوياً من الطرفين الآخرين (المتبوعين، الشيطان)، فهناك كبير المنحرفين (الشيطان) وهناك كبار المسؤولين المنحرفين الذين وظّفهم الشيطان لتحقيق مهمّته الضالة، وهناك طبقات الضعفاء الذين ألغوا عقولهم وأسلموها لقادتهم. ونتيجة لهذا الإلغاء لعقولهم مع أنهم لم يفيدوا من متاع الحياة الدنيا ما أفاد منه: المتبوعون (الشيطان) تجيء مشاعر الندم واللوم والعقاب الذاتي شديدة الوقع في نفوسهم، كما تجيء المبادرة بالسؤال مِن قبلِهم حيث تنقل الأقصوصة مبادرتهم علىٰ النحو الآتي:

﴿فقَالَ الضُعَفاءُ للذين استكبروا:

إِنَّا كنّا لكم تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُم مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عذاب الله مِن شيء

قالوا:

لو هدانا الله لَهَدَيْنَاكُم سواءٌ علينا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا ما لنا من محيص﴾.

وما أن ينتهي هذا الحوار بين الضعفاء والمستكبرين، حتى يعرض المقطع لنا حواراً انفرادياً من قِبل الشيطان يوجهه فيما يبدو إلىٰ الطرفين كليهما، حيث يمكن أن نستخلص بأن المنحرفين (اتباعاً ومتبوعين) يوجهون نفس اللوم إليه، أو أن الشيطان نفسه يتبرع بإلقاء الكلام التالي عليهم:

﴿وقال الشيطانُ لما قُضِيَ الأَمْرُ:

إنَّ الله وَعَدكُم وَعْدَ الحق وَوَعدتكُم فاخلَفْتُكُم وما كانَ لي عليكُم مِنْ سُلطانٍ إلاّ أَنْ دَعَوْتُكُم فَٱسْتَجَبْتُمْ لي فلا تـلُومُونِ ولُومُوا أَنْفُسَكُم ما أَنَا بِمُصْرِخكُم وما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيّ إِنِّي كَفَرْتُ بِما أَشْرَكْتُمونِي مِنْ قَبْلُ﴾.

إن أدنى تأمل لهذا الحوار الانفرادي والحوار الثاني السابق يكشف لنا مستويات فنية وفكرية في غاية الخطورة، فالحوار الأول (وهو محاورة الضعفاء مع المستكبرين) يلخص تجربة الأتباع الذين ألغوا عقولهم، كما يلخص تجربة المتبوعين الذين يقررون حقيقة مهمة ذات طرفين، أولهما قولهم **﴿لو هدانا الله لهديناكم﴾** والآخر قولهم **﴿سواء علينا أَجَزِعْنا أَمْ صَبَرْنا مَا لَنا مِنْ مَحِيص﴾**.

هذه الحقائق التي نقلها الموقف القصصي المذكور كان من الممكن أن تتم من خلال (السرد) الذي يصف أعماق المنحرفين، إلا أن النص اتجه إلى (الحوار) الذي يحدث فعلاً بين الاتباع والمتبوعين حينئذ، لكي ينفعل المتلقّي بالموقف بنحو أشدّ عبر وقوفه مباشرة علىٰ حقيقة المشاعر المريرة التي يبرزها الموقف، فالحقيقة الفكرية التي يمكن أن يفيد المتلقي فها هو أن قضية الهداية مرتبطة بالله تعالى حيث نقلت مقدمة السورة بأن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وهي حقيقة عرضها المتبوعون لاتباعهم: تجسيداً للحقيقة التي خبرها

الاتباع في حياتهم الدنيا من خلال توصيلها إليهم من قِبل رُسل الله. كما أن الحقيقة الأخرىٰ القائلة بأنه لو جزع المنحرفون أو صبروا علىٰ العذاب، ففي الحالتين لا مناص من مواجهة العذاب، وهو أمرٌ لأشد كبراً منه حجماً على المنحرفين...

وأما الحوار الانفرادي من الشيطان، فإنه ـ يجسّد تجربة لا شدة من بعدها حينما يقرر عهدئذ جملة من الحقائق التي تمزّق اتباعه يقرر أولاً أنه وَعَد المنحرفين ووعدهم الله، فأخلف هو (أي الشيطان) ويقرر ثانياً بأنه لم يكن له عليهم سلطان بل هم الذين اتبعوه بمحض اختيارهم وإرادتهم، ويقرّر ثالثاً بأنه لا سبيل لأن يلوموه بل ليلوموا أنفسهم باتباعه، ويقرر رابعاً بأنه لا هو بمستطيع أن ينقذهم الآن ولا هم بمستطيعين أن ينقذوه، ويقرر خامساً بأنه قد كفر بعملية انقيادهم له.

إن تقرير هذه الحقائق ـ من قبل الشيطان نفسه ـ ليزيد من المرارة التي تعصف بالمنحرفين، مما يقتاد ذلك إلى أن يحاول المتلقي الإفادة من هذه التجربة في عملية تعديل السلوك ما دمنا نعرف بأن الغرض الذي يستهدفه القصص القرآني ليس حمل الكافر علىٰ أن يتجه إلى الإيمان فحسب، بل ـ وهذا هو المهم ـ حمل المتلقّي علىٰ تعديل سلوكه وعدم متابعة الشيطان في تزيينه بسلوك الغالبية من الآدميين، بالنحو الذي نحياه في سلوكنا اليومي، سائلين الله أن يعصمنا من ذلك.

* * *

قال تعالى: ﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيّبة كشجرة طيّبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تُؤتي أُكُلَها كل حين بإذن ربها، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون * ومَثَلُ كلمةٍ خبيثةٍ كشجرةٍ خبيثةٍ اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار﴾.

هذا المقطع وما بعده يتناول قضية(الإيمان) في أرفع صُعده، حيث اتجه النص القرآني إلى عنصر فنيّ هو(الصورة) التمثيلية، ليبلور دلالة الإيمان في مستوياته التي أشرنا إليها.

إن الصورة الفنية تأخذ أشكالاً مختلفة من التركيب، ومنها: الصورة التمثيلية التي تتركب من عدة صور تتداخل فيما بينها لتشكّل صورة استمرارية واحدة يطبعها (التمثيل)، وأهمية مثل هذه الصورة التمثيلية الفنية تتجسّد في كونها قد استهدفت تبيين منحنيات الإيمان المختلفة وليس مجرد الإيمان وهو أمرٌ يستتلي أن تأخذ الصورة الفنية طابعاً تفريعياً أو استمرارياً تتداخل الصور الجزئية من خلالها بنحو يتناسب ومستويات الإيمان الذي يأخذ تفريعات مختلفة بدوره.

لكن، قبل أن نتحدث عن هذه الصورة التمثيلية، ينبغي أن نتبيّن موقعها الهندسي من عمارة السورة ما دمنا ـ أساساً ـ نُعنى بدراسة السور من حيث بناؤها الهندسي وصلة أجزائها بعضاً بالآخر. لقد كانت السورة تتحدث عن المجتمعات المنحرفة التي كفرت بأنعم الله بعد أن استُهلت السورة بالحديث عن رسالات الله وإلى أنها جاءت لتخرج الناس من الظلمات إلى النور، كما أنها تحدثت عن كل من الظمات والنور وإلى أن الله يهدي إلى النور من يشاء أو يضله، تبعاً لما يختار الشخص بملء إرادته من السلوك الخير أو الشرّير.

هنا في الصورة التمثيلية المشار إليها، نجد أنها جاءت عقيب الحديث عن مصائر المنحرفين دنيوياً وأخروياً مقابل مصائر المؤمنين، حيث استثمر النص هذه المصائر ليصلها بقضية الإيمان أو عدمه حيث تترتب المصائر الإيجابية أو السلبية وفق الإيمان أو عدمه.

ليس هذا فحسب، بل أن الإيمان نفسه يجسد أكثر من صعيد أو درجة، فالمصائر البشرية لا تتجدد عند مجرد الإيمان وعدمه بل أن الإيمان نفسه من

الممكن أن تتخلله لحظات الضعف الإنساني بدرجات متفاوتة بحيث يترتب الجزاء السلبي علىٰ الإسلاميين أنفسهم في حالات السماح لشهواتهم بالتحرك.

الصورة التمثيلية المشار إليها، تقرر جانباً من هذه الحقيقة حينما تقدم قضية الإيمان بأنها مثل (شجرةٍ طيبةٍ أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أُكلها كُلَّ حين) ولا بد أن يتسم طابع هذا الإيمان بأرفع مستوياته: نظراً لأن الشجرة حينما تتجذر أصولها عميقاً ثم تتعالىٰ فروعها إلى السماء لا بدّ أن تنتج أفضل ما نتوقعه من الثمار، وهو أمرٌ وسمه النص بعبارة (شجرة طيّبة) تعبيراً عن النتاج المثمر الذي أشرنا إليه.

ولعل النصوص التفسيرية قد ألقت إنارة كاملة علىٰ هذا الجانب حينما أشارت إلى أن أهل البيت(ع) والسير على هداهم، يمثل تجسيداً كاملاً للشجر المذكور وثمره. وبالمقابل، فإنّ الإنحراف عن الخط المذكور، يتمثل بقوله تعالى ﴿**كشَجَرةٍ خبيثةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوقِ الأرضِ مالَها مِن قَرار...**﴾ بصفة أن الشجرة غير المعطاء فضلاً عن سمتها السلبية المذكورة، حينما تقطع جذورها عن الأرض: حينئذٍ تنتفي فاعليتها أساساً، وهو أمرٌ يشبه سلوك المنحرفين في انتفاء كل المعطيات عنه. وهنا ينبغي أن نتذكر صورة فنية أخرىٰ سبق أن وقفنا عليها في مقطع متقدم من السورة هي: تشبيه السلوك المنحرف بـ(الرماد) الذي تعصف به الريح، حيث جاءت هذه الصورة في سياق المصائر المترتبة علىٰ السلوك المنحرف بينما جاءت صورة الشجرة (الخبيثة) في سياق نفس السلوك المنحرف عن الله وعترته الطاهرين. والفارق بين الصورتين ينسحب علىٰ الفارق بين السلوك ونتائجه، فصورة (الرماد) ـ وهي تتحدث عن المصائر ـ تمثل ذهاب الأعمال التي صدرت عن المنحرفين هباءً منثوراً، وأمّا صورة (الشجرة الخبيثة) ـ وهي تتحدث عن السلوك المنحرف ذاته ـ فتمثل انتفاء أية فائدة ومعطىً فيه بغض النظر عن المصائر التي يُفضي إليها مثل هذا السلوك.

المهم، خارجاً عما تقدم، يعنينا أن نصل بين الصورتين التمثيليتين اللتين تحدثت أولاهما عن (الشجرة الطيبة) وعلاقتها بالكلمة الطيبة: (وهي الإيمان في أرفع درجاته)، وتحدثت أخراهما عن (الشجرة الخبيثة) وهي الإنحراف عن الله والمعصومين(ع)... أقول، يعنينا أن نصل بين تينك الصورتين وبين مفهومي (الظلمات) و(النور) اللذين استُهلت السورةُ الكريمة بهما، حيث أمكننا الآن أن نقف علىٰ الصلة العمارية بين كل من النور (وهو الشجرة الطيبة) والظلمات (وهي: الشجرة الخبيثة) حيث جاءت الصورتان تجسيداً فنياً لمفهومي النور والظلام، وحيث بدأت السورة الكريمة بالقول: بأن رسالة الإسلام جاءت لتخرج الناس من الظلمات إلىٰ النور، من الالتفاف حول شجرة خبيثة اجتُثت من فوق الأرض ما لها من قرار، إلى الالتفاف حول شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء.

إذاً، أمكننا ملاحظة مستويات التجانس بين أجزاء السورة، وبين مقدمتها التي أشارت إلى النور و الظلمات، ووسطها الذي أشار إلى ما هو (طيب) وما هو (خبيث) فضلاً عن أبعاد أخرىٰ من التجانس وقفنا عليها، كما سنقف علىٰ مستويات أخرىٰ من التجانس أيضاً في المقاطع اللاحقة من النص.

* * *

قال تعالى: ﴿يثبّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الاخرة، و يضلُّ الله الظالمين و يفعل الله ما يشاء * ألم تر إلى الذين بدّلوا نعمةالله كفراً وأحلّوا قومهم دار البوار * جهنم يصلونها وبئس القرار * وجعلوا لله أنداداً ليضلوا عن سبيله قل تمتّعوا فإن مصيركم إلى النار * قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال * الله الذي خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخّر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم

الأنهار* وسخّر لكم الشمس والقمر دائبين وسخّر لكم الليل والنهار * وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفّار﴾.

لقد أوضح هذا المقطعُ بكلمة حاسمةٍ جامعةٍ قضيّةَ (نِعَم الله تعالى) عبْر قولِه: ﴿**وإنْ تَعُدُّوا نعمةَ الله لا تُحصوها**﴾، وقبل أن يقرِّر المَقْطَعُ هذه الحقيقة قدّم جملةً مِنَ النِعَم منها: المطرُ، والنباتُ، والبِحارُ، والأنهارُ، والشمسُ، والقمرُ، وعقّب عَلىٰ هذه النِعَم بأنَّ الإنْسانَ (لَظلُوم كفّار).

وهذا يَعْني أنَّ الآدميين وقفُوا مِنَ النِعَم المذكورة موقِفَ الكُفْر بِها بَدَلاً مِنَ الإيمان.

هذا الموقِفُ حين نربطه بمجموعة الأفكار التي انتظمت سورة إبراهيم نجد (من حيث البناء الهندسي للسورة) بأنه يجسّد إنماءً عضوياً لها بحيث بدأت السورة بعرض قصصي عن موسىٰ(ع) ومجتمعه يتركز علىٰ قضية (النِعَم) أيضاً ﴿**وإذ قال موسىٰ لقومه اذكروا نعمة الله عليكم الخ**﴾ وخلال هذه الأقصوصة تحدث النص عن نتائج الشكر أو الكفران بالنعم (لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد).

إذاً: قضية النِعَم وتثمينها أو الكفران بها تظل البطانَة الفكرية للسورة... وإذا كانت أقصوصة موسى تتحدّث عن جانبٍ من النِعَم بالنسبة إلى قومه (وهي إنقاذهم من آل فرعون) حيث وقف الإسرائيليون من هذه النعم موقف الكفران الذي لا يضارعه أيّ كفران آخر، أقول: إذا كانت الأقصوصة المذكورة وما بعدها من الأقاصيص تتحدث عن النعم (في مظهرها السياسي والاجتماعي والفكري ونحوها)، فإن المقطع الذي نتحدث عنه، يتناول قضية النِعم في مطلق الثروات الطبيعية أو مصادر الحياة بعامة: ليتمّ الربط بين مختلف جوانب النعم التي شدّد النص علىٰ طرحها.

لكن من الملاحَظ أيضاً أن مقدمة السورة لم تكتفِ بطرح ظاهرة النِعم

فَحسب، بل تحدّثت عن ظاهرة أخرىٰ هي قوله تعالى ﴿فيضلّ الله من يشاء ويهدي من يشاء﴾...

إن هذه القضية لا تنفصم عن قضية (النعم) أيضاً بل ترتبط بها بخيوط فنيّة تصل أحدها بالآخر، لأنّ الكفران بالنعم سيترتّب عليه موقفٌ من الله تعالى هو سحب أحد أشكالها التي تحسم المصير النهائي للإنسان ألا وهو الإضلال أو الهداية حيث لحظنا أن مقدمة السورة أبرزت هذا الجانب بقولها ﴿فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء﴾ إن أهمية هذه المقولة: من الوضوح بمكان كبير، بمعنىٰ أن الإضلال هو نتيجة لسلوك الإنسان وليس موقفاً قبلياً، كما أن الهداية تحمل نفس الطابع.

من هنا نجد أن المقطع الذي نتحدث عنه: طرح هذا المفهوم (ليس بالنحو المباشر) بل بطريقة فنية غير مباشرة حينما صدّر المقطع بقوله تعالى ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ويضل الله الظالمين...﴾.

هذا التقرير للحقيقة المذكورة: شكّل (من الوجهة الهندسية لعمارة النص) إنماءً عضوياً لمفهوم الإضلال والهداية بنحوها الذي طرح في مقدمة السورة، حيث أوضح المقطعُ الآن دلالة ما كان يعنيه من هذين المفهومين وهي دلالة مهّد لها النص بمجموعة من الأقاصيص والمواقف التي تبيّن للمتلقّي كيفية استجابة البشر لقضية النِعم: كفراناً بها أو شكراً لها، حيث توجّها الآن (في المقطع الذي نتحدث عنه) بعبارة واضحة هي: أن الله تعالى يثبّت الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة (وهو الهداية ـ يهدي من يشاء) كما أنه يثبّتهم في البيئة التي تلي بيئة الحياة (وهي بيئة القبر) حيث أوضحت النصوص المفسرة بأن المقصود من قوله تعالى ﴿يثبّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا و في الآخرة﴾ المقصود من (الآخرة) هنا هو: بيئة (القبر) من حيث

السؤال المرحلي عن السلوك وانعكاسات ذلك: إيجاباً أو سلباً علىٰ البيئة الأخروية المفضية إلى الجنة أو النار. وهذا بالنسبة إلى المؤمنين.

أما بالنسبة إلىٰ المنحرفين (وهم الذين كفروا بِنَعم الله) فإن (الإضلال) هو الذي يَسِمُ مصائرهم في البيئتين المذكورتين **﴿يثبّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة و يضلّ الله الظالمين﴾**...

أخيراً، يُلاحظ أن المقطع الذي تحدثنا عن محتوياته وصلتها بهيكل السورة (ونعني بها قضية النعم وانعكاساتها المختلفة) قد تخلّله طرح لبعض مفردات السلوك العبادي مثل الصلاة والانفاق، **﴿قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم...﴾**.

ومن الواضح، أن طرح مثل هاتين الممارستين خلال نص يتحدث عن النعم وانعكاساتها إنما يعني (من زاوية البناء الهندسي للنص) أهميّة كل من الصلاة والانفاق في ممارسات الشخصية الإسلامية، وإلاّ فإن الإخلال بهما سوف ينعكس على المصير الأخروي للشخصية الإسلامية أيضاً بحيث يعرّضها للجزاء السلبي الذي هدّد المقطعُ: المنحرفين بملاقاته.

إذاً، أمكننا الآن أن نقف مفصلاً علىٰ البناء الهندسي لهذا المقطع، ثم صلته بهيكل السورة الكريمة التي وُظّفَ نثرُها القصصي وغيره لإنارة هذا الجانب (قضية النعم وانعكاساتها) فضلاً عما سوف نلحظه من المقاطع اللاحقة في النص، مما تكشف جميعاً عن مدىٰ التلاحم العضوي وإحكامه في النص القرآني الكريم.

* * *

قال تعالى: **﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام * ربّ انهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه منّي ومن عصاني فإنك غفور رحيم * ربنا اني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرعٍ عند بيتك**

المحرّم ربَّنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون * ربّنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن وما يخفىٰ علىٰ الله من شيء في الأرض ولا في السماء * الحمد لله الذي وهب لي علىٰ الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربي لسميع الدعاء * رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء * ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب﴾.

هـذا المقطـع مـن سـورة إبـراهيـم، يتضمّـن أقصـوصـةً عـن شخصيـة إبراهيم(ع) تتصل بالوظيفة العبادية في جملةٍ من مفرداتها، وفي مقدمتها قضيةُ توحيد الله تعالى، وهي قضيةُ ترتبط بفكرة السورة التي استُهلت بالحديثِ عن رسالة الإسلام ومعطياتها المتمثلةِ في إخراج الناسِ من الظلمات إلى النور، من ظلماتِ (الوثنية) إلى نُورِ (التوحيد).

وها هي قصةُ إبراهيم تُوظَّفُ فَنِياً لإنارةِ هذا الجانب، حيث بدأتْ بِتَحاوُر إبراهيمَ(ع) مَعَ الله تعالى: **﴿وإذ قال إبراهيم ربّ اجعل هذا البلد آمناً واجْنُبْني وبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأصنام * ربِّ إنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كثيراً مِنَ الناس...﴾.**

فالملاحظ هنا أن هذه المحاورة تتناول جانباً من سلوك المجتمع البشريّ القائم علىٰ عبادةِ الأوثان التي أَضلَّتْ كما عبّر بذلك إبراهيمُ ـ كثيراً من الناسِ، داعياً إلى الله تعالى أَنْ يَجْنُبَهُ وبنِيْهِ هذا النمط المنحرف من السلوك.

و معلومٌ، أن إخراج الناس من الظلمات إلى النور الذي استُهِلّت السورةُ به إنّما تُجسِّدُهُ هذِه الأقصوصة التي أوضحت علىٰ لسان إبراهيم أن مجتمعه البشريَّ يَحيا في الضلالِ المتمثّلِ في عبادةِ الأصنام. وهذا يعني ـ من حيثُ البناءُ الهندسي للسورة أنَّ أقصوصةَ إبراهيم قد وُظِّفَتْ ـ كما أشرنا ـ لإنارة أفكارِ السورة.

ويلاحظ أيْضاً أنَّ السورةَ تَناولَتْ جانباً آخر من الموضوعِ المتصلِ بفكرةِ إخراج الناسِ من الظلماتِ إلى النورِ هو شُكْرُ النِّعَم التي أغدقها الله تعالى علىٰ

الآدميين: حيث تكفلت قصة أخرىٰ سبق أن وقفنا عليها هي: قصة موسىٰ (ع) بتناول هذا الجانب ﴿ولَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسىٰ بآياتِنا أنْ أَخْرِجْ قومَكَ مِنَ الظلماتِ إلى النورِ وذكِّرْهُم بأيَّامِ الله...﴾ حيث كان التذكير بأيام الله تعالى هو: معطياته المشار إليها...

إذاً، للمرة الأخرىٰ ينبغي أن نتنبه علىٰ مدىٰ الإحكام العماري للسورة من حيث توظيف العنصر القصصي لإنارة أفكارها.

والآن حين نعود إلى قصة إبراهيم، نجد أنها ـ مضافاً لمهمتها الفنية المتقدمة ـ طرحت جملة من الأفكار التي استهدفتها السورة في سياق الفكرة العامة لها.

أول هذه الأفكار يتمثّل في الإشارة إلى مكة المكرمة حيث ترتبط هذه البقعة بشخصية إبراهيم التي أقامت قواعد البيت، وحيث تُعدّ ـ من الوجهة الفنية ـ (رمزاً) لمفهوم (التوحيد) الذي عالجته أقصوصة إبراهيم، وذلك عبْر مطالبته(ع) بأن يجنّب الله قومه من عبادة الأصنام، وأن يسكن ذريته في الحَرَم المبارك ﴿ربَّنَا إنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بوادٍ غير ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ المُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصلاةَ فاْجْعَلْ أفئدةً مِنَ الناسِ تَهْوِي إليهِم وأرْزُقْهُم مِنَ الثمراتِ لَعَلَّهُم يَشْكُرُون﴾. إن الإشارة إلى (الشكر) عبر قول إبراهيم (لعلهم يشكرون) تتضمّن الدوران حول نفس الفكرة التي حامت عليها قصة موسىٰ(ع)، وحول نفس الفكرة التي حامت عليها مقدمة السورة أيضاً ﴿وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم﴾.

إذاً، للمرة الجديدة أيضاً، أمكننا أن نلحظ مدىٰ تواشج وترابط وتلاحم القصص والموضوعات فيما بينها حيث تتداخل أفكار السورة بعضاً مع الآخر وفق هذا الإحكام الهندسي الجميل.

أخيراً، خُتِمت أقصوصة إبراهيم(ع) بالحمد لله تعالى علىٰ بعضٍ من نعمه

متمثلةً فيما وهبه الله لإبراهيم كلاً من إسماعيل وإسحاق، وبالدعاء إلى الله أن يجعله وذرّيته مقيمي الصلاة، وأن يغفر له ولوالديه وللمؤمنين يوم يقوم الحساب.

هذه الخاتمة ـ كما هو واضح ـ ترتبط أيضاً بأفكار السورة المتصلة بـ(الشكر) لله تعالى، وبقضية «الإيمان» وبطرح أهم مفرداته (إقامة الصلاة) وبأهم نتائجه (غفران الذنوب)، وهي موضوعات سوف تلقي بأضوائها على الجزء اللاحق من السورة، بالنحو الذي سنقف عليه لاحقاً إن شاء الله.

* * *

قال تعالى: **﴿ولا تحسبنَّ الله غافِلاً عما يَعْمَلُ الظالمون إنَّما يؤخِّرُهُم ليوم تَشْخَصُ فيهِ الأبصار * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُوسِهِم لايَرْتَدُّ إلَيْهِمْ طَرْفُهم وأَفْئِدَتُهُم هواء﴾**.

بهذا المقطع وما بعده تُختتم سورة إبراهيم التي بدأت بالحديث عن رسالة الإسلام وإلى أنها تستهدف إخراج الناس من الظلمات إلى النور،... ثم عرّجت على المجتمعات البشرية التي وقفت موقفاً منحرفاً عن رسالات السماء، وعرضت للجزاء الذي سيلحقهم يوم الحساب.

هنا في القسم الأخير من السورة يعرض النص ليوم الحساب أيضاً، إلا أنّ ما يعرضه هنا يختلف تماماً عما عرضه في موقع سابق من السورة حيث كان العرض هناك يتصل بسياق خاص هو: تبعية الناس لرؤسائهم وتبعية الجميع للشيطان حيث يبدأ التابعون باللوم على رؤسائهم الذين أضلوهم، وحيث يتبرأ المتبوعون من سلوك أتباعهم، وحيث يتبرأ الشيطان من سلوك الجميع تابعين ومتبوعين...

أما هنا ـ في القسم الأخير من السورة ـ فإن عملية الحساب في اليوم الآخر تأخذ شكلاً آخر من الموقف.

هذا الموقف يتمثّل في ردود فعل ذات طابع حركي من جانب، وذات طابع عام يتناسب مع ختام السورة الذي يستهدف خلاصة ما طرحته مقدمتها ووسطها.

أما الطابع الحركي للشخوص في يوم الحساب، فيتمثل في:

١ ـ فتح الأعين متجهة إلىٰ ملاحظة هول الموقف (تشخص فيه الأبصار).

٢ ـ الإسراع أو استمرارية النظر إلىٰ نتائج الموقف.

٣ ـ رفع الرؤوس أو خفضها (مهطعين، مقنعي رؤوسهم) بصفة أن (رفعها) مفصح عن الاستجابة المرعبة لنتائج الموقف، أو بصفة أن (خفضها) مفصح عن الخجل.

٤ ـ انخلاع القلوب (وأفئدتهم هواء) وهو ناجم من شدة الهول الذي يواجههم.

إن هذه الطوابع الحركية تفصح عن طبيعة الأعماق كما هو واضح. وأهميتها الفنية تتمثل في تعميق الدلالة التي يستهدفها النص، بصفة: أنَّ عرض ما هو حسّي أشد إثارة في الإفصاح عما تنطوي عليه الأعماق في مكابدة الهول، فضلاً عن أن تنويع الظواهر الحسية من حيث حركة العيون، والرؤوس، تساهم في فرز مستويات الهول الذي يكابده الناس في الموقف المذكور...

ويُلاحَظ أن النص أنهىٰ رسم هذه الحركات العضوية برسمٍ داخلي للأفئدة حتىٰ يتوازن فنياً رسمُ الخارج مع رسم الداخل، رسم الحركات الخارجية في تعبيرها عن شدة التمزق الداخلي للشخوص. ولعل التعبير الصُوري ،أي: رسْم التمزق الداخلي للشخوص من خلال اللجوء إلى

عنصر(الصورة الفنية) وهي صورة (وأفئدَتُهُم هواء) لعل هذا التعبير الصوري يظل تتويجاً فنياً لهذا التوازن بين المظهر الحسي والداخلي: لأنّ اللجوء إلى عنصر (الصورة) بدلاً من التقرير أو الكلام المباشر، يظل أشد إثارةً للدلالة التي يستهدفها النص.

إن صورة (وأفئدتهم هواء) تترشح عنها جملة من الإيحاءات الفنية المختلفة التي يستجيب لها كلُّ متلقٍ حسب خبراته في الحياة... ولذلك نجد أن النصوص المفسرة تتنوع بدورها في تحديد الدلالة التي ترشح بها الصورة المتقدمة، حيث استخلص البعض منها بأن المقصود من صورة (وأفئدتهم هواء): خلو الأفئدة من كل شيء إلاّ من الفزع، واستخلص بعض ثان: بأنها خالية من السرور، واستخلص ثالثٌ بأنها زائلة عن مواقعها قد ارتفعت إلىٰ حلوقهم، واستخلص رابع أنّها خالية من التوازن العقلي الخ.

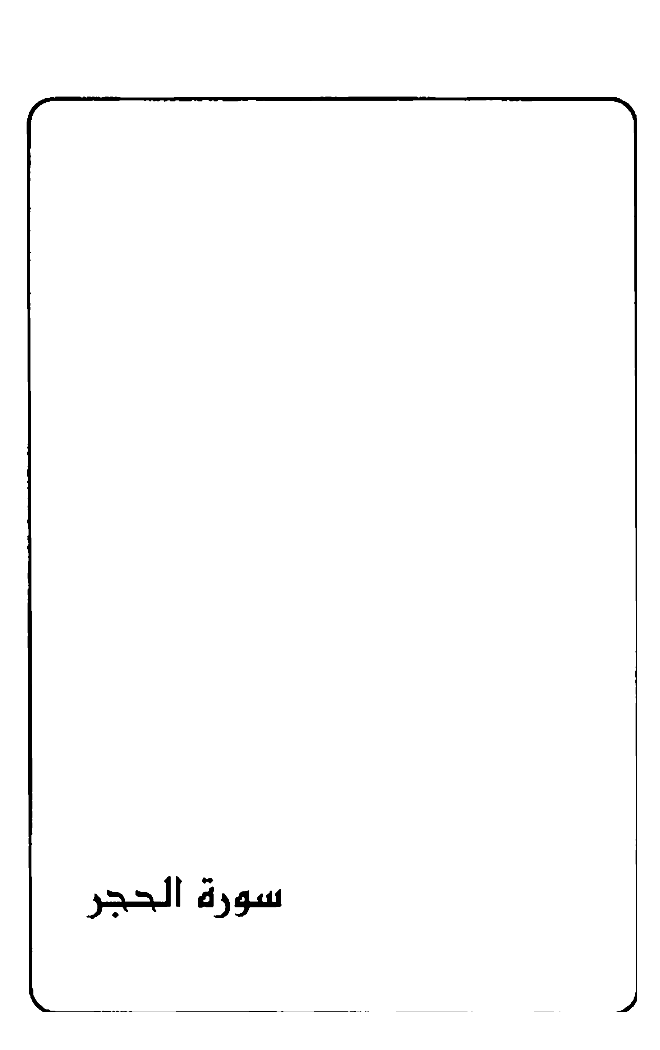
المهم، أن هذه الاستخلاصات جميعاً تظل موضع تقبّل دون أدنىٰ شك، ما دام الفن المعجز يتسم بكونه مرشحاً لأن تتنوع إيحاءاته حتىٰ يمكن أن يحقق الإثارة المطلوبة عند مختلف طبقات القرّاء للنص... وهذا ما حققته الصورة الفنية المُشار إليها.

بعد ذلك، يتجه النص إلى تحديد ردود الفعل حيال هذا الهول الذي جسدته الصورة الفنية المذكورة، حيث يعرض لنا محاورتهم التالية:

﴿ربنا أَخِّرْنا إلىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُل﴾ إلا أن النص يردّهم قائلاً: ﴿ أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال ﴾ ثم يعقّب علىٰ سلوكهم المنحرف، وعدم فاعليته أساساً: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُم وعِنْدَ الله مَكْرهُمْ وإِنْ كانَ مكْرُهُم لتزُول مِنْهُ الجِبال﴾.

ثم: ختم السورة بالعود ثالثة إلىٰ اليوم الآخر حيث عرض صوراً فنية جديدة تتصل بالجزاء الذي سيترتب علىٰ المنحرفين، بعد أن كان الحديث

سابقاً يتصل بهول الموقف، أما الآن فيتصل بنتائج الموقف (وترىٰ المجرمين يومئذٍ مقرّنين في الأصفاد سرابيلهم من قطرانٍ وتغشىٰ وجوههم النار. . . الخ) حيث تعبّر هذه الصور عن التجانس بين (مكر) المنحرفين وبين الجزاء المترتب علىٰ الإنحراف المذكور، وحيث تظل طبيعة شدّ الأيدي إلى الأعناق (وهو مفصح عن شدة الذل) مع ألبستهم التي تمزج فيها القطران مع النار، ولفحها لأوجههم، تظل هذه جميعاً متجانسة مع حجم انحرافاتهم، بالنحو الذي تقدم الحديث عنه.



سورة الحجر

هندسياً، توزّع هذه السورة في جملة من الأقسام على النحو الآتي:

١ ـ القسم الأول: يتحدث عن سلوك المعاصرين لرسالة الإسلام من حيث انحرافاتهم.

٢ ـ القسم الثاني: يتحدث عن إبداع الظواهر الكونية.

٣ ـ القسم الثالث: يتحدث عن قصة إبليس.

٤ ـ القسم الرابع: يتضمن عرضاً لأربع قصص هي: قصة إبراهيم، قصة لوط، قصة أصحاب الأيكة، قصة أصحاب الحجر.

القسم الأخير: يتحدّث عن الأسلوب التبليغي لرسالة الإسلام. طبيعياً، إن هذه الأقسام تترابط فيما بينها عضوياً على نحوٍ ممتعٍ ومُحكَم.

من حيث البناء العام: تترابط المقدّمة والختام (أي القسم الأول والأخير) فيما بينهما، حيث يظل الحديث عن (المنحرفين المعاصرين لرسالة الإسلام) هو العنصر الرابط بين بداية السورة ونهايتها، فبداية السورة تتحدث عن (أسلوب المنحرفين)، وأما نهايتها فتتحدث عن (أسلوب) المواجهة لهؤلاء المنحرفين.

وأما الأقسام الثلاثة (٢، ٣، ٤) فبالرغم من أنها تتوزع في موضوعات مختلفة (الظواهر الإبداعية، قصة إبليس، قصص الماضين) إلا أنها جميعاً ترتبط بخيوطٍ مشتركة تتشابك بعضها مع الآخر من جانبٍ، وتتشابك هذه جميعاً مع مقدمة السورة ونهايتها من جانبٍ آخر، مما يجعل الأقسام كلّها تخضع لبناء عماريٍ محكمٍ وممتعٍ على نحو ما نبدأ بتوضيحه الآن.

* * *

القسم الأول:

لقد بدأ القسم الأول من السورة بالحديث عن سلوك المنحرفين المعاصرين لرسالة الإسلام، إلا أن هذه البداية قد استُهلت ـ زمنياً ـ من سلوكهم في اليوم الآخر، ثم ارتدّ الحديث عنهم إلىٰ سلوكهم الدنيوي، فالسورة قد استهلت بهذا النحو: **﴿ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾**. ومعنىٰ هذا، أنّ الحديث في هذا القسم من السورة إنما ينصبّ علىٰ الكافرين، ما دامت السورة قد استهلت الحديث عن ردود الفعل التي يصدر الكافرون عنها في اليوم الآخر، وما دامت هذه الردود من الفعل، نتيجة منطقية لما صدر عنهم من السلوك في الحياة الدنيا... من هنا يمكننا أن نتبيّن الأهمية الفنية لمثل هذا الإستهلال وطريقة الصياغة (الزمنية) له، حيث نعرف تماماً بأن النص عندما يبدأ من (نهاية الموقف ـ وهو ردود الفعل في اليوم الآخر) ويرتدّ إلىٰ (بداية الموقف ـ وهو سلوك المنحرفين دنيوياً) إنما يستهدف من ذلك جملة دلالات، وفي مقدمتها: التأكيد علىٰ أهمية (اليوم الآخر) وما يترتب عليه من الجزاء... وبالفعل، سنجد أن هذا المفهوم (أي: أهمية اليوم الآخر وجزاءاته) ينعكس علىٰ غالبية الأقسام من السورة الكريمة. ففي القسم الثاني من السورة (وهو الخاص بالظواهر الإبداعية) يختم النصُ الحديث عن ظواهر السماء والأرض والنجوم والجبال والمعائش والرياح والإماتة والإحياء، يختمها بقوله تعالى **﴿وإن ربك هو يحشرهم انه حكيم عليم﴾** حيث استثمر النص الحديث عن الإماتة والإحياء ليربط ذلك بالحديث عن اليوم الآخر (وهو: الحشر) كما أن القسم الثالث الذي يتحدث عن إبليس قد استثمره النص، ليحدثنا عن الجنة وعن جهنم في اليوم الآخر من خلال اتّباع الناس أو عدم اتباعهم لإبليس.

إذن، جاء الاستهلال بالحديث عن ردود الفعل لدىٰ الكافرين في اليوم

الآخر، يحمل مهمة عضوية هي انعكاساته علىٰ هيكل النص في أقسامه الأخرىٰ.

وهذا من حيث الجزاءات الأخروية.

أما من حيث الجزاءات الدنيوية، فقد جاء الحديث عن هلاك الماضين منعكساً بدوره علىٰ أكثر من أقسام السورة بخاصة القسم الثالث الخاص بقصص الماضين، حيث نجد أن النص في القسم الأول من السورة بعد أن انتهىٰ من حديثه عن ردود الفعل الأخروية، أردفه بقوله **﴿ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون * وما أهلكنا من قرية إلاّ ولها كتاب معلوم﴾**، وبالفعل سنجد ـ في القسم الثالث من السورة ـ أن هلاك قوم لوطٍ والأيكة والحجر هو الحَدَث المنعكس الذي يربط بين قسمي السورة (الأول والثالث).

وأمّا الموضوعات التي عرَضَها النص في القسم الأول من السورة فتتمثّل في عرض جوانب من سلوك المنحرفين والتعقيب عليها وذلك مثل اتّهامهم صاحب الرسالة بالجنون، ومطالبتهم بإنزال الملائكة بدلاً من البشر، حيث عقّب النصُّ علىٰ ذلك بأن الماضين أيضاً كانوا يستهزءون برسلهم، وأن المنحرفين حتى لو أنزلت عليهم الملائكة وفُتِحت لهم أبواب السماء للمشاهدة الحسية فإنهم سيقولون بأن هذه المشاهدة (سحر).

* * *

القسم الثاني:

قلنا: إن هذا القسم خاص بعرض الظواهر الإبداعية من سماء ونجوم وأرض وجبال ونبات ومطر وإنس وجان... ولا شك، أن عرض مثل هذه الظواهر يتم وفق سياقات متنوعة، تستهدف لفت النظر إلى حقائق تصبّ في طرح المفهومات الخاصة بقدرة الله تعالى وبكونها لصالح الإنسان، وبضرورة الشكر عليها، مضافاً إلىٰ كونها ترتبط عضوياً بمحتويات السورة الكريمة في

أقسامها الأخرىٰ، فمثلاً نجد أن النص قد تحدث عن السماء والكواكب قائلاً **﴿ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيّناها للناظرين * وحفظناها من كل شيطانٍ رجيم * إلاّ من استرق السمع فاتبعه شهاب مبين﴾**. ففي عرض هذه الظاهرة الإبداعية (السماء والكواكب) نلحظ إشارةً إلىٰ «الشياطين» التي تسترق السمع وإفشال محاولاتها من قِبَل الله تعالى، حيث أن الإشارة إلى الشياطين تعد تمهيداً للقسم الثالث عن السورة الخاص بإبليس. كذلك نجد أن القسم الأخير من هذا الحقل الخاص بالظواهر الإبداعية قد خُتِم بقوله تعالى **﴿ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإٍ مسنون * والجان خلقناه من قبل من نار السموم﴾** حيث يعدّ هذا الختام (تمهيداً) للقسم الثالث الخاص بإبليس وموقفه من السجود لآدم. إذن، الإشارة إلىٰ خلق السماء والكواكب والإنسان والجان جاءت بمثابة خطوط فكرية ترتبط بما يُطرَح من الموضوعات في القسم الثالث من السورة، مما يكشف مثل هذا الطرح عن مدىٰ إحكام العمارة الفنية للسورة الكريمة.

* * *

القسم الثالث:

هذا القسم ـ كما كرّرنا ـ خاص بتجربة إبليس وموقفه من السجود لآدم، حيث مهّد القسم الثاني من السورة لهذه الموضوعات الخاصة بإبليس... وكما أن القسم الثاني من السورة قد عكس موضوعاته علىٰ القسم الثالث، كذلك فإن القسم الثالث من السورة يعكس موضوعاته علىٰ القسم اللاحق منها، فضلاً عن ارتباطه بالأقسام السابقة عليه، حيث أن إضلال إبليس أو عدم إضلاله يظل مرتبطاً بالحديث عن الجزاءات الإيجابية والسلبية في (اليوم الآخر) فيما لحظنا كيف أن استهلال هذه السورة بالحديث عن ردود فعل المنحرفين **﴿ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾** إنما استهدف التأكيد علىٰ

أهمية اليوم الآخر وما يترتب عليه من الجزاءات، وهو أمر قد أكّده النص مباشرة حينما لوّح للفريقين (المؤمن والكافر) بمصائرهما إلى الجنة والنار (إن جهنم لموعدهم أجمعين. . . إلخ. إن المتقين في جنات وعيون. . . الخ).

ويُلاحظ أن النص قد خَتَم هذا القسم من السورةَ بقوله تعالى: ﴿نبّئ عبادي انّي أنا الغفور الرحيم * وأن عذابي هو العذاب الأليم﴾ إن هذا الإنباء بكل من الرحمة والعذاب (الجنة والنار) قد جسّد ـ مضافاً إلىٰ العلاقة العضوية بين تجربة إبليس وانعكاساتها على اليوم الآخر ـ جسّد (تمهيداً) فنياً للقسم اللاحق من السورة، حيث استُهِل هذا القسم بصياغة فنية مشتركة بين ختام القسم الثالث وبداية القسم الرابع من خلال عبارة (نبّيء). فقد طالب النصُ محمداً(ص) بأن ينبّيء عباد الله بأنه الغفور الرحيم، وطالبه بأن ينبّئهم بأن عذابه هو العذاب الأليم، ثم طالبه في القسم الرابع بأن ينبّيء عباده بقصة إبراهيم(ع) وبسائر القصص الثلاث التي تكفّل القسم الرابع من السورة بطرحها، حيث شكّل هذا (الإنباء) محطة توقفٍ تربط بين القسمين الثالث والرابع من السورة الكريمة.

القسم الرابع:

هذا القسم ـ كما اتّضح تماماً ـ خاص بالعنصر القصصي فيما أوضحنا ارتباطه العضوي بالقسم الثالث (وبالقسم الأول أيضاً)، وحيث يحسن بنا الآن أن نعرض لصياغته الفنية، من حيث العمارة العامة لقصصه وما طَرَحه من الموضوعات.

يتضمن هذا القسم أربع قصص هي: إبراهيم، لوط، أصحاب الأيكة، أصحاب الحجر. ونقف مع القصتين الأوليين أولاً:

إن قصة إبراهيم وقصة لوط، يمكن جعلهما قصتين مستقلتين، كما يمكن جعلهما قصة واحدة متداخلة، كما هو طابع البعض من قصص القرآن

الكريم وسنوضّح المسوّغ الفنّي لتداخل هاتين القصتين، بعد أن ننتهي من الحديث عن القصة الأولىٰ: قصة إبراهيم(ع).

إن قصة إبراهيم تتلخص في مواجهته ـ فجأة ـ ضيوفاً من الملائكة، قد أنكرهم بادىء الأمر ولم يتعرّف هويتهم حتىٰ أنه توجس منهم خوفاً، إلا أنهم أخبروه بمهمتهم المزدوجة، وهي: أنهم بشّروه أوّلاً بأنه سيولد له غلام عليم، وأخبروه ثانياً ـ عندما سألهم عن مهمتهم ـ بأنهم مُرسلون لإبادة قوم لوط... والسؤال هو: كيف تمت صياغة هذه القصة من حيث البناء العماري لها؟ ثم: لماذا تداخلت مع قصة أخرىٰ هي قصة لوط؟.

من حيث البناء، فإن القصة سلكت منحىً قائماً علىٰ عنصر التشويق والمماطلة والمفاجأة بما يواكب ذلك من الضبابية الممتعة التي تجعل المتلقّي ـ من جانب ـ يتطلّع إلى معرفة ما يحدث، وتفسير ما حدَثَ من جانب آخر. فالقصة تبدأ بعرضٍ مضبّب هو: دخول الضيوف علىٰ إبراهيم(ع)، ويزداد العرض ضبابيةً حينما يتدخل عنصر الحوار بين إبراهيم وضيوفه، حيث يزيد الحوار الموقف ضبابيةً عندما يجد المتلقي أن إبراهيم قد توجّس خيفةً من ضيوفه، إذ المفروض أن يكون مجيء الضيوف مقروناً بترحيب إبراهيم وليس بتوجسه... ثم يتدخّل عنصر المفاجأة ليكشف جزءً من الغموض الذي لفّ الموقف وهو تقديمهم البشرىٰ بغلام عليم، حيث يكتشف القارىء ـ من جانب ـ بأن الضيوف هم من (الملائكة) وليسوا بشراً، وحين يكتشف ـ من جانب آخر ـ حدثاً إعجازياً هو: الإنجاب في مرحلة الكبر، ثم تُطوىٰ هذه الأقصوصة ليواجه المتلقي أقصوصة أخرىٰ (يُفاجأ) بها، ألا وهي إخبارهم إبراهيم(ع) بمهمة رئيسة هي إرسالهم لإبادة قوم لوط. وهنا يبدأ ـ من جديد ـ عنصر التشويق والمماطلة والمفاجأة في رسم وقائع القصة الجديدة قصة لوط... إنه أولاً يعرف علىٰ نحو الإجمال بأن هؤلاء الملائكة مرسلون إلى

قوم مجرمين، وأنهم يستهدفون إبادتهم، وإن آل لوط مستثنون من هذا الجزاء، وأن امرأته فحسب سيطالها الجزاء المذكور، إلاّ أنه ـ أي المتلقي ـ لا يزال يجهل سبب ذلك.

هنا تبدأ الأقصوصة بكشف الأسباب علىٰ نحو من التدرّج الفنّي الذي يفجّر الإثارة والدهشة والامتاع فيما يبلغ مداه الضخم عندما تتوالىٰ المواقف والأحداث في الكشف عن الحقائق تدريجاً... فالملائكة جاءوا لوطاً(ع) بنفس الملامح التي جاءوا بها إبراهيم(ع) أي: سمة (الضيوف) المجهولين من جانبٍ، وإنكار لوط لمجيئهم من جانب آخر. كما أن كشف الحقائق يأخذ نفس الطريقة ـ في الأقصوصة السابقة ـ من حيث المماطلة والتشويق، فالمتلقي يعرف علىٰ نحو الإجمال بأن الملائكة جاءوا بمهمة جزائية هي إنزال العذاب علىٰ مجتمع لوط، ويعرف خلال ذلك بأن عائلة لوط مطالبة بمغادرة المدينة ليلاً، وأن العذاب نازل عليهم ـ أي مجتمع لوط ـ صباحاً... ولكنه ـ أي المتلقي ـ يجهل سبب الجزاء ونمطه... ثم تبدأ الأحداث بالانكشاف تدريجاً، حيث تنقل له القصة وقائع ما حدث بين لوط ومجتمعه في اليوم التالي لمجيء الأضياف الملائكيين (وجاء أهل المدينة يستبشرون قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون...) فبهذا المنحىٰ الممتع، يكتشف المتلقّي (من خلال عنصر المحاورة بين لوط ومجتمعه، بأن هؤلاء القوم هم شواذ جنسياً... وأن العذاب ـ من ثم ـ إنما جاء للسبب المشار إليه، وأن نمطه هو: الصيحة. ثم تنتهي قصة لوط بإبادة مجتمعه المنحرف.

بيد أنه ينبغي أن نشير إلى أن هذه القصة وسابقتها ـ إبراهيم ولوط ـ قد ارتبطتا بعضاً مع الآخر، حيث كانت شخوص (الملائكة) هم (الأبطال) المشتركين في القصتين، فهم ضيوف لدىٰ كل من إبراهيم ولوط، وهم الذين (بشّروا) إبراهيم بالولد، (وبشروا) لوطاً بإبادة مجتمعه المنحرف، وبشّروه

بإنقاذه وعائلته إلا امرأته... كما أن إبراهيم(ع) هو البطل المشترك الآخر الذي مارس عملية الربط بين القصتين أو «التمهيد» للقصة الأخرىٰ(لوط) حيث أن تساؤله عن مهمة الملائكة هو الذي مهّد ـ من خلال إجابتهم بأنهم مرسلون إلىٰ إبادة قوم لوط ـ للقصة المذكورة... ولعلّ ـ مضافاً إلى ما تقدّم ـ للرابطة(النَسبية) بين إبراهيم ولوط (إبراهيم خال لوط) من جانب، ومعاصرتهما بطبيعة الحال من جانب آخر، تفسيراً لتداخل القصتين.

* * *

بعد ذلك تواجهنا قصتا أصحاب الأيكة وأصحاب الحجر، حيث اشتركتا مع قصة لوط في رسم المصائر الدنيوية للمنحرفين وهي إبادتهم، مع ملاحظة أن النص ربط بين قصتي لوط وشعيب (أي أصحاب الأيكة) معلقاً علىٰ ذلك(وانهما لبإمام مبين) أي أن كلاً من مدينتهما يقع بمرأىً من الناس حتى لا تزال آثار المدينتين باقية (بالنسبة إلىٰ زمان النص).

كما أن الربط بين القصة الأخيرة (أصحاب الحجر) وبين لوط أيضاً قد تمّ من خلال عنصر آخر هو (التجانس) بين الجزائين، حيث اشتركت القصتان في الصياغة اللفظية لرسم المصائر متمثلة في عبارتي: (فأخذتهم الصيحة مشرقين) بالنسبة إلىٰ قوم لوط، (فأخذتهم الصيحة مصبحين) بالنسبة إلىٰ قوم أصحاب الحجر.

وهذه الأنماط من الاشتراك والتجانس بين القصص الأربع تظل تعبيراً واضحاً عن مدىٰ تماسك وجمالية البناء العماري، بالنحو الذي تقدم الحديث عنه.

القسم الأخير:

يظل هذا القسم من السورة تلخيصاً أو نتيجة لما سبقته من الأقسام الأربعة من جانب، كما يطرح أفكاراً جديدة من جانب آخر. أما الأفكار

المطروحة جديداً فتتمثل في جملة موضوعات مثل: عدم مدّ الأعين إلىٰ ما متّع الله تعالى به الآخرين (أي الكفار) من أمتعة الحياة الدنيا (ولا تمدّن عينيك...) حيث تم الربط بين هذه الظاهرة الجديدة وبين المنحرفين الذين تكفلت الأقسام السابقة من السورة بالحديث عن غفلتهم، ومصائرهم الدنيوية، فضلاً عن الأخروية التي شكّلت ـ كما أشرنا ـ واحداً من محاور السورة الكريمة فيما استُهلت بالحديث عن اليوم الآخر، وفيما جاء القسم الأخير أيضاً متضمناً لهذا الجانب حينما استهل بهذا المفهوم ﴿**وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلاّ بالحق وإن الساعة لآتية...**﴾. وقد تكررت الإشارة إلىٰ هذا الجانب مرة أخرىٰ في قوله تعالى: ﴿**فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون**﴾.

وأما الجديد الآخر الذي طرح في هذا القسم فهو أسلوب التبليغ لرسالة الإسلام، حيث كان القسم الأول من السورة يتناول سلوك الآخرين حيال رسالة الإسلام، في حين أن القسم الأخير يتناول سلوك المبلغ الإسلامي حيال الآخرين، متمثلاً في: ﴿**واخفض جناحك للمؤمنين**﴾ ﴿**فاصفح الصفح الجميل**﴾ ﴿**قل اني أنا النذير المبين**﴾ ﴿**ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون**﴾ ﴿**فسبّح بحمد ربك وكن من الساجدين**﴾ ﴿**واعبد ربك حتى يأتيك اليقين**﴾... وهكذا تنتهي السورة بهذا الربط بين مقدمتها (عن المنحرفين، واليوم الآخر) وبين الأقسام التي تحدثت عن ظواهر مرتبطة بالقسم المذكور وبين الختام الذي شكّل طرحاً جديداً، وشكّل ربطاً بين موضوعاته وموضوعات الأقسام الأخرىٰ، بالنحو الذي تقدّم الحديث عنه.

سورة النحل

قال تعالى: ﴿أتىٰ أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالىٰ عما يُشركون * ينزّل الملائكة بالروح من أمره علىٰ من يشاء من عباده ان أنذروا أنّه لا إله إلاّ أنا فاتقون * خلق السماوات والأرض بالحق تعالىٰ عما يُشركون * خلق الإنسان من نطفةٍ فإذا هو خصيم مبين﴾.

بدأت السورة المباركة بالإشارة إلىٰ جملة من الظواهر، في مقدمتها: قيام الساعة ومطالبة المنحرفين بعدم الاستعجال في المطالبة الساخرة بذلك، ومنها: نزول الملائكة بالروح علىٰ من يشاء الله تعالىٰ من عباده من خلال الإنذار والمطالبة بالتقوىٰ، ومنها: خلق الكون من أجل هدف عبادي، ومنها: خلق الإنسان وكونه معانداً في ممارساته التي يواجه بها ظاهرة الكون أو رسالة السماء... كل أولئك طرحتها مقدمة السورة مع الإشارة إلىٰ تنزيه الله تعالى عن الشرك.

إذاً، هدف الموضوعات سوف تنسحب دلالاتها علىٰ الهيكل العام للسورة، إلا أن الموضوعات الثانوية التي يستهدف النصُ توصيلها ضمن الفكرة العامة للسورة سوف تأخذ مجالاً كبيراً من مساحة السورة طالما نعرف (من الزاوية الفنية) أن الموضوعات الثانوية من الممكن أن تتسم بحجم أكبر من الأهمية الفكرية: كما لو جاء رسم البطل في القصة مثلاً ثانوياً في حين أن مبدع القصة يتخذ من البطل المذكور واجهة لهدفه الرئيس.

لذلك، نجد أن أوّل موضوعٍ ثانويٍ للسورة يتمثّل في إحدى ظواهر الكون التي تحمل عطاءً مزدوجاً هو الفائدة والجمال: «الفائدة» الحيوانية والسمة الجمالية لها... ولنقرأ:

﴿والأنعام خلقها لكم فيها دفءٌ ومنافعُ ومِنها تأكلون * ولكم فيها جَمال حِين تُرِيحون وحين تَسْرَحون * وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالِغيهِ إلاّ بشِقِ الأنفس إنّ ربكُم لرؤوفٌ رحيم﴾. لنلاحظ أنّ «الأنعام» تشكل ثروة حيوانية ضخمة لا غنى للإنسان عنها، ولعل تعقيب الآية الكريمة علىٰ كون الأنعام ذات دفء ومنافع وغذاء وحمل أثقال، والتعقيب على ذلك بقوله تعالى ﴿إن ربكم لرؤوف رحيم﴾ يشكّل مؤشراً واضحاً إلىٰ المعطيات الضخمة للأنعام من حيث أن رأفة الله ورحمته تقفان وراء تقديم العطاء المذكور للآدميين.

إذاً، جاء الموضوع الثانوي الذي تضمنته سورة النحل منطوياً علىٰ عرض ظاهرةٍ لها خطورتها في حقل الحاجات الإنسانية وإشباعها، فالغذاء هو الإشباع الرئيس لأشد حاجات الإنسان التي لا مجال لممارسة أيّ تأجيل حيالها ونعني بها (الحاجة إلى الطعام)، وحينما يذكّرنا النصُ القرآني بظاهرة (الأنعام): إنما يستهدف لفت أنظارنا إلى أهمية الثروة المذكورة بصفتها تحقق إشباعاً لأهم حاجة إنسانية تتوقّف عليها استمرارية حياة الإنسان، وهذا ما يفسّر لنا خطورة الموضوع الذي طرحته السورة... من حيث البناء الهندسي للسورة التي عرضت مقدمتُها جملةً من الموضوعات التي أشرنا إليها، نجد أن استهلال وَسَطِها بالحديث عن «الأنعام» إنما يشكّل أهمية الثروة الحيوانية المذكورة، وهذا الاستهلال لم يجيء منعزلاً عن سياق الموضوعات التي طرحتها المقدمة بل جاء في سياق خلق السماوات والأرض والإنسان (خَلَقَ السماواتِ والأرضَ بالحق) (خلق الإنسان من نُطفة).

إذاً، من خلال عرض جملة من ظواهر الكون هي: السماء، الأرض، الإنسان: جاء عرضُ (الأنعام)، ثم جاء هذا العرض ليأخذ معالجةً مفصلةً في السورة بالنحو الذي أشرنا إليه، وهذا ما يكشف لنا جانباً من البناء الفنيّ للنص

يتّسم بالإحكام العضوي بين موضوعات النص.

والآن، خارجاً عن المبنىٰ العماري المذكور، يعنينا أن نتحدث عن موضوع (الأنعام) ذاته من حيث انطواؤه علىٰ الفائدة المشار إليها من جانب ثم من حيث انطواؤه علىٰ فوائد أخرىٰ تتصل بأكثر من دافع من الدوافع البشرية.

* * *

قال تعالى: **﴿والأنعامَ خَلَقَها لكم فيها دفءٌ ومنافعُ ومنها تأكلون * ولكم فيها جَمال حين تُريحون وحين تَسْرَحُون * وتحمِلُ أثقالَكُم إلىٰ بلدٍ لم تكونوا بالِغيهِ إلاّ بِشِقِّ الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم﴾**.

في هذا المقطع ـ كما أشرنا ـ طرحٌ لأحدِ معطياتِ السماءِ متمثلاً في الثروة الحيوانية (الأنعام) حيث أشار المقطع إلى عنصري (الفائدة) و(الجمال) فيها، أما الفائدة فتتمثل في كونها تسدّ(الحاجة إلى الطعام) كما تسد الحاجة إلىٰ(الملبس) (لكم فيها دفء) مثلما تسدّ حاجاتٍ أخرىٰ مثل (حمل الأثقال) أو الأمتعة، فضلاً عن حاجات متنوعة مثل الركوب وحرث الأرض وما إليه.

إذاً، استهلال السورة بعرض مثل هذا المعطىٰ واستثماره للإنسان: يظل مفسّراً لنا أهمية هذه الظاهرة من حيث (الفائدة).

أما من حيث «الجمال»، فقد أشار المقطع بقوله **﴿ولكم فيها جمالٌ حين تُريحون وحين تَسرحون﴾** حيث أن تحركها يستثير الحس الجمالي عند الإنسان... إن (الإحساس بالجمال) يظل إحدىٰ الحاجات الثانوية لدىٰ الشخصية، والمشرّع الإسلامي حينما يتيح للشخصية مجال الإشباع للحاجة المذكورة: إنما يقوّم ويثمّن هذه الحاجة دون أدنىٰ شك بصفتها ـ مضافاً لما تقدم ـ تساهم في تخفيف أعباء الحياة، وتظل بمثابة استراحة يستعين بها الإنسان علىٰ مواصلة مهمته العبادية.

المهم، أن الإشارة إلىٰ عنصري «الفائدة» و «الجمال» بالنسبة إلى (الأنعام) يكرر النصُ الحديث عنهما بالنسبة إلىٰ أنماط حيوانية أخرىٰ حينما نواجه مقطعاً جديداً يقول: ﴿والخيلَ والبغالَ والحميرَ لِتَرْكَبُوها وزِينةً ويَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُون﴾.

وتهمنا من هذه الآية: عمارتها الفنية من حيث تجانس موضوعها مع الموضوع السابق، فكما أن (الأنعام) تتضمن عنصري (الفائدة) و(الجمال) كذلك: الأنماط الحيوانية الثلاثة تتضمن نفس العنصرين (الفائدة والجمال) حيث يقول النص: (لتركبوها وزينة)، فالركوب هو المجسّد لعنصر (الفائدة)، والزينة هي المجسّد لعنصر (الجمال).

إذاً، ينبغي ألاّ نغفل عن جمالية هذه العمارة الفنية التي تتناغم خطوط مقاطعها بعضاً مع الآخر وفق الإشارة إلىٰ عنصري الفائدة والجمال لظاهرة الحيوان الذي يستثمره الكائن الآدمي.

ولو ذهبنا نتابع المقطع الثالث من السورة لوجدناه يُصاغ فنيّاً بنفس الخط الهندسي الذي انتظم المقطعين السابقين، إلا أن المقطع الجديد يطرح موضوعاً آخر هو (المطر) من حيث كونه أيضاً (معطىّ) سخّره الله للإنسان ليفيد منه في إشباع حاجاته الحيوية والجمالية، ولنقرأ: ﴿هو الذي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً لكُم مِنهُ شَرَابٌ ومنه شجرٌ فِيْهِ تُسِيمون * يُنْبِتُ لكُم بِهِ الزرعَ والزيتونَ والنخيلَ والأعنابَ ومِنْ كُلِّ الثمراتِ إنَّ في ذلِك لآيةً لِقَومٍ يَتَفكَّرُون﴾.

واضح، أن المعطىٰ المذكور لا تنحصر أهميته في كونه مادة يستثمرها الإنسان لإشباع حاجاته، بل أن المعطيات جميعاً ـ الثروة الحيوانية والطبيعية ـ إنما ينبغي أن تُوظّف من أجل الإدراك العبادي لفلسفة الوجود. لذلك ما أن انتهىٰ النص من ذكر المطر حتى عقّب عليه بقوله ﴿إنَّ في ذلِكَ لآيةً لِقَومٍ

يتفكرون﴾، بمعنىٰ أن المعطيات المذكورة ينبغي أن تحمل الإنسان علىٰ التفكّر في الله تعالى وإبداعه والهدف العبادي من وراء خلق الإنسان.

ويتأكد هذا الهدف حينما نلحظ أن المقطع الرابع والخامس من السورة يشدّد علىٰ الظاهرة المذكورة بقوله تعالى: ﴿وسخَّر لكُم الليلَ والنهارَ والشَّمْسَ والقَمَر والنُجومُ مُسخَّراتٌ بأمرِهِ إنَّ في ذلِكَ لآياتٍ لِقَومٍ يَعْقِلون * وما ذَرَأَ لكم في الأرضِ مُختَلِفاً ألوانُه إن في ذلِك لآيةً لقومٍ يَذَّكَّرُون﴾ فتعقيبه تعالى على الآية الأولىٰ ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾ وتعقيبه علىٰ الآية الثانية ﴿إن في ذلك لآية لقوم يذكّرون﴾ يدلّنا علىٰ أن الهدف من عرض هذه المعطيات (العنصر الحيواني والطبيعي من مطر وشجر وشمس وثمر وليل ونهار وكل الثروات التي تفرزها الأرض)... إنما هي (آيات) ينبغي أن تحمل الإنسان علىٰ ممارسة هدفه الأوحد وهو (عبادة الله تعالى) وإلى أنها مجرد (وسائل) يتعيّن توظيفها من أجل الهدف المذكور، والأمر نفسه حينما تطالعنا المقاطع اللاحقة من السورة حيث يواصل النص عرض الخطوط العمارية المتصلة بعنصري (الفائدة) و(الجَمال) من خلال ظواهر كونية مختلفة.

* * *

قال تعالى: ﴿وهو الذي سخّر البحر لتأكلوا منه لحماً طريّاً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها * وترىٰ الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون * وألقىٰ في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون * وعلامات وبالنجم هم يهتدون﴾.

هذا المقطع من سورة النحل إمتدادٌ لمقاطع سابقة تحدثت عن الثروة الحيوانية والطبيعية التي سخّرها الله للآدميين. وها هو المقطع الذي نواجهه الآن يحدثنا عن الثروة الحيوانية والطبيعية أيضاً، لكن من خلال عيّنة خاصة هي البحر وثروته الحيوانية، إنه يشير إلىٰ تسخير الله: البحرَ للآدميين ثم

استخراج السمك منه لتوفير الحاجة إلىٰ الطعام، فضلاً عن إشباع الحاجة الجمالية التي يكتنزها البحر أيضاً من اللئالىء ونحوها.

من حيث عمارة السورة أو البناء الهندسي لها لا بد أن نقف مليّاً عندها لنتبيّن مدىٰ جماليّة هذه العمارة وإحكامها... فقد سبق أن لحظنا أن السورة الكريمة عندما تحدثت عن (الأنعام) أشارت إلى وجود عنصرين فيها هما عنصر (الفائدة) وعنصر (الجمال) **﴿والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع﴾ ﴿و لكم فيها جمال﴾** ... و عند تحدث السورة عن الدواب الثلاث (الخيلُ... الخ) أشارت أيضاً إلى عنصري «الفائدة» و«الجمال» فيها (لتركبوها وزينةً). وها هي الآن عندما تتحدث عن البحر والسمك تشير أيضاً إلى عنصري (الفائدة) و(الجمال) في ذلك حيث تقول الآية: **﴿لِتأكُلُوا مِنهُ لَحْماً طَرِيّاً وتَسْتَخْرِجُوا منه حلية﴾** فالأكل هو تجسيد لعنصر الفائدة و(الحلية) تجسيد لعنصر الجمال.

إذاً، نحن الآن أمام عمارة فنية مُحكمة تتناغم خطوطها من حيث الوحدة والتباين، الوحدة في عنصري الفائدة والجمال، والتباين في عناصر المادة المتضمنة لذينك العنصرين.

أما المادة الموضوعية ذاتها فإنها بدورها تخضع لبناء هندسي من نمط آخر هو إخضاعها بعامة إلىٰ عنصرين آخرين هما: كون المادة (مسخّرة) لصالح الإنسان بتضمنها عنصري الفائدة والجمال، وكونها وسيلة للتفكّر في إبداع الله ومن ثمَ استثمارها للعمل العبادي.

وهذا ما يمكن ملاحظته في مقاطع سابقة أشارت إلى ذلك من نحو **﴿إن في ذلك لآيةً لِقَومٍ يتفكَّرُون﴾ ﴿... إنَّ في ذلِكَ لآياتٍ لقوم يعقلون﴾ ﴿... إنَّ في ذلك لآية لِقومٍ يَذَّكَّرُون﴾**. وها هو المقطع الذي نواجهه الآن يحدثنا بنفس اللغة: حيث يشير إلى كلٍ من عمليتي «العطاء» و«التفكّر». يقول

النص مواصلاً عرض المعطيات الأخرىٰ بعد أن انتهىٰ من عطاء البحر من حيث ثروته الحيوانية والطبيعية:

﴿وألقىٰ في الأرض رواسِي أنْ تمِيدَ بِكُمْ وأنْهاراً وسُبُلاً لَعَلَّكُم تَهْتدُون * وعلاماتٍ وبِالنَّجمِ هُمْ يَهْتَدُون * أفمن يخلق كمن لا يَخْلُقُ أفَلا تَذَكَّرُون﴾ إن قوله تعالى ﴿أفَمَنْ يَخلُقُ كم لا يَخْلُق﴾ وقولَهُ ﴿أفلا تَذَّكَّرُون﴾ يظل مؤشراً لما قلناه من أن النص يؤكد قضيتي العطاء واستثماره من أجل الهدف العبادي، وهو أمرٌ يأخذ منحىً هندسياً جميلاً بالنسبة إلى عمارة السورة التي تتلاقىٰ خطوطها وتتباين عبر وحدة فكرية تجمع بين خطوط التلاقي والتباين.

والآن، بعد أن لحظنا جمالية الهيكل الفكري للسورة، يتعيّن علينا أن نشير إلىٰ انعكاسات هذه العمارية علىٰ دلالات النص وأفكاره، فالنص عندما يشير إلىٰ عطاء الله بالنحو المتقدم، يبدأ بعد ذلك ليؤكد أوّلاً أهمية العطاء المذكور بقوله ﴿وإن تَعُدُّوا نِعمَةَ الله لا تُحْصُوها﴾، ولينتقل من بعد ذلك ثانياً إلىٰ الحديث عن المنحرفين الذين ينكرون العطاء المذكور، حيث يتجهون إلىٰ عبادة غير الله تعالى ﴿والذينَ يَدْعُون من دُونِ الله لا يَخْلُقُون شيئاً وهم يُخْلَقُون﴾ ﴿فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة... الخ﴾.

إن الإشارة إلى هؤلاء المنحرفين تجيء وفق تدرّج فني ينتقل من الحديث عن المعطيات التي ينبغي استثمارها عبادياً إلى الحديث عن المنحرفين الذين لا يستثمرون ذلك: كما لحظنا. وسنرىٰ أيضاً أن المقاطع اللاحقة سوف تنتقل إلىٰ موضوعات جديدة تحوم علىٰ عرض مستويات السلوك المنحرف وفق التدرّج الفني الذي أشرنا إليه، فيما نتبيّنه بنحوٍ أشد وضوحاً عندما ننتقل إلى الحديث عن المقاطع اللاحقة.

* * *

قال تعالى: ﴿وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطيرُ الأولين *

لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علمٍ ألا ساء ما يزرون * قد مكر الذين من قبلهم فأتىٰ الله بنيانهم من القواعد فخرّ عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون * ثم يوم القيامة يخزيهم ويقول أين شركائي الذين كنتم تشاقون فيهم قال الذين أوتوا العلم إن الخزي اليوم والسوء علىٰ الكافرين * الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم فألقوا السَلَم ما كنا نعمل من سوء بلى ان الله عليم بما كنتم تعملون * فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوىٰ المتكبّرين﴾.

في هذا المقطع طرحٌ لسلوك المنحرفين حيث سبقته مقاطع تتحدث عن موضوع آخر هو: عطاء الله من حيث الظواهر الإبداعية التي سخرها الله للآدميين وطالب باستثمارها وسيلةً عبادية لمعرفة الله وتوحيده. أما المنحرفون، فإن سلوكهم سوف لن يفيد من المعطيات المذكورة بل يستكبرون عن ذلك، ويرفضون تحريك عقولهم: حيث ينسبون رسالة السماء إلىٰ كونها أساطِير الأولين، ويُحمّلهم مسؤولية سلوكهم مضافاً إلى مسؤولية إضلالهم الآخرين، ويذكّرهم بالجزاء الدنيوي أيضاً حيث لحق سابقيهم في الإنحراف، مقدّماً في تحديد ذلك: صورة فنية هي: **﴿فأتىٰ الله بنيانَهُم من القواعِدِ فخرَّ عليهِم السَّقْفُ مِنْ فوقِهم وأتاهُم العذابُ مِنْ حيثُ لا يشعرون﴾**.

والسؤال: ما هي الأسرار الفنية الكامنة وراء هذه الصورة؟ إن النص يتحدث عن المنحرفين الذين لحقهم جزاء دنيوي بسبب استكبارهم، موضحاً أن مكرهم ـ يتجسّد في بُنيان بنوه فهدّمه الله من قواعده (فأتى الله بنيانهم من القواعد) وهذا هو القسم الأول من الصورة. أما القسم الآخر فهو قوله تعالى **﴿فخرَّ عليهم السقف من فوقهم﴾**، ثم هناك القسم الثالث اللاحق بها وهو تعقيبه تعالى علىٰ ذلك بقوله **﴿وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون﴾**.

إن النص كان من الممكن ـ كما هو الحال في نصوص قرآنية أخرىٰ ـ أن

يكتفي من ذلك بالتعقيب الأخير وهو أن العذاب قد أتاهم من حيث لا يشعرون، كما كان من الممكن أيضاً أن يقدّم صوراً أخرىٰ وردت في نصوص القرآن مثل تشبيه مصائرهم باعجاز النخل المنقعر، أو الخاوي إلخ، حينئذٍ فما هو سرّ تقديم الصورة في هذا المقطع من خلال التشبيه بالبنيان، والقواعد، والسقف... الخ؟.

الملاحَظ أن النص شدد علىٰ ظاهرة (المكر) لدىٰ المنحرفين، حيث كرر ذلك في أكثر من مقطع، فهنا أشار إلى ذلك بقوله ﴿قد مكر الذين من قبلِهم﴾ وفي مقطع لاحق يقول ﴿أفأَمِنَ الذين مَكَرُوا السيئاتِ﴾. كما أنّ التجسيد الموضوعي لظاهرة المكر قد عرضها النص من خلال أقوال المنحرفين أنفسهم مثل قولهم ﴿لو شاء الله ما عَبدنا مِنْ دونِه مِن شيء نَحْنُ ولا آباؤُنا ولا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِن شيءٍ﴾ ومثل ﴿وأَقْسَمُوا بالله جَهْدَ أيمانِهِمْ لا يَبْعَثُ الله مَنْ يَموت﴾. إن أمثلة هذا الاستدلال الهزيل القائم علىٰ ممارسة المكر في إضلال الآخرين وإضلال أنفسهم: من خلال المبالغة في القَسَم ومن خلال الذهاب إلى أن الله لو شاء ألاّ نعبد الأصنام من دونه: لفعل ذلك... الخ.

إن أمثلة هذا الكلام قائم علىٰ اللعب بالحقائق، أي: المكر الشديد، مما يتطلب جواباً يتناسب مع حجم المكر المذكور، حينئذٍ فإن تقديم صورة فنيّة توضّح كيف أن المكر الشديد سوف يعود علىٰ أصحابه بنتائج تمحق أمثلة هذا المكر من أساسه، يظل أمراً له مسوغاته الفنية دون أدنىٰ شك.

من هنا نجد أن صورة (البنيان) تجسّد شدّة المكر الذي خُيّل للمنحرفين إحكام قواعده، وحينما يقول النص بأن الله قد أتى (بنيانهم من القواعد) فهذا يعني أن المكر من أساسه قد تهدم نهائياً، وحينما يقول النص بأنه قد (خرَّ عليهم السقف من فوقهم) فهذا يعني أن الأمل أو اليقين الذي بنوا عليه مكرهم قد باغته الهدم بنحوٍ يجدون من خلاله أن (السقف) وهو رمزٌ فني للاطمئنان

الذي غشيَهم قد خرّ عليهم من فوقهم.

طبيعياً، أن السقف لا بد أن يخرّ من (الفوق) إلا أن تأكيد ذلك: ينطوي علىٰ سرّ فنيّ هو أن المكر يمحق بأهله قبل غيرهم، بمعنىٰ أن سقوط السقف من فوقهم هو بمثابة مَن ينظر بوضوح إلىٰ عملية السقوط بنحو يتناسب مع نظره سابقاً إلىٰ إحكام البنيان الذي بناه.

المهم، إن هذه الصورة الفنية ـ كما سنلاحظ ذلك في المقاطع اللاحقة من السورة ـ وظّفت فنياً لإحكام الربط بين موضوعات السورة التي ستتردد أصداؤها وتتجاوب عمارتها بعضها مع الآخر.

* * *

قال تعالى: **﴿والذين هاجروا في الله من بعد ما ظُلِموا لنُبوئنّهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون * الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون﴾**.

في هذا المقطع من السورة طرحٌ ثانوي في سياق الأفكار العامة للنص، هذا الطرح يتمثل في ظاهرة (المهاجرة من أجل الله) وما يواكب ذلك من عمليتي (الصبر) و(التوكل).

إن (المهاجرة) تمثّل واحداً من أنماط السلوك العبادي المقترن بأهمية كبيرة. فالمهاجر يفارق أهله وأرضه وممتلكاته من أجل المحافظة علىٰ دينه مبتغياً بذلك مرضاته تعالى... انه عملية (تأجيل) لشهوات الإنسان، انه مكابدةٌ لشدائد الحياة التي جعلها الله محكاً واختباراً للسلوك البشري. بيد أن هذه الشدائد سوف تُعوَّض ـ ليس أخروياً فحسب ـ بل دنيوياً أيضاً حيث يشير المقطع إلى أن المهاجرين عن أوطانهم في سبيل الله سوف يمنحهم الله تعالى (في الدنيا حسنة) أي: سوف يظفرون بنتائج إيجابية في هذه الحياة، وهذه النتائج قد تتمثّل في الوطن الجديد من حيث توفير الوسائل المطلوبة. وقد

تتمثل في عملية(النصر) بحيث يعود المهاجر إلى وطنه الأول: وقد تحرّر من الظالمين، فيحيا حياة حرّة تُوفّر له الإشباع المطلوب.

إذاً، المهاجرة في سبيل الله سوف تقترن بتعويضٍ دنيويٍ حَسَنٍ في نهاية المطاف... لكن ينبغي أن تقترن المهاجرة قبل ذلك بسمتَين من السلوك أشار المقطع إليهما ونعني بها (الصبر) و(التوكل) ﴿الذين صبروا وعلىٰ ربهم يتوكلون﴾...

إن (الصبر) أساساً يُعدّ السمة الرئيسة للسلوك العبادي، فما دامت الحياة قائمة علىٰ التجاذب بين الخير والشر، فإن (الصبر) ـ أي مصارعة الشرّ بما يحمله من الشهوات ـ يُعدّ: السمة الوحيدة لمصارعة الشهوات.

وأمّا(التوكل)، فإنه يجسّد العنصر الذي تتقوّم به عملية(الصبر)، بمعنىٰ أن (التوكل) على الله سوف يدفع الشخصية إلى أن تمارس (الصبر) علىٰ شدائد الحياة، مفوضةً أمرها إلى الله تعالى.

إذاً، الجديد في المقطع الذي نتحدث عنه هو: تثمين الله تعالى لشخصية المهاجر في سبيل الله ولفت الانتباه علىٰ أهميتها مقترنة مع (الصبر) و(التوكل)...

بعد ذلك يتقدم النص بمقطع آخر يعود من خلاله إلىٰ الأفكار العامة التي طرحتها مقدمة سورة النحل، ومنها: فكرة أن الله (ينزّل الملائكةَ بالروح من أمرِهِ علىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عبادِهِ أنْ أنذِرُوا أنَّه لا إلٰه لا أنا فاتقون) حيث يعود المقطع الجديد إلىٰ صياغة هذه الفكرة: لكن من خلال بُعد جديد لها. ﴿وما أرسلنا مِن قبلِك إلاّ رجالاً نُوحِي إليهم فاسألوا أهلَ الذكِر إن كنتم لا تعلمون﴾. فهنا تفصيل لما أجملته المقدمة التي قالت بأنّ إنزال الملائكة بالروح إنما هو من أجل إنذار الناس ومطالبتهم بالتوحيد، حيث يفصّل المقطع الجديد هذا الجانب بقوله ﴿أفأمِنَ الذين مَكَرُوا السيئات أنيخسِفَ الله بِهِمُ الأرضَ﴾

أو يأتِيَهُمُ العذابُ مِن حيثُ لا يشعرون * أو يأخُذَهُمْ في تقلّبِهم فما هم بِمُعْجِزينَ أو يأخُذَهُم علىٰ تخوّفٍ فإنَّ ربَّكُمْ لرؤوفٌ رحيم﴾.

إن هذا التفصيل قائم علىٰ عمارة بالغة الإحكام من حيث البناء الهندسي للسورة، فقد سبق للنص أن تحدّث عن معطيات الله تعالى: من حيث تسخيره كل شيء للإنسان، وها هو النص يحذّر هؤلاء الذين انحرفوا عن مبادىء الله تعالى، يحذّرهم من إمكانية أن يخسف بهم الأرض (بما تحمله من معطياتٍ قد سُخِرت لهم) أو يحرمهم منها في مختلف مجالات الحياة.

وهذا بالنسبة إلى المعطيات.

وأمّا بالنسبة لتوحيد الله تعالى حيث طالبت المقدمةُ بقولها ﴿أنه لا إلٰه إلا أنا فاتقون﴾. . . بالنسبة لهذا الجانب يفصّل المقطع الجديدُ ذلك بقوله ﴿وقال الله لا تتخذوا إلٰهين اثنَينِ إنَّما هو إلٰهٌ واحِدٌ فاياي فأرْهَبُونِ * ولهُ ما في السماواتِ والأرضِ ولهُ الدِّينُ واصباً أفَغَيْرَ الله تَتَّقُون﴾.

فالجديد هنا هو: المطالبة بعدم الشرك؛ وهو تجسيد لقوله (لا إله إلا أنا) ثم تجسيد لقوله (فاتقون) حيث يُنكر النص علىٰ المنحرفين اتقاءَهم غير الله تعالى (أفغير الله تتقون).

إذاً، جاء هذا المقطعُ مفصلاً للاجمال الذي طرحته مقدمة السورة مما يُفصح عن إحكام البناء الهندسي للسورة وتلاحم موضوعاتها بالنحو الذي تقدم الحديث عنه.

* * *

قال تعالى: ﴿وما بكم من نعمةٍ فمن الله، ثم إذا مسّكم الضرّ فإليه تجئرون * ثم إذا كشف الضرَّ عنكم إذا فريق منكم بربهم يُشركون * ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون﴾.

هذا المقطع من سورة النحل يطرح إحدىٰ ظواهر التركيبة النفسية للآدميين وهي ظاهرة (الشدائد) التي تواجه الإنسان والطريقة التي يستجيب لها من خلال علاقته بالله تعالى.

فأولاً يطرح المقطع قضية التوازن النفسي عند الإنسان فيشير إلىٰ أن (النعمة) أو (الراحة) أو (الإشباع) أو (التوازن الداخلي) للإنسان: إنما يوفّرها الله تعالى (ما بكم من نعمة فمن الله).

وهذه هي القاعدة العامة.

بيد أن (الشدائد) بصفة عامة أيضاً تظل هي السمة والمحك للشخصية (وهي ما تناولها مقطع سابق)، والفكرة التي تنتظم هذا المقطع تطرح أمامنا قضية الشدائد وصلة ذلك بما يقابلها وهي (النعمة) ثم صلتهما بالاستجابة أو ردود الفعل التي تصدر الشخصية عنها حيال ذلك من خلال علاقة الشخصية بالله.

إن الشخصية تتجه بالدعاء إلى الله حينما تواجه شدائد الحياة ﴿ثم إذا مسكم الضر فإليه تجئرُون﴾... فإذا كشف الله الشدائد عن الشخصية ﴿ثم إذا كشف الضرّ عنكم إذا فريق منكم بربّهم يشركون﴾.

هذه العملية النفسية التي ألمح المقطع إليها، تشكّل سمة ملحوظة لدىٰ الآدميين، وهي سمة ذات طابع مَرَضي خطير لأنها ـ ببساطة ـ تفصح عن كفران الشخص بالنِعَم وعدم تثمينها أي تكشف عن موت الجهاز القيمي عند الشخص، فلو استعرنا مثالاً عادياً من حياتنا اليومية للحظنا مثلاً أن الشخص عندما يواجه شدة كبيرة يفرّجها عنه أحد إخوانه بعد أن يتجه إليه بطلب مُلح، ثم يُعرض الشخص عن أخيه الذي أنجز حاجته: حينئذٍ فإن حكما علىٰ وساخة هذا الشخص يظل موضع إجماعٍ من الكلّ طالما يكشف مثل هذا السلوك عن موت جهاز القِيَم لديه ويتحوّل إلى كائنٍ لا صلة له بالإنسان. فإذا نقلنا هذه

الحقيقة إلىٰ صلة الشخص بالله تعالى (حيث أن كشف الشدائد تنحصر فاعليتها بالله تعالى) حينئذٍ أمكننا أن ندرك مدىٰ وساحة الشخص الذي يعرض عن الله تعالى بعد أن يستجيب تعالى لدعاء الشخص.

وأياً كان، فإن هذه العملية النفسية التي أشار المقطع إليها، تظل (من حيث عمارة السورة وتنامي موضوعاتها فنياً) مقدمةً لطرح آخر هو (الشرك) حيث يشكل هذا الموضوع واحداً من الأفكار العامة التي طرحتها مقدمة السورة، وجاء وسطُها ليفصّل الكلام فيها.

لذلك نجد أن النص ما أن ينتهي من هذا المقطع الذي ختمه بقوله تعالى **﴿إذا فريق منكم بربهم يُشركون﴾** حتى يطرح موضوعاً يتصل بظاهرة (الشرك) من حيث المفهوم العام... فالشخص الذي واجه إحدىٰ الشدائد، ثم اتجه إلىٰ الله، ثم كشف الله الشدائد عنه، ثم أعرض الشخص عن الله بعد ذلك: إنما هو يصدر عن عملية (شرك) بالله: حيث يُخيّل إليه أن مصدراً آخر ساهم في كشف الضر عنه.

من هنا، فإن النص ما أن ينتهي من تحديد هذا النمط من (الشرك) حتى يتجه ـ كما قلنا ـ إلىٰ نمط آخر منه يحدده بالنحو التالي: **﴿ويجعلون لما لا يعلمون نصيباً مما رزقناهم تالله لتُسئلن عما كنتم تفترون * ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون * وإذا بُشّر أحدهم بالأنثى... الخ﴾**.

إن هذا المقطع وَصَل بين مفهوم (الشرك) المتمثل في تخيّل الشخص أنّ كشف الشدائد غير منحصرٍ في فاعلية الله تعالى، و بين (الشرك) المتمثّل في جعْل الأصنام ذات نصيب في الرزق مثلاً، كما يصل المقطعُ ذلك بنمط ثالث من (الشرك) هو: الفصم بين الأناث والذكور حيث يجعلون الأول لله تعالى والآخر لهم.

ويُلاحظ أن المقطع وَصَل (عمارياً) بين ظاهرة (الأناث) المذكورة وبين

التعامل الجاهلي مع الأنثىٰ: حيث طرح المقطع ظاهرة (وأد البنات) بالنحو الذي سنتحدث عنه.

* * *

قال تعالى: ﴿وإذا بُشّر أحدهم بالأنثىٰ ظلّ وجهه مسوداً وهو كظيم * يتوارىٰ من القوم من سوء ما بُشّر به أيمسكه علىٰ هون أم يدسّه في التراب ألا ساء ما يحكمون﴾.

هذا المقطع القرآني المتصل بكيفية التعامل الجاهلي مع الأنثىٰ (المولودة): يجيء في سياق الحديث عن الأفكار العامة التي تنتظم عمارة السورة: حيث كانت فكرتا (التوحيد والشرك) واحدةً من الأفكار المذكورة، وحيث كان (إشراك الأنثىٰ) واحداً من مفردات الشرك التي عالجتها سورة النحل.

لكن، خارجاً عن عمارة النص يعنينا أن نتحدث عن هذه الظاهرة (ظاهرة التعامل الجاهلي مع الأنثىٰ) من حيث انطواؤها علىٰ السمة الفنية في صياغة ذلك. لقد عبّر المقطع عن استجابة الجاهليّ للمولود الأنثوي بجملةٍ من الصور الفنيّة مثل صورة (اسوداد الوجه) وصورة (الكظم) وصورة (التواري) وصورة (الإمساك علىٰ الذل) وصورة (الدس في التراب).

إن هذه الصُور الفنية التي تجمع بين التركيب المباشر وغير المباشر للصورة، تنطوي علىٰ أهمية كبيرة في حقل الفن: من حيث صلتها بتحديد الاستجابات البشرية الشاذة وصلة ذلك بالفكرة العامة التي تنتظم هيكل السورة، ونعني بها فكرة (الشرك) وصلة هذه الاستجابات الشاذة بذلك.

لقد جاءت الصورة الأولىٰ لتقول لنا:ان الجاهلي (وهو يجعل لله البنات كما تحدث بذلك مقطعٌ سابق) يظل وجهه مسوداً حينما يُبشَّر بأن المولود له هو (أنثى). . . إن اسوداد الوجه هنا نابعٌ من كونه قائماً علىٰ تخيّل مَرَضيّ بأنّ

الأنثىٰ دون الذكر مرتبطة بإرادة السماء، أي خارجاً عن إرادة الشخص، وهو أمرٌ يتسبّب في تأزيم الشخصية وتوترها بنحوٍ بالغ الشدة حيث يجيء اسوداد الوجه تعبيراً ملائماً لدرجة التوتر الداخلي لأمثلة هذا الشخص المنحرف. ولا أدل علىٰ شدة التوتّر من انعكاس ما هو نفسي علىٰ ما هو عضوي أي: انعكاس الألم النفسي في التغير العضوي للوجه.

ولعل الصور الفنية التي تتابعت بعد ذلك: تفصح لنا عن الانعكاسات المذكورة بشكلٍ واضح، فصورة (الكظم) (وهو كظيم) تعبّر عن شدة الحزن والغيظ والحنق الذي يغلّف الشخص وانعكاس ذلك عليه في صورة (اسوداد الوجه)، كما أن صورة (التواري عن القوم) (يتوارىٰ من القوم من سوء ما بشر به) وصورة (إمساك الأنثىٰ علىٰ ذلك) أو (دسّها في التراب): تعكس النتائج المترتبة على اسوداد الوجه: المترتّب بدوره علىٰ شدة الحزن.

إن التواري عن القوم يعكس أشد الحالات المرضيّة عند المنحرف، أنه لا يقوىٰ علىٰ مواجهة الحقائق فيهرب منها متوارياً عن الآخرين، كما أن الصراع الذي يحياه بعد ذلك يعبّر بدوره عن أشد الحالات مرضاً عند المنحرف، فالصراع ـ في اللغة المرضية ـ تعبيرٌ واضح عن توتّر الشخصية وفقدانها للتوازن الداخلي، وعملية الصراع هنا تتمثل في كون المنحرف تتجاذبه قوتان: الأولىٰ أن يحتفظ بالأنثىٰ وهو ذليلٌ اجتماعياً، والأخرىٰ أن يدفنها في التراب، فالذل الاجتماعي يتعارض مع الحاجة إلى التقدير من الآخرين، كما أن الوأد يتعارض مع الحاجة أو الدافع إلىٰ البنوّة ولا يمكن إنهاء هذا الصراع إلاّ بتوفر الوعي العبادي للشخصية، وهو أمرٌ منعدم لدىٰ الشخصية الجاهلية أو أية شخصية منحرفة منعزلة عن السماء ومبادئها.

والملاحظ أن انعكاسات ذلك لا تنحصر في عصرٍ خاص بل تمتد إلىٰ مطلق العصور والثقافات، حيث نلحظ الاستجابات الشاذة حيال الأنثىٰ

المولودة في الحياة اليومية الحاضرة التي تحياها مجتمعاتنا.

وأياً كان الأمر، يعنينا ـ بعد ما تقدم ـ أن نشير إلىٰ إحكام البناء الهندسي للسورة من حيث الصلة الفنية بين مقدمة السورة ووسطها الذي تحدث عن مفهوم (الشرك) رابطاً بين أشكاله المختلفة وانعكاس ذلك ـ من ثم ـ في الاستجابات الشاذة حيال الأنثىٰ، علىٰ النحو الذي تقدم الحديث عنه.

* * *

قال تعالى: **﴿ولو يُؤاخِذُ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابةٍ ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمّىً فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون * ويجعلون لله ما يكرهون وتصف ألسنتهم الكذب انّ لهم الحسنىٰ لا جرم أنّ لهم النار وأنهم مفرطون * تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليّهم اليوم ولهم عذاب أليم * وما أنزلنا عليك الكتاب إلّا لتبيّن لهم الذي اختلفوا فيه وهدىً ورحمة لقوم يؤمنون﴾**.

في هذا المقطع طرحٌ وإعادةٌ لأفكار سابقة، إلا أنها وردت في سياق آخر. الجديد فيه هو تقرير لإحدىٰ حقائق السلوك المنحرف وصلته بالجزاء، فالسلوك المنحرف عن مبادىء الله، سواء أكان معصيةً تصدر من المسلم أو شركاً يصدر عن الكافر: إنما يجرّ وراءه مسؤولية ضخمة يتغافل الإنسانُ عنها في غمرة انغماسه في زخارف الحياة الدنيا، هذه المسؤولية تتمثل في ملاقاته لجزاءٍ حتمي حدده الله في اليوم الآخر. وقد سلك المقطعُ منحىً فنياً بالغ الإثارة حينما أوضح بأن مؤاخذة الناس علىٰ ظلمهم لو كان دنيوياً لما ترك الله علىٰ الأرض شخصاً منحرفاً إلاّ وأهلكه.

ومن الواضح أن مثل هذا الأسلوب في إنذار المنحرفين يدع الشخصية في موقفٍ مُرعبٍ كلّ الرعب ورهيبٍ كل الرهبة مما يضطرها ـ في غمرة هذه الاستجابة المحفوفة بالخوف الرهيب ـ إلى تعديل سلوكها إذا كانت ذات حظٍ

من التوفيق أو الاستعداد لتعديل السلوك.

والآن، بعد تقرير هذه الحقيقة المتصلة بالسلوك البشري والجزاءات المترتبة عليه، يعود المقطع إلىٰ طرح فكرة سابقة طرحها النص في مقطع أسبق يخصّ المنحرفين الذين أشركوا بالله من خلال جعلهم ما يشتهون من البنين: لأنفسهم وما يكرهونه من الأناث لله تعالى، حيث أعاد المقطع الجديدُ طرح هذا الجانب لكن من خلال مفهوم (الجزاء) الذي أشرنا إليه، فهؤلاء المنحرفون ﴿تَصِفُ أَلسِنَتُهُم الكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الحُسْنىٰ﴾ أي أن لهم الجزاء الإيجابي في سلوكهم المذكور. فالسياق الجديد هنا هو ربط الفكرة السابقة بقضية الجزاء الذي طرحه المقطع الجديد وهو أن الله لو يؤاخذ الناس بظلمهم لما أبقىٰ أحداً منهم علىٰ وجه الأرض.

إذاً، من حيث البناء الهندسي للنص نجد أن إعادة ما هو مطروح في مقاطع سابقة إنما طُرِح الآن في سياق جديد يتناسب مع أفكار المقطع الجديد وهو أمرٌ يُشيع جمالية فائقة من حيث إحكام عمارة النص وتواشج خطوطها الهندسية.

وهذا الإحكام نلحظه بوضوح أيضاً حيث سبق أن طرحها في مقاطع متقدمة أيضاً ونعني بها: الأفكار التي استهل النصُ بها (سورة النحل) بعد مقدمتها وهي قضية العطاء الذي أجراه الله علىٰ عباده متمثلاً في الثروة الحيوانية والطبيعية، فقد جاء الموضوع الأول من السورة متحدثاً عن (الأنعام) وإلىٰ أنها ذات (دفء ومنافع) و(طعام) و(جَمال) و(ركوب). كما جاء الموضوع اللاحق له مشيراً إلى ثروة المطر متمثلة في (التراب) و(إنبات الزرع)... هاتان الإشارتان لكل من المطر والأنعام يعيد المقطع الجديد صياغتها الآن: لكن في سياق جديد أيضاً، وفي طرح جديد أيضاً، ولنقرأ:

﴿والله أنزلَ مِنَ السماءِ ماءً فأحْيَا بِهِ الأرضَ بعدَ موتِها إنَّ في ذٰلِكَ لآيةً

لقومٍ يَسْمَعُون * وإنَّ لكم في الأنعامِ لَعِبْرة نسْقِيكُمْ مِمَّا في بُطونِهِ مِن بينِ فرثٍ ودمٍ لبناً خالِصاً سائغاً للشاربينَ * ومِنْ ثمراتِ النخيلِ والاعنابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سكراً وَرِزْقاً حَسَناً﴾. . . فالملاحَظُ هنا أنَّ كُلا مِنَ الأنْعَامِ والمطر والثمرات جاء وفق طرحٍ لم يُذكر سابقاً. . . إحياء المطر للأرض يجيء بعد الإشارة إلى موتها وليس مطلقاً، والأنعام يجيء الحديث عنها متصلاً بالحليب فحسب، والثمرات يجيء الحديث عنها من حيث كونها ذات سَكَرٍ ورزق حسن وليس من حيث كونها مجرد ثمر كما جاء ذلك في مستهل السورة.

إذاً، جاء الحديث عن هذه الثروات الطبيعية والحيوانية: جديداً مفصّلاً لما هو مجمل في مستهل السورة، أو طرحاً لمعطيات أخرىٰ يفرزها المطر والثمر والأنعام، كما أنه ذو صلة بما سوف نلحظه من موضوعات لاحقة في النص القرآني الكريم.

* * *

قال تعالى: **﴿وأوحىٰ رَبُّكَ إلىٰ النحلِ أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون * ثمَ كلي من كل الثمرات فاسلكي سُبلَ ربك ذُللاً يخرج من بطونها شرابٌ مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقومٍ يتفكرون﴾**.

هذا المقطع الخاص بإحدىٰ الثروات الحيوانية (النحل) امتدادٌ لمقطع سابق أشار إلى ثروات حيوانية وطبيعية أخرىٰ وقفنا عليها (المطر، الأنعام، الثمرات)، ولعل استقلال النص بالحديث عن هذه الثروة الحيوانية (العسل). هذا الاستقلال بالحديث عن (النحل وشرابها) له دلالته الفنية والفكرية دون أدنىٰ شك، فأولاً ثمة إشارة إلىٰ التركيبة التي تسم النحل من حيث كونها (قد أُلهِمت) اتخاذ المكان المعدّ لإفراز ثروتها الغذائية: العسل، (وأوحىٰ ربُّك إلى النحل. . .)، ثانياً: ثمة إشارة لحقيقة علمية تتصل بذكر المادة التي تتغذىٰ

منها... ثالثاً: ثمة إشارة علمية إلى تنوّع البيئات الموفّرة لها (الجبال، الشجر، العريش)... رابعاً: ثمة إشارة طبية إلىٰ المادة التي تفرزها (فيه: شفاء). أخيراً: ثمة إشارة (جمالية) إلىٰ المادة المذكورة. وهنا ينبغي ألاّ نغفل بأن مستهلّ سورة النحل عندما عرض لظاهرة الأنعام وسواها عرض لهما من حيث (الفائدة والجمال) (ولكم فيها جَمال) (لتركبوها وزينةً).

وها هو المقطع الذي نتحدث عنه يعرض أيضاً لهذا الجانب المزدوج للنحل (الفائدة والجمال) فيشير إلى الجانب الجمالي بقوله ﴿شرابٌ مُختلِفٌ ألوانُه﴾، ويشير إلى الجانب النفعي بقوله (فيه شفاء).

إذاً، من حيث عمارة النص هناك تواشجٌ هندسي يُحكم مقاطع السورة فيشيع فيها جماليةً فائقة من حيث الخطوط التي تنتظم هيكل النص.

وأما من حيث القيم الفكرية للمقطع فيكفي أن نشير إلىٰ أنَ أهمية ذلك لم تنحصر في الحقائق العلمية الأربع التي انطوىٰ عليها عرضُ السلوك المتصل بالنحل وبيئتها، بل أن الأهمية يتجاوز ذلك إلىٰ ضخامة الفائدة التي تنطوي عليها مادة (العسل): ليس بصفته نمطاً من الغذاء فحسب، ولا بصفته متميزاً بطعم خاص فحسب: بل بصفته (شفاءً) للأمراض، كما أن (الشفاء) لم ينحصر في الظواهر الجسمية فحسب: كما هو شأن الكثير من النباتات بل يتجاوز الظواهر الجسمية إلى الظواهر العقلية والنفسية، بمعنىٰ أن العسل يشكل مادةً طبيةً تساهم في شفاء الأمراض الثلاثة التي ينحصر المرضُ فيها ونعني بها: الأمراض الجسمية والنفسية والعقلية.

إن النصوص الواردة عن أهل البيت(ع)، تفصّل الكلام في هذا الجانب، مشيرةً إلى تنوّع الفوائد المترتبة علىٰ تناوله، ممّا يكشف لنا السرّ الفنيّ لاستقلال النص بالحديث عن النحل والعسل: كما أشرنا.

المهم، أن النص القرآني بعد أن يختم حديثه عن الثروات الحيوانية

والطبيعية بالحديث عن النحل، يتجه ـ بعد ذلك ـ إلىٰ طرح موضوعات أخرىٰ متنوعة تتصل بمعطيات الله المختلفة وبما يواكبها من ظواهر من مثل الحديث عن التركيبة الآدمية وما أودع فيها من المعطيات، ثم ما يتصل منها بمراحل العمر، وبالحياة الزوجية والعائلية والبيئية المسخرة للإنسان: حيث تصبّ هذه الموضوعات في رافد فكري موحّد يتصل بمعطيات الله، ثم ارتباطها ذلك كله الهيكل الفكري العام للسورة.

* * *

قال تعالى: **﴿والله خَلَقَكُم ثم يتوفّاكم ومنكم مَن يردّ إلى أرذل العمر لكي لا يعلم بعد علم شيئاً إن الله عليم قدير * والله فضّل بعضكم علىٰ بعض في الرزق فما الذين فضّلوا برادي رزقهم علىٰ ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء أفبنعمة الله يجحدون﴾**.

في هذا المقطع عرض لمعطيات الله المختلفة مصحوبة بذكر بعض الحقائق الكونية المتصلة بالإنسان وغيره...

لقد عرض المقطع حقيقة تتصل بتركيبة الإنسان، وعقله ومراحل عمره وموته وهدف إيجاده، مبيّناً أن البعض يمتد به العمر إلى أرذله وهو الهرم بحيث يصبح مثل الطفل في أول عمره **﴿لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شيئاً﴾**... إن هذه الحقيقة بالرغم من كونها تبدو وكأنها مجرّد تقديم معلومات عن عمر الإنسان ومرحلة هرمه وصلة ذلك بعقله، إلا أنها في الواقع تنطوي علىٰ جملة من المعطيات تتجاوز كونها مجرد علم بالحقائق، فالعلم منفصلاً عن الوعي العبادي لا قيمة له البتة، بل ينبغي توظيفه من أجل الهدف العبادي والإفادة منه في تصعيد السلوك أو تعديله. وقد ترك المقطعُ لنا مهمة الكشف لهذه الحقائق كلاً حسب تجربته ووعيه العبادي، فقد نستكشف أنّ قضية الميلاد والموت **﴿والله خلقكم ثم يتوفاكم﴾** ترتبط بهدف عبادي هو ممارسة الخلافة في

الأرض، ونستكشف من بلوغ الشخص مرحلة الأرذل من العمر حتى ليصل إلىٰ نقصان عقله، إنّه ينبغي أن يستثمر الإنسان مرحلة شبابه وكهولته لتحقيق المهمة العبادية قبل أن ينقص عقله، وهكذا.

المهم، أن خطورة الفن ـ في بعض خصائصه ـ أن يدع المتلقي مساهماً في الكشف عن الحقائق بنفسه لجملة من الأسباب، منها: إن عملية الكشف ذاتها هي ممارسة عبادية من حيث كونها تتطلب جهداً عقلياً في سياق الأنماط الأخرىٰ من الجهد المطلوب بذلُه في تجربة الإنسان، ومنها: إن عملية الكشف سوف تتوافق مع طبيعة الثقافة أو الوعي لدىٰ القارىء حيث يستكشف كلّ قارىء نمطاً خاصاً من الحقائق يتناسب مع تجربته الخاصة، وفي هذا إثراء للقراء جميعاً دون إخضاعهم لتفسير واحد من الأفكار، ومنها: أن عملية الكشف ذاتها تقترن بإمتاع جمالي عندما يجد الإنسان نفسه قد ساهم بالكشف عن الحقائق، لا أنّ الحقائق قد قدّمت إليه جاهزةً لا عناء في كشفها.

المهم، أن عملية الكشف التي يمكن أن تصدر عنها حيال قضية خلق الإنسان وموته وهرمه ونقصان عقله: يمكن الصدور عنه أيضاً حيال الموضوعات الأخرىٰ التي طرحها المقطع، ومنها: قضية الرزق فقد أشار المقطع إلى أن قضية الرزق مرتبطة بحكمة الله حيث فضل بعضهم علىٰ بعض في ذلك، وهو أمر قد تركه النص للقارىء أيضاً يستخلص بنفسه حكمة ذلك، متمثلة في أن زيادة الرزق عند البعض من الممكن أن تقتاده إلىٰ ما يكره في دنياه وآخرته مثلاً، وأن الحكمة اقتضت تقليله للسبب المتقدم، والأمر نفسه بالنسبة إلىٰ زيادة الرزق. ويُلاحظ أن المقطع ربط بين قضية الرزق وبين صلة الشخص بالعبيد الذين يملكهم ﴿فما الذينَ فُضلوا بِرَادي رِزْقِهِم علىٰ ما مَلكتْ أيْمانُهُمْ فَهُمْ فيهِ سَواءٌ أَفَبِنِعْمَةِ الله يَجْحَدُونَ﴾... وفقاً للنصوص المفسّرة، إن هذا الربط يتصل إمّا بالحقيقة الذاهبة إلى أن الرزق كله من الله: للأحرار

والعبيد حيث لا فضل للحر علىٰ العبد في إنفاقه عليه، أو يتصل بالحقيقة الذاهبة إلى أن كراهة الحر مشاركة العبيد أمواله ينبغي أن تقتاد المشركين إلىٰ رفض مقولتهم المنحرفة التي تحاول أن تضع شريكاً مقابلاً لله، فكما يكرهون مشاركة العبيد أموالهم: فلماذا لا يكرهون مشاركة الغير لله تعالى؟.

إن كلاً من التفسيرين له إسهامه الفنيّ في عمارة النص دون أدنىٰ شك، فما دام النص ـ بمجموعه ـ يطرح جملة من القضايا المتصلة بتوحيده الله وعطائه: حينئذٍ يسهم هذا التفسير أو ذاك في الفكرة العامة للسورة.

* * *

قال تعالى: **﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون * ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً من السماوات والأرض شيئاً ولا يستطيعون * فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾**.

هذا المقطع امتداد لمقطع سابق يتحدث عن نِعَم الله علىٰ الآدميين... إنه يشير إلىٰ الحياة الزوجية، ثم الذرية المترتبة على ذلك، ثم مطلق الطيّبات التي تحققَ مختلف الإشباع لحاجاتهم... وإزاء هذه الإشارة القائلة (ورزقكم من الطيبات) يعرج المقطع إلىٰ الفكرة التي طرحتها مقدمة السورة وهي فكرة تتحدث عن قيام الساعة والتحذير من الإنحراف والشرك... هذه الفكرة يصل النصُ الآن بينها وبين المقطع الذي يتحدث عن الرزق والطيبات فيقول **﴿ أفبالباطل يؤمنون و بنعمة الله هم يكفرون * و يعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً... فلا تضربوا لله الأمثال﴾** إنه (من حيث عمارة النص فنيا) يصل بين أجزاء السورة، كما أنه (من حيث الأفكار) إنما يربط بين نِعَم الله وبين ضرورة استثمارها للعمل العبادي، أي أن نِعَم الحياة الزوجية، والذرية، والطيّبات من الرزق ليست مجرد أهداف في حد ذاتها بل أنها ينبغي أن ترتبط

بمفهوم عبادي هو التوحيد: وليس جعل الانداد والامثال لله تعالى مع أنها لا تملك إمكانية الرزق وسواها مما طرحه المقطع.

هنا يتقدم النص برسم صورتين فنيتين أو ـ وفقاً للمصطلح النقدي ـ صورتين تمثيليتين لتعميق الدلالة المذكورة في الأذهان، ونعني بها دلالة (التوحيد) وما يقابلها من الفكر الوثني الذي يحاول إشراك الحجارة وغيرها في فاعلية الوجود، يقول النص: **﴿ضرب الله مَثَلاً عبداً مملوكاً لا يقدر علىٰ شيء و مَن رزقناه منّا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سراً وجهراً هل يستوون... الحمد لله بل أكثرُهم لا يعلمون * وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر علىٰ شيء وهو كلٌّ على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو علىٰ صراط مستقيم﴾**.

إنَّ هذين (المثلين) أو (الصورتين التمثيليتين) تنطويان علىٰ أسرار فنية بالغة الدهشة والجمال حينما نمعن النظر فيهما، فالصورتان تربطان بين فكرة التوحيد والشرك من خلال ظاهرة واحدة هي علاقة الحرّ والعبد من حيث إمكاناتهما المادية والعقلية، ففي الصورة الأولىٰ طرح المقطع إمكانية العبد مادياً فألغاها منها (عبداً مملوكاً لا يقدر علىٰ شيء)، وفي الصورة الأخرىٰ طرح إمكانيته العقلية فألغاها أيضاً **﴿أحدهما أبكم لا يقدر علىٰ شيء وهو كَلّ علىٰ مولاه﴾**.

إذاً، الإمكانات المادية التي يمكن أن تجعل الشخص ذا فاعلية في الإنفاق علىٰ الغير، والإمكانات العقلية التي يمكن أن تجعل الشخص ذا فاعلية في تمييز طرق الخير، هذه الإمكانات بنمطيها منعدمة لدىٰ المملوك، حينئذٍ كيف يسمح المنحرفون الذين يعون حيناً انعدام الإمكانات المذكورة عند المملوك: كيف يسمحون لأنفسهم (وهم مملوكون) لله أن يجعلوا لله أنداداً يشاركونه في فاعلية الوجود؟ مع أن الحجر لا يملك (وهو في ذلك في مثل

المملوك) أو أشد افتقاراً منه للفاعليات التي تسمح له بالمشاركة في الرزق أو سواه.

إن المملوك (وهو علىٰ قدرٍ قليل من فاعلية العقل والتصرف) لا يستوي مع الحر في حجم عقله وتصرّفه، فكيف يستوي الحجر (الصنم) مع الله تعالى مع أن الحجر لا يملك أية فاعلية في نطاق العقل والتصرّف.

ويُلاحَظ، أن المقطع طرح خلال هاتين الصورتين قضيتي الرزق والعقل من خلال رسمٍ خاص هو الانفاق سراً وجهراً (بالنسبة إلى الرزق)، والأمر بالعدل والمشي علىٰ صراط مستقيم (بالنسبة إلى العقل)، مما يعني أن مجرد الإمكانية المادية والعقلية لا قيمة لهما إلا إذا وُظفا من أجل العمل العبادي.

وهذا النمط من صياغة المفهومات بنحوها غير المباشر الذي لحظناه يُعدّ في قمة الدهشة والجمال الفني، فبدلاً من أن يتحدث المقطعُ مباشرة عن الإمكانات المادية وضرورة استثمارها من خلال الإنفاق سراً وجهراً، وبدلاً من أن يتحدث مباشرة عن الإمكانات العقلية وضرورة استثمارها عن خلال الأمر بالعدل والمشي علىٰ الصراط المستقيم... بدلاً من أن يتحدث النص عن ذلك بالنحو المباشر: سلك منحىً فنياً غير مباشر يجعل القارىء يستكشف بنفسه هذه الدلالة سواء أكان ذلك بوعي منه أو بغير وعي.

المهم، أن مستويات الصياغة الفنية للأفكار المشار إليها قد تمت من خلال بناء عماري متلاحم الجزئيات بسمات الجمال والدهشة، سواء أكان ذلك في نطاق المقطع أو نطاق مقاطع السورة جميعاً.

* * *

قال تعالى: ﴿ولله غَيْبُ السماواتِ والأرض وما أَمْرُ الساعةِ إلاّ كَلَمْحِ البصر أو هو أقربُ إن الله علىٰ كل شيء قدير * والله أخرجكم مِنْ بُطونِ أُمهاتِكم لا تعْلَمُون شيئاً وجَعَلَ لكم السَّمْعَ والأَبْصارَ والأفئِدَة لعلّكم تشكرون *

ألم يروا إلىٰ الطير مسخرات في جوّ السماء ما يمسكهن إلا الله إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون. . .﴾.

هذا المقطع وما بعده يتحدث عن جملة من معطيات الله تعالى، وهي معطيات تكفلت سورة النحل بعرض نماذج كثيرة منها بدأتها بمعطى الثروات الحيوانية والطبيعية وبمعطيات أخرىٰ تتصل بتركيبة الإنسان وحياته الفردية والاجتماعية، واصلةً ذلك بالمفهوم العبادي للسلوك، أي: مُطالِبةً الإنسان بإدراك هذه المعطيات وتوظيفها من أجل الله.

إن سرد هذه المعطيات يتمّ وفق بناءٍ هندسي يتوزّع كل قسم منها في مقطع خاص يتخلله طرح لقضية عبادية وهكذا. . .

المقطع الذي نتحدث عنه قد استُهل بقضية مهمّة هي قيام الساعة بصفتها الحصيلة التي تحسم مستقبل الإنسان أخروياً وفقاً لما مارسه من السلوك العبادي في حياته الدنيا، لقد استُهلت سورة النحل بالحديث عن قيام (أتىٰ أمر الله فلا تستعجلوه. . .).

وها هو المقطع الذي نتحدث عنه يصل بين قيام الساعة التي استُهلت السورةُ بها وبين المعطيات المتنوعة التي أعقبت الحديث عن قيام الساعة، بمعنىٰ أن المبنىٰ الهندسي للسورة لا زال يحوم علىٰ موضوعين يرتبط أحدهما بالآخر: قيام الساعة والمعطيات، كل ما في الأمر أن كل مقطع جديد يطرح موضوعاً جديداً. . . الجديد هنا، أن المقطع تحدث عن قيام الساعة من خلال كون وقوعها سريعاً (كلمح البصر أو هو أقرب) حيث يشكّل هذا الموضوع تفصيلاً لما أجملته مقدمة السورة التي قالت **﴿أتىٰ أَمْرُ الله فلا تسْتَعْجلوه﴾**. إن المطالبة بعدم الاستعجال يفصلها المقطع الآن قائلاً بأن ذلك كلمح البصر أو هو أقرب.

هذه الصورة الفنية (التشبيه) تجسّد أكثر من سمة فنيّة، فهي ليست قائمة

على المبالغة في وصف الشيء بل تجسّد واقع الغيب بنحوٍ يتجانس مع الإدراك البشري المحدود. فقيام الساعة وكونه مثل لمح البصر أو أقرب هو أمرٌ حقيقي بالنسبة إلىٰ فاعلية الله تعالى، بل أن قوله تعالى بأن قيام الساعة أقرب من لمح البصر إنما يدع القارىء مرشحاً لأن يتصوّر مدىٰ قدرة الله التي لا تحدّ. . . ولا شيء يقرّب إلى القارىء هذه الدلالة أكثر من الإشارة إلى أن فاعلية الله لا حدود لها، بحيث أن الشيء الذي هو أقرب من لمح البصر بالنسبة لإمكانات الله سوف لن يتحدد في مدىً أو زمان نسبي بل يظل مطلقاً متناسباً مع الفاعلية المطلقة لله تعالى.

إذاً، هذه الصورة الفنيّة أو (التشبيه) ليست ـ كما يتوهم البعض ـ قائمة علىٰ المبالغة في توصيف الشيء بل أنها تجسد الواقع الغيبي أو إمكانات الله بحقيقتها المطلقة، وهو أمر يكشف عن مدىٰ خطورة البُعد الفنيّ لهذه الصياغة.

والآن بعد أن ينتهي المقطع من هذه المقدمة المتصلة بقيام الساعة: يبدأ بوصلها فنياً بالمعطيات المتنوعة التي يطرحها الآن في المقطع الجديد، ليصلها بعد ذلك أيضاً بالحديث عن الساعة وما يترتب عليها من خلال السلوك البشري الذي يتعامل عن المعطيات وعن قيام الساعة أيضاً. .

إذاً، نحن الآن أمام مبنى هندسي بالغ الإحكام والجمالية من حيث تلاحم الموضوعات وتواشجها بعضاً مع الآخر. . . والمطلوب هو أن نعرض لهذه المعطيات التي سَرَدها المقطع.

لقد تحدث المقطع عن كون الإنسان (وقد خرج من بطن أمّه لا يعلم شيئاً): ثم جعل له السمع والبصر والفؤاد لعلّه يشكر الله، وتحدث المقطع عن كون ﴿الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلاّ الله﴾ وإنَّ في ذلِك ﴿لآيات لقوم يؤمنون﴾.

لقد انتخب المقطع ظاهرتين تتصل إحداهما بالإدراك البشري (سمع، بصر، فؤاد)، والأخرىٰ بإبداع الطير: علماً بأن مقدمة السورة وما بعدها تحدثت مفصلاً عن الثروات الحيوانية وتسخيرها للإنسان، وهو أمر يكشف لنا تجانس الطرح لهذا الجنس الحيواني جُمِعَ فيه بين كونه إبداعاً من الله وكونه مسخراً للإنسان، كما أنه يتجانس فنياً مع الطرح للجنس البشري الذي أوضح الله مدىٰ السمات الإبداعية فيه (سمع، بصر، فؤاد).

إذاً، لا زلنا نتحسس مدىٰ جمالية وإحكام المبنى العماري للسورة وللمقطع الذي تحدثنا عنه من حيث وصل الموضوعات بعضها مع الآخر بذلك النمط الفني الذي لحظناه، حيث يتابع النص القرآني طرح الموضوعات الأخرىٰ المتصلة بمعطيات الله أيضاً: خلال مقاطع لاحقة سنقف عليها.

* * *

قال تعالى: ﴿**والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلىٰ حين * والله جعل لكم مما خلق ظلالاً، وجعل لكم من الجبال أكنانا وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تُسلمون * فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين * يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون**﴾.

هذا المقطع امتدادٌ لآيات سابقة تتحدث عن معطيات الله تعالى في مختلف المجالات بشرياً، حيوانياً، نباتياً، من حيث صلتها بحاجات الإنسان وإشباعها... المقطع الحالي يتحدث عن الحاجة المتصلة بالمسكن، والملبس بعد أن كانت المقاطع السابقة تتحدث عن المطعم ونحوه.

إن كلاً من المسكن والملبس يمثل حاجات أساسية لا مناص منها في عملية التكييف مع الحياة، حيث أشار المقطع أولاً إلى الحاجة السكنية متمثلةً

في قطعة الأرض التي تُتخذ (بيتاً) يأوي الإنسان إليه بنحو عام، ثم تحدث عن البيوت المتنقلة التي تخص الأقوام غير المستقرين، مشيراً إلىٰ الإفادة من جلود الأنعام في صناعة البيوت المذكورة، وإلى الإفادة من أصواف الضأن وأوبار الإبل وأشعار المعز في التصنيع المتصل بالفرش وغيرها من أمتعة البيت. كما أشار المقطع إلىٰ البيوت الجبلية أيضاً مثل (الكهوف) ونحوها مما تخص بيئات معنية.

ويلاحظ أن الإشارة إلىٰ البيئة السكنية: تمّت من خلال استغراقها لكل البيئات والأقوام: حيث تحدث عن مطلق البيوت أولاً حيث يتداعىٰ الذهن من خلالها إلىٰ بيئة المدينة، ثم تحدث عن البيئات الصحراوية والجبلية، مفصحاً بهذا النمط من الحديث عن كون النص القرآني يجمع ـ فنياً ـ بين العام والخاص لتتحقق بذلك سمة الفن الذي لا يخص زمناً دون آخر ولا قوماً دون آخرين.

بعد ذلك، تحدث المقطع عن الحاجة المتصلة بالملبس بعد الانتهاء من الحديث عن المسكن فأشار إلى الملبس بنمطية المدني والعسكري ملفتاً النظر ـ بهذا الاصطناع لنمطي الملبس ـ إلىٰ أهمية الحياة العسكرية بنحوٍ فنّي غير مباشر ﴿وجعل لكم سرابِيلَ تَقِيكُمُ الحَرَّ وسَرابِيلَ تقيكم بأْسَكُمْ﴾.

المهم، أن المقطع ـ وهو يتحدث عن المعطيات المذكورة ـ إنما يصل بينها وبين الهدف العبادي من خلق الإنسان وهو فكرة السورة بنحو عام حيث تحوم الموضوعات المختلفة عليها. يقول المقطع معقباً علىٰ النِعَم المذكورة (كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تُسلمون).

إذاً، فسردُ هذه النعم مستهدف أساساً حيث إن توفيرها للإنسان ينبغي أن يقتاده إلىٰ أن (يُسلم) لله تعالى. لكن بما أنّ مقدمة السورة (سورة النحل التي نتحدث عنها) قد أشارت بقولها ﴿خَلَقَ الإنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فإذَا هو خَصِيمٌ مُبين﴾

حينئذٍ نتوقع ألا يُسلم غالبية الناس وأن يجنحوا إلىٰ المغالطة والمجادلة والمخاصمة في القول، وهذا ما أوضحه المقطع الذي نتحدث عنه حيث يقول تعقيباً علىٰ نِعَم الله التي ينبغي أن تقتاد الشخص إلىٰ تقديرها(يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها و أكثرهم الكافرون).

* * *

قال تعالى: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربىٰ وينهىٰ عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون * وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون * ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوةٍ أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمّة هي أربىٰ من أمّة إنما يبلوكم الله به وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون﴾.

هذا المقطع من سورة النحل يتحدث عن جملة من مبادىء السلوك التي ينبغي علىٰ الشخصية الإسلامية أن تلتزم بها وقد سبقها حديث عن اليوم الآخر والجزاء الذي ينتظر المنحرفين واستسلامهم لهذا الجزاء: حيث جاء ذلك تعقيباً علىٰ نِعم الله التي أنكرها المنحرفون.

ومعلوم أن الحديث عن نعم الله في مختلف المجالات التي سخرها الله للآدميين هو المحور الذي حامت عليه سورة النحل. والآن حينما يطرح المقطع الذي يتحدث عن جملة من مبادىء السلوك، يصله بنفس الفكرة الحائمة علىٰ معطيات الله تعالى، حيث يعقّب النص علىٰ ذلك بقوله ﴿يَعِظُكُم لعلكم تَذَكَّرُون﴾ حيث أن عملية التذكّر هي الخيط الهندسي الذي يربط بين نعم الله وبين مختلف المبادىء الإسلامية التي يطالب الله بالالتزام بها. لقد طالب المقطع بكلٍ من العدل، والإحسان، وإيتاء ذي القربىٰ، كما طالب بالابتعاد عن الظلم، والفحشاء، والمنكر. هذه المفردات من السلوك تجيء في سياق

الفكرة العامة للسورة للفت النظر إلى أهميتها ما دام دأبُ النص ـ من الزاوية الفنية ـ هو تقديم ما يستهدفه ضمن مقاطع مختلفة ينهض كل واحدٍ منها بقسم من الأفكار الثانوية. ويُلاحَظ، أن المقطع خَتِمَ حديثه عن مبادىء السلوك المذكورة بظاهرة القَسَم أو اليمين، حيث أكّد قائلاً **﴿ولا تَنْقُضوا الأيمانَ بعدَ توكيدها وقد جعلتُمُ الله عليكم كفيلا﴾** ثم قدّم صورة فنيّة تتمثل في (تشبيه) بين المرأة الحمقاء التي تنقض ما تغزله وبين الحمقىٰ الذين يقسمون بالله ثم ينقضون قَسَمهم بمخالفة ذلك: إيثاراً لمتاع الحياة الدنيا.

واضحٌ، أن النص القرآني الكريم عندما يؤكّد علىٰ سلوكٍ دون آخر، وعندما يفصّل الحديثَ عن هذا السلوك، وعندما يقدم (صورة فنية) عنه: إنما يعني ذلك: أهمية السلوك المذكور وانعكاساته علىٰ الشخصية الإسلامية.

إن القَسَم بالله ليس مجرد عملية توثيقَ يلجأ الشخصُ إليها لتأكيد حقٍ من الحقوق مثلاً بل يتجاوز ذلك إلىٰ كون القَسَم مرتبطاً بأقدس ما يمكن تصوّره في الوجود وهو: مُبدعُ الوجود، وهذا يعني ضرورة أن يتقيّد الإنسان بالقَسَم ما دام الوجود كله ـ بما في ذلك: المكسب الذي يسعىٰ الشخص إلى تحصيله من خلال القَسَم بالله ـ مرتبطاً بفاعلية الله... من هنا قدّمَ النص (تشبيهاً) فنياً بالغ الأهمية حينما ربط بين ظاهرة مألوفة في أذهان الناس وهي نقض الغزل بعد أن تصرف المرأة جهداً كبيراً في صناعته.

إن الهدف من (الغزل) هو: الإفادة منه، أي إشباع الحاجة التي يتحسسها الشخص، كما أن صرف الوقت والجهد من خلال ذلك إنما هو تأكيد لأهمية تلك الحاجة. حينئذٍ إذا نقضت المرأة كلَّ ما غزلته لا يعدو كونها حمقاء لا تملك قابلية على التمييز، وهو نفس السمة التي تطبع الشخص عندما يفتقد قابلية التمييز بين أهمية (القَسَم بالله) وبين المكسب الدنيوي العابر الذي مرّره من خلال (القسم بالله). فإذا كان هدف الإنسان هو الحصول علىٰ مكسب

ما، حينئذٍ ما فائدة أن يمارس سلوكاً يفضي به ليس إلىٰ ضياع المكسب المذكور فحسب بل ضياع الوقت والجهد اللذين بذلهما من أجل المكسب المذكور، وهو نهاية الحَمَق الذي يمكن أن نتصوره في أمثلة هذا السلوك.

إذاً، جاءت الصورة الفنية المذكورة (تشبيه نقض القَسَم بنقض النسيج أو الغَزْل) تجسيماً حيّاً لإبراز أحد أنماط السلوك المقترن بحماقة الإنسان: بخاصة أن التشبيه وقد حام علىٰ (المرأة) التي تمارس الغزل حيث أنّ ضآلة قواها النفسية والعقلية والجسمية يجعل قضية نقضها للغزل أو لمطلق المكاسب مقترناً بحماقةٍ أشد حجماً من سواها، بمعنىٰ أنه لا حماقة أشدّ من كون الإنسان: يتخذ (القسم بالله) جسراً لتمرير مصالحه التي يُخيّل إليه أنه سوف يحققها، في حين أن الجهد والوقت اللذين بذلهما من أجل المكاسب العابرة سوف يتلاشيان تماماً من خلال تهديمه بنفسه للمكسب المذكور، وهو نهاية الحماقة كما أشرنا.

ويلاحظ أن النص القرآني الكريم لم يكتف بالنهي عن القسم بالله ﴿تَتَّخِذُونَ أَيمانَكُم دَخَلاً بَيْنَكُم﴾ بل أكّده من جديد في آية مستقلة لاحقة ﴿ولا تَتَّخِذُوا أَيْمانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُم فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبوتِها﴾. هذا التأكيد (من خلال إعادة النهي) يدلنا علىٰ مدىٰ مفارقة السلوك المذكور وضرورة التفكير بنتائجه المنهيّ عنها: بصفة أنه سلوك يومي يصدر عنه الشخوص في مختلف مجالات تعاملهم دون أن ينتبهوا علىٰ مدىٰ المسؤولية المترتبة عليهم في هذا الميدان علىٰ النحو الذي تقدم الحديث عنه.

* * *

قوله تعالى: ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم * إنه ليس له سلطان علىٰ الذين آمنوا وعلىٰ ربهم يتوكلون * إنما سلطانُه علىٰ الذين يتولَّونه والذين هم به مشركون﴾.

هذا المقطع يتحدث عن الاستعانة بالله في دفع وساوس الشيطان محدداً صلة الشيطان بالمنحرفين وانقطاعها عن الملتزمين.

إن هذا المقطع بالرغم من وضوح دلالته، إلا أنّه يلخص تجربة الإنسان العبادية وتحديد هويته التي تترتب عليها صياغة مستقبله الخالد وعلاقة ذلك بقربه من الله تعالى أو بُعده عنه تعالى، فضلاً عما يترتب علىٰ ذلك من الجزاء الأبدي: النعيم أو الجحيم.

أهمية هذا المقطع تتمثّل في جانبين: أحدهما فاعلية الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، ثم ما يترتب علىٰ ذلك من تحديد العلاقة بين الله والشخص من جانب وبينه وبين الشيطان من جانب آخر. أمّا الاستعاذة فبالرغم من كونها سلوكاً لفظياً إلا أنه يقترن ـ دون أدنىٰ شك ـ بمدىٰ تفاعل الشخصية وجدانياً مع دلالة الاستعاذة... بمعنىٰ أن انفعال الشخصية وتمثّلها وتجاوبها الداخلي وقناعتها بما تنطوي عليه دلالة الاستعاذة إنما يترك أثراً كبيراً في تعديل سلوك الإنسان.

وإذا أدركنا أن القلب أو النية هي الأساس في السلوك، أمكننا حينئذٍ أن نفهم فاعلية الاستعاذة بالله من وساوس الشيطان.

إن توجّه الشخص إلى الله وطلبه منه تعالى أن يدفع عنه وساوس الشيطان (مع استعداده لترجمة ذلك إلى سلوك عملي) يجسّد الفاعلية التي أشرنا إليها.

صحيح أن المقطع يتحدث عن «الاستعاذة» في صعيد محدد هو (قراءة القرآن) أي: عند الصلاة مثلاً أو مطلق التلاوة، حيث أن الاستعاذة المذكورة تسحب فائدتها علىٰ القارىء للقرآن من حيث عدم وقوعه في أخطاء القراءة أو تفسيرها، إلا أن هذا الصعيد الخاص من الاستعاذة ينبغي سحبه علىٰ السلوك العام أيضاً بدليل النصوص الشرعية الأخرىٰ التي تحوم علىٰ هذا الجانب العام: مثل المعوذتين اللتين تطالبان الشخص بأن يعوذ بالله تعالى من شر خلقه، من

شر غاسق إذا وقب، من شر النفاثات في العقد، من شر حاسد إذا حسد. . . من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس. . . الخ.

والآن، خارجاً عن الاستعاذة المذكورة من حيث خصوصيتها في قراءة القرآن أو عموميتها في مطلق السلوك، خارجاً عن ذلك، فإن المقطع ـ كما قلنا ـ ينتقل من هذا الجانب إلى جانب آخر هو تحديد سلطة الشيطان وانعدامها بالنسبة إلى المنحرف أو الملتزم.

بالنسبة إلىٰ المنحرف يحدد النصُ القرآني الكريمُ سلطة الشيطان: بأنها منحصرة في الأشخاص الذين يتولونه أي يطيعون شهواتهم غير المقيدة بمبادىء الله بنحو عام، وفي الأشخاص المشركين به تعالى.

ومن الواضح أن شطر المنحرفين إلىٰ أشخاص يطيعون الشيطان بنحو عام: كما لو مارس المسلمُ مثلاً هذا الذنب أو ذاك، وإلى أشخاص مشركين بخاصة، إنما يدلنا علىٰ عمومية النص القرآني الكريم من حيث مخاطبته للشخصية الإسلامية وغيرها، كما يدلنا علىٰ اهتمام النص بالنمط الإنحرافي المشرك: بصفة أن السورة من جانبٍ خصّصت مساحةً كبيرة منها بمعالجة السلوك المشرك، وإلىٰ أن هذا السلوك ـ من جانب آخر ـ يمثّل (ليس شريحة اجتماعية في زمان خاص هو: زمان النبيّ(ص) في مواجهته للمشركين فحسب) بل يتجاوزه ـ وهذا هو السمة الفنية للنص القرآني الكريم ـ إلىٰ مطلق السلوك المشرك الذي يقرن ما هو من أجل الله بما هو ليس من أجل الله.

والمهم، أن المقطع القرآني المذكور عندما حدّد صلة المنحرفين بالشيطان (فاسقين ومشركين) وإلى أن سلطته منحصرة فيهم: قد حدّد قبل ذلك ـ كما أشرنا ـ علاقة ذلك مع المؤمنين حيث أعدمها نهائياً بقوله تعالى ﴿انه ليس له سلطان علىٰ الذين آمنوا وعلىٰ ربهم يتوكلون﴾.

وهذا يعني أن (المؤمن) ـ وهو الملتزم بمبادىء الإسلام ـ لا سبيل

للشيطان إلىٰ قلبه. . . ثم أفرز المقطع من الشخصية المؤمنة: سمة خاصةً شدّد عليها وهي سمة (التوكّل)، فبالرغم من أن (التوكل) هو واحد من سمات الشخصية المؤمنة، إلا أن إفرازه في سمة خاصة وإكسابها استقلالاً، إنما ينطوي علىٰ أهمية (التوكل) علىٰ الله في دفع وساوس الشيطان، وهو توكلٌ يرتبط ـ من حيث البناء العماري للمقطع ـ بقضية الاستعانة بالله من الشيطان الرجيم حيث استهل المقطع بها.

إذاً، أمكننا الآن إدراك كلٍ من الجانبين الفكري والفني لهذا المقطع القرآني. . . الفكري الذي تحدث عن أهمية الاستعانة بالله وتحديد علاقة الشيطان بالمنحرف وانعدامها عند الملتزم. . والفني الذي لحظنا مدىٰ تلاحم مفردات المقطع المذكور فيما بينها، بالنحو الذي تقدم الحديث عنه.

* * *

قال تعالى: **﴿وإذا بدّلنا آية مكان آيةٍ والله أعلم بما ينزّل قالوا إنما أنت مفترٍ بل أكثرهم لا يعلمون * قل نزّله روح القدس من ربك بالحق ليثبّت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين * ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلّمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين * إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم * إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون﴾**.

في هذا المقطع طرحٌ لبعض أنماط السلوك عند المنحرفين، حيث ذكرت السورةُ في مقدمتها إن الله **﴿خَلَقَ الإنسانَ مِنْ نُطْفَةٍ فإذا هُوَ خَصِيمٌ مُبين﴾**، وها هو المقطع الحالي يجسد لنا ـ فنياً ـ بعض أنماط الجدال والمماحكة والتخاصم الذي يصدر عنه المنحرف: تبعاً للمقدمة التي أشارت إجمالاً إلى هذا الجانب وتفصله الآن في هذا المقطع وغيره.

من أنماط المخاصمة أو المماحكة أو الجدال المَرَضي: ذهابُ

المنحرفين (وهم المشركون المعاصرون لرسالة الإسلام) إلىٰ أن محمد(ص) مفترٍ بدليل أن القرآن مبدّل بعض آياته مثلاً ﴿وإذا بَدّلْنا آيةً مكانَ آيةٍ ﴾. . . وذهابهم أيضاً إلى أنه(ص) يعلّمه بشرٌ مثله في ميدان سرد القصص وغيرها، حيث تذكر النصوص المفسرة أن بعض النصارىٰ هم الذين عناهم المنحرفون في الادّعاء المذكور.

وقد أجابهم النص علىٰ الادعاء الأول: بأن تبدّل آية مكان آيةٍ إنما يخضع لحكمة الله تعالى ﴿والله أعْلَمُ بِما يُنَزِّلُ﴾ وأجابهم علىٰ الادعاء الآخر بأن لسان أولئك النصارىٰ المزعومين هو (أعجمي) في حين أن لغة القرآن عربيةٌ مبينة ﴿لِسانُ الذي يُلْحِدُونَ إليهِ أَعْجَمِيٌّ وهذا لِسانٌ عربِيٌّ مُبِين﴾.

بعد ذلك يتحدث النص عن فئات أو أفراد قد يصدر عنهم نمط من السلوك غير المقبول ظاهراً، وهذا مثل مَن يمارس (التقية) مثلاً حيث يقدّم النص تفسيراً لمسوغات هذا السلوك ومستوياته وافتراقه عن سواه.

فهناك ـ كما يقول المقطع ـ (مَن أُكره وقلبه مطمئن بالإيمان) أي مَنْ يكره من قِبَل الطغاة علىٰ أن يقول كلاماً يتفق مع وجهة نظرهم، مثل هذا الشخص لا غبار علىٰ سلوكه ما دام قد مارس هذا السلوك لفظياً دون أن يصدر عن حقيقة أعماقه، إنما مارسه ليحقن بذلك دَمه. وقد ذكر النص نموذجاً عملياً للإيمان لدىٰ أمثلة هؤلاء الذين مارسوا (التقية) متمثلاً في أولئك الذين ﴿هاجروا من بعد ما فُتنوا ثم جاهدوا وصبروا﴾ كما يقول النص، حيث عقّب علىٰ سلوكهم المذكور قائلاً: ﴿إن ربك من بعدها لغفور رحيم﴾ بمعنىٰ أنه تعالىٰ يغفر للنمط الذي عُذِّبَ في الله وجامل الطغاة لفظياً بأن وافقهم ظاهراً علىٰ وجهة نظرهم المنحرفة.

أمثلة هذا النمط ما دام قلبه مطمئناً بالإيمان مغفور له: علىٰ الضدّ من النفر الذي يتجاوب واقعياً مع أفكار الطغاة حيث عقّب علىٰ هذا النفر

المتجاوب قائلاً ﴿ولكن مَن شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله﴾.

إذاً، ثمة معيار رسمه المقطعُ بالنسبة لمن يمارس سلوكاً لفظياً مخالفاً لحقيقة أعماقه، هذا السلوك مقبول إسلامياً إذا كان الشخص قد أكره عليه بنحوٍ يحقن به دمه. بيد أن ذلك ـ كما تفصّله نصوصُ الحديث الوارد عن النبي(ص) وأهل بيته المعصومين(ع) ـ مشروط بأوضاع خاصة يستطيع الشخص بنفسه أن يقدر من خلالها ما إذا كانت (التقية) لها مسوغاتها أم لا، فإذا كانت ـ التقية ـ تجرّ الشخص إلىٰ أن يسفك دماً محللاً مثلا حينئذٍ لا تقية في هذا الميدان لأنها شرّعت أساساً من أجل حقن الدم، فلا معنىٰ حينئذٍ لأن يسفك دماً من أجل حقن دمه كما لو اضطر أحد الجنود المنتسبين إلىٰ سلطة ظالمة أن يقتل أخاه في الإيمان: حينئذٍ لا معنىٰ لأن يمارس الجنديُ المذكور (التقية) فيقتل أخاه المسلم ليحقن به دمه بل يتعيّن عليه تحمّل كلٍ من السجن أو التعذيب.

والأمر نفسه بالنسبة لموارد أخرىٰ تتحدد المصلحة من خلالها في عدم (التقية)... والمهم، أن الشخص نفسه أعرف من سواه بالموارد التي ينبغي استخدام (التقية) فيها أو عدم ذلك، بالنحو الذي أشرنا إليه.

* * *

قال تعالى: ﴿وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنةً يأتيها رِزْقُها رَغَداً من كلّ مكان فكفرتْ بأنْعُمِ الله فأذاقَها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون * ولقد جاءهم رسول منهم فكذّبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون﴾.

هذا المقطع يتضمن صورة فنيّة من الصور التي تأخذ أشكالاً متنوعة من التركيب في النصوص القرآنية الكريمة.

الصورة هنا (تمثيلية) مقابل الصورة (التشبيهية)... الصورة التشبيهية قد تكون ذات واقع «حسي» وقد تكون (نفسية) لا واقع لها في الحسّ، أو قد تكون (غيبية) لا واقع لها في التحربة الحياتية...

أما (التمثيلية) فتتجسّد في واقعة قد تكون ذات طابع تجريبي حَدَث، أو يمكن أن يحدث فعلاً. . . ولعل أهمية هذه الصورة يفرضها سياق خاص يحقق قسطاً كبيراً من الإثارة.

السياق هنا يتمثل في الآية الكريمة التي تعقب علىٰ صورة المدينة التي كانت آمنةً مطمئنة ذات يوم، ينعم أهلها بمختلف الطيبات، إلا أنهم لم يقدّروا هذه النعمة، فأذاقهم الله لباس الجوع والخوف. لقد عقبت الآية الكريمة علىٰ هذا الجانب بقولها ﴿ولقد جاءهم رسولٌ مِنهُمْ فكذّبوه فأخَذهُم العذابُ وهم ظالمون﴾.

الهدف إذاً، هو مجيء رسالة الإسلام حيث كذّب الجاهليون هذه الرسالة ﴿فأخذهم العذابُ وهم ظالمون﴾. والصورة (التمثيلية) جاءت لتبلور هذا السياق الذي وردت فيه: حتى يتم من خلال التماثل بين المدينتين المدينة السابقة التي كفرت بأنعم الله. . والمدينة الحاضرة التي كفرت برسالة الإسلام، يتمّ إحداث التأثير المباشر علىٰ المتلقي.

والمألوف في صياغة الصور الفنية (ومنها: صور القرآن ذاته) أن يتقدم الطرف الأول، أي: المشبّه علىٰ المشبه به: كما لو افترضنا أنّ المقطع الذي نتحدث عنه يقول للمنحرفين: إذا كفرتم برسالة الإسلام فسوف يكون نصيبكم مماثلاً لقوم سابقين كفروا بنعم الله مثلاً، إلا أنه ـ في الصورة التمثيلية المتقدمة ـ جعل الأمر معكوساً، فما هو السرّ الفني في ذلك؟.

في تصورنا أن قضية التقديم تنطوي علىٰ لفت النظر لأهمية وخطورة ما يعتزم النص تقديم المثال له: فأولاً نجد أن السورة الكريمة ركّزت علىٰ قضية نعم الله المختلفة علىٰ الآدميين (الأنعام، النحل، المطر، النبات. . . الخ) وحينما قدمت الصورة التمثيلية المتصلة بسلوك المنحرفين إنما ركّزت أيضاً علىٰ جانب النِعَم، فلم تتحدث عن الجانب العقيدي عند هذه القرية بل تحدثت

عن الكفران بالنعم فحسب، وهو أمر يتساوق مع المحور الفكري للسورة كما يفسّر لنا تقديم هذا الجانب مضافاً إلىٰ خطورة ما ترتب علىٰ الكفران بالنعم مما يسوغ التقديم للمشبه به أيضاً.

والمهم الآن هو الوقوف عند محتويات الصورة التمثيلية أولاً وصياغتها ثانياً.

أما محتوياتها فتتمثل في تقديم جانبين يشكلان أهم دوافع الشخصية هما: الحاجة إلى الطعام والحاجة إلى الأمن، أما الحاجة إلى الطعام فلأنها تحقق استمرارية وتدفّق الحياة، وأما الحاجة إلى الأرض فلأنها ـ في حالة توفر الطعام دون أن يصحبه أمن واستقرار ـ تظل مطبوعة بأهمية كبيرة هي عدم فائدة توفير الطعام المصحوب بالخوف نظراً لعدم إمكانية التحسّس بمعطيات الطعام. هذا يعني أن محتويات الصورة التمثيلية جاءت منتقاة منتخبة بنحوٍ يتوافق مع أشد الحاجات أهميةً وإلحاحاً عند الإنسان.

لننظر جديداً إلى صياغة هذا الجانب (قريةً كانت آمنة مطمئنة) ثم (يأتيها رزقُها رَغَداً) حيث شددت الصورة علىٰ كل من (الاطمئنان) و(الأمن) مع أن أحدهما كافٍ في إثارة الهدف الفكري، إلا أن تسجيل كليهما (الأمن والاطمئنان) يكشف عن أشد مستويات الإشباع المتحقق في القرية المذكورة. والأمر نفسه بالنسبة إلى كون (رزقها يأتيها رغداً) فسِمةُ (رغد) تعني أشد مستويات الاشباع أيضاً حيث: إنّ مجرد مجيء الرزق وتوفره كاف في إثارة الهدف، لكن النص بإضفاء صفة (الرغد) علىٰ الرزق أكسبه مزيداً من الإشباع أو التوازن أو الراحة التي طبعت مجتمع القرية المذكورة.

الملاحظ أيضاً، أن (التمثيل) المتقدم تضمن صورة فرعية داخل الصورة الرئيسة... الصورة الرئيسة هي (الأمن والاطمئنان والرزق الرغد)، وأما الفرعية فهي صورة (فأذاقها الله لباس الجوع والخوف) إلا أن هذه الصورة

الفرعية جاءت (صورة مركبة: تشبيه، استعارة، كناية، إلخ) حيث ربط المقطع بين ظاهرتين هما: الجوع أم الخوف واللباس، أي أوجَدَ علاقة جديدة بينها هي: كون كل من الجوع والخوف قد خُلِعَ عليه اللباس.

وأهمية هذا الخلع ـ من الزاوية الفنية ـ تتمثل في شمولية وشدة الخوف والجوع بحيث يغطيان مجتمع القرية مثلما يغطّي اللباسُ البدن.

إذاً، أمكننا الآن إدراك أهمية الصور التمثيلية بمستوياتها المختلفة فضلاً عن بنائها المادي الذي يربط بين أجزاء المقطع الواحد، وبين المقاطع المختلفة بالنحو الذي سنتحدث عنه.

* * *

قال تعالى: ﴿فكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيّباً واشكروا نعمة الله إن كنتم إيّاه تعبدون * إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغيرالله به فمن اضطر غير باغٍ ولا عادٍ فإن الله غفور رحيم * ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلالٌ وهذا حرام لتفتروا علىٰ الله الكذب إن الذين يفترون علىٰ الله الكذب لا يفلحون * متاع قليل ولهم عذاب أليم﴾.

من المحاور الفكرية التي حامت عليها سورة النحل هو: الثروة الحيوانية والطبيعية التي يستثمرها الكائن الآدمي في ظاهرة (الطعام) حيث كان الموضوع الأول في السورة وما بعدها يتحدث عن الأنعام والأسماك والنحل والنبات ونحوها من العنصر المتمثّل بالغذاء في زحمة الحديث عن معطيات الله تعالى. هنا ـ في المقطع الذي نتحدث عنه ـ يتقدم النص بعرض المحظور من الطعام وغيره مما حرّمه الله تعالى مقابل الطعام المحلّل الذي أشرنا إليه، وهذا يعني ـ من حيث عمارة السورة وتلاحم أجزائها هندسياً ـ إن موضوع الطعام من حيث كونه أهم محاور السورة من جانب، ومن حيث تقابل ما هو محللٌ ومعطىً حيال ما هو محظور من جانب آخر، يعني أننا حيال عمارة جميلة من

بناء الموضوعات وتجانسها، الطعام من حيث كونه معطىً، والطعام من حيث كونه محلّلاً مقابل ما هو محرمٌ، حيث تكفّل المقطع نفسه ببيان هذا التقابل الهندسي بين المحلل والمحظور، وذلك عندما استهلّ المقطعُ موضوعاته بقوله ﴿فكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واشكروا نعمة الله. . .﴾.

إن الحلال الطيب وكونه مرتبطاً بضرورة الشكر لِنعم الله تعالى لم يرد تفصيل فيه، إلا أن تفصيلاته تقدمت في أول السورة ووسطها كما أشرنا. . . لذلك اكتفىٰ المقطع بمجرد الإشارة حتىٰ يتحقق عنصر الاقتصاد اللغوي من جانب وحتىٰ يربط بين الموضوعات الموزعة في مقاطع متنوعة ومتباعدة من السورة من جانبٍ آخر، وهو ما عنيناه بجمالية البناء الهندسي.

والآن، خارجاً عن المبنىٰ الهندسي، يحسن بنا أن نتابع دلالة المقطع وما يطرحه من الأفكار.

المقطع أشار إلى الميتة ولحم الخنزير بصفتهما أحد أنماط الطعام المحرّم، كما ألمح إلى (الدم) أيضاً، وهو بالرغم من كونه ليس بطعام إلاّ في موارد استثنائية، بيد أنه يجسّد عنصراً مشتركاً بينه وبين الميتة ولحم الخنزير من حيث كونها جميعاً منتسبة إلىٰ ما هو (نجسٌ) من الأشياء. كما أضاف إلىٰ ذلك نمطاً آخر هو (ما أهلّ لغير الله) ويقصد به ما ذبح من الحيوان بغير الوجه الشرعي وهو غير المذكىٰ منه. والمهم، بعد ذلك. إن المقطع القرآني المذكور بعد أن أوضح النمط المحرّم من الطعام قبالة المحلّل منه، أورد استثناءً من قاعدة التحريم متمثلاً بقوله تعالى ﴿فمن اضطّر غير باغٍ ولا عادٍ فإن الله غفور رحيم﴾ حيث أن اضطرار الشخص بسبب حصر الطعام في المحظور وكونه لا بدّ أن يسدّ الجوع الذي لا مجال لتأجيل إشباعه ما دام حاجةً حيوية ملحة: حينئذٍ فلا مانع ـ في الحالات الاستثنائية المذكورة من التناول للطعام المحظور.

أخيراً، حذّر المقطع من مخالفة هذه التوصيات المتصلة بنمط الطعام

إباحة أو حظراً ﴿ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام الخ﴾ بصفة أنّ الإباحة أو الحظر محكومان بالمصلحة التي رسمها الله دنيوياً، وبصفة أنّ المخالفة عن ذلك لا ينسحب ضرره علىٰ المخالف صحياً فحسب بل يتجاوزه إلىٰ الضرر الأخروي ما دام عدم الالتزام بمبادىء الله يستاق الشخصية إلىٰ أن تتعرض للجزاء السلبي في اليوم الآخر.

إذاً، المقطع المتقدم تكفّل (من حيث الأفكار) بتوضيح ما هو محظور من الطعام مقابل ما هو محللٌ منه، كما أنه تكفّل (من حيث البناء الهندسي) بوصل الموضوعات بعضها بالآخر، بالنحو الذي تقدم الحديث عنه.

* * *

قال تعالى: ﴿إن إبراهيم كان أمّةً قانتاً لله حنيفاً ولم يكُ من المشركين * شاكراً لأنعُمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم و آتيناه في الدنيا حسنةً و انه في الآخرة لمن الصالحين * ثم أوحينا إليك أن اتّبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين * إنما جُعِل السبت علىٰ الذين اختلفوا فيه وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون * أدع إلىٰ سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين * وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خيرٌ للصابرين * واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تـك في ضيق مما يمكرون * إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾.

بهذا المقطع تُختَم سورة النحل التي بدأت بالحديث عن الساعة، وإنذار الناس، وكونهم مخاصمين مُلحّين في الخصومة ﴿خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين﴾، ثم تحدثت مفصلا عن الثروات الحيوانية والطبيعية التي سخّرها الله للآدميين. وخُتمت السورة بهذا المقطع الذي يتحدث عن إبراهيم، واليهود، والمجادلة، بالتي أحسن، والقصاص، والعفو، والصبر.

قد يتساءل البعض: ما هي الصلة الفنية بين هذه الموضوعات المختلفة من جانب وبينها وبين مقدمة السورة ووسطها من جانبٍ آخر؟.

إن أقصوصة إبراهيم(ع) تشير إلى أنه(ع) كان وحده مجتمعاً أو أمةً، وهذا من الوضوح بمكان إذا أخذنا بنظر الاعتبار أنّ مجتمع إبراهيم كان منحرفاً بأكمله بما في ذلك أقربهم إليه نسباً ونعني به: أباه، وحينئذٍ عندما ينفرد وحده بقضية الإيمان، ويجاهد المنحرفين وحده (قضية تهشيمه الأصنام ومحاكمته وإنقاذه) لا بدّ أن يكون ـ كما وصفه الله تعالى ﴿كان أمّة قانتاً لله﴾... وقد منحه الله ـ تبعاً لما تقدم ـ خصوصية وتميّزاً في رسالته وهي (الحنيفية) وأمر محمداً(ص) باتّباع مبادئها. والملاحظ أيضاً أن المقطع وصف ابراهيم(ع) بأنه (شاكر) لنعم الله (شاكراً لأنعُمه).

عمّارياً: تظل قضية (الشكر) واحدةً من أهم المحاور الفكرية لسورة النحل حيث عدّد فيها النصُ قضية النِعَم (الأنعام لحومها ومنتجاتُها، الأسماك، العسل، شرابه وشفاؤه للأمراض، الزرع، الزيتون، النخيل، الأعناب، وكل الثمرات... الخ). هذه النعم التي ورد ذكرها مفصلةً ومكررةً في السورة قد اقترنت بمطالبة (الشكر) حيالها، وهو أمرٌ يفسّر لنا سرّ التلاحم بين سمة «الشكر» التي خلعها المقطع علىٰ إبراهيم(ع) وبين مطلق «الشكر» الذي أشرنا إليه.

يُلاحظ أيضاً، أن المقطع عرض للسلوك الإسرائيلي في قضية (السبت)، كما عرض لسلوكهم في مقطع أسبق يتصل بتحريم بعض الطعام عليهم، وبانحرافهم في غمرة حديث النص عن معطيات الغذاء الذي شكل أهم محاور السورة كما قلنا ، والسؤال هو: ما هي الصلة الفنية بين السلوك الإسرائيلي من جانب، وسلوك إبراهيم من جانب آخر؟.

بعامة أن الشخصية اليهودية بصفتها أشدّ الشخصيات أو المجتمعات

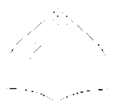
انحرافاً طوال التاريخ (منها موقفهم من رسالة الإسلام) حيث يتحدث النص عن المجتمع المعاصر لهذه الرسالة وكونه (خصيماً مبيناً): حينئذٍ فإن تسجيل مواقف المجتمع اليهودي يجيء في مقدمة التدليل علىٰ انحراف المجتمع المذكور. أما صلة ذلك بإبراهيم(ع) فقد جاء في سياق كونه(ع) (أمّة) وحده، وإلى أنه (ما كان من المشركين) وإلىٰ كونه(ع) (شاكراً لأنعمه تعالى) وإلىٰ أن اتباع حنيفيته موضع مطالبةٍ حتى للنبي(ص)... كل أولئك يجسّد أولاً السمات المضادة للسلوك الإسرائيلي (الخصومة، التمرد، الشرك الخ)، ثم يجسّد جانباً آخر هو كونه(ع) مقدمة (النَسَب) الذي يُعنىٰ الإسرائيليون بالانتماء إليه، ثم يجسّد ـ ثالثاً ـ أحد المواقف المتجانسة فنيّاً مع المحور العام للسورة وهو نِعَم (الطعام) الذي سخره الله للآدميين: فيما جاءت قضية(السبت) وصلتها بصيد الأسماك (وهي ظاهرة تنتسب إلىٰ الطعام) متجانسةً مع المحور الفكري للسورة مما يفسّر لنا واحداً من أسرار الصلة بين انتخاب قضية (السبت) دون غيرها من نماذج السلوك المتمرد عند الإسرائيليين.

أخيراً، طرح المقطعُ الختاميُ قضية (المجادلة بالتي هي أحسن) حيث تشكّل جواباً فنيّاً لمقدمة السورة التي وصفت الإنسان بأنه(خصيم مبين). فالمنحرف المتخاصم يقف علىٰ الضد منه: (الجدال بالتي هي أحسن) فكأن النص يريد أن يقابل بين مضادات السلوك المنحرف والسلوك الإسلامي.

يُلاحظ أيضاً، أن المقطع الختامي طرح قضية (القصاص) و(الصبر) و(العفو) **﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عُوقبتم به ولئن صبرتم لَهُوَ خيرٌ للصابرين﴾** وهي ظواهر تتصل بطرائق التبليغ لرسالة الإسلام، ونمط المواجهة لأعدائه، حيث أن مقدمة السورة طالبت المبلّغين بإنذار الناس **﴿ان أنذروا أنّه لا إلٰه إلا أنا فاتقون﴾** وحيث جاء الختام متحدثاً عن مستويات هذا الإنذار من

حيث صلته بمواقف المنحرفين ﴿واصبِرْ وما صَبْرُكَ إلا بالله ولا تحزنْ عليهم ولا تكُ في ضِيقٍ مما يمكُرُون﴾ .

إذاً، جاءت الخاتمة متجانسةً مع بداية السورة من حيث تلاقي موضوعاتها وتناميها وتقابلها وفق مبنىً هندسي بالغ الإحكام والجمال، بالنحو الذي تقدم الحديث عنه مفصلاً .



الفهرس